

Portrait of Gustav Nachtival, wearing a Nife *tobe* , before his return to Europe

فهرست المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان
962.7 سيد علي محمد ديدان، -1948
س.ر
رحلة إلى ودّاي ودارفور يناير 1873-1874م سيد علي محمد ديدان.-الخرطوم :
316 ص ، 24سم
ردمك :978-99942-56-02-0
1. دارفور- تاريخ - العصر الحديث.
2. دارفور - وصف ورحلات.
أ. العنوان.

رحلة إلى ودّاي ودارفور

يناير ١٨٧٣م - أغسطس ١٨٧٤م

الطبعة الثالثة مارس ٢٠١٣ م

رحلة إلى ودَّاي ودارفور

يناير 1873 - أغسطس 1874

تأليف : د. جوستاف ناختقال
ترجمه من الألمانية إلى الإنجليزية ألن . ب . فيشر
همفرى . ح . فيشر

تعريب الأستاذ / سيد على محمد ديدان المحامى

الفهرس

إهداء

× إلى روح الجد الكبير عبد الكريم صالح الجملي العباسي الذي نشر الإسلام والمعرفة حيث لا يذكر اسمه إلا مقترناً بلفظ «مجدد الإسلام الأسلم الإنسان».

× وإلى بدنته من بعده الذين حملوا راية العلم والدين .. وأخص منهم المرحوم الشيخ محمد ديدان الذي كرّس حياته في سبيل نشر علوم الدين واللغة وسط طلابه ومريديه.

× إلى زوجتي التي تحملت الكثير في سبيل إكمال هذا العمل.

× أخيراً إلى كل من عاونني بحرف أو برأي في سبيل أن يرى هذا الكتاب النور.

تقديم

لأدب الرحلات أو فيما وصفه البعض بدراسات المستكشفين دور كبير ساعد الاستعمار خلال القرن الثامن عشر الميلادي على خطواتهم الأولى في غزو أفريقيا وتقسيمها ولم يكن ذلك غريباً في إطار ذلك الفهم- وهو صحيح - أن يحول المنظمات العالمية ذات العلاقة باستراتيجيات التوسع الأوروبي، هؤلاء الرحالة من المغامرين الذين تشبعوا بالمعرفة مدخلاً للفرد- وعلى افتراض مجرد «المعرفة» - فإن ما توصل إليه هؤلاء الرحالة تم توظيفه-تماماً- بما يخدم أغراض التوسع الاقتصادي والسياسي عسكرياً أولاً وثقافياً ثانياً.

كان للسودان نصيبه المقدر من «المكتشفين» اعتباراً من القرن السادس وكانت قد ظهرت قبل الميلاد كتابات تاريخية - من جغرافي قدماء الإغريق عن النوبة وتواتر أمر هؤلاء عصر بعد عصر حتى كانت (نوباتيا) وما بها من المقرة وقلوعها وعلوة ونظمها محلاً للتعلق ولإثبات التاريخي. وللرصد الجغرافي وربط ذلك بما اعتمل من أحداث سياسية وتطورات اجتماعية وموارد اقتصادية. وذخرت كتب «الرحالة» من الأوروبيين بالمثير والكثير مما تعلق بالسلطنة الزرقاء، وأهلها من الفونج والعبدلاب، كما شملت المعلومات ممالك أخرى مثل تقلي والمسبعات ودارفور.

فحوى المعلومات التي توفرت للإمبراطوريات الأوروبية زادت من شهوة التوسع بكل مقاييس هذه الإستراتيجية فمضت تعد العدة لتنفيذ ما قدرته -(صيداً ثميناً)- القوى البشرية والموارد الاقتصادية بكل أنواعها، ولم يكن (الدين بعيدا عن ذلك) فقد ارتبط بترويج الاقتصاد (كما ارتبط بالتذويب) الثقافي ويقع ما سجله دكتور «ناختقال» في رحلة وادي ودارفور في إطار تلك المعلومات- الإستراتيجية- فقد قدمت الرحلة بتفاصيلها الدقيقة جداً عن الإنسان والمكان والزمان والنجاح والفشل.

دارفور في إطار ما قدمه الرحالة الطبيب- من وصف وتحليل يمثل حلقة حيوية لحركة التاريخ نهجاً، ومقتضيات الجغرافية، ودون تلك القراءة المتأنية تبدو كل محاولات الفهم بعيدة عن الواقع وقابلة للانهيار.

- القبيلة على مسلم تعاونها في القوة والضعف وعلاقته المباشرة بالسلطة السياسية (التحالفات، الموروثات السلطوية في الصراع على السلطة).
- التنظيم الإداري وعلاقته بعنصري السلطة والثروة.
- التنظيم الاجتماعي (قوى الضغط).
- التفاعل بين الموروث الديني والإسلامي وما سبقه من معتقدات.
- الجوار القبلي والسياسي (وما تعلق بذلك من موارد الزراعة والرعي).
- الهجرات القسرية التي ارتبطت بصراعات السلطة والثروة.
- التلاقح الثقافي الاقتصادي بين النيل وغرب السودان.

- الكتاب فيما أصف روعته في تقديم سيناريو حي للتاريخ السياسي والبعد الجغرافي لدارفور ووداي بشكل في حقيقته تقريراً ضافياً.

برع فيه هؤلاء الأوربيون ومن خلال دراسات الانثربولوجي التي تجاوز مجرد الوصف إلى اقتراح مداخل النفوذ.

أحسن المترجم "الأستاذ سيد ديدان" - فيما قام به - فقد أعطى النصوص لغتها الأولى وهي مسألة تكتنفها صعوبات أساسية من أهمها (الانفعال) بماذا يريد الكتاب أصلاً. وقد أفلح الأستاذ ديدان في ترجمة الترجمة وهي قدرة نادرة يستحق عليها الإشادة.

يقدم العمل- لمن يقرأ ملياً في تأمل وتدبر- مرجعية عملية بخلاف ما يحدث الآن على ساحة دارفور (فقد غابت حيوية الصراع واستمراريتها عن كل القرارات التي أتيحت للسلطة السياسية - وتبدد إرهاصات الظاهر وتطورها وخصائصها وتداعياتها) فيما قدم الكاتب من وصف وهو هنا يطابق - إن لم يفته - كتاب التونسي أي تشحيذ الأذهان.

الكتاب بترجمته تلك يمثل ركناً من أهم أركان معرفة الوطن فالتقدير لمن قام به من إتقان وتجرد وعلم، وللرجل في ذلك عشقه الخاص وهو عشق يحوله إلى واقع مقروء.

د. بركات موسى الحواتي

مقدمة

هذا السفر الذي بين يدي القارئ الكريم هو نتاج رحلة شاقة لرجل مغامر نمساوي الجنسية رمى بنفسه داخل مجاهل أفريقيا نابذاً حياة المدنية في أوروبا معرضاً نفسه لخطر الموت في سبيل العلم والمعرفة. وكان التساؤل الذي يثور في ذهني دائماً وأبداً، أترى لو لم يقم د. ناختقال بهذه المغامرة هل كان في الإمكان الحصول على هذه المعلومات الثرة؟ أعتقد أن الإجابة يتعين أن تكون بالنفي أو على الأقل فيما يتعلق بسلطنة ودّاي التي لم تسلط عليها الأضواء حتى الآن فيما عدا القليل من الكتابات التي لا تروي ظمأ القاري المهتم، وهكذا فإن ما يعتمل في النفس من مشاعر هو التوجه بالتحية لروح المؤلف ولكافة المغامرين والرحالة بمختلف ألوانهم ودياناتهم لما قدموه للبشرية من مشاهدات هي أعمق وأصدق من كتب المؤرخين التي ربما اختلطت الكتابة فيها بمشاعر وأحاسيس المؤلف.

لقد وقع هذا السفر في يدي أثناء تجوالي بالمكتبات بمنطقة البوستة بأم درمان وكنت قد أطلعت عليه عام 1974م بمكتبة معهد الإدارة العامة بالخرطوم ووقتها قررت أن أترجمه إذا ما وقع في يدي، وعندما عثرت عليه شرعت في ترجمته دون تردد لقناعتي بأنه كتاب لا غنى للباحث عنه خصوصاً في مجال التاريخ والاجتماع والجغرافيا وعلم الأجناس. وتعود أهميته لكونه يتطرّق لمعلومات يجهلها أكثر الناس مع إنها معلومات حيوية ومهمة وذات صلة بالكثير من الشئون الحياتية اليومية.

وعلى سبيل المثال، كنت أعتقد بأن الممالك التي نشأت في ودّاي ودارفور هي ممالك لقوم بدائيين في كل شيء، وبعد قراءة هذا الكتاب اتضح لي أن هذه الممالك كانت ممالك حقيقية في نظمها السياسية والإدارية بما لا يقل عما نراه الآن من أنظمة للحكم، وقد ترتب على نشوئها أن نشأت المدن والقصور المشيدة على أرفع فنون المعمار وفُصّلت الوظائف والرتب وتبعاً لذلك ارتقت الحياة الاجتماعية بوجه سوف لن يخفى على القارئ الكريم.

بالطبع فإن هناك عدة مدارس للترجمة، منها الترجمة الحرفية والتي من مزاياها أنها لا تغفل شاردة ولا واردة وتنقل من الكتاب حرفياً إلا أن مثل هذه الترجمة قد تفتقد الروح لأن خيال الكاتب الأجنبي ووجدانه يختلف عن خيال المترجم ووجدانه. ثم هناك الترجمة التي تأخذ الشكل الأدبي البحت، وفي رأي أن هذا النوع من الترجمة فيه الكثير من التغريب بالنص الأصلي مما يعطي القارئ انطباعا بأن العمل كل العمل من صنع المترجم لا المؤلف، إلا أن هذا القول لا يقدح في الكثير من التراجم الرائعة التي تضفي على النص الأصلي الكثير من الحيوية والنبض وقد تتجاوزه إمتاعاً واتقاناً.

أما بالنسبة لي فقد قررت أن أنتهج منهجاً وسطاً وذلك بأن أتجنب الترجمة الحرفية البحتة شريطة إلا أخرج عما رمى له النص الأصلي ما أمكن ذلك. ولهذا السبب فإن القارئ الكريم إذا ما أجرى مقارنة بين النص الأصلي والترجمة فسوف يكتشف بأنني لم أتجاوز ما

عناه المؤلف قيد أنملة اللهم إلا في أسلوب توصيل المعلومة واللغة الموظفة لتحقيق هذا الغرض، وأعتقد أنني بهذا النهج استطعت أن أحفظ النص الأصلي مع تجنب الجفاف والركاكة التي تفرضها الترجمة الحرفية.

وإذا جاز لنا أن نستعرض شيء من الأهمية التي اقتضت هذه الترجمة، فذلك لأن المؤلف تطرق لمجتمعين وصلا لدرجة عالية من المدنية والتقدم دون أن تحوي المكتبة العربية مراجع وافية عنهما بما يشبع نهم القارئ.

ولا يخفى على المراجع لهذا الكتاب مدى طغيان اللغة العربية على تلك المجتمعات بحيث أصبحت لغة الدواوين والتخاطب، خصوصاً وأن الوجود العربي كان حاضراً ومتغلغلاً في مفاصل كلتا السلطنتين.

ثم من الحقائق المهمة في هذا الكتاب هو الدور الرئيسي الذي قام به الجمليون أبناء صالح في تأسيس سلطنة ودّاي، إذ لم يقتصر الكتاب على إبراز معلومات عمومية فقط، بل أرّخ لكل سلطانٍ من حفدة السلطان عبد الكريم حتى عهد السلطان علي بن محمد شريف الذي كان ممسكاً بمقاليد الحكم إبان زيارة د. ناختقال.

لم يقتصر الكتاب على هذه المواضيع فقط بل أمتد ليبين جانباً من الخصال الحميدة للإنسان السوداني في ذلك الزمان مما يغرس في النفس الكثير من الشعور بالفخر والإعزاز ولعل أهم ما يميز هذا الإحساس هو ذلك الصدق والإخلاص الذي تعامل به الكثير من السودانيين مع المؤلف مثل حاج تنقا مثلاً الأمر الذي أجبر رجل أوروبي مثل د. ناختقال لكي يجعل من كتابه هذا فيضاً من الشكر والعرفان بالجمائل التي طوق بها هذا الرجل عنقه.

كذلك نجح المؤلف في كتاباته عن القبائل ونجح في إزالة الكثير من اللبس الذي ساد بعضها لدرجة ان بعض أسماء القبائل هي في أصلها أسماء لا وجود لها بخلاف أنها جرت على ألسنة الناس وربما يجد الباحث في مثل هذه الأحوال الكثير مما يعينه في توجيه منهج البحث للوصول للحقائق.

لا ينبغي أن ننهي هذه المقدمة دون أن نعطي شيئاً عن المؤلف وذلك استخلاصا من تقديم الترجمة الإنجليزية، وقد جاء فيها أن جوستاف ناختقال ولد في سكسونيا في الثالث والعشرين من فبراير 1834 وعمل كطبيب بالجيش البروسي بيد أنه سرعان ما تقاعد في العام 1862م بسبب المرض، ثم أقام بعد ذلك في تونس حيث عمل طبيباً للبيه.

خلال إقامته في تونس تمكن من تعلم اللغة العربية والإلمام بالكثير من مفاهيم الشعوب الإسلامية، وبينما كان يستعد للعودة إلى ألمانيا في أواخر عام 1868م كُلف بالقيام ببعثة لكيكوة عاصمة برنو على بحيرة تشاد وقد صادف هذا التكليف هوى في نفسه التواقة لكشف الستر عن بحيرة تشاد، وهكذا قابل التكليف بحماس شديد وكانت مهمة البعثة تتمثل في تقديم الهدايا التي تكرم بها الملك وليم ملك بروسيا لعمر بن محمد الكانمي كنوع من العرفان لحسن

معاملته لبعض الألمان إبان زيارتهم لبلاده.

بدأ د. ناختقال الرحلة من طرابلس في 1869/2/19م بمعية خمسة من الخدم أحدهم طباخ أوروبي وتسمى باسم «إدريس» بحسب ما درج عليه الرحالة الأوربيون، وصل مرزق عاصمة فزان ولوعورة الطريق بينها وبين كيكوة قرر السفر عبر تبستي التي هي جزء من جمهورية تشاد الآن والتي لم تكن قد وطأتها رِجل رَجل أوروبي حتى ذلك الوقت، ولكنه سرعان ما عاد أدراجه لمرزق بعد ان تعرَّض للأسر وخطر الاسترقاق.

بدا د. ناختقال الرحلة مجدداً من طرابلس في 1870/4/11م إلى كيكوة حيث انضم لقافلة يقودها المدعو محمد بوعيشه وكان مبعوثا من قبل حاكم طرابلس لشيخ برنو في مهمة خاصة بتكليف من سلطان القسطنطينية، وعند بلوغه كيكوة استقبل استقبالا حارا من قبل الشيخ عمر والذي عاونه للقيام برحلة استكشافية لسلطنة باقرمة شملت كانم وبركو وباقرمة، وبقى بكيكوة حتى أمضى فصل الشتاء وفي أوائل مارس 1873 غادرها في طريقه إلى ودّاي ثم دارفور والأبيض حتى وصل القاهرة في عام 1874م.

أخرج د. ناختقال ما قام به من رحلات في أربع مجلدات باللغة الألمانية والترجمة التي بين أيدينا تقتصر على المجلد الرابع الذي يشمل زيارته لودّاي ودارفور، ولعل التشويق والإثارة التي يجدها القارئ بين دفتي هذا الكتاب ترفع من قدر المؤلف ومكانته وتضعه في مصاف أحسن المستكشفين لدرجة أن وصفة الرحالة كارل كم بأن د. ناختقال إذا لم يكن أفضل المستكشفين لأفريقيا وأكثرهم فائدة فهو دون شك أحد البارزين فيهم.

ولقد كان لموته المفاجئ في 20/ أبريل 1885م أثراً سيئاً في نفوس محبيه حيث حُرِم العالم من رجل صميم كرس جزء من حياته لخدمة العلم والإنسانية جمعاء بجانب ما قدمه لبلاده من جليل الأعمال سواء قبل هذه الرحلة أو بعدها.

ختاماً لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للسادة ألن فشر وهمفري فيشر اللذان توليا ترجمة هذا الكتاب من الألمانية إلى الإنجليزية مما أتاح لنا فرصة الإطلاع والمعرفة كما أكرر شكري لنخبة من الأساتذة الذين ساعدوني في مجال المراجعة والتصويب مع الكثير من عبارات التشجيع التي دفعتني لإخراج هذا السفر. كما لا يفوتني أن أزرف دمعة سخية على روح أخي وصديقي الأديب الكبير زهاء الطاهر الذي مد لي يد المساعدة بالنصح والتصويب بباعث من عشقه لهذا الكتاب.

أختتم هذه المقدمة بأن هذه المحاولة هي خطوتي الأولى وقد تشجعت لتقديمها للقارئ وفي ذهني الرسالة التي تلقاها الفنان الهولندي فان جوخ من أخيه وفحواها: (أنك إذا أردت النجاح أخطيء ولا تخشى الخطأ حتى تبلغ الصواب)، وعليه إذا تضمن عملي هذا أي خطأ فليعذرني القارئ الكريم لأن هذه محاولتي الأولى وأسأل الله التوفيق والسداد.

المترجم

تمهيد

كما نوهنا فإن المجلد الذي يحوي رحلتي ودّاي ودارفور وهو أربعة مجلدات وسيبدأ د.ناختغال رحلته من كيكوة عاصمة برنو التي قضى فيها شتاء 1873م.

ونحن الآن في اليوم الأول من مارس 1873م والقافلة الآن في الساحة العامة لمدينة كيكوة في انتظار حاديها لإعطاء الإشارة لبدء الرحلة فلننتقل إلى هناك لنشاهد لحظات الوداع وبدء السفر.

الرحلة إلى وداي

1 مارس إلى 16 أبريل 1873

غادرنا مرافقي في الرحلة- عثمان- في الصباح الباكر على أن الحق به في بلدة مونقونو إلى الجنوب الغربي من نوقورنو. وبدأت في الإعداد لمغادرة بلاد برنو بعد وداع مؤثر من أميرها المضياف الذي شملني بأريحيته وفضله. وأصبحت الجمال مجهزة عند منتصف النهار، وأنا وسط حشد كبير من سكان المدينة، ودعت كيكوة[1]. وفي الثالثة عصراً وكان برفقتي أحمد -مرشدي- لموقونو والشريف المدني، وقد تجلى في هذا الوداع لطف ونقاء شعب برنو. إذ تجمع مئات الأصدقاء المقربين والمعارف لوداعي، وبدا عليهم كما لو أنني قد عشت بينهم من أمد بعيد، وقد عبروا بفيض من الود والتعاطف عن تمنياتهم لي برحلة سعيدة وعوداً حميداً لبلادي، وأحسست وقتها أنهم قد تخلوا عن تعصبهم الديني، على أنني لمست أن أحمد بن إبراهيم والذي هو من أقرب المقربين لي، بدا أقلهم إظهاراً لمثل هذه المشاعر وظل متماسكاً تماماً.

بعد سير مضن على ظهور الجمال جنوباً وعبر إقليم أجرد، كطبيعة المناطق حول كيكوة، وصلنا في التاسعة والنصف ليلاً إلى المنطقة المستهدفة لمسير ذلك اليوم، أدركت الجمال ذلك المكان قبلنا، واستأنفنا رحلتنا قبل بزوغ الفجر.

وتعتبر الأيام الأولى من المراحل الصعبة في مثل هذه الرحلات إذ يتعرّف خلالها المسافرون على طبائع جمالهم والطريقة المثلى للتعامل معها في الركوب والتحميل مما يسهّل المراحل التالية نسبياً.

بدا عثمان دائب الحركة جاداً في السير دون كلل ابتغاء العودة إلى أبشي في زمن وجيز، كان ضمن قافلتنا المعلم أبّو من عرب الشوا[2] الذي أبعده السلطان من وداي واستقر بعد ذلك في كيكوة، ويرافقنا أيضاً رجل شنقيطي من عرب تنبكتو مقصده بيت الله الحرام. إلى ذلك كان هناك بعض البرنو من مواليد وداي وعدد من الحجاج من قبيلتي الهوسا والفلاتة. وقد تزوج المعلم أبّو أثناء إقامته في وداي من امرأة من قبيلة التنجر تسمى «هيمات» وكانت تمدني باللبن في كيكوة، وقد فارقها مرغماً، طمعاً في استعادة عطف وثقة السلطان. وصلنا قرية «يدي[3]» السالفة الذكر بعد خمس ساعات وتجاوزناها لندرة الماء بها، ثم حططنا رحالنا بعد أن سرنا ساعتين بجوار بركة على مقربة من أحدى قرى عرب الشوا تسمى «موقلام». كنا متجهين ناحية الجنوب والجنوب الشرقي حتى «يدي»، ثم يممنا بعد ذلك ناحية الشمال الشرقي، ورغم أن الأرض لا زالت رملية إلا أنها صارت تكسوها الأشجار والنباتات وتوفر الغذاء للجمال والتي

1- عاصمة برنو وظلت كذلك حتى غزاها السلطان رابح فضل الله السوداني في 1893/5/9م ولانعدام الماء وبناء على نصائح مستشاريه نقل العاصمة لديكوة، راجع لنشأة لعبد الرحمن عمر الماحي.

2- شوا: عربي بلغة برنو

3- يبدو أن ذكرها قد ورد عند معالجته لرحلة برنو.

كانت في حاجة إليها.

تغير لون التربة في اليوم التالي لمغادرتنا مقلام إلى السواد والذي يسمى (تربة فركي) وتزايد ظهور أشجار الدوم أكثر من ذي قبل. وصلنا نهر «مسترام» بعد مسيرة خمس ساعات من عبورنا لأحد روافده الضيقة، والذي يتكوّن من بضع برك مائية. وكان عرضه . آنذاك حوالي الخمس وعشرين خطوة وبعمقٍ لا يقل عن خمسة أمتار.

وتجدر الإشارة إلى أنه كان مجدباً تماماً في مثل هذا الوقت من السنة الماضية. هذا ولا زلنا حتى هذا الموضع متجهين نحو الشمال الشرقي عابرين قرية «لقارواء الصغيرة وهي جزء من قرية نقالا واتخذنا مقيلنا جوارها لدى اشتداد حرارة النهار. ثم تيامنا، بعد ذلك، مدن مارتي ومسين والتي رأيناها قبل ذلك عند عودتنا من باقرما بالإضافة إلى قرية ديبوا التي كانت تقع على يسارنا.

يقع المكان الذي توقفنا به للراحة إلى الجنوب من فوجاري ثم استأنفنا سيرنا بعد الظهر نحو المشرق لمسافة قصيرة لأنه كان علينا عبور نهر مبوتكرا الزاخر بالمياه، والذي يبلغ عرضه حوالي المائة خطوة ويبلغ الماء فيه سرج الحصان عمقاً.

وقد أضرت الطبيعة المستنقعية بحيوية الخيل وشلت حركة أحد خيول عثمان عن العمل مما حدا بنا لنصب مخيمنا على مسيرة نصف الساعة إلى الجنوب الغربي من هوبيو وهي قرية (الكلاشيلا)[1] كوفتيرا جرمه والذي تعرَّفت عليه قبل ذلك عند عودتي من باقرما فكان أن قمنا بزيارة ذلك الرجل الهام والذي أقام مأدبة فاخرة ترحيباً بنا. غادرنا بعدها ميممين شطر الجنوب الغربي فوصلنا بعد عدة ساعات قرية جيمالك ذات المائة كوخ، والتي اجتزنا منها نهر مبولو عبر مخاضه بعرض ستين خطوة وبعمق متر واحد، يتكون هذا الرافد الصغير من برك متقطعة ويُسمى «مبولو جني» أي مبولو الصغير. ويشكل المسترام ومبولوكرا – أي مبولو الكبير– فروعاً لكمود فو مبولو والذي يبدأ انحداره منه من منطقة ديوكا في أقصى الجنوب.

مررنا بنقالا في الصباح وقام الخدم باستبدال ما تبقى لنا من الودع وهو العملة المتداولة في السوق للحصول على الذرة.

اتجهنا من هناك شرقاً حتى وصلنا قرية مكاري والتي تبدو كأطلال، ثم منها إلى قامبارو الواقعة على شط قامبورام والتي وصلناها عند منتصف النهار، وهي الأخرى طللية وناطقة بالبؤس، ولا تتعدى أكواخها الخمسين وقائمة على دكة، شأن القرى في إقليم كتكو ذي الأمطار الغزيرة.

وتستلقي قرية قمبارو على أحد المنحنيات الحادة المنتشرة على النهر والذي تقع على الضفة الأخرى منه قرية بيكاريري إزاء قمبارو، ويسود الاعتقاد ان هذا النهر يأتي من إقليم مسجو ويرجح انه أحد فروع نهر لوقون وهو بعرض مائة خطوة وذو تيار راكد يعبره الناس والدواب

1 . الكلاشيلا رتبة عسكرية لدى البرنو وهم المكلفون بجمع الضرائب مع الملا وية الغزو ويتقدمون الوحدات العسكرية التابعة لهم، وكوفتيرا جرمة هو شاغل الوظيفة وقتها، راجع عبدالرحمن عمر الماحي المرجع السابق.

والوحوش سباحة، وهذا النهر ذو طبيعة بهيجة أخاذة.

وترفرف فوق مستعمرة الخضرة هذه أسراب البط وطيور أبو السعن والغرانيق وأبو منجل وغيرها من الطيور النادرة.

ثم عبرنا نهر «وشم كُراء» في فجر 5 مارس من شرق قرية المكاري الصغيرة «نقيف» وقرى نجابا وقوبيج ويبلغ عرض النهر ثلاثين خطوة وبعمق متر واحد، ثم مررنا بعد ذلك بنهر «وشم قانا» وهو أكثر ضيقاً من سابقه وإن كان أكثر عمقاً منه، ثم اجتزنا غابة كثيفة مارين بقرية فولو وبعد مسيرة ثمان إلى تسع ساعات أقمنا معسكرنا في الخلاء.

تشكل النهيرات البطيئة التي عبرناها منافذ لبحيرة تشاد وتسمى (بالرجل) [1] وتنتشر بالمنطقة أشجار الكرنو والطلح غالباً، مع القليل من السنط والهجليج والسرح ويتخلل ذلك فوح أزهار شجر الهشاب. أما أكثر من استفادوا من هذه المناطق فهم من يسمون بالكربينة، الذين استغلوا الأشجار كحواجز يدفعون إليها الغزلان التي تتكاثر أعدادها في هذا المكان.

وكان علينا أن نعسكر في اليوم التالي في مدينة «المكاري» والتي يُطلق عليها المسافرون «المكاري الأولى»، وذلك لأن بعض أفراد القافلة كانوا يبتغون صبغ ثيابهم في مافيت.

يجري عند القرية التي تقع خلف كومودوقو أهم رافد لنهر لوقون والذي ينساب جنوباً من عند ملتقى لوقون وشاري ويتراوح عرضه ما بين مائة وخمسين ومائتي خطوة، ولا يتجاوز عمقه على الجانب الغربي نصف المتر أو المتر أما في جانبه الشرقي فيتعذر التنقل فيه بدون استخدام القوارب في الوقت الذي يمكن فيه عبور نهر قمبورو عن طريق أطواف الفلين والذي يسمى أيضاً المنبج، وقد وجدنا هنا قوارباً من النوع المعتاد استخدامه في لوقون وقلفي، ويبلغ عدد سكان المدينة حوالي الأربعة ألف نسمة وهي ذات هيئة خربة شأن اغلب مدن مكاري ويُوجد بها حصن صغير، ويُعتبر صبغ الملابس الحرفة الرئيسة للمواطنين في أنديقو ويتفوقون على كافة مواطني كيكوة، ويقوم في مافيت رئيسان، أحدهما «ماي» أي الأمير وهو الممثل للسلطة العليا وما تمثله من أمجاد سالفة سبقت الاستقلال، والآخر هو «الأليفه» وهو الحاكم الذي يرعى مصالح برنو. ويُوجد بالمدينة سوق عامرة يرتادها ما بين خمسمائة إلى ألف شخص وتعرض فيه كميات قليلة من الدخن والذرة الشامية وثمار الكرنو[2] والقطن إلى جانب الماشية والسمك المجفف، وتستخدم لفائف الأقمشة القطنية كوسيط لتبادل السلع، إضافة للكحل والكميا والخرز وما شابهها، قابلت في هذه المدينة أحد رفاق السفر السابقين وأهداني رأساً من الملح الذي يستخلص من رماد أحد النباتات، وخلال موسم الأمطار تكون المدينة محاطة تماماً بالمياه فيستخدم القادمون، وأكثرهم من عرب الشوا، القوارب للوصول إليها.

لم أتمكن من المغادرة في اليوم التالي إلا بعد الظهر لبطء عملية صبغ الثياب، وسرنا لبضع ساعات نحو الجنوب الشرقي ونزلنا قبل العصر جوار أحدى قرى عرب الشوا.

---

1. الرجل مكان تجمع المياه.
2. نوع من النبق كبير الحجم الذي ثمرة أشجار السدر.

وصلنا مدينة «ولجي» في السابع من مارس بعد أن أمضينا خمس ساعات من السير باتجاه الجنوب الشرقي، وهي مدينة كبيرة تحت إدارة أحمد بن إبراهيم، وعبرنا نهر أبو ديول أحد فروع نهر شاري، وهذا النهر – على ما يُروى – يتلاشى تدريجياً قبل أن يبلغ بحيرة تشاد. يبلغ عرض هذا النهر حوالي الثمانين خطوة ولا يتجاوز عمقه ثلثي المتر وهو مغطى تماماً بالقصب، تربة هذا الإقليم رملية تغطي طبقة عضوية خصبة وتنتشر فوقها برك المياه.

وصلنا مدينة «قلفي» في اليوم التالي بعد أن سرنا ثلاث أو أربع ساعات باتجاه شرق الجنوب الشرقي، و تقع على نهر شاري الذي عبرناه عند الموضع الأهدأ منه والذي يسمى «أبو نجاركا» والذي يبلغ عرض النهر فيه حولي الستين خطوة والعمق متراً واحداً. وهنا عند «قلفي» على نهر شاري كانت نهاية الجزء الأول من رحلتنا وهي مرحلة القطاع التابع لإقليم برنو، أما الجزء الثاني من الرحلة فسيكون عبر المنطقة التي تمتد من نهر شاري حتى بحيرة فتري، وهي منطقة قليلة السكان، وبالتالي أصبح ضرورياً أن نتزود بالذرة وقد كنت في حاجة لكمية من الحبوب للخيول الثلاثة.

حطت قافلتنا جنوب المدينة بالقرب من نهر شاري مزمعين مواصلة رحلتنا في الغد. ذهبنا في الظهر لتحية «الأليفا»، حيث يُوجد هنا أيضاً قطبا الإدارة الثنائية، الماي والأليفا. وإذا كانت السلطات في مافيت يهيمن عليها الماي فإننا نجد في قلفي سيطرة شبه كاملة للأليفا. وينتمي الأليفا من ناحية الأب إلى قبيلة عربية "أولاد بو خدر" أما والدته فمن قبيلة المكاري، وهو شخص ذكي ومحبوب وقد خلق لنفسه في السنوات الأخيرة مكانة متميزة بولائه وإخلاصه لسلطان باقرما.

تعد المدينة من أجمل مدن المكاري، لا لأنها تتميز بمتانة جدرانها كتلك التي في رصيفتها كيكوة، بل لأن دورها اقل خراباً – فحسب – من أكثر قرى برنو، وهيئة مبانيها الطينية أما أن تأخذ الشكل الدائري بسقف مخروطي من القش، أو تأخذ المباني الأكبر هيئة الحصن الذي تقوم الأبراج على أركانه، وتطل من حيطانها شرفات تتسم بالجمال المعماري ومبانيها عالية ومسقوفة على هيئة الجملون كالتي رأيتها في لافوت.

لا يتجاوز عدد السكان في قلفي الثمانية آلاف نسمة ولكن يمكن القول إنها مأهولة بالسكان قياساً على "نقالا".

وجدنا أليفا على مصطبة مرتفعة يسميها البرنو "ديجلي" وهي مغطاة ببساط يُعد بمثابة قطعة الأثاث الرئيسة في غرفة استقباله التي هي أشبه بالمصلى وتقع أمام الدار مباشرة ومسورة بالقش.

عندما نقلنا للأليفا تحيات أميره الشيخ عمر، نزل عن بساطه وأنزل قلنسوته القطنية من على رأسه وظل يردد «أطال الله عمر سيدنا الشيخ» وذلك قبل أن يبدأ أي حديث معنا. أمضينا بقية اليوم في شراء القمح الذي يكفي حاجة الخيول.

شرعنا في فجر العاشر من مارس في عبور النهر واستكملنا ذلك في منتصف النهار، كان عرض النهر كعرض الراين[1] في كولون وارتفاعه بين الثلاث والخمس أمتار.

سرنا في اليوم التالي لساعات قليلة نحو المشرق حتى قرية شيخ صالح من قبيلة أولاد بو خدر من جنوب بحيرة تشاد. ولم نجد قرى مأهولة بالسكان على طول مسيرتنا من شاري حتى قرى كوكا الجبلية. أما ما صادفناه منها فقد كان متناثرا هنا وهناك ويسكنها عرب الشوا الذين أجبرتهم ظروف حياتهم للإقامة فيها والطريق إلى قرى أولاد بو خدر ليس مأموناً ولا يتمتع بسمعة طيبة ويُحذر السفر فيه على قلة أو إنفراد. كان طريقنا يخترق غابة كثيفة الأشجار والحشائش بدرجة لم أشهدها من قبل، فإلى جانب أشجار الصمغ[2] التي سلف ذكرها، يُوجد الكوك بأنواعه المختلفة والكرنو والسدر وما يعرف لدى العرب بنبق الفيل ذي الثمر الحامز، والانقانو، والأخير من أنواع السنط وينتشر في المناطق الصحراوية ويتميز بخصائص فريدة حيث يتبيّن تواجده عن توافر مياه قريبة من سطح الأرض، وهنالك مثل سائر بين عرب المنطقة ومفاده « إن من المخجل أن يموت الإنسان من العطش مع وجود الأنقانو بجواره».

بنت طيور الحبالك (أم دلي دلي) أعشاشها على أغصان تلك الأشجار وذكرتني بشجر الهجليج في كيكوة محط الطيور المهاجرة.

يغطي الأرض قصب العدار الذي تصنع منه أغطية الأطباق وتؤكل بذوره الحمراء في سني الشح، ويُوجد أيضاً بطول الطريق نبات ذو ملمس خشن يسمى «تيبي» ويستخدم في تبطين سروج الجمال، وكذلك ينتشر نبات «الأركالا» وهو نوع من اللبلاب. وتصلح بذور الحشائش كغذاء للإنسان. تجاوزنا قرية عسلة التي تبعد نحو ساعة من نهر شاري، كما تقع قرية رواجا إلى الشمال من طريقنا.

الأرض رملية وكثير من الأماكن لم تجف بعد. نفذ الدخن الذي تتغذى عليه الدواب ولا تتوفر هنا إلا الذرة الشامية في قرية أولاد بوخدر. ويمكن شراء الدجاج بسعر زهيد، وهو قرطاس ورقي بسيط مما يستخدم للكتابة ويُعد عملة متداولة بينهم.

سرنا في اليوم التالي لتسع ساعات في طريق منحنٍ فوصلنا لمكان يقع في الجنوب الشرقي لعرب دقينة وقرية شيخ موسى. تبدو الأرض مستوية ومُغطاة بمياه الأمطار التي هطلت مؤخراً وذات شجيرات كثيفة. وكنا قد عبرنا من قبل نهر كمودوقو الذي يكسو ضفتيه نبات السمار ويبلغ عرضه ثماني خطوات وبعمق متر واحد ثم عبرنا نهراً آخراً في منتصف النهار له نفس العرض ولكنه أكثر ضحالة وذي قاع مستنقعي.

وكلا النهران يبدون كرافدين من روافد نهر شاري، وتظهر في الوادي بن هذين النهرين آثار الزراف والأفيال، ويبدو أن عرب دقينة الذين تمتد مراعيهم حتى حدود بحر الغزال قد بدأوا النزوح تدريجياً إلى نهر شاري، ومالوا من الترحال إلى حياة الاستقرار، و أدى هذا

1. نهر في ألمانيا.

2. يقصد شجر الهشاب.

التغيير في نمط الحياة إلى انتشار وباء السل الذي قضى على مواشيهم على مدار السنوات الأمر الذي كان من أثره استقرارهم.

تدعي هذه القبيلة شرف الانتساب لعلي بن أبي طالب[1]، أحد أقرباء الرسول صلى الله عليه وسلم، ومما يدعوا للدهشة لون بشرتهم الفاتح. وكنت قد سمعت بقوتهم وثروتهم في دار برنو وباقرما، و كانوا إلى ماض قريب قادرين على الدفع بألف فارس للميدان إلا أن عدد فرسانهم الآن لا يتجاوز مئات قليلة. وقيل أن شيخهم الأكبر «شيخ البحيري» لم يسر في أيام مجده على قدميه من خيمة لأخرى. أما الرئيس الفعلي للقبيلة هو الآن شقيقة الأصغر «شيخ موسى» وهو رجل ذو نفوذ قوي ويتمتع بمكانة سامية لدى سلطان وداي، ويمكن القول أن كل إقليم شاري يخضع لهذا الشيخ. وقد أهدى هذا الشيخ بقرة لمرافقي عثمان رغم ندرة المواشي.

أمضينا اليوم التالي لدى دقيقة انتظاراً لمبعوث سلطاني يُسمى لدى وداي بالكرسي[2] كان يرغب في الانضمام للقافلة. سرنا بعد ذلك أربعة أيام في إقليم غير مأهول وعلى الرغم من توافر المياه إلا أن أماكن تواجدها يقتضي الخبرة والتروي في اختيار الطريق. وتحركنا في اليوم الثالث بعد الظهر، ورغم أن اتجاهنا كان متذبذباً إلا أننا كنا ننحو نحو الشمال الشرقي بصورة عامة وذلك حتى مغيب الشمس. بعدها نزلنا على ضفاف نهير يسمى مشطور ويُقال أنه ينبع من بحيرة تشاد.

عبرنا نهر سيري في بداية اليوم التالي والذي بدت مياهه هادئة وقد يكون هذا النهر رافد من روافد بحيرة تشاد وقد يصل إليها من ناحية الشمال. ويبلغ عرض نهر مشطور عدة خطوات ومجراه ذو طابع مستنقعي وترتفع على جانبيه الأشجار الباسقة. وتنمو بالقرب منه أعشاب «النال» التي يسميها الأهالي في برنو «سقيدي» ويسميها عرب الشوا «شرقانية» وتستخدم سيقان هذه الأعشاب في نسج الزرائب وبناء الأكواخ وتصنع أقلام الكتابة من أجزائها السفلى.

بعد ان انضم إلينا مندوب السلطان وألحق بالقافلة مواشيه التي جمعها من عرب دقيقة، بدأنا المسير في الرابع عشر من مارس عصراً وجدينا في السير نحو الشمال الشرقي حتى منتصف الليل.

ومما اضطرنا للسير الليلي وجود عدد كبير من الحجاج من قبيلتي الهوسا والفلاتة وهم لا يملكون ركائب لحمل متاعهم ولا قرب ماء ولا يمكنهم السير في غير تلك الأوقات المحببة من اليوم. ولم نكن نرغب في ذلك إنما اضطررنا اضطراراً. أفضى بنا السير إلى غابة من أشجار الدوم واللبان والأراك الفواح الذي يعطر المكان.

سرنا خمس ساعات إلى الشمال الشرقي عبر غابات كثيفة من أشجار الدوم أوصلتنا إلى جدول من منابع بحيرة تشاد، وظهرت لنا علامات هذا النبع الهائل متمثلة في أشجار كثيفة بادية على الأفق طوال سيرنا. وتبدو المياه المنسابة ببطء وكأنها تجري من الشمال للجنوب

1. ابن عم الرسول محمد وصهره.
2. وظيفة إدارية يبدو أنها كانت شائعة حيث استخدمها السلطان إبراهيم في مخاطبة أحد زعماء حمر- أنظر الملحق الثاني.

ولتشكل مسبحاً للأسماك الصغيرة.

كان مندوب السلطان لا يملك خيمة، بل يصطحب أثاث منزل مكتمل، وقد أحاط مكان نزوله بسياج دائري من الأعمدة الخشبية لفت بقماش قطني. أما عثمان فكان يملك سريراً خشبياً منسوجاً بشرائح من الجلد[1] ويعرف «بالعنقريب» و يستخدم في وداي ودارفور ومناطق النيل.

شعرت بعدم جدوى خيمتي الكبيرة، والتي يصعب نصبها، نسبة لزوال مفاجآت هطول الأمطار الليلية ولتوافر ظلال الأشجار الواقية من الحر. أخيراً وصلنا بحر الغزال في 16 مارس والذي بقدر ما كنت متشوقاً لرؤيته أصبت بخيبة أمل حال رؤيتي له وعلى الرغم من أن النهر هنا قريب من منبعه في بحيرة تشاد ومترع بالمياه منذ بداية هطول الأمطار، إلا أن التيار لا يدل على اتجاه هذا النهر اللغز.

كان ذو مظهر خامل ولا يمكن متابعة اتجاهه وهو منطى على جانبية بالأشجار الكثيفة كما لا يمكن الوقوف على مجاريه وتحديدها، وقد وصلنا إليه بعد مسيرة ساعتين إلى الشرق وسرنا بمحاذاته لعدة ساعات داخل غابة كثيفة تحيط به وتعج بآثار الجاموس والزراف ثم ينحرف النهر ناحية الجنوب قبل أن يتخذ مجراه شمال الشمال الشرقي.

يقع أرخبيل كاركا في بحيرة تشاد إلى شمال الشمال الشرقي من هذا المكان الذي يلتقاه مع تقاقا القريبة من منبع بحر الغزال عند بحيرة تشاد. اقتربنا من المكان الذي سيفارقنا فيه العديد من رفاق الرحلة والذين ينوون التوجه شمالاً إلى كانم. وعند انتصاف النهار نزلنا بقرب النهر في مركز أم دخن[2] المعروف ووجدنا آثار معسكر يخص قبائل الكريدة وهم من قبائل القرعان ودازا بحر الغزال والذين حلوا بهذا الإقليم بعد انسحاب دقينة ونزوحها غرباً لقلة مواشيهم، واتجه طريقنا إلى الشمال الشرقي حيث يبدو أن بحر الغزال قد اتخذ طريقه النهائي. كانت الرياح الشمالية الشرقية تهب بقوة جوار مجرى النهر.

وصلنا إقليم الكارا بعد خمس ساعات، الأرض مسطحة واختفت التربة الرملية لتحل محلها تربة سوداء مشققة. وأصبحت المنطقة جرداء قاحلة عدا القليل من أشجار الدوم والكرنو والهجليج[3] إضافة إلى شجيرات الطندب العارية من الأوراق والتي تتناثر هنا وهناك.

ازداد جفاف المنطقة وصار بحر الغزال وروافده يتراءى للناظر من خلال الأشجار والأعشاب المنتشرة حوله. ينحدر الجدول الذي نزلنا بجواره ـ في إقليم الكارا ـ بوضوح من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، بدأت الأرض في الارتفاع تدريجياً إذ كنا على مقربة من خط تقسيم المياه بين فتري وشاري.

عبرنا الإقليم المعروف ب «فششو» بعد أربعة عشر ساعة من المسير ناحية الجنوب الشرقي

---

1. يسمى عنقريب القد.

2. قرية سودانية تقع على حدود السودان مع تشاد وأفريقيا الوسطى.

3. الأمليح.

واجتزنا بعد ذلك دروب متعرجة في منطقة متوسطة الشجيرات ذات تربة رملية لكنها تنهرت إلى تربة جرداء صلبة كحال التربة في كانم.

مررنا بثلاثة مجموعات جبلية منفصلة من الصخور الجرانيتية يتراوح ارتفاعها بين الثلاثين والخمس والثلاثين متراً وتنتشر تحتها أكواخ ومن بينها أكواخ قرية نقرة على سفح المجموعة الأولى.

بدا لي تعداد السكان أقل مما كنت أتوقع وعلمت انه كان أعلى من ذلك إلا أنه تأثر بهجمات وداي المتتالية. يبلغ عدد الأكواخ حوالي المائتي كوخ. يتكوّن سكان نقرة من الكوكا والبلالة الذين يتحدثون لغة مشتركة مع بعض الإلمام باللغة العربية، وهم على حالة من التعايش المنسجم.

تبدو الوسامة على وجوه الأهالي ولونهم أسود مشرب بالحمرة، وتميل نساؤهم إلى البدانة وذاع صيت جمالهن على نطاق إقليم ودّاي ويكشف أسلوب تصفيف الشعر لديهن عن ميل باد للتأنق، ويتم ذلك بأن تجدل ضفيرة غليظة من مقدمة الرأس إلى مؤخرة الرقبة ثم ترد الضفيرة إلى بدايتها وتحزم بأشرطة أو تضم في شكل عقدة. ويتدلى منها على الخدين عدد غير محدود من الضفائر الدقيقة التي تبلغ العشرين أو الثلاثين سنتيمتر طولاً، وعلى الوسط بين الضفيرة الكبيرة والضفائر الصغيرة تحبك ضفائر أكثر دقة وروعة.

يثقب الأنف من الجانب الأيمن ويوضع عليه فص من المرجان أو حلقة من الفضة أو النحاس وربما قطعة معدنية أو حبة خرز، ويستخدم الخرز الكهرماني بمختلف الأحجام لتزيين العنق وهو أمر شائع بين القبائل العربية.

أجبرنا نقص الزاد على ابتياع مؤنتنا من هذا المكان الذي يشق الحصول على كميات كبيرة فيه بخلاف الحال في برنو، وذلك لأن المعروض من الحبوب كانت تقوم ببيعه النساء بحفنات صغيرة ويرفضن أي عرض لتغيير هذا النمط التقليدي في البيع باعتقاد أن هذه الطريقة في البيع تحقق لهن أعلى قدر من الأرباح.

وفي برنو حيث تُوجد أعداد معتبرة من القبائل العربية بجانب المكاري في ديار الكنكو فإن الوسائط المقبولة في التعامل التجاري هي الكمبا والودع والكحل والذي يُطلق عليه الكانوري اسم «سنتريم».

تعشق نساء العرب الخرز كذلك لكنهن يحسن الاختيار حسب متطلبات الموضة. تقل الرغبة في الودع والشطة التي تسمى كلكات في الجنوب الشرقي لبرنو وتفضل كعملة الكمبا والكحل. ارتفعت أسعار الشطة بعْد عبورنا نهر شاري، ويستبدل عند عربان دقينة قرطاس ورق الكتابة بدجاجتين. وتزداد الرغبة في نقرة والقرى الجبلية الأخرى في الكمبا والكحل والشطة كوسائط للتبادل.

تشح المياه في تلك القرى الجبلية وآبارها عميقة الغور وقد رفض الأهالي سقاء ركائبنا وسمحوا لنا على مضض بملء بعض القرب.

تحركنا قبل سويعات من المساء لننال قسطاً من الراحة ليلاً على أن نستغل ساعات البرودة بقدر ما يمكننا حيث يقل العطش والحاجة إلى الماء.

بدأنا سيرنا شرقاً وتحولنا أثناء الليل إلى الجنوب الشرقي. تبدو عدة مجموعات جبلية على مسيرة يوم جنوب الطريق. مررنا في الفجر بقرية «أبو كواكب» الجبلية وملأنا القرب من بئرها. وصلنا إلى جبل «موتي» قبل الظهر، وتوجد على سفحه قرية صغيرة منها يمكن رؤية سلسلة جبال «مويتو» نزلنا فيها للراحة. تبدأ جبال «فانزوس» من تلك المناطق التي تبعد مسيرة ثمان أو تسع ساعات من نفرة. وتشبه الصحراء التي تتخلل المنطقة طبيعية صحراء نفرة الرملية الجرداء.

تحركنا قبل الفجر في العشرين من مارس سائرين شرقاً لعدة ساعات فوصلنا جبال «أوني» ثم قرية «حسيناء» الكبيرة حيث توجد أرض مرتفعة شمال طريقنا، وكانت جبال «فالي» أمامنا في حين أن الجنوب منحدر.

يتردد الأهالي دوماً في تزويد خيولنا بالماء مما يتطلب منا الإلحاح عليهم وترجيهم، لأن بصحبتنا عدد كبير منها، إذ جلب عثمان والفكي أبو اعداداً لبيعها في ودّاي.

يصل عمق الآبار إلى الثلاثين متراً مما يجعل أمر الحصول على الماء شاقاً. وتتطلب المسافة التي تفصلنا عن قرى فتري من عشرة إلى أحدى عشرة ساعة من السير الحثيث، وتزداد المشقة بشح الماء ونقص أعلاف الخيول.

بعد ان واصلنا سيرنا ليلاً وصلنا في ضحى الحادي والعشرين من مارس إلى قرية «ماي داناء» أول قرى إقليم فتري التي تتكون من حوالي المائة كوخ، ثم وصلنا إلى «كرفة» وهي إحدى القرى الهامة وتقع إلى جوار بركة وتنتشر فيها كمية هائلة من الذباب اللادغ. وتنمو أشجار الدوم العملاقة على مدى البصر دامغة بطابعها إقليم كوكا وفتري. وينتشر هنا أيضاً العشر[1] الذي هو أكثر النباتات انتشاراً في إقليم كيكوة.

سرنا عصراً لساعات قليلة ثم بتنا ليلتنا بجانب فريق كودو وبلغتنا هناك الأخبار بأن «جراب» ملك فتري قد وصل إلى الملم مع قادة ودّاي. وصلنا الملم في اليوم الثاني بعد ان سرنا شرقاً وعند بلوغنا قرية مندوق كان جراب قد غادرها ولم نتمكن من إدراكه إلا بعد ذلك بيوم.

تعتبر الملم واحدة من أهم قرى إقليم فتري، وتتكون من أكواخ من القش تفتقر المتانة والجمال، ويسكنها عدة آلاف من قبيلة البلالة وقليل من الجلابة الذين يمارسون ضروباً من التجارة المتواضعة بين كانم وبرنو وودّاي وباقرما.

حضر إلينا عند المساء ابن السلطان جراب وأبلغنا أن والده يدعونا في اليوم التالي.

وصلنا في اليوم التالي إلى «بكو» المقر المؤقت للسلطان و تقع إلى الشمال الشرقي. قدمنا آيات احترامنا للأمير الذي كان صديقاً لبرنو. كان ملثماً ويرتدي ثوباً تقليدياً نظيفاً واضعاً

1- شجرة ذات أغصان دائرية وتفرز عند القطع مادة كاللبن.

سكيناً على ذراعه مفترشاً بساطاً مصرياً، تبدو عليه النحافة لا الهزال، بادي القوة ذو بشرة داكنة تميل إلى الحمرة، ذو لحية بيضاء معتدلة الطول. يتحدث بصوت جهور وتبدو عليه مخايل الذكاء وبقدر عال من التهذيب، يتحدث بصراحة ومباشرة، حسن السير ويتمتع بالسمعة الحسنة في برنو ووداي وقد حياني في البداية مصافحاً قبل ان يدرك هويتي، ولم يتغير سلوكه بعد أن تعرّف عليّ.

قرأ لي خطاب شيخ عمر، المعروف لديه، بصوت عال ثم تحدث إلى الفكي أبو الذي يبدو - كما ذكرت - قد ارتكب جريمة ترقى للخيانة العظمى قبل ثمان سنوات، وأكد له ان السلطان علي قد عفا عنه، كما أكد لي أنه يمكنني مواصلة رحلتي بأمان مع مرافقي عثمان. ثم شرع في الحديث عن أصل البلالة. والذين قال عنهم الرحالة «بارث» أنهم فرع من «الكانوري»، ويبدو لي أنه قد جانب الصواب بذلك حيث أن إقامة البلالة في كانم وبين ظهراني البرنو لا يمكن ان تنسيهم لغة الكانوري إذا كانوا حقاً فرعاً من هذه القبيلة. ويرفض الملك جراب هذا الرأي رفضاً باتاً على ما عُرف عنه من رجاحة عقل وفقاً للمعايير المحلية.

ووفقاً لروايته فإنّ البلالة ينحدرون من أصول عربية وينتمون لأولاد حميد المنتشرون في مملكة ودّاي وبحر الغزال وبرنو، ويسمون في بعض الأقاليم «حميد»، مجردة من إضافة عبارة «أولاد» المعتادة والذين هاجروا بعد ذلك من الغرب إلى داخل السودان بينما استقر جزء منهم في فتري، ومن هؤلاء قامت تلك الدولة التي سادت إقليم كوكا وبحيرة فتري وكانم. انتهج هذا الفرع من أولاد حميد حياة الاستقرار وامتزج مع الكوكا وتبنى لغتهم إلا أن اللغة العربية «نارلسي» لا زالت منتشرة بينهم، وذكر لي السلطان جراب أن أي شخص على قدر من الوعي يرتفع بسلسلة نسبه حتى ينتهي بأولاد حميد.

يُطلق اسم (بلالة) على عنصر حديث التكوين ويشمل كل سكان فتري، وهو مشتق من اسم مؤسس المملكة بلال أو بُلال وانسحب هذا الاسم على كل المنطقة فسميت أرض بلال، وهذا الاسم «بلال» من الأسماء الشائعة في العالم الإسلامي. ولقد كان الرحالة بارث مندهشاً لعدم وجود لفظة تعني الفرد الواحد من قبيلة البلالة، بيد أنه -عربياً- يُطلق على الفرد منهم لفظ «بلالاوي» وتأخذ شخصية بلال شأن كل الرواد بعداً أسطوريا إذ يُقال أنه قد صلى في موقع العاصمة الحالية «ياو» وأن آثار جبهته ويديه وأقدامه- أثناء الصلاة- لا تزال ظاهرة على الصخور وهذا هو السبب في وجود ياوا، ومنذ ذلك الوقت نشأت عادة زيارة تلك المقدسات بين السكان في كل يوم جمعة. ووعدني السلطان برؤية الوثائق التي تثبت أصل البلالة ولكن كان لزاماً عليّ مواصلة الرحلة إلى ودّاي ولم يتسن لي العودة لمنطقة فتري.

لا زالت هنالك بعض الأعراق الرئيسة التي تعيش في إقليم فتري إلى جانب البلالة والكوكا ومن هذه قبيلة أبو سمين الذين ينتشرون في القرى ويقطنون أحدى أكبر الجزر في البحيرة، ويتحدثون اللهجة العربية المحلية. كما تُوجد أيضاً بقايا كانوري والذي يعود تاريخهم

لإمبراطورية كانم وكانوا قد هاجروا لفتري، وهناك قبائل نجيم والذين سبق لنا القول بأنهم من بقايا البلالة.

يستغرق السفر حول بحيرة فتري مدة يومين وتأخذ البحيرة شكلاً بيضاوياً وتمتلئ محاورها الطويلة بالمياه في الفترة ما بين الفجر والظهر باتجاهات متعددة، ويذكر أن الماء عميق بحيث أن مجاديف القارب لا يمكنها مس القاع، ويرتفع مستوى المياه سنوياً في فصل الخريف وذلك بعد ان يفيض نهر البطحة الذي يجري طول العام. وفي تلك الآونة تنقطع الصلات بين كل المناطق المجاورة لصعوبة السير في الأرض الطينية.

ينسحب العرب الذي يرعون في فتري إلى مكان يسمى قيزان[1] في هذا الوقت من العام، والتي يؤمها الكثيرون من غير أهل المنطقة.

ينتشر الذباب القارس الذي أشرنا إليه قبلاً عند الحديث عن باقرما، خصوصاً في هذا الفصل، كما يُوجد نوع أصغر من الذباب يميل إلى اللون الأحمر أو البني وتحمل بعض أجزائه اللون الرمادي، وهو أكثر خطورة من النوع السابق حيث يتسلل لأنوف الحيوانات ويقضي عليها لا محالة، في حين نجد ان النوع الكبير الحجم لا يسبب سوى الإزعاج الشديد. ولا يمكنني أن أقطع ما إذا كان هذا الذباب الصغير الخطر هو نفس الذباب الموجود في أقصى الجنوب من باقرما ووداي، وذلك لأن وجودي هناك كان في أواخر مارس وهي الفترة التي يكون وجوده فيها نادراً جداً ولم يتسن لي مشاهدته في الواقع، ويبدو أنه يتكاثر في موسم الأمطار.

يُوجد الذباب الأكبر ذو اللون الفاتح بكثرة مسبباً أحياناً ما هو أكثر خطورة من الإزعاج الشديد، فكنا نعمد إلى إشعال النار طول الوقت لطرد الذباب والهوام لتوفير الراحة للدواب.

تعاني الجمال من الذباب أكثر من الحيوانات الأخرى ويدفعها اليأس أحياناً إلى الدخول في النار مما يسبب لها أذىً جسيماً.

نفق أحد جمال عثمان بسبب الذباب، وامتلأ عنق الحصان الأبيض الذي أرسله شيخ عمر كهدية للسلطان علي بالدماء، إذ تأذى على البطن وجوانب الساق بما يفوق الحصان الأرقط الرمادي الذي جلبته معي للسلطان حسين سلطان دارفور. أما حصاني الأحمر ذو البقع فقد كان سليماً.

لا تساق الجمال للمراعي حتى تعاد بعد هنيهة للمعسكر بجوار النار ويغطي أهل فتري مواشيهم بحزم من القش إذا اضطروا إلى إطلاقها نهاراً للرعي، ويندر وجود الجمال هنا، كما لا تخرج الخيول للتدريب إلا نادراً لأن المنطقة تعج بالحيوانات والضواري خلال هذا الفصل، تهاجر قطعان الظباء والزراف من منطقة البحيرة نحو الإقليم الرملي شمالاً ولا تتخلف إلا الضواري من الأسود التي لا تستطيع العيش بعيداً عن الظل والماء ويمتد خطرها، لندرة الطعام، حتى للآدميين.

1- تعني المناطق الرملية والمفرد قوز.

ويشيع أن الأسود تعيش على لحوم البشر بصفة رئيسية في فتري لذا نجد أن المسافرين لا يعسكرون إلا بجوار القرى ويوقدون ناراً كبيرة درءاً لخطر تلك السباع. وقد حدثني الفكي آدم، الذي ينتمي إلى ودّاي، أبان وجودي في برنو، حدثني كثيراً عن وطنه وأنا أثق في قوله. أفادني: بأنه كان مسافراً في إحدى المرات عبر إقليم فتري، وعسكر ومن معه على مسافة قريبة من الصحراء فاختطف أسد أحدى جواريه من جوار النار وهب هو ومرافقوه وحاصروا الأسد بأسلحتهم وأنقذوها منه. ولكن ظلّ الأسد يتجوّل جوارهم مبتئساً لحرمانه من صيده البشري. هذه المنطقة غير مأهولة بالرغم من خصوبتها على أنها محبوبة للقلة التي تقطنها. وعندما تحدثت لرجل من البلالة عن متاعب الحياة في بلادهم والأوبئة المستوطنة فيها، رد بقوله: وهل تُوجد أرض أجمل من فتري؟

لم يكن الصيف والخريف أحسن حالاً. ليس ثمة طريق ليتوّحد أفراد العائلة المالكة مع الأهالي، إلا عن طريق المصاهرة وذلك لاعتقاد البلالة بأنهم من أصول عربية.

يضم إقليم فتري حوالي مائة قرية تقع إلى الجنوب من تلك البحيرة البيضاوية الشكل وعلى مقربه من شاطئها، كما تُوجد قرى أخرى شمال البحيرة ولكنها تقع بعيداً عنها. تفيض البحيرة وتغطي الأراضي الواقعة في الجزء الجنوبي الشرقي من فتري.

وتُوجد إلى الشمال العصمة ياوا ليس بعيداً عن شاطئ البحيرة، تأتي بعدها قرية تكيت، ثم على مسيرة ثلاثة ساعات شمال ياوا قرية جركو «فالملم» التي سبق وأن مررنا بها، وتقع قولو وقمسة على نهر البطحة غرب البحيرة.

تسكن قبائل أبو سمين جزيرة مودو على قريتين داخل البحيرة وتقع جزيرة دوقو إلى الجنوب من مودو وتسكنها نفس القبيلة، وتعج البحيرة بأفراس النهر والتماسيح.

اضطررنا للبقاء لليوم التالي في بكو لأن عثمان وبصفته مندوباً للسلطان علي كان ينتظر أن يمنحه السلطان جراب ركوبة بدلاً من جمله الذي قام بذبحه بعد احتراقه بالنار. أمضيت اليوم في استقبال الزوار الذي كانوا يتعاملون معي بأدب جم واحترام وقلما يتقدمون بأي طلب.

يعتبر إهداء قرطاس أبيض من ورق الكتابة مما يجلب الكثير من الرضا والامتنان، وقد كان ابن السلطان جراب الفضولي الذي جاء لمقابلتي، مسرورا جدا بالمعلومات التي لقنته إياها بشأن قراءة الساعة والبوصلة وما إلى ذلك، وكان ممتناً للغاية بعد أن أهديته عقب قلم رصاص لا يتجاوز طوله نصف بوصة.

بعد ان استلم عثمان ثوراً وحصانا بدلا من جمله الذي نفق، تحركنا في الخامس والعشرين نحو الشمال الشرقي فوصلنا الملم ومنها إلى بكو التي أخذنا منها اتجاهاً آخر ناحية الجنوب الشرقي حتى وصلنا قرية «جوركو» بعد ان مررنا بحقولها المزروعة بالدخن والقطن. وتبلغ منازلها حوالي المائتي كوخ. انتهى سيرنا مبكراً في ذلك اليوم لأن السلطان «جراب» أقام معسكره بذات المكان، وقد كان –بدوره– يتبع من على مسافة بعض القادة العسكريين من

وداي، بينهم عقيد البحر وعقيد الدبابة وعقيد فيري وعقيد دريش الذين كانوا هناك وقد توقفوا بقرى قريبة من البحيرة، لقد ظل الملك قريباً من هؤلاء القادة واضعاً في اعتباره طبيعة أهل وداي النازعة للعنف، وذلك ليفض المنازعات التي قد تنشأ بينهم. إذ لا يستعصى ذلك عليه لما عُرف عنه من مزايا شخصيه على نطاق البلاد ولمكانته لدى السلطان علي.

وسائل تبادل السلع في إقليم فتري هي الشطة، وشطة السودان الحمراء والكمبا وملح الطعام، ويُطلب بإلحاح الودع والخرز والبصل والثوم. وكنت أبادل بعض السلع بالبصل التي كان يتعذر الحصول عليها بأي سلعة أخرى.

تستخدم كذلك الإبر العادية الزهيدة القيمة في التبادل التجاري أيضاً، وبها تمكنت عدة مرات من الحصول على الدجاج واللبن والحطب، وترتفع قيمة الودع في هذه المنطقة عنها في برنو حيث يقتصر استخدامه في برنو على الزينة فحسب وتُرغب القطع الكبيرة الحجم والخالية من الثقوب.

تحركنا في اليوم التالي قبيل الفجر واتجهنا إلى الجنوب الشرقي أو شرقاً على وجه التقريب، فوصلنا قرية سيتا بعد حوالي ستة عشر ساعة من المسير. وتقع بمحاذاتها على الجانب الآخر من نهر البطحة قرية أخرى تحمل ذات الاسم، ولا توجد مياه في النهر وقد اندثر مجراه الذي تنمو فيه الأشجار الظليلة، وذهبنا إلى البطحة لسقاية الدواب فوصلناها بعد نصف ساعة باتجاه الجنوب الشرقي ويتشكل مجرى البطحة من رافدين. يجري أحدهما من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي أما الآخر فهو ذو مجرى ضيق إلا أنه أكثر أهمية.

يبلغ مجرى النهر حوالي الأربعين أو الخمسين خطوة، ويتراوح عمقه بين ثلاثة إلى خمسة أمتار وبه رمال صفراء يبلغ سمكها حوالي القدم، ويُوجد الماء به على مدار السنة في عمق يتراوح بين المتر ونصف المتر. وإذا حفر المرء حفرة في القاع يحصل في الحال على ماء نظيف صاف تجري فيه الأسماك الصغيرة. يخلو مجرى النهر من الأشجار شأن كل المجاري ذات التيارات القوية.

تقل المياه بالبطحة لأن هذا الوقت ليس موسم الأمطار وتتناثر بها البرك. تُعتبر سيتا آخر قرية في إقليم فتري، وبها حوالي ثلاثمائة كوخ وتسكنها قبائل أبو سمين والكوكا والبلالة، وتُوجد بينها وبين البطحة قرى فولو وقمسة، وتتكون الأخيرة من سبع قرى صغيرة بين سيتا وياوا. بدأنا سيرنا عصراً لخمس ساعات ناحية الشمال الشرقي على أرض صلبة رمادية تغطيها الأشجار والحشائش. يلي تلك المنطقة سهل يخلو من الأشجار يمتد بين فتري وحدود أرض وداي التي ترتادها على فترات منتظمة بعض القبائل العربية من الجمادين وأولاد حميد والخزام والزيدة والنوالينا والسلامات، تربة هذا الإقليم فقيرة بيد أن هناك الكثير من الهشاب الذي ينتج أجود أنواع الصمغ، وكذلك الكتر الأسود والكلكل بلحائه الأبيض وأوراقه الصغيرة التي تُستخدم في مداواة الجروح. كما يُوجد شجر المر[1] والذي يسميه الأهالي في برنو «كجم» ويشيع استخدام

1- المرقي.

أوراقه في معالجة القروح التي تظهر على متون دواب الحمل. إلى ذلك يُوجد شجر الصابون[1] كما يطل لأول مرة شجر الأبنوس بلحائه الأبيض ولبه الأسود.

ويممنا ناحية الشمال الشرقي وظللنا نحافظ على توجهنا لساعتين بعد ان التففنا حول منحنى البطحة وكان في نيتنا ان نعسكر في خروب على ضفافها بعد ساعة باتجاه الشمال الشرقي.

عبرنا البطحة محافظين على اتجاهنا ثم حططنا رحالنا في غابة بعد السير لأربع ساعات ونصف الساعة، ولقربنا من النهر فقد زادت كثافة الغابات التي تتخللها أعداد هائلة من أشجار الدوم والتي تكون عادة بالمناطق وفيرة المياه. وفي اليوم الثاني عبرنا عدة قرى تسكنها قبائل مستقرة. كنا نتجه- عموماً- إلى الشرق على بعد مسافة قصيرة من منحنى البطحة الذي يتميز بالسعة حتى وصلنا قرية مانديل مقر عقيد الدبابة بعد أن سرنا لثلاثة ساعات ونصف الساعة، و تقع إلى الجنوب من مجرى النهر وسط دغل كثيف، يقطن القرية عرب السلامات والكوكا وبها حوالي ثلاثمائة من الأكواخ، يبلغ ارتفاع الضفة الجنوبية للنهر خمسة أمتار، أما الضفة الشمالية فأقل انخفاضاً. يبلغ عرض حوض النهر فيها حوالي الخمسين متراً وهو ينحدر من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وتشبه الآبار والبرك، على رمال قاع النهر تلك التي مررنا بها من قبل. وتقع قرية «صرة» الشهيرة على منحنى النهر الشمالي بين قريتي خروب وماديل. تُدفع- هنا أيضاً - الشطة والودع ذو الحجم الكبير والبصل وخرز الكهرمان كإضافة للثمن، فيمكن شراء دجاجة أو مكيالاً من القمح مُقابل قرطاس من ورق الكتابة ويُعتبر مقدار عشرة أو عشرين منه مالاً لا يستهان به. كما يمكن ابتياع نصف مكيال من الأرز بحبة من البصل.

سلعتا الكمبا والكحل مطلوبتان إلا أن أسعارهما أقل من تلك التي أحضرتها من كيكوة، ويتزايد الطلب على الملح الأحمر (المطرون) [2] الذي يجلبه عرب المحاميد من منطقة البديات إلى ودّاي إلا أنه نادراً ما يتوفر. تكتسب ثياب برنو هنا قيمة عالية وتفوقها أحذية كانو[3] الجلدية المضفورة. تفتقر المنطقة للأمان ليس بسبب الضواري وأفراس النهر فحسب، بل بسبب اللصوص لذلك كنا نعسكر قريبين من بعضنا ونقوم بتطويق المعسكر بزريبة من الشوك.

لم يزعج سكون ليلتنا سوى غضب عثمان على خادمته الأثيرة فاطمة التي جلدها بقسوة حتى هرعت إليّ طلباً للحماية وكانت الدماء تنبثق من رأسها حتى تلوث فراشي، ويبدو ان السبب وراء ذلك كان غيرة أحدى الخادمات.

أمضينا الصباح التالي في شراء حاجياتنا من نساء العرب اللائي يعرضن سلعهن بكميات

1- الأمليج.

2- المطرون.

3- مدينة في شمال نيجيريا.

شحيحة من حبال وسروج وجمالٍ وزبد ولبن. ولم نكن نبتاع الطعام لنا ولدوابنا فقط بل كان يجب أن نضع في الاعتبار عدداً من الحجاج المعدمين من قبيلتي الهوسا والفلاتة والذين ينضمون إلى مثل قافلتنا طلباً للحماية.

عبرنا عصراً الشاطئ الشمالي للبطحة، وتغير اتجاهنا من الشمال إلى شرق الجنوب الشرقي وذلك لبيضاوية شكل البطحة. ومررنا خلال هذه الفترة بعدة قرى مأهولة بالعرب والكوكا. ووصلنا إلى قرية «الأمبلاي» أي أم المليحة «أم ملاوي» والتي تشمل أربعة أو خمس قرى. واسمها مستمد من تربتها الغنية بالعطرون. وهي أرض جرداء تغطي الرمال بعض نواحيها وينتمي أهلوها لقبيلة «مركلونق» الصغيرة وهي فرع من قبيلة المنقا، وتعد من القبائل ذات المكانة في الوادي.

يزداد حرص عثمان عليّ كلما تقدمنا في السير معمناً في منعي من الاحتكاك بالأهالي، وظللنا نعسكر بالخلاء حتى بعد أن ألفنا القرى.

وصلنا قرية «أم فاروندي» في الثلاثين من مارس وكنا نسير في اتجاه شرق الجنوب الشرقي، وهي قرية مأهولة بالعرب وتتكوّن من حوالي المائتي كوخ ووجدنا فيها قطعاناً من المواشي التي يملكها الفلاتة.

تركنا قرية عشراية خلفنا، وتجاوزنا العرب من السلامات وغيرهم ودخلنا بعض القرى التي تقطنها جماعات مستقرة من المسيرية، ورغم أن الكوكا ما برحوا يمثلون أهم عنصر قبلي.

بعد ان ابتعدنا مسيرة نصف يوم من البطحة صارت المياه أبعد غوراً لا سيما حين تشتد الحرارة عند منتصف النهار ويتزاحم الناس على الماء في هذا الوقت المعتاد لسقي الدواب. حرص عثمان على أن نقيم معسكرنا الليلي في الخلاء ويوفر لنا ذلك الراحة التامة حيث ينعدم الأمن في منطقة المسيرية التي تعج باللصوص مما حدا بنا إقامة حراسة ليلية، ورغم ذلك فقد كان أول الضحايا عثمان — الأكثر حرصاً— إذ اختفت من متاعه كمية مقدرة من التكاكي والثياب المجلوبة من برنو، وفي اليوم التالي صادف الأول من أبريل سرقة أقوى جمالي من المرعى، وعبثاً حاولنا أن نقتفي له أثراً.

نجد أنفسنا دوماً مضطرين إلى شراء الماء من الأهالي وذلك لأن الآبار عميقة الغور ويصل عمقها إلى خمسة وستين متراً فصار متعذراً أمر إخراج ما نحتاجه من الماء لسقي الخيل وملء القرب إذ يأخذ ذلك الكثير من الوقت. يضاف إلى ذلك تزاحم الأهالي لسقي مواشيهم أثناء النهار، وفي الوقت الذي نرد فيه وذلك لانشغالنا بالسير أثناء الليل.

وقد كان من حسن حظي رواج الخرز الذي جلبته من طرابلس كوسيط للتبادل، والذي ازدراه الأهلون في برنو وكانم وباقرمة، وكان خرزاً من النوع المعروف في هذه المنطقة باسم (أولاد كريش)، وهو نوع خرز مستطيل ذو لون أبيض وخطوط سوداء و لم يوفر لي هذا الخرز

الماء فحسب بل أيضاً الدجاج والكسرة[1] والتي هي الزاد الرئيسي لأي مسافر في وداي وفي منطقة النيل كذلك.

كان اتجاهنا إلى الشمال الشرقي، وصلنا «بركة فاطمة» في أبريل، وعلى بعد مسيرة يوم ونصف اليوم جنوبيا من البطحة عسكرنا في قرية «مانديلا» والتي تقطنها قبيلة البلالة. يمتد أمامنا خلاء واسع يسمى «أم بركي» يشح به الماء وتقل فيه الأشجار ويرتاده الرعاة في الربيع كذلك الذين يعملون في جمع الأرز وبذور الكريب التي تعتبر طعاما مفضلا حيث تمتلئ المنطقة بالمياه في ذاك الفصل التي تتجمع في منخفضات تسمى «الرهود». سرنا في هذا الخلاء نحو شرق للشمال الشرقي في الثاني من أبريل، لثمان ساعات، وعبرنا وادي دما في الثالث منه ويبلغ عرض هذا الوادي عشرين خطوة ولا يمكن القطع بما إذا كان يصب في البطحة أم ينساب إلى الغرب.

وصلنا بعد ذلك إلى قرية «شق الهجليج» وهي ذات كثافة سكانية عالية، وأطلت هنا مشكلة المياه مرة أخرى. واستغليت سمة خيولي في تسهيل مهمة السقي، إذ كنت أشير للأهالي بأنها خاصة بالسلطان، يباع لنا الماء بواقع عشرة لترات مُقابل فرخ من الورق وهو ما يعادل سعر مكيالي قمح أو دجاجتين. يُوجد بالقرية حوالي المائة والخمسين كوخا وبها خليط من البلالة وعرب السلامات. وتقع القرى التي يسكنها الكوكا الأصليون ومساليت البطحة بالقرب من النهر الذي يبعد مسيرة يوم أو يومين.

نحن الآن على بعد مسيرة أربع ساعات من أبشي عاصمة وداي وقد ازداد هم رفاقي عثمان والفكي أبو، إذ لم يكن عثمان مطمئناً لرد فعل السلطان نحو أصطحابي، كما كان الفكي أبو قلقاً على مصيره وما إذا سينال عفو السلطان والذي لم يتلق تأكيداً كافيا له.

أرسل عثمان رسولاً على أحد الجياد ليبلغ السلطان بوصولي ويخبره بأنه قبل المجازفة باصطحابي إليه بأمر من الشيخ عمر. وقد إتصلت بالأهالي عن قرب متخطياً أوامر عثمان. ولمست احترامهم لي بصفتي حاجاً وشريفاً وليس فيهم من أدرك أنني مسيحياً رغم عدم إخفائي لتلك الحقيقة. إذ كنت أتحدث عن مسيحيتي لأتحسس مشاعر الأهالي ومدى معرفتهم بالديانة المسيحية. يُفهم لفظ نصراني هنا بمعنى نصير حتى للمسلمين الأكثر وعيا وفهما لقواعد دينهم.

دخلنا من شق الهجليج إلى أرض تسمى دار زيود وتفصلها عن أرض الكوكا صحراء أم بركي ثم عبرنا نهراً ضيقا كان جافا في هذا الوقت من السنة، واجتزنا وادي شوكيت والذي يُسمى الشاوات أيضاً. ويجري من شمال الشمال الشرقي إلى جنوب الجنوب الغربي، شأنه شأن نهر رما الصغير، ويصب كلا النهرين في البطحة.

لا يهتم المسافرون بتلك الوديان لما يعتريها من جدب وجفاف. وتُوجد إلى النهر غابة من الطندب يتخللها الهجليج والدوم.

تحركنا في الأصيل نحو شرق الشمال الشرقي. مررنا بقرية كبيرة تسمى «نجوس» على بعد

1- رقائق من الذرة

ثلاثة ساعات حيث وجدنا تعاوناً غير معتاد من الأهالي في البئر، ولم يدخروا وسعاً في سبيل أن يسقوا خيولي.

عبرنا بعد ذلك مجموعة من القرى الصغيرة وخيمنا في الخلاء كالعادة بعد مسير خمس ساعات وذلك في التاسعة مساءاً، وتقطن تلك القرى قبائل الزيود العربية التي مالت لحياة الاستقرار. ويقتصر تواجد من يسمون بالحشد[1] على قرية نجوس الكبيرة فقط، وهم ينحدرون من ملوك وداي. ولكن بما أنهم الجيل الرابع فقد نزلوا إلى مرتبة المواطنين العاديين بلا أي تمييز خاص.

يحمل أطفال السلاطين ألقاب «تنتك»، ويُطلق على الأحفاد لقب "وليد السلطان"[2] وعلى أبناء الأحفاد– من الجيل الثالث – «كلوتن كولي» وأخيراً يأتي الحشد الذين يشكلون الجيل الرابع بلا ألقاب.

تبدو المنطقة من دار زيود أكثر كثافة سكانية، وتُوجد على طول طريقنا قرى كبيرة وأخرى صغيرة.

كان عبء السير ثقيلاً عليّ في اليوم التالي وذلك لشعوري بالحمى ولارتفاع الأرض التدريجي أثناء سيرنا نحو شرق الشمال الشرقي لمدة ست ساعات منذ قبل الفجر ولثلاث ساعات أخرى في فترة العصر. وفي الخامس من أبريل انتشرت أمام ناظرينا قمم جميلة وفي شرق الشمال الشرقي منها تلوح جبال «كوندونقو» في الأفق. تقع مجموعة جبال «تيري» جنوب معسكرنا على مسافة أربع ساعات وفي كهوفها يحبس السجناء السياسيون.

تحركنا عصراً نحو شرق الشمال الشرقي وعبرنا مجرى مائياً صغيراً يعرف بوادي ألمي[3] و يجري من شمال الشمال الشرقي إلى جنوب الجنوب الغربي، ثم عبرنا مجموعة «ماشيك» الكبيرة والتي تتكوّن من ثلاث قرى. نحن الآن على مقربة من العاصمة وقد أقمنا معسكرنا ونحن أكثر توجساً وأشد قلقاً.

لاحت جبال كوندونقو أمامنا في صباح اليوم التالي وهي سلسلة ممتدة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي.

تنهض سلسلة لنفس هذه الجبال شمال تلك الأولى دون انقطاع حتى «وارا» العاصمة السابقة لودّاي. ويلي هذا الإقليم الجبلي منطقة «كدوي» أو أبوسنون.

أصبح اتجاهنا نحو الشرق تقريباً ثم ناحية الشمال الشرقي من حدود السلسلة الرئيسة لتلك الجبال. وتقوم على الشمال منا كتلة جبلية تسمى «أم شراريب».

وعلى بعد ساعتين قبل الوصول إليها قرر عثمان في مطلع الصبح الباكر إقامة معسكرنا على مقربة من أحدى الآبار.

1- المسمى خشة وهم بدنة عبد الكريم، أي الذين ينحدرون من الأسرة الملكية.

2- تصغير الولد.

3- تعني الماء مع استخدام الإمالة في النطق.

الوصول إلى أبشي (في حضرة السلطان علي)
أبريل – 20 مايو 1873

كان عثمان مندفعاً بخطى سريعة حتى هذه اللحظة، ولكن بدأت تخونه شجاعته ونحن نقترب من أبشي، فقد مرت أربعة أيام منذ أن بعث برسالته للسلطان يخبره بقدومنا، لذا فقد أقسم عثمان بألا يتقدم للأمام مالم يتسلّم رسالة منه. انتظرنا حتى العصر ولم يأت الرد، فساد بيننا شعور بالحزن والإحباط. كان معلم أبو مهموماً بقضيته، أما عثمان فقد كان خائفاً على نفسه وعلى شخصي كذلك. وأنا عن نفسي كنت أحس بشي من عدم الارتياح، وكنت أعلم أن السلطان رجل مستقيم، وقد تلقيت معلومات كافية عن شخصيته، ولكن كنت أخشى ان يُدفع من بعض أفراد طائفته الدينية المعروفين بالتعصُّب للتصرُّف بطريقة عنيفة ضد شخص مسيحي الديانة مثلي، خصوصاً وهو أحد الأتباع المخلصين لطائفة السنوسية[1] المتعصّبة والتي مرت بي بعض التجارب معها ونبهتني لأخذ الحذر منها خلال زيارتي لبرنو، فهم أكثر الطوائف المسلمة مقتاً للمسيحيين، وفي رحلتي الأخيرة في الصحراء حرّض أحد دعاة السنوسية مواطناً لقتلي مغرياً له بدخول الجنة.

طافت كل هذه الأحداث بذهني أثناء القيلولة ولم أتمكن من التمتع بالنوم العميق، وأقضت مضجعي بعض الأحلام المزعجة.

وصل أخيراً أحد رفاق عثمان في الثانية ظهراً وهو من موظفي السلطان وكان يحمل رسالة منه لنا تفيض بالود والترحاب مما أثار في دواخلي شعوراً بالغاً بالارتياح إلا أن هذا الشعور سرعان ما تبدد لما علمت أن هذا الرسول السلطاني معهود إليه باستلام خيولي وسلاحي الناري في الحال. أكدت للمندوب عدم وجود خيول بحوزتي للبيع وأن الخيول التي معي أرغب أصلاً في إهدائها للسلطان إلا أنه أصر على تنفيذ الأمر. فكان أن سلمته الخيول لكني إحتفظت بسلاحي وذلك باعتذاري عن هذا الأمر بعد أن أكدت له أن الأعراف في بلادي تمنع تخلي المرء عن سلاحه، ثم أتاني الرسول بحصان محلي لأستقله إلى أبشي، فقمنا بتحميل جمالنا ومشينا على أثر مندوب السلطان إلى العاصمة.

كنا قد تحركنا بعد الثانية ظهراً نحو الشرق فوصلنا في حوالي الخامسة إلى نهاية السلسلة الجبلية الرئيسة من الناحية الشمالية الشرقية، توسطنا هذه السلسلة وسلسلة أخرى تمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتُوجد على السفوح من الجانبين عدة قرى لقبائل كوندونقو. يتميزُ هذا الوادي بغابات كثيفة من أشجار الكلكل والهجليج والـ ...، وأطلت لأول مرة أشجار المخيط بأعداد كبيرة، والذي يعتبر مادة غذائية هامة بعد نقع الثمار وتنقيته من مذاقه المر. صعدنا بعد ذلك مرتفعات وعرة وعبرنا الطرف الجنوبي الشرقي للسلسلة الثانية واتجهنا ناحية الشرق فعبرنا نهراً صغيراً في السابعة مساءاً وكان جافاً وقتها وهو ينساب من

1 - حركة إصلاحية أكثر من كونها طريقة صوفية إنتشرت في مناطق بركو وأنيدي وتبستي وكانم، عبد الرحمن عمر الماحي، المرجع السابق ص - 106.

الشمال للجنوب.

كنا نشاهد ولعدة أيام أشكالاً من السحب والتي تظهر في هذا الوقت من السنة كإشارة لبواكير موسم الأمطار. ورصدنا في المساء سحباً متراكمة في الشرق ثم هبت الرياح وهطلت الأمطار الغزيرة على رؤوسنا. لم تكن روحي مستقرة وما زال يتملكني الشعور بالإحباط وتراءت لي تلك الليلة الرهيبة كما لو كانت نذير سؤ، وفي منتصف الليل وصلنا إلى قصر السلطان بعد سير حثيث على مجرى النهر. تلوح في الظلام مساكن صغيرة تنتصب على رؤوسها كتلة شاهقة هي القصر السلطاني بكل هالته.

لقد انتابني شعور كئيب بأنني مقدم على الهلاك. كنا قد نزلنا في بيت مرافقي، ولا يبدو أي ترتيب أو إعداد لسكني، ولم يرسل لنا السلطان تحية أو وجبة مع علمي بأن ذلك تقليد في التعامل مع الغرباء ذوي الاعتبار. وجدت نفسي مستلقياً على فراش بسيط بعد عشر ساعات من السير الشاق. لم يكن نومي مريحاً ولا أحلامي هادئة. وبينما كنت مستلقياً على الفراش في صباح اليوم الثالث وصل مبعوث السلطان، ودون أن يلقي علي التحية، طلب مني أن أتبعه ناقلاً إلي بطريقة فظة ومختصرة بأن السلطان يريدني. ونسيت من جفاء لهجته سوء أحوالي، ثم علمت منه انه مأمور بإحضار أسلحتي والتي رفضت التخلي عنها وتأجل تجريدي منها في اليوم السابق.

عندما وصلت إلى القصر وقبل أن أقابل السلطان ووجهت بمحاولة إختبار لي في إصابة الهدف الذي وضعوه أمامي بينما كان السلطان متوارياً في الطابق الثاني من أحد أبراج قصره.

رفضت إجراء هذا الاستعراض المزري للسلاح لعدم ثقتي في مهارتي واستنكاراً لهذا الطلب، ثم لعدم استقبال السلطان لي وأنا بداخل قصره، وجعلتهم ينقلون للسلطان بأن هذا الأمر عادي بالنسبة لي ولكني أطلب -بناء على الأعراف- أن يستقبلني السلطان أولاً. أما عن مهارتي أو عدمها في استخدام السلاح فإن ذلك متروك لتقديره. ثم أعيد لي اثنان من خيولي في القصر. أما الثالث الذي أحضرته كهدية للسلطان تم حجزه دون أي عوائق. وظلت أسلحتي محجوزة لديهم لحين إختباري بها. أثار استدعائي لمقابلة السلطان توجس مرافقي والمقيمين معي، وتدفق الزوار إلي من تجار منطقة النيل والمجابرة واثنان من تجار القيروان التونسية المقدسة الذين كنت أعاملهم كما لو كانوا من أبناء جلدتي وكانوا بدورهم يبادلونني الشعور كما لو كنت من مواطنيهم.

ظلّ حاج سالم – أحد التاجرين التونسيين – يمتدح السلطان على ذكائه وحيويته وجلب لي ذلك بعض الاطمئنان بعد القلق الذي انتابني جراء تلك الأحداث التي مرت بي.

أبلغت بعد الظهر لمقابلة السلطان مجدداً. وسألني الرسول في هذه المرة مباشرة عن الغدارات التي يستخدمها الفرسان وعن المجهر الذي كنت قد أسريت لعثمان بنيتي إهدائه

للسلطان. دخلنا المقر السلطاني عن طريق درب الحريم[1] الذي يستخدم فقط بواسطة الزوار والمقربين، أما درب الرجال[2] فيستخدم للموظفين وأصحاب الشكاوي.

حسر المرافقون ثيابهم إلى الكتف الأيمن وخفضوا رؤوسهم، أما أنا فلم أُطالب بالقيام بهذا التقليد المتبع لديهم. وبعد أن تجاوزنا الباب الخارجي دلفنا إلى مسكن كبير الخصيان والذي يحظى بأعلى رتبة في وداي وهي درجة كمكلك، يجب على أي زائر ما لم يكن مطلوباً من السلطان مباشرة أن يخطر كبير الخصيان قبل دخوله القصر وإلا فانه يُمنع من الدخول بواسطة حرس البوابة. يُوجد وراء المدخل الخارجي وإلى اليسار منه باب يؤدي إلى جناح الحريم.

مررنا داخل ردهة طويلة انتهت بنا إلى فناء تُوجد إلى الجانب الشمالي منه بنايات من الطوب الأحمر من طابقين يجمع بين البنايتين باب كبير يشكل الباب الرئيس.

تتراءى تلك البنايتان كحائط عالٍ دون منافذ، أما المبنى الآخر فيتكون من ثلاثة غرف متلاصقة، وتُوجد في الطابق الأعلى نوافذ خشبية، وسقف الغرف الثلاث التي تشكل المبنى بالقش الذي يبدو شبه كروي ومزين ببيض وريش النعام، وتفتح كل من تلك الغرف على اتجاه مختلف، شرقاً وغرباً وجنوباً ويتجه باب الفناء إلى الشمال وتعلو أبراج المبنى رغم أن ارتفاعه متوسط. تُوجد في هذا الفناء، وعلى طول الحائط مسطبة ترتفع إلى أربعة أقدام ويمكن استغلالها باستخدام درج ترابي، وتسمى «درجة» وتستخدم كمجلس للسلطان في الاحتفالات الكبيرة، وعلمت أن المرشد الذي أتاني في الصباح هو البناء الذي أنجز تشييد هذا القصر والذي يُعد صرحاً شامخاً وفق المعايير المحلية، وتجدر الإشارة إلى أنه «دنقلاوي[3]»، رغم سواد بشرته، ومن منطقة النيل.

تنتشر السقائف في المبنى ويستظل بها العامة والخدم، ويُوجد بنهاية الفناء وخلف مقر السلطان فناء صغير يضم كوخاً طينياً مسقوفاً بالقش تستند إليه سقيفة وهو مكان الخدم خاصة السلطان إلى جانب عدد من العبيد سواهم.

ويُعرف خدم السلطان بالطويرات. كما يُوجد باب ذو ستائر قطنية يؤدي إلى الديوان الذي يستقبل فيه السلطان زواره وضيوفه.

جلست في غرفة الانتظار مستنداً إلى الحائط حتى يؤذن لي بالدخول وألقيت بالتحية على الموظفين والخدم الذين يجلسون على مقربة مني إلا أن أحد منهم لم يرد على تحيتي، بل انتقلوا من الحائط الذي أتكئ عليه وصاروا يرمقونني بنظرات كلها ريبة غير أن أي منهم لم يتحدث إليّ أو يتحرش بي.

لم أنتظر طويلاً، بل في أقل من الزمن المعتاد في برنو وباقرمة للمقابلة، استدعاني أحد الطويرات والذي ركع إلى الأرض وبدأ في التصفيق بيديه قائلاً لي: «سيدنا السلطان يستدعيك»

1- يقابل الأوربايا لدى الفور.

2- يقابل الأوردي لدى الفور.

3- أي تعود أصوله للمناطقة في شمال السودان.

فقمت تاركاً حذائي في مدخل الديوان، وقد استفدت من تجاربي في باقرمة ولوقون فلم أخلع جواربي أو حذائي المراكشي المسطح والذي كنت انتعله تحت الحذاء الخارجي.

مررت من وراء الستار على ممر واسع منخفض السقف ينتهي إلى باب ذي ستائر، نفذت عبرها إلى قاعة كبيرة مستطيلة يحدها من الشرق القصر ومن الجنوب المبنى المشيد بالطوب، ويُوجد بها مدخل آخر من الناحية الشمالية مزين ببيض وريش النعام، وفي منتصف القاعة سقيفة واسعة بها كمية من أباريق المياه.

يجلس الحاكم المهيب لسلطنة وداي بين هذه السقيفة والمبنى مفترشاً حصيراً مغطى بالأبسطة. كان يرتدي جلبابا قصيراً وسروالاً من القطن ويضع «الطربوش» على رأسه، ولم يكن أحد من الحاشية أو أرباب الدولة موجوداً في مجلسه في تلك اللحظة. الأمر الذي لم أشاهده قبلاً لدى أي من الحكام الذين تسنت لي رؤيتهم. وينبئ ذلك عن جو البساطة الذي يحيط بهذا السلطان، وبمجرد دخولي جلست وصفقت بوقار وفقاً للأعراف متمنياً للسلطان طول البقاء والنصر.

بث كلماته الأولى وتعابير وجهه الأمان في قلبي، حيث شكرني على حسن تمنياتي ثم طلب مني الجلوس إلى مقربه منه. وبدأ حديثة مستعلماً عن رحلتي والغرض منها. ثم سأل عن حقيقة إقامتي مع خصمه سلطان باقرما وعما إذا كنت قد زرت منطقة الوثنيين في «سمراي» التي سبق أن ذهب هو إليها. ولكنه أردف في الحال بأنني أتمتع بأمان تام طوال بقائي عنده وتحت حمايته، وأذن لي، إذا كانت لدى الرغبة في زيارة كل أقاليم البلاد، إذ كان يعلم أن الأوروبيين يزورون حتى المناطق الهامشية في سبيل زيادة معرفتهم. وتجلى لي أنه لا يريد وضع العراقيل أمامي، ثم أعاد لي الإذن بالتجوال في أي اتجاه من سلطنته وبأمان تام. رغم عدم سهولة هذا الأمر.

من ناحيتي شكرته على عطفه، ولم أبد لهفة لتقبل هذه الوعود كي لا أثير الريبة في نفسه، وكان ردي أن السفر الطويل قد أنهكني بدنياً وذهنياً وأن صحتي تتدهور تدريجياً ولذلك أصبحت رغبتي الأولى تتمثل في العودة إلى بلادي عبر سلطنة دارفور، وإذا كان قد سمح لي بالسياحة والتجوال في بلاده فإنني سأستغل هذا الإذن في أضيق نطاق لأعود لأوروبا عبر بنغازي.

لم يسبق للسلطان أن حظي بزيارة أحد من بني جلدتي من قبل مما يضفي على زيارتي له بعداً من الجرأة عززتها السمعة التي يتمتع بها في فزان وطرابلس وفي كل الشمال، لذا رفضت الإنصياع للأصوات التي حذرتني في كيكوة والتي كانت جميعها ضد رغبتي في زيارة وداي، وأنا الآن في غاية السعادة لأن ثقتي في شهامته لم تهتز.

قال لي السلطان بأنه يعلم ان الأوروبيين يعرضون حياتهم للخطر إشباعاً لرغبتهم في التعرف على الشعوب الأخرى، وينبغي ألا أخاف فهو متفهم تماماً لأهداف زيارتي «لأبو سكين» في جنوب باقرمة وسامراي وتلك البلاد المعروفة بمسالكها الطينية الوعرة ووحشية أهلها التي

يعلمها جيداً.

واستخبرني عن حال أبو سكين، وكان سعيداً بأن يتلقى معلومات عن قواته هناك وعلاقته بمقاطعة الوثنيين جنوب باقرمة، إذ كانت المعلومات في وداي متضاربة في هذا الشأن، ومشوشة أيضاً فيما يخص ملكي هاتين المنطقتين المجاورتين. ثم تساءل بذكاء ـ رغم تظاهرة بالغباء ـ عن تركيا والبلدان الأوروبية وعن وطني ثم مهنتي وتعرّض بعد ذلك لعلله الخاصة. طرح على الكثير من الأسئلة التي ليس في وسع إنسان أو طبيب الإجابة عليها بدقة وإن كانت في عمومها تنضح بالذكاء، أما إجاباته فكانت تتصف بالتأني والحصافة. لم أتعرّف في تلك المناطق على سلطان ترك في نفسي هذا الانطباع والبساطة مع الاعتداد بالنفس كسلطان وداي.

لم تكن هيئته منفّرة فقد كان في الخامسة والثلاثين، قوياً، عريض المنكبين، له لحية خفيفة، وبشرته غامقة تميل للحمرة، مع أنف مستقيم بعض الشئ ووجنتاه بارزتان، يميل للبدانة، ووجهة ينحو إلى الوسامة وتمتلئ عيناه بالثقة.

كان الطوبرات يقتربون منه طوال فترة مثولي أمامه، فيستمع إلى تقاريرهم ويصدر إليهم توجيهات باللغة العربية، وكانوا يركمون على الأرض حال دخولهم كاشفين الذراع الأيمن مع المحافظة على مسافة منه، تزيد وتنقص بحسب الدرجة، وعندما يقتربون منه يرفعون الجزء الأعلى من الجسد منحنين أمامه وهم يصفقون بكل أدب ملقين التحية بصوت خافت دون أن يشخصوا بأبصارهم إلى السلطان، إذ تظل عيونهم ـ أثناء حوارهم معه ـ مثبتة على حصى المجلس. ويستخدم معهم عبارات بسيطة وواضحة ويتلقى بنفس القدر ردوداً بسيطة وحاسمة.

أذن لي السلطان بالانصراف قبل الغروب بقليل مؤكداً لي أنني في أمان تام. غير أنه نصحني بلزوم مقر سكني وألا أتجوّل إلا بعد ان أتعرّف على الأهالي لأنه كان يخشى عليّ من رعاياه الذين تتصف تصرفاتهم بالبدائية، ولم يكتف بذلك بل كلف أحد الطوبرات بإعادتي إلى مقر سكني.

ولا يترك هؤلاء الفتيان من عهد إليهم بتوصيله حتى يدخل مقر سكنه فعلياً وخاصة في المساء، ذلك لان المدينة تعج بالسكارى والغوغاء الذين لا يحد خوفهم من السلطان كثيراً من سلوكهم الهمجي ونزعتهم الدموية.

أخبرني العرب الغرباء الموجودون بالمنطقة أنه لا يكاد يمر أسبوع دون حدوث جرائم قتل ونهب وأذى بليغ بواسطة هؤلاء الغوغاء أو بواسطة رجل غيور، ومن المعتاد حيازة السكين أو العصي التي تنتهي بحلقة من الحديد، وتكفي عبارة «كافر» التي تقفز من شفاهم لحظة الغضب لإشعال الموقف، وعُرف هؤلاء البدائيون بأنهم يكرهون الغرباء عامة. وتكفي رؤية غريب لدفع أحد المخمورين للتحرّش به مع الاستعداد للجوء إلى السلاح.

ومنذ أن تولى السلطان على السلطة في 1858 لم يأل جهداً في سبيل استئصال مشاعر

الوحشية وكراهية الأجانب، تلك التي أجج أوراها والده السلطان محمد شريف وانتقلت إلى مواطنيه. تمكن السلطان بنهج حازم من الحد من غلواء الروح العدوانية لدى الأهالي، ولكن بالرغم من ذلك يتحتم على الأجنبي وبخاصة العربي أن يلزم داره بقدر الإمكان لا سيما بعد مغيب الشمس ولا يغادرها إلا للضرورة الملحة.

وقد كنت أبقى مع السلطان – أحياناً – مدة طويلة دون أن يلفت نظري إلى ان الشمس قد غربت، فكان يسمح لي بالعودة إلى سكني وحدي ولكنه يرسل الطويرات في أثري حتى يتأكد من أنني قد وصلت بسلام، وكثيراً ما أبدى دهشته لعدم خوفي من الذهاب بمفردي إلى المنزل وأنا أعزل من أي سلاح. الأمر الذي لم يعهده لدى تجار النيل المتصلين بالبلاد لعقود طويلة.

وعلى كل فإن لأصغر الطويرات تأثير قوة مسلحة في تأمين الحماية للأجانب[1].

لقد افلح السلطان القوي في بث الرهبة في أرجاء البلاد وأشاع مهابته وسط هؤلاء القوم البدائيين، ويمكن لأي شخص بصحبة أحد الطويرات أن يسافر بطول البلاد وعرضها. ظل جيراني العرب الذين زاروني، وخاصة الشريفين من القيروان وتونس يمدحون ويثنون على السلطان علي، ورووا لي وقائع عديدة تدل على الحزم والعدل، وأن الذي جعله يتشدد في تأمين الحماية للأجانب هو نيته في تقوية علاقاته مع البلاد الأخرى وتشجيع التجارة في البلاد، وقد عمل بجد أكيد لتحقيق هذا الهدف.

وسعى إلى اجتذاب العرب الذين لم يكونوا يعانون من سؤ المعاملة إبان عهد والده فحسب بل كانوا يُقتلون بتعليمات مباشرة منه، الأمر الذي أدى إلى هجرهم طريق القوافل القادمة من الشمال تدريجياً.

لم يفتح طريق البحر الأبيض الذي يربط بنغازي بودّاي إلا قبل خمسين عاماً أبان حكم السلطان عبد الكريم الملقب بصابون[2]. وأول من استخدم هذا الطريق هم المجابرة، أهالي واحة جالو التي تقع على بعد مسيرة عشرة أيام جنوب بنغازي، وهم وحدهم الذين حافظوا على علاقاتهم مع تلك البلاد وذلك بروابطهم المتينة مع برنو، أما الآخرون من سكان تلك المناطق فوجهتهم كانت إلى ودّاي.

يسيّر تجار النيل، منذ أكثر من قرن رحلات منتظمة إلى ودّاي عبر دار فور واستقرت مجموعات كبيرة منهم في نمرو التي تُعد مركزاً تجارياً هاماً. وقد كان تجار النيل يحسون أن إرهاب السلطان محمد شريف أمراً مؤقتاً، وربما كان ذلك بتأثير نزعتهم التجارية، واستمروا في البداية في رحلاتهم لودّاي على الرغم من إبعادهم من قبل، ثم دخلوا بعد ذلك على البلاد بأعداد كبيرة في عهد السلطان علي الذي وجدوا فيه المودة والاحترام مما أثار مشاعر الغيرة والكراهية نحوهم لدى الأهالي.

يصعب على الشخص الأوروبي المتمدن أن يتفهّم قسوة السلطان وصرامة أحكامه ضد

1- أي الغرباء.

2- ابن صالح دري وحفيد السلطان عبد الكريم جامع المؤسس السلطنة.

الشغب والفوضى، ما لم يقرن ذلك بالفهم الدقيق لسلوك المواطنين وطريقة تفكيرهم.

وقبل وصولي لأبشي حدثت حادثة تُظهر بجلاء صرامة وقوة السلطان. فقد شاهد من الطوابق العليا للقصر هرجاً وشجاراً واسعاً بين الناس في السوق الذي شيد على الجدران الغربية لمقر إقامته. أفاد الرسول بأن حادث نهب قد وقع، و استغل الغوغاء الظرف للقيام بفوضى وجرائم نهب أخرى، نزل السلطان راجلاً وهو ما لم يحدث من سلاطين ودّاي من قبل والذين يعدون في نظر الأهالي مجسدين لروح الآلهة. وبمجرد نزوله جمع عدداً من قواده العسكريين الذين يسمون «كريات»، ثم استدعى المسئولين عن أمن المدينة وهم: شقيقه يوسف[1]، وعقيد الجمادين، وخال السلطان جرمة أبو جبرين، ومستشاره أحمد تنقا تنقا، و كان كل منهم مسئولاً عن ربع المدينة.

تجمّع الناس، وخاطبهم –أي السلطان– قائلاً « عندما ترون سلطان ودّاي راجلاً ومنتعلاً صندله في السوق فلابد أنكم تدركون جسامة الأمر. وتعلمون حرصي على تحقيق الأمن». ثم توجّه بحديثه إلى المسئولين وكافة أولي الشأن فحذرهم بأنهم إذا لم يكشفوا عن الجناة في أقصر وقت فإن التعويض سيكون من دمائهم.

وبدأ التحرك في الحال، ثم أحضر أربعة عشر شخصاً بينهم عدد قليل من النساء بشبهة تورطهم في حوادث النهب عند حدوث الشغب في السوق، وتم رميهم بالرصاص بواسطة قوات الكريات التي يتسلح معظم أفرادها ببنادق القربين.

قد يظهر التحقيق المتأني بأن عدد من الذين أعدموا كانوا أبرياء وانهم أدينوا لأن رؤوس المسئولين أنفسهم كانت مهددة بالاجتثاث، ولكن فوق كل ذلك قصد السلطان توجيه رسالة إلى الأهالي بتجنب ارتكاب مثل هذه الجرائم. وهذا الأسلوب لا يبدو شديد القسوة في هذه المناطق التي لا تساوي حياة الإنسان فيها شيئاً وخاصة في ودّاي.

شهد وصولي واقعة رهيبة أخرى كان ضحيتها أحد الجُلابة الذي تلقى عقوبة دموية بشمة من الحاكم الذي لم يحو قلبه على أي رأفة تجاه ذلك البائس. كان الجلاّبي[2] أحد سكان مستعمرة تجارية من الذين استقروا في ودّاي وقد شارك في عدة رحلات إلى بأقرمة ومسينا.

أقام هذا الرجل علاقة عاطفية مع إبنة السلطان «أبو سكين» الأميرة الأولى وحاملة لقب «شكوتمة»[3]. وبعد حرب ضد إقليمها أحضرت كأسيرة إلى ودّاي وزُوجت لا أحد مسئولي السلطان علي. غير أن هذا التاجر أعاد اتصاله بها رغم أنه تلقى تحذيرات من السلطان من مغبة هذا السلوك. فأمر به عند ذاك. فجدع أنفه وقطعت أذناه وقطعت إحدى قدميه ثم أرسل إلى أهله بهذه الحالة البشعة.

تجمّع التجار وجأروا بالشكوى من هذه العقوبة القاسية، فاستدعاهم السلطان وأخبرهم

1- خلف السلطان بعد وفاته على العرش.

2- أي رجل من شمال السودان ومصدر الاسم " جلب البضائع.

3- تقابل لقب قسسو في برنو ومبرم في ودّاي ودارفور.

بأن العقوبة المقررة للزنا هي الموت وفقاً للشريعة الإسلامية وأنه يمكنهم مغادرة البلاد إذا كانوا لا يرضون أحكامه، مع إمهالهم أربعة يوماً لترتيب أوضاعهم.

لا يستعصى على التاجر الأجنبي جمع ديونه تحت حكم السلطان علي، على نقيض ما يحدث في برنو. إذ تخلف في كيكوة الكثير من رفاق ترحالي الذين ما زالوا ينتظرون ومنذ ثلاث سنوات مع الجهد المتواصل واليأس والجوع لاسترداد حقوقهم من البضائع التي باعوها لبعض ذوي النفوذ هناك لكنهم لم يستلموا شيئاً في مقابلها. يختلف الوضع عن ذاك في وداي تماماً، لأنه عندما يحين موعد مغادرة القافلة ولم يستوف بعض أفرادها حقوقهم فلهم الحق في استدعاء المدين «المقصّر» مهما كان شأنه إلى السلطان الذي يخاطبه بقوله «إذا لم توف لدائنك في موعد كذا فستذهب معه كعبد عوضاً عن مبلغ الدين».

وقد تم إخطار التجار الذين يأتون إلى وداي ـ مؤخراً ـ بعدم التعامل إلا نقداً لتجنب اللجوء للعنف أو استخدام الوسائل الرسمية بصورة متكررة.

لم يستطع السلطان أن يرسخ نفس قواعد الأمن في المناطق الداخلية، إلا أنه بذل ما في وسعه لتحقيق تلك الغاية دون استثناء لأحد بما في ذلك الأقارب والذين هم في العادة أول المماطلين في مثل هذه البلدان.

لا غرابة في تلك الغلظة التي صبغت حكم السلطان إذ ينسب إليه إحياء تقليد قديم في وداي بمجرد تسنمه لسدة الحكم وذلك بسمله عيون أخوته وأقاربه الذين يتطلعون للعرش.

ويبدو أن السلطان قد مارس نوعاً يخصه من العدالة، وذلك لحرمان من تراودهم رغبة جامحة في اعتلاء العرش من أبصارهم. بيد أنه لم يمس بأذى أخوته الذين يثق في نواياهم، رغم أنهم ينتمون إلى أمهات من طبقة النبلاء ويمكن لهم ان يخلفوه في الحكم.

قبل وصولي حدثت مواجهة حاسمة بين السلطان علي ووالدته والمعروف أن الملكة الأم في وداي — وتعرف بالمومو- تتمتع بسلطات واسعة، وتميل الملكة لإعطاء نفسها سلطات تتجاوز كافة الخطوط المرسومة لها، مما حدا بابنها السلطان علي أن يقتحم دارها مظهراً كل جبروت السلطة ومحاطاً بكبار رجال الدولة محذراً إياها تحذيراً مشدداً. وعندما هددته بأنها ستغادر إلى بلاد أخرى إذا لم تنعم بمكانة ملائمة في وداي، جاءت إجابة ابنها حاسمة إذ قال لها بأنه لن يضع في طريقها أي عوائق إذا رغبت في الهجرة. ولكنه كان يدرك أنها كمواطنة غيورة سوف لن تترك أرض الأجداد. ولم تعد هناك تجاوزات أو مضايقات من المومو منذ تلك المواجهة واكتفت بما هو مرسوم لها.

وطدت هذه الوقائع حكم السلطان علي، ووجدت لاحقاً أن تلك الإجراءات كانت معقولة، فقد كان يتمتع بفطرة سليمة والقليل من النزوع للعاطفة. إلى جانب طاقته الجبارة وشدته التي تبلغ حد القسوة، كما كان يتمتع بحس عدلي.

كان يهدف لبسط العدل في بلاده وزيادة نفوذها إلى ما وراء الحدود وغرس مهابتها في

نفوس العصاة مع خفض جناحه للصالحين من رعاياه وقد رأى في أن يدخل في صداقة مع الدول الكبرى المجاورة لإنعاش التجارة وازدهارها وقد حد من تنفيذ هذا الإجراء قادته العسكريون ومواجهاتهم في العديد من الجبهات حول ودّاي، لأن قوتهم وشجاعتهم كانتا موضع شك.

وقد أرسل مؤخراً بعض قواده لردع غزاة من المساليت الذين درجوا على قطع طرق القوافل بين ودّاي ودارفور لكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً، إذ أبيدت قواتهم إلا القليل منها، فعاقبهم السلطان بقطع أنوف وآذان الناجين منهم.

لم يحدد السلطان علي قبل وصولي رأياً حول ما إذا كان دينه يسمح له باستقبالي، أما بعد إعطائي الأمان فليس ثمة شك حول رأيه في ذلك، إذ صار بعدها يستدعيني يومياً بعد الظهر وذلك بعد تصريف مهامه اليومية.

تكوّنت لدي ملاحظات حول المنطق البسيط الذي ينتهجه في التوصّل لأحكامه، فعلى سبيل المثال، عمد إلى إعادة المجهر الذي كنت قد أهديته إياه، وعندما أبديت أسفي لذلك وأوضحت له إن في ذلك إهانة لي لأن رد الهدية في بلادي يُعد من قبيل الإهانة، أبدى وجهة نظره بوضوح في هذا الشأن وساق بعض المبررات التي تجعل الأمر يبدو معقولاً.

قال أنه يجب عليّ أن أتفهّم الأمور وفقاً للتقاليد المراعاة لديهم لا على ما يجري في بلادي، إذ كان يرى أن الهدية التي يتلقاها من مسافر أجنبي تبدو كما لو كانت مقابلاً لأمنه وسلامته، ويرى أنه كسلطان يمكنه أن يتبادل الهدايا ولكن كرامته تقتضي أن يتفوق على من يبادله، فضلاً عن أنه هو الذي يقوم باختيار الهدية التي تروق له، ويقدر قيمتها المادية، وإذا لم ترقه أو لم ير إمكانية الاستفادة منها فإنه يقوم بردها.

وقال أنه علم من الناس أن المجهر آلة تمكنه من أن يرى إلى حدود بلاده، إلا أنه حاول أن يرى بها شيئاً غير عادي لعدة أيام دون جدوى، وأنكر فائدة هذه الآلة، لأن الله منحة حدة البصر، وأبدى سعادته لتقديرنا لمثل هذه الاكتشافات، وأعاد لي المجهر، بعد ذلك، متمنياً أن يكون ذو فائدة عظيمة بالنسبة لي.

لم أفلح في إقناع السلطان باستلام خطاب التقديم الذي أعطاني له الشيخ عمر الحاكم المجاور له، وقال لي أن هذا الخطاب لا مبرر له، ولا يمكن للشيخ عمر إبداء أي شيء سوى التعريف بي، وأنه – أي السلطان- لا يريد أن تكون صداقة الشيخ هي الدافع ليعاملني بأفضل مما تقتضيه مبادئه الخاصة أو أن تمنعه من معاملتي على النقيض من ذلك.

لم يتسّلم السلطان علي الخطاب الذي مازال بحوزتي، أما الملكة الأم وشقيقتها جرمة أبو جبرين فيبدو أنهما لم يقررا بعد إذا ما كانا سيتصلان بي أم خلاف ذلك. أرسلت للملكة الأم بعض الثياب المصبوغة المجلوبة من كانو وذلك عن طريق عثمان مرافقي، ففوجئت برفضها هديتي وتحذيرها لي من زيارتها باعتباري شخصاً مسيحياً، وبذلك اقتصرت علاقتها بي على ارسال المرضى من حاشيتها لي يومياً لمعالجتهم، أولئك الذين يكتظ بهم بيتها.

أبدى جرمة أبو جبرين رغبته عن طريق أحد الوسطاء في أن يراني ولكن لمعرفتي بأنه لا أحد في هذه البلاد يمتلك سلطة حقيقية غير السلطان، لم أر جدوى من لقاء أصحاب هذه المناصب العليا في الدولة بل اكتفيت بما يغمرني به السلطان من حسن الضيافة، رغم انه لم يبد الود الذي أبداه لي حاكم برنو.

لم تصلني أي وجبة من مطبخ القصر طوال بقائي في أبشي واكتفى السلطان بمدي بالخراف والسمن والعسل ولم يغفل التكاكي لاستخدامها في شراء حاجياتي من السوق. أرسل لي في المرة الأولى عشرة من الخراف وخمسين تكية وتعادل ثمانية دولارات أسبانية «ماري تريزا». لاحظت صرامة رقابة السلطان لمستخدميه إذ رفض المخصي الذي أحضر تلك اللوازم قبول أي هدية مني متعللاً بأنّ مولاه يرفض ذلك.

لا يقبل السلطان بتاتاً أن يستثمر مستخدموه أريحيته تجاه الأجانب، ويبدو هنا البون شاسع بين مستخدمي السلطان علي وأولئك الذين يخدمون الشيخ عمر وسلطان دارفور الذين يجادلون لساعات طوال حول المكافأة أو الهدية المقدمة لهم وبأنها لا تليق بمكانتهم.

تناهى إلى سمعي مبكراً من الأهالي وفاة الرجل المقدام، فقيد العلم «إدوارد فوقيل»، وأكدت ذلك لاحقاً إدارة سلطنة ودّاي، وشُرح لي سبب موته وكنت متفهماً تماماً لهذا الأمر.

أمضيت عدة أسابيع في المدينة وأنا لا أظهر إلا ذاهباً إلى الحاج «تنقا تنقا» الدنقلاوي صديق السلطان ومستشاره، الذي يقع مسكنه على مقربة من نُزلي والذي عهد إليه بمهمة حمايتي.

أخبرت السلطان بنية مغادرتي إلى دارفور تمهيداً للعودة إلى وطني، وفكرت بعدها في بيع ما زودني به الأمير الكريم شيخ عمر من العملة السائدة في ودّاي، وهي لفائف من القماش القطني المصنوع في أوروبا، طول الواحدة منها سبعة عشر متراً وبعرض خمسة وستين سنتيمتر وتُعرف بالمقطع الخام أو «ترومبا» ويُجلب من مصر عبر النيل حتى دارفور وودّاي. أصبح هذا القماش منعدماً تقريباً منذ فترة طويلة ويكاد السوق أن يخلو منه، الأمر الذي أدى إلى صعوبة بيع القدر اليسير من بضائعي. يساوي التركيدي أو الشال النسائي المجلوب من كانو ثلثي دولار ماري تريزا في العادة وهو من ذلك النوع المتوسط الجودة، ويصلح لشراء الحاجيات اليومية.

وتبلغ قيمة قطع الترومبا حوالي دولار ونصف في ودّاي عليه قررت أن أتجنب البيع بأسلوب (القطاعي)، لأن ذلك يتطلب مهارة عالية.

ومن الذين استفدت منهم للغاية بتقوية علاقتي بالسلطان وعلاقتي التجارية الشريف الحاج سالم القيرواني والذي عاش في مدينة تونس، وكان يسدي لي النصائح القيمة والصادقة كما لو كنت من مواطنيه، وظل يعيش في أبشي منذ ما يقارب الستين سنة، ويلم بفنون التجارة حيث يُعتبر مستثمرا خبيرا وتاجرا ناجحاً.

نشأت صداقة حميمة بيني وبينه، بالرغم من تدينه وشرفه، اعتاد على مقابلتي يومياً وكان

لا يأنف من مؤاكلتي في طبق واحد، رافعاً بذلك مكانتي بين الأهالي المتعصبين.

أما زميله ومواطنه الشريف محمد القيرواني فهو أقل منه ذكاء وحنكة، ومع ذلك شخصاً متميزاً بالنسبة لي، فقد قابل وصوله إلى أبشي الرحالة الشهير شوينفورث في بلاد النيام نيام، اعتقد الأخير أنه رحالة أوروبي لما أدرك مدى معرفته. لقد ذهلت من جانبي عندما طلب مني تعليمه اللغة الإنجليزية التي كان له بعض الإلمام بمبادئها ولديه فكرة عامة عن جغرافية أوروبا والمناطق الأخرى وكان يستطيع قراءة الخرط الجغرافية، و ينشرح لمناقشة علم الفلك والعلوم الطبيعية وتعريفات خطوط الطول والعرض وما إلى ذلك، ولكنه لا يبدو جيداً في إدارة شئونه.

كان حاج سالم يوجهه بتنمية أعماله، بيد أن حاج محمد، رغم مكانته كان على وشك الإفلاس لدى مغادرتي ودّاي.. ولسوء الحظ سقط حاج سالم ضحية الدسنتاريا المزمنة قبل نهاية العام الداء الذي كان يعاني منها قبل وصولي.

كنت مهتماً بأن أتقرب للحاج أحمد تنقا بعد عودته من الرحلة التي ابتعثه السلطان لها، لم أرغب في ذلك لكونه مقرب من السلطان فحسب، بل لأنه سيكون مرافقي في رحلتي إلى دارفور ومن ثم إلى مصر.

وحاج أحمد رجل صغير الحجم، ذو لحية كثيفة ويبلغ من العمر حوالي الثامنة والأربعين ويشغل منصب رئيس التجار الأجانب. كان وثيق الصلة بالسلطان الحالي منذ أن كان ولياً للعهد أبان فترة أبيه السلطان محمد شريف، حيث قدم له خدمات جليلة، إلا أنه طرد في جائحة شملت كل التجار الأجانب.

ولم ينس السلطان علي خدماته الجليلة بعد ان اعتلى العرش، فبعث إليه طالباً منه العودة إلى ودّاي، أما الآن فإن القدر الأكبر من تجارة ودّاي مع الدول الأجنبية بيد الحاج أحمد تنقا تنقا، وأنا ممتن له على النصائح والمعلومات الغزيرة التي تلقيتها منه.

حملت الأنباء موت شقيق الحاج أحمد تنقا تنقا الذي تقدمه إلى دارفور مع العاج وريش النعام كمقدمة للرحلة التي ينوي القيام بها. اعتكف الحاج أحمد بمنزله لسبعة أيام كما تقتضي العادة واستقبل وفود المعزّين. وأعدت الصدقة في اليوم الثامن وتم توزيعها على الجميع وقد دفع السلطان بعشرة رؤوس من الأبقار.

وقد رفع من شأن التجار الأجانب التقدير الرفيع الذي يتعامل به السلطان مع شركائه في التجارة، وبالتالي ارتفعت الأرباح التي يجنونها منها. يتعامل من هم أقل صيتاً من التجار مع الأهالي الذين يبدون متسامحين مع الأجانب خوفاً من السلطان ولكن يحسون نحوهم في دواخلهم بأنهم طفيليون ودخلاء ينعمون بخيرات بلادهم، ويعاني من ذلك بصفة خاصة الجلابة وأكثرهم من الدناقلة، ويُعتبر إطلاق لفظ دنقلاوي سُبة تماثل لفظ «حداد» أو «كبرتو»[1]، أي عضو طبقة الموسيقيين المحتقرين في البلاد. إن خشية القوم من السلطان

1- يعاتب النعب على الألات يقومون بأداء بعض الأعمال والمسرحيات الهزلية الترفيه عن السلطان ومن ضمن مهامهم تنفيذ أحكام الإعدام، وهم من الطبقة الدنيا كطائفة الحدادين والدرموت.

وحدها التي أتاحت لي العيش دون أن يتحرّش بي أحد من المواطنين. ودلائل القبول التي يبديها السلطان نحوي أجبرت مواطنيه على التعامل معي بسلوك طبيعي ولائق. لدرجة أن كان بعضهم يبدي رغبته في أن أزوره، كما كانوا يلجأون إليّ لمدهم بالنصائح في شئون صحتهم، ولولا ذلك التقدير السلطاني لأودى هؤلاء المتعصبون بحياتي، وللحقيقة فقد كانوا يعانون الأسقام طوال بقائي بينهم، كانت الملكة الأم أول من بدأ باستشارتي بشأن الحالات المرضية، رغم مبادرتها لي بالعداء، وكانت ترسل لي يومياً فوجاً من نساء دارها الكبيرة واللائي تفوق أمراضهن — للأسف — قدراتي الطبية حيث لا يمكن علاج مثل تلك الحالات المتأخرة باستخدام عقاقير دون أن تؤذي المعدة. الحالات التي عُرِضت عليّ متنوعة وتشمل أمراض الرحم وتلف مقل العيون بفعل الجدري وإعتام العدسة الجلكوما وأمراض الغشاء المخاطي والتهاب القرنية والروماتيزم المزمن والزهري والتهاب الرئتين.

يسهل التعامل مع المرضى الجلّابة والطرابلسيين لأنهم الفئة الوحيدة التي تبدي الامتنان، بيد أن أغلب المرضى من المواطنين الأصليين لا يستفيدون من العلاج.

يعاني السلطان من مرض البواسير، وقد تعاطى أدويتي بكل دقة وكان يتناولها بثقة رغم تحذيرات بطانته له ورغم أن العادة تقضي بأن أتناول جرعة من الداء أمام كل الحاضرين قبل أن يتناوله السلطان.

بدأت في التعرُّف على الأشخاص المميزين من ذوي الشأن في البلاد أثناء ترددي على القصر الذي كان يتم ثلاثة مرات على مدار الأسبوع، ولمست من تلك الزيارات أن شاغلي هذه المناصب ليس لديهم تأثير على السلطان أكثر مما يمتاز به الخدم.

أصيب السلطان بخيبة أمل عندما علم بألا خبرة لي في إصلاح الأسلحة وعدم خبرتي في البنادق لأنه كان موقناً تماماً بأننا نفهم في كل الحرف اليدوية والفنون التطبيقية، وعلى كل فقد كان مُقدراً جداً لمهنتي كطبيب.

ودار حوار بيننا عن الدين المسيحي واستفسرني عن أحوال الدول المسيحية، واستفسرت - من ناحيتي - عن كثير من المعلومات التي تشكّل معرفتها أهمية قصوى لي بوصفي رحالة متعطش لمثل هذه المعلومات.

كان أحد مواضيع النقاش، حيوان الكركدن الذي يتواجد في أرض وداي، حيث اختلفت الآراء حوله، إذ أفاد التجار الأجانب بأنه ذو قرن واحد. وصوره بعضهم بأنه يبدو كالزراف وقال آخرون بأنه يشبه الفيل، وشبهه البعض بالجاموس، ثم اختلفوا حول ما إذا كان بقرن واحد أو مثنى أم ثلاث، وذهب السلطان إلى تشبيهه بالخنزير البري لوناً وهيئة.

حُسم هذا الجدل مصادفة وذلك بواسطة أحد صيادي وحيد القرن وذلك بأن أوضح الأمر بعد أن جلس على الأرض وصاغ شكلاً لوحيد القرن من الطين، واضعاً على رأسه قرنين وبذلك تأكد الجميع من هيئة ذلك الحيوان.

وبما أن السلطان ظلّ يردد على مسامعي رغبته الأكيدة في مساعدتي فقد طلبت منه إهدائي وحيد قرن صغير، لكنه اعتبر مثل هذا الطلب مستحيلاً وذكر لي أن هذا الحيوان شرس بدرجة تغني عن المجازفة بمحاولة القبض عليه.

يُعتبر وحيد القرن أكثر الحيوانات خطراً في ودّاي، ويمكن أن يهاجم الإنسان دون أن يتحرش به، ويتم صيد هذا الحيوان في جنوب البلاد بذات الأسلوب الذي يصطادون به الفيل إذ يناور أمامه أحد راكبي الخيول السريعة بينما يعمد زميله إلى طعنه بحربة كبيرة من الخلف بين المفصل والذيل، وهذا نمط بالغ الخطورة من الصيد، يتطلب قوة ومهارة إضافة إلى الجرأة.

يكثر وحيد القرن على مجرى البطحة وفي المناطق الداخلية للبلاد، وقد جرت العادة هناك على صيده من أعلى الشجر وأثناء مروره حيث يرشقه الصائد من أعلى برمح في سلسلته الفقرية.

فكرت قبل مغادرتي في إثراء معلوماتي فيما يتعلق بطبوغرافيا أرض تلك البلاد أسوة بالتقارير التي جمعتها في برنو، وما تحصلت عليه من الناس الذين وفروا لي تلك المعلومات عن جنوب تلك البلاد والتي تُعد منطقة مجهولة بالنسبة لي، مثل حوض نهر السلامات ودار رُنقا وكوتي والأنهار المنحدرة على مناطق الوثنيين إلى الغرب، وأنا على قناعة تامة بأن تلك الجهات هي منابع نهر شاري.

بدا تفكيري في تغيير الدواب منذ تلك اللحظات، حيث ثبت لي عملياً ان تلك الجمال التي أحضرتها من برنو لا تصلح لمواصلة الرحلة، وكنت على يقين تام بأن من ان القدر وحده هو الذي أبقى على حياتي قرابة السنة في ودّاي.

قمت في منتصف مايو مع الكرسي بجولة في وارا، العاصمة القديمة ومنها إلى نمرو المدينة التجارية التي تقع غربها، وكنت قد أبديت رغبتي للسلطان في زيارة معقل أسلافه، فوافق فوراً وطلب أن تبدأ الترتيبات لذلك.

وتحدد يوم 16 مايو موعداً لبداية الرحلة، وفي الفجر الباكر من اليوم المحدد وصل مندوب الكرسي الذي اصطحبني إلى داره التي تقع غرب المدينة.

خرجنا من منزله مع شروق الشمس، وقد أتاح لي التجوال القصير معه تكوين فكرة عامة عن المدينة والمناطق التي تحيط بها.

تقع أبشي على الجانب الجنوبي من واد عريض منبسط تتسنم رابية يجري تحتها الوادي شرقاً صوب منحدرات كلنقن الواقعة إلى الغرب من سلسلة جبال كوندونقو.

وتُحد المدينة من الجنوب بسلسلة منعزلة تحيط بها من الشمال تلال منخفضة تمتد من سلسلة كوندونقو حتى «شقرء. توجهنا ناحية شمال الشمال الشرقي ملتزمين هذا الاتجاه طوال اليوم مع بعض الانحراف شمالاً ثم شرقاً، و كان السفر سريعاً.

كانت هيئة الحصان الذي يمتطيه الكرسي بائسة إلا أن سرعته أفضل من خيولي التي

جلبتها من برنو. لا يُوجد في الواقع حصان في تلك المناطق أسرع من خيول ودّاي، ولا تبدو تلك المناطق صالحة لتربية الخيول التي غالباً ما تنفق، أما تلك التي تجلب لها أو تلك التي تم استيلادها وتربيتها تبدو غير حسنة المنظر.

تبدو هيئة حصان ودّاي غير جذابة ولكن قوة أدائه غير عادية، إذ يتمتع ببنية غليظة متينة، قصير الشعر ذو عنق عريض ويمتاز بصدر قوي يميل للسمنة ومع ذلك فهو سريع جامح لا يكل، ويتفوق على حصاني الذي كان مثار إعجابي والذي جلبته معي من برنو، إذ كان يجاري حصان الكرسي بالكثير من العنت، مما اضطرني لأن أعدو عدواً حتى يمكنني الاقتراب من حصان الكرسي، وهكذا كانت الرحلة متعبة نوعاً ما.

بعد أن عبرنا مجرى النهر ثم التلال التي تحد الوادي شمالاً والتي تقوم على سفوحها الشمالية الجنوبية قريتا أقودنج واللتان تشتملان على حوالي المائتي كوخ وينحدر سكانهما من قبائل كلنقن، بلغنا وادٍ عريض منبسط — يلي القريتين — تغطيه أشجار الأراك والمخيط وعلى الجانب الشمالي منه ينبسط وادٍ آخر يفضي إلى قرية ماندفانا ذات الأكواخ المائة والمأهولة بسكان ينتمون إلى قبيلة كوندونقو.

مررنا بوادٍ ينفذ إلى قرية أبندرو والتي تتكوّن من عدة مئات من الأكواخ إلى جانب وادٍ أكثر أهمية منْ تلك الوديان الثلاثة التي مررنا بها، مجرى هذا النهر ضيق، وتكشف أخاديده الحادة داخل التربة الصلبة عن مدى قوة تياره في موسم الأمطار وهو ينحدر من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، تصب كل المجاري في البطيحة (النهر الصغير) في وقت واحد.

يبدو أن المناطق المجاورة شحيحة جداً بالمياه شأن كل شمال ودّاي، وتُوجد بالقرية بئر واحدة يتراوح عمقها بين المائة والمائة وخمسين متراً، ولا يتوفر فيه الماء بوجه كاف.

توقفنا على الجانب الآخر من الوادي بعد أن قطعنا نصف الطريق تقريباً وذلك لتناول وجبة الإفطار، والتي تتكون من دجاجة وقربة ـ لدهشتي ـ كانت تحتوي على المريسة[1]. وبعد أن أتى الكرسي على جل ما بالقربة واصلنا رحلتنا مروراً بجبل على هيئة الجرس وهو على علو متدرج ويسمى جبل «النصف» لأنه يمثل نصف المسافة. وعند هذا المكان تبرز الحافة الشمالية لسلسلة جبال كوندونقو التي تقع إلى الغرب على مسيرة ثلاثة ساعات، ويشكل جبل النصف رابطاً بينها وبين الأجزاء الجنوبية الغربية لمجموعة جبال كدوي. أصبحت الأرض ـ بالتدريج ـ حجرية والقمم مستوية على خط مستقيم ناحية الجنوب الغربي يلي ذلك وادٍ آخر تحده من الشرق سلسلة جبلية منخفضة تمتد من الشرق إلى الغرب وتُوجد على سفحها قرية بروريت الصغيرة والتي واجهتنا بها وعورة الطريق عند منتصف النهار إذ تنتشر بها كتل كبيرة من أحجار الجرانيت والصخور الترابية الخشنة.

كان حصاني يسير بصعوبة بالغة بينما يعدو حصان الكرسي على طول الطريق بكل سهولة ويسر.

1- نوع من نبيذ الذرة يسميه المصريون البوظة.

يترامى على الجانب الآخر من السلسلة واد به أشجار متعددة، تحده على سفوحها قرى برتي الثلاث، و الآبار التي تمدها بالمياه على أحدى القمم، وهي وفيرة المياه وليست عميقة كآبار أبندرو توقفنا هنا لسقي الدواب ولانتظار الخدم الذين ما زالوا خلفنا لأنهم كانوا يسيرون على الأقدام.

يمكننا من هنا مشاهدة عدة مجموعات جبلية، منها «شيبي» إلى الشمال الغربي والغرب ، ثم جبال «واراء إلى الشمال الشرقي، فضلاً عن مجموعة أبندرو إلى الشمال الشرقي.

أدركنا الخدم متأخرين في الرابعة بعد الظهر وذلك لأنهم مكثوا قليلاً ببرويت بسبب الإجهاد والعطش.وتحركنا بعد ذلك بسرعة لأن هناك سحباً رعدية تلوح جهة الشرق بعد أن كانت في البدء في جهة الجنوب الشرقي. هبت الريح من ناحية الجنوب الغربي ثم غيرت للاتجاه المضاد. اجتاحت العاصفة كل إقليم شيبي، وأصابنا وابل منها. عبرنا بعد ذلك قرية مردبة وبعد ساعات وصلنا هدفنا لذلك اليوم وهو مدينة نمرو حيث استقبلنا بعض فرسان الكرسي.

تتكون نمرو من القرية الرئيسة والتي تحوي ما بين مائتي إلى ثلاثمائة مسكناً وتبدو جذابة بدورها الطينية الفسيحة التي ألحقت بها إحدى عشر قرية صغيرة وأغلب الأهالي من دنقلا والخرطوم وسنار وكردفان يقوم على حكمهم شيوخ، يتراوح عدد قاطني الحي الرئيسي ما بين أربعة ألف إلى ستة ألف، ويقف الكرسي على قمة النظام الإداري، هناك مكتب يديره أحد مماليك السلطان مع أمين تحت إمرته، ينتمي مضيفي الكرسي الحالي إلى عائلة نبيلة من الجُلابة، وقد ورث الكثير من أملاك والده عندما كان في السادسة والعشرين من عمره يُعتبر ما ورثه ثروة كبيرة حسب معايير تلك البلاد وقد قال لي بأنه دفع كل ذلك الإرث للسلطان مُقابل أن يشغل منصب كرسي الجلابة.

كان السلطان على معرفة به وبطاقاته وقدراته لذا منحه ثقته ومباركته. احتاج الكرسي الشاب إلى سنوات لتثبيت وضعه حتى تمكّن بقوته وصلابته من إزاحة كافة العقبات التي كانت تحول دون توليه هذا المنصب.

يُعد منصب الكرسي من الوظائف المجزية للغاية، فهو يتقاضى الضرائب من الجُلابة المكونة من اثنين مقطع «ترومبا» عن كل جمل من دارفور، «وتركيدي» واحد عند كل أوبة لهم من الغرب. كما يختص الكرسي بالقضاء في جرائم النهب والزنا والمشاجرات الدامية وبقية المخالفات. وغالباً ما تكون العقوبة غرامة مالية تؤول إليه، أما في الجنايات الكبرى فإن نصف الغرامة يؤول إلى السلطان.

يتميز مضيفي بقامة معتدلة وبنية قوية مكنته من التمتع بالحياة التي يعيشها، ويبدو أن الأثر الذي تحدثه المريسة دون ما تفعله مشروباتنا الكحولية، إذ يبدأ مضيفي في تعاطيها منذ الفجر حتى موعد وجبة العشاء، وهو لا يتناول أي نشويات بل يقتصر طعامه على اللحم المشوي

فقط، ودرج على ممارسة تلك الخطيئة جهاراً وليس في السر كما يقتضي الحال باعتباره مسلماً. فيتناولها أحياناً في الفناء وهو بين عماله وأصدقائه وأثناء ممارسته لأعماله الإدارية وحتى أثناء فض النزاعات والبت في المخالفات.

تركت الكرسي في اليوم الأول لأعبائه الكثيرة وخرجت لألقي نظرة عامة على مدينة نمرو، فقمت بزيارة أحد مرضى الجلابة بناء على طلب السلطان وهو الفكي أحمد والذي كان يعاني من مرض الاستسقاء الحاد.

وقمنا في اليوم التالي برحلة إلى وارا، تحركنا في الخامسة صباحاً وسرنا حوالي تسعين دقيقة على الخيل نحو الشرق، فوصلنا مدخل الوادي الصخري المؤدي للعاصمة القديمة التي نقل السلطان محمّد شريف ـ والد السلطان الحالي ـ مقر إقامته منها إلى أبشي لخشيته من مجاورة أبو سنون (كدوي)، وهي من القبائل الأكثر قوة من بين القبائل النبيلة والتي لا تميل لعائلته. وأشيع بأن الأرواح الشريرة هي التي جعلت القصر السلطاني غير قابل للسكنى، وذلك كمبرر للانتقال. وصارت العاصمة السابقة - نتيجة لهذا الانتقال - قرية صغيرة لا تتعدى الثلاثين كوخاً.

تقع المدينة على تقاطع واد ضيق، وتحدها الجبال من الشرق والغرب والجنوب وتكوّن الجبال الشرقية والجنوبية سلسلة متصلة، أعلى قممها إلى أقصى الجنوب ويقدر ارتفاعها بارتفاع جار شنفيل[1] في الراين، ويُحد الوادي الضيق من الناحية الغربية بالسرّيقة التي كانت في الماضي مكاناً مقدساً وكانت عنواناً للسلطة، وكان يتحتم على السلطان أن يخلد إلى هذه البلدة لمدة أسبوع في بداية حكمه. يُوجد ممر ضيق بين الجبال والسلسلة التي تحد هذا الوادي من الجنوب والشرق، وتتدفق المياه من الجبل من ناحية الجنوب الشرقي.

تُوجد هناك قرية «فاندفن» وهي ما تبقى من وارا القديمة، و إلى جوارها منطقة تومنق مقبرة السلاطين. يستطيع المرء من هنا أن يطل على كل المنطقة التي تترامى شرق تلك القمم المخروطية والتي ترقد على سفوحها قرى المنقا الأصليين.

إلى الشمال الشرقي تقع جبال مادلا ومادبا والتي لا تبعد كثيراً عن بعضها، كما تُوجد مناطق أبو سنون وكدوى الجبلية على بعد يوم ونصف اليوم باتجاه الشمال الشرقي وقد أصبح القصر على حافتها طللاً بالية بشكله البيضاوي الضخم. وقد تهدمت الأجزاء الداخلية تماما بينما جدرانه الخارجية والتي استخدمت فيها كميات كبيرة من الطوب مازالت تقاوم الزمن.

لا زال مسجد عبد الكريم الكبير بحالة جيدة ولا يبدو عليه أي تصدع أو انهيار. وقد شيد بالطوب الأحمر ويتميز بمئذنة سامقة حادة الجوانب تعلو إلى عشرة أمتار. ويعد بحق إنجازا معمارياً رفيعاً في مثل هذه المناطق. شرد خيالي بين تلك الأطلال في مشاهد الأفعال الدامية والممارسات التي ربما ارتكبت بواسطة السلطان وعماله، بينما جلس الكرسي بمعية عبيده أمام المسجد يحتسون المريسة من القرية التي تلازمه.

1- جبل في ألمانيا.

بعد أن انتهيت من تجوالي وفراغه من احتساء المريسة بدأنا الاستعداد للعودة إلى نمرو، استمرت جلسة احتساء المريسة من منتصف النهار ولم تتوقف إلا في أوان التمتع بالقيلولة، ثم استأنفوا الشرب مرة أخرى بحماس جديد، ولا زالوا على ذلك حتى أرخى الليل سدوله، كان الرجال يشربون بكؤوس من القرع سعة الواحد منها تتراوح بين الثمانية والعشر أوقيات، ويُعتبر من غير اللائق ألا يشرب الشخص كأسه من جرعة واحدة.

كان الناس ودودين معي، عدا أحد الفقهاء المتعصبين من معلمي الصبية الذي انبرى في الهجوم على الدين المسيحي، وبالرغم عما يكنه الحاضرون من احترام لشخصه ووظيفته إلا أنهم طلبوا منه أن يلتزم حدود اللياقة. وقد اعتذروا لي عما بدر منه من تصرفات تعود إلى حدة طبعه.

انتهزت ما أتاحته لي تلك المناسبة مبدياً رغبتي في مناقشة منطقية لأمور الدين، وسأقطع لذلك سنوات من العيش وسط المسلمين المتفهمين في تونس، فأنا لم آت إلى بلاد السودان طلباً للهداية الدينية.

أمضيت بعضاً من الوقت في تطبيب مرضاي الذين يعانون من شتى الأمراض كالجذام وتلف مقلة العين وقروح الجدري وفتاق السرة، والأخير شائع في هذه البلاد لأن الحبل السري يقطع أقصر مما ينبغي.

أزمعت العودة إلى أبشي في الغد، ولم يكن الكرسي يجرؤ على تركي لأعود منفرداً وذلك لخوفه من السلطان، ولما كان غير راغب في أن يعود سريعاً إلى أبشي، انتهج أسلوباً مراوغاً لإبقائي، فقد اختفى في أحد قرى نمرو الصغيرة التي كانت له بها زوجة ثانية، ولم يعد إلا في وقت متأخر بحيث استحالت المغادرة في ذلك اليوم.

حاول إلهائي عن غيبته بأن أرسل لي فتاتين صغيرتين ممن يعملن في داره وكانتا ترتديان ثياباً فاخرة، ولهما بشرة تميل إلى الحمرة، عدا كونهما صغيرتين فلم تكونا تتميزان بفتنة خاصة.

كان شعرهن مصفف بعناية على طريقة نساء نفرة، حيث تتكاثر ضفائر صغيرة في سماكة الريشة التي تغطي كل الرأس إلا أنها لا تتدلى إلى الجبين شأن النسوة المتزوجات وتشكل ضفيرتان مجدولتان من صوف الضأن إطاراً حول الأذنين تحفظان ترتيب الضفائر الصغيرة وتمنعاهما من التبعثر للأمام. وتتدلى الضفيرة الوسطى إلى منتصف الرأس، والتي تكون بحسب العادة في وداي واحدة للفتاة واثنتان للمرأة المتزوجة وتبدآن من مقدمة الرأس إلى آخره وتشدان أيضاً بضفيرتي صوف الضأن. وتتدلى من تلك الضفيرة قطعة ذهبية على الجبين. وتُحلي ضفيرتا الجانبين بقطعة مرجانية جميلة. كان شعرهما مدهوناً بالزبد بغزارة كما ذر عليه مسحوق مستخلص من تراب أحمر من منطقة دمي[1] وأيضاً مسحوق التبغ ورشت عليه بعض مستخلصات النباتات المعطرة.

1- منطقة تقع في الصحراء شمال البديات.

وتضع الفتاتان على الجانب الأيمن من الأنف حلقة مرجانية كبيرة لتفوق نموه، وهي تبدو مشوهة للأنف تماماً. تبدو الشفاه وكل الفم بما في ذلك اللثة بلون أزرق جميل يميل إلى الرمادي وتلك من الأمور المرغوب فيها في ودّاي. وحُليت الأصابع بالخواتم الفضية الكبيرة المتنوعة مع تزيين العنق بالقلائد والحلقات السميكة من المرجان وجدائل الحرير، ويضفي ذلك على نساء ودّاي الكثير من السحر والجاذبية مما يجعلهن هدفاً للإغواء والملاحقة.

وعندما أبديت إعجابي بالفتاتين، سألتني مباشرة عما إذا كنت أرغب في الزواج، وعندما اعتذرت بأن التقاليد في بلادي لا تسمح لي بالزواج بأكثر من واحدة، فهمتا بأني أرغب في الزواج بواحدة منهن فقط وبالتالي عليّ ان أعيد التي لا أرغب في الاقتران بها إلى الكرسي، وأن أرتب للأمر بوجه لائق.

عاد الكرسي في العصر وقد أمضى بقية اليوم في حفل احتساء المريسة مختفياً لمدة أطول من ذي قبل، أما أنا فكان يؤنس وحدتي زيارة المرضى العديدين. وكان الشراب المقدم في هذه الجلسة – إلى جانب المريسة – مشروب أحمر مصنوع من البلح. هذا المشروب أقوى من خمرة الدخن ولكنه لا يشبه «الكَلِبي»، أي النبيذ، ومع ذلك لم أر أحداً منهم مخموراً طوال اليوم رغم الذي احتسوه من كميات كبيرة، بعكس ما يحدث في أبشي إذ يُرى العبيد والطبقات الدنيا من الأهالي وهم يترنحون في الطرقات من أثر السكر. يتناول الكرسي وحاشيته في هذه الجلسات قطعاً صغيرة من اللحوم النيئة المتبّلة خصوصاً البطن والكبد لأجل فتح الشهية للشراب.

وتناول هذه المأكولات من الأمور المعتادة وعلى نطاق واسع في ودّاي ويتناول الجلابة على الأخص كبد الإبل وأعترف انه من بين الأطعمة التي أعتدت عليها خلال وجودي في إقليم السودان فإن كبد الإبل النيئة وثمار القورو تركتا ذكرى حسنة في نفسي،، وكنت بعد وصولي القاهرة أصنع كبد الإبل النيئة بنفسي وعلى الرغم من رقي الفنادق والمطاعم القاهرية إلا أن كبد الإبل يضاهي أفضل الأطباق التي كانت تقدم لي.

جاءتنا الأنباء بان السلطان علي قد غادر العاصمة وأنه سوف يعود بعد عدة أيام وكان ذلك لحظة عزمنا على العودة إلى أبشي في العشرين من مايو، وهنا وجد الكرسي نفسه متحرراً من التزامه بمرافقتي إلى أبشي. تركت نمرو في فجر اليوم التالي وسافرت بمفردي بعد ان توقفت قليلاً في أبندرو عند منتصف النهار، حتى دخلت أبشي في العصر، ويبدو القصر للقادم من جهة الشمال بهيجاً للغاية، ويقع الوادي البعيد الذي ينحدر من الجنوب على أرض جميلة عالية بين جبال كوندونقو وكلنقن وهو يعطي صورة بهية بهيئته غير المتناسقة.

نشأت المدينة من جذر تلك الزرائب المحيطة وازدهرت – بالطبع – بإقامة مقر السلطان بها والذي تحيط به مساكن أفراد العائلة الحاكمة وكبار الشخصيات، وذلك على هيئة حلقة كبيرة على غير انتظام. تُوجد مساكن الأهالي حتى الآن خارج المدينة، ولا يجاور مقر السلطان إلا قصر (المومو) والدته، وحول القصرين يعيش العبيد والمقربين من التجار الأجانب من النيل

وكردفان، وإلى الجوار يعيش «تتنلاك» ابن السلطان. يُوجد في كل القصر طريق واحد يتغير اتجاهه بغرابة من الشرق إلى الغرب، وتبدو الطرق العامة الأخرى كممرات ضيقة تتخللها ميادين فسيحة ثم منازل من الطين وأكواخ من القش متناثرة بغير نظام بحيث يصبح من العسير النفاد خلالها.

تُوجد بالجانب الشرقي من المدينة أكواخ من الطوب مسقوفة بالقش تابعة لقصر السلطان، كما تُوجد الإسطبلات السلطانية بالجدر الداخلية للقصر والتي تشكل السور الخارجي، ملحق بها مكان إقامة عمال السلطان وسياس الخيل.

تقع الساحة السلطانية على الجانب الشمالي أمام الجدران وهي كذلك مقر السوق، وتحتضن الناحية الشمالية الشرقية المكان المخصص «لكبرتو» - طبقة الموسيقيين المنبوذة - وعلى الجنوب من مقر السلطان ويُوجد امتداد قصر الملكة الأم. يحتل الأحرار من الأهالي والأجانب الجزء الشرقي من المدينة وتتراوح الكثافة السكانية لأبشي ما بين عشرة إلى خمسة عشرة ألف نسمة.

الإقامة في أبشي
21 مايو – 31 يوليو 1873

عدت من وارا قبل أوبة السلطان من جولته التي قام بها لتفقد مقار توطين الباقرمة، إذ ظلّ يتابع باهتمام تدفقهم بأعداد كبيرة إلى البلاد وقد راج في العاصمة ان السلطان قد جلب منهم إلى ودّاي ثلاثين ألفاً ما بين حر وعبد، وقد يكون هذا العدد على وجه مبالغ فيه، والتقدير الملائم هو ما بين اثني عشر وخمسة عشر ألفا.

وتم توزيع هذا العدد – وأكثرهم من الرقيق – على مسئولي السلطنة وتم بيع آخرين، وصُدر الأغلبية خارج السلطنة. ويبدو أن مسألة عدم تمييز الدين بين الحر والعبد لا تراعى بدقة على حسب ما أقره لي الحاكم حاج سالم، ومن الصعب أحياناً تمييز من نشأ نشأة حرة عمن هو خلاف ذلك. وقد شاهدت أثناء وجودي هناك إحدى الجلسات التي كان يعقدها السلطان للفصل في النزاعات حول الرقيق المجلوب من باقرمة، وقد أمر السلطان في تلك الجلسة أحد كبار مستخدميه أن يقدم له تقريراً بشأن شجرة نسب أحد أطراف النزاع.

يتم تزويج النساء الشابات من الحرائر للمسئولين، أما المتقدمات في السن، فيلحقن كخادمات للأسرة المالكة.

قام السلطان بتوطين بعض الرجال بالعاصمة، واستخدم آخرين كعمال زراعيين في أنحاء مختلفة من البلاد.

يتفوق الباقرمة على سكان ودّاي بالمهارة العملية ويشغلون كافة المهن، وبالكاد تجد غيرهم ممن يقوم ببناء المنازل الطينية عدا قلة من الكتكو أو المكاري، كما يجيدون بناء المساكن من القش والقصب وهو فن انتهى إليهم من المناطق الوثنية ويتفوقون في ذلك على سكان ودّاي.

فضلاً عما تقدم يقومون بصنع السروج لجياد السلطان وقواده، وشكل السروج المصنوعة في ودّاي صغيرة وضيقة وعالية من الأمام بتقويس عند الرقبة تعلوها رمانة تمسك باليد، محشوة بمسند عال بعرض الراحتين وتميل إلى الخلف. يحترف الباقرمة الصناعات الجلدية من أحجبة وجفائر (أغماد) السكاكين وخلافه، ويجيدون نسج الأقمشة القطنية والحياكة بطرق غير مألوفة في ودّاي. وتنال هذه المصنوعات تقدير السلطان وتشجيعه، إلى ذلك فهم يتفوقون على الودّاي في شئون الزراعة.

حقق السلطان نجاحاً كبيراً في تحديث الحياة ببلاده عن طريق التهجير القسري للباقرمة وتوطينهم في ودّاي، وهو إنجاز متميز يضاهي فتح مسينا عاصمة باقرمة.

طلبت مقابلة السلطان حال عودته من باقرمة لأنقل له مجريات رحلتي إلى تمرو ووارا ولأرتب معه شئون رحلتي إلى دارفور وقد كان بشوشاً كعادته. واستفسر عن العديد من الأشياء التي تشكل المحور المفضل للحديث لديه، فتطرق لبارود البنادق وصناعتها، ثم صناعة المدافع والبواخر وما إلى ذلك من الأمور.

وقد سمح لي أن أزوره وقت ما أشاء، لأنني أصبحت شخصية مألوفة في المدينة على أن يتم اصطحابي بأحد رجاله إلى مقر إقامتي بعد مغيب الشمس.

تعرّفت إلى شخص يدعى الحميد منذ رحلتي مع أولاد سليمان، وكان أسير حرب عند السلطان وعمل معه كوسيط مع الغزاة العرب. عاد من كانم مصطحباً معه أحد أفراد عصابة من العرب. وهو شاب صغير السن ينتمي إلى قبيلة أورفلا في طرابلس التي كنت على معرفة تامة بها حيث أقمت بين ظهرانيها في أبريل عام 1871م. وقد نقل لي هذا الشاب أخبار الغارة الكبرى التي إنطلقت من طرابلس وترتب عليها إحتلال «كاوار» وأشرفت على كانم، بحيث أن العرب نقضوا الصلح الذي ابرموه مع زعيم «الدازا» «حلوف» وكان الأخير قد قتل أحد أصدقائي ويدعى هزاز في أحد المعارك.

ويبدو ان العرب بعد أن ازدادت ثروتهم صاروا يعتمدون على مبدأ القوة فحسب وهم إذ لا يزالون يحافظون على السلام مع برنو ووداي، إلا أنهم يناوشون الطوارق والبديات والداز وعرب شمال وداي.

بعث لي الأورفيلا بالتحايا ومن زوجاتهم اللاتي يلعبن دوراً هاماً في شئون القبيلة وكنت أحظى منهن بتقدير خاص. خرجت من عزلتي الحذرة تدريجياً، وكنت نشيطاً في ممارسة الطب والجراحة بقدر ما تسمح به أدويتي وادواتي، وكان أكثر نشاطي بين الجلابة الذين كنت أحس بأنهم أكثر قرباً مني لثقافتهم وتعليمهم ومعرفتهم بالعالم الخارجي. وعزز تلك الصداقة التي قامت بيني وبين عميدهم الحاج أحمد تنقا تنقا والتي كانت بالنسبة لي بمثابة الحصن والملاذ الآمن.

سبق لي أن عالجت أحد أعمام أحمد وهو شاب يدعى جبرين (جبريل)، جاء من دارفور وهو يعاني الإلتهاب الرئوي الحاد منذ قرابة الشهر وأصيب نتيجة لذلك بخراج في الرئة وبرز من خلال القفص الصدري مما أدى لظهور جيوب هوائية تحت الجلد وبالرغم من تردي حالته إلا أنه شفي من مرضه، ولا أستطيع ان اخفي إعجابي بقوته في مقاومة هذا الداء العضال.

وفي تلك الأيام العصيبة التي كنت أخشى فيها على حياته، كان أصدقاؤه وأقاربه يجبرونه على تناول مقادير من الطعام تتجاوز كميتها أي مقدار تناولته في حياتي، ولفت نظري إسرافهم في تعاطي السمن خاصة في شرق البلاد ويعمد جميع المرضى لتعاطيه مهما كانت طبيعة الداء الذي يشكون منه، ويقومون بدهن أجسادهم به من الرأس حتى القدم، مع شرب نصف رطل منه صباحاً موقنين بفعاليته في إزالة آلام المفاصل والعظام ومعالجة الروماتيزم والحالات التي نعمد فيها لعمليات الجراحة هي الأكثر حظوة بالاهتمام وهو بالطبع أمر فوق العادة.

جاء في أواخر مايو أحد جلابة الخرطوم من إقليم فتري وهو يعاني من جرح نجم عن إصابة بطلق ناري قبل أربعين يوماً من معاينتي له. كانت قدمه متورمة ويعاني من الم حاد، وكان يتعين ان أجري عملية لإخراج المقذوف الناري من القدم المنتفخة لدرجة لا يمكن معها

تحديد موضع الإصابة ومنفذ الطلق الناري، لذا كان يجب أن أنتظر مدة كافية حتى يخف الورم ولكني خشيت أن تهتز صورتي كطبيب فاتخذت القرار بإجراء العملية فوراً. وقد كنت محظوظاً بما يكفي إذ تمكنت من تحديد موقع المقذوف في فترة وجيزة مما أثبت طول باعي وبراعتي كطبيب أمام الأهالي.

ويغدو إجراء مثل هذه العمليات في تلك المناطق أمراً عسيراً إن لم يكن متعذراً، وتزيد الصعوبة باستحالة منع أقارب المريض وأصدقائه من حضور العمليات، بل يتحلق كثير من السابلة حول المريض متابعة لما يجري، وفوق ذلك يعطون أنفسهم الحق في التدخل وإبداء وجهات النظر والملاحظات.

وكان في معية ذلك الرجل الذي أجريت له العملية شخص من معارفي السابقين ويدعى عزيز المراكشي، الذي سبق وتمرد علي ورفض مرافقتي إلى ودّاي متعللا بان سلطان ودّاي سيؤذي بحياتي وحياة من معي. وللحقيقة فإن عزيز هذا من أجبن من قابلت من الرجال ولم اختبر مثل كسله وتردده بين المغاربة رغم أنه من مدينة مراكش نفسها.

بينما كان حمو مواطنه المراكشي ثابتا وذا ولاء رغم كذبه وكسله هو الآخر. وكان يكن لعزيز المراكشي الكثير من الزراية والإحتقار. وحدت بي خصاله إلى أن أستقبله هذه المرة كضيف لا أكثر.

في نهاية مايو تأهبت لشراء جمال جديدة واستبدلت بعض التي كانت بحوزتي والتي غدت غير صالحة للرحلة إلى دارفور. والتقيت بالحاج أحمد لتحديد موعد مغادرتنا ولمست حرصه مثلي على الذهاب لمصر بيد أنه طلب مني، على نحو غامض بألا أناقش هذا الأمر مع السلطان حيث أن هناك شائعات منتشرة، ترتب على أثرها إغلاق الطريق إلى الشرق رسمياً.

نتيجة لذلك تم تأخير قافلة الحجاج بقيادة الشيخ منصور الشنقيطي في حدود البلاد والتي كانت غادرت أبشي قبل فترة وجيزة. ولم يكن في وسع الحاج أحمد الإفصاح أكثر من ذلك لأنه من الخطورة بمكان نشر الأخبار السياسية ومثل هذه الشائعات في عاصمة ودّاي. ولا يجرؤ المرء في أبشي على تداول أبسط خبر للحرب أو السلام ولا الحديث عن العلاقات مع الدول المجاورة أو عن الأحداث التي تقع في البلاد أو غير ذلك مما يطرق مسامعه وذلك تحسبا من أن يبلغ السلطان ويتعرّض الشخص - المتورّط - للتحقيق الذي يعني أن تُشرع امامه أبواب الجحيم إذا لم يستطع إسناد معلوماته إلى للمصادر التي استقاها منه.

وكان لدليلي القيرواني تفسيراً مغايراً للتأجيل الذي غدا راجحاً الآن. فهو يجزم بان السبب المباشر للتأجيل هو أن زوجة السلطان الأثيرة «كلي» والتي تنتمي إلى قبيلة «داژا» تعتزم ختان إبنها في الأيام القادمة، وهي بلا شك مناسبة جليلة سيؤمها الكثيرون من شتى الأصقاع، وستستغل أجواء المناسبة لترويج أعمالها التجارية وتقوم بمبادلة بضاعتها التي جمعتها مؤخراً. وسترسل رفيقها إلى دارفور ولا تريد ان تسبقها القوافل وتتأثر الأسعار قبل ان تدخل

في السوق.

وفي اليوم الثاني عاد هذا الرجل من القصر السلطاني وأطلعني على السبب الحقيقي وراء إغلاق طريق الشرق، وأن ذلك تم أثر ورود أنباء غير مؤكدة تفيد بوفاة السلطان حسين، سلطان دارفور، وقد أرسلت العيون من ودّاي الى تلك البلاد المجاورة للتأكد من مدى صحة الواقعة، إذ إن للوضع في دارفو [illegible] ي، وسيؤدي موت السلطان العجوز الكفيف إلى تنازع حول [illegible] خليفته سيحافظ على العلاقات الطيبة القائمة مع ودّاي.

وكا [illegible] يفة له على العرش، وهو أصغر أبنائه الثلاثة ولكن يملك إ [illegible] فوذ يؤهلهم للمنازعة حول العرش، ويحظى أكبر إخوته [illegible] والين له والذين كانوا يحسون بالغبن في عهد السلطان [illegible] إدارة شئون البلاد للعبيد، وعندما أعلن السلطان للمقربين من ذوي الشأن اختياره لابنه إبراهيم خليفة على العرش لم يعترض أبناؤه الأكبر سناً لحبهم لأخيهم ومعرفتهم بنزعته التوفيقية، أما إخوة السلطان سيف الدين وبوش، فقد أبدوا إعتراضهم لهذا الاختيار وإعتبروه مجحفاً، لذلك كان يتوقع نشوب الصراع بين العبيد وعساكر حسب الله، وإذا ما قدر النصر للفريق الأخير فسيعرض ذلك العلاقات الطيبة مع ودّاي للخطر والتي كانت قد تحسنت بفضل ذكاء السلطان علي بعد أن دام العداء قرناً كاملاً.

أصبح من الضروري التيقن أولاً عن مدى صحة الأنباء المتداولة عن موت السلطان حسين، وهو حدث ليس باليسير، وجرت العادة في هذه البلدان أن تقفل جميع المنافذ المؤدية إلى خارج البلاد عند وفاة السلطان حتى تسوى مسألة خلافته.

ويسهل أمر إغلاق الطريق بين ودّاي دافور، لانه – في الواقع – طريق واحد يربط بين البلدين ، وهو الطريق الشرقي، أما الطرق التي تقع إلى الشمال عبر ديار قبائل تاما، والواقعة إلى الجنوب عبر سلا فهي غير مطروقة لغير سكان تلك المناطق.

حان ختان أبناء السلطان في السادس من مايو والذي سوف يتم في منزل جدتهم «مومو». كان جل الحضور شاكي السلاح بمختلف أجناسهم من العرب والجلابة والأهالي، وأعمل الكل بارود بنادقه احتفاءً بتلك المناسبة ولم يكن بوسعي الحضور، للأسف، إذ يتعذر على الملكة الأم استقبال مسيحي في دارها، وفاتني مشهد الأهالي وهم يرقصون في دارها مع شريكاتهم من الفتيات والجواري.

وذهبت خلال هذه الفترة إلى القصر لمعالجة أحد الباقرمة والذي كان مصاباً بطلق ناري، وقد نجم الحادث عن دافع الغيرة حيث كان الرجل الجريح يراود زوجة الآخر وذلك في أحد مجالس الخمر.

ترك الطلق الناري أثره في مواضع مختلفة من الجسم، وخلف حروقاً على ملابس الجريح

وامتدت بعض هذه الحروق إلى الجرح في الجزء الداخلي لأعلى الفخذ، ولم نعثر على المقذوف الناري ويبدو انه لم يستقر في جسد الرجل، وأفلت بعيداً مع مُزَع ملابسه. وقد أكد شفاء هذا الرجل العاجل صحة هذا الافتراض.

استمر الرقص في اليوم الثاني على شرف المناسبة في الميدان الواسع الذي يقوم إلى جانب البئر في أقصى شرق المدينة، ولم أفلت السانحة للفرجة وتعويض ما فاتني من اليوم السابق، وتدل الشواهد في ذلك الحشد على ما يتمتع به الناس من رفاهية. فتتمتع النساء في ودّاي بكل حريتهن، وتسعد فتيات الطبقة العليا بحرية المشاركة في هذا الحبور العام.

تنتشر الحلى الذهبية في ودّاي مُقابل ندرتها في بقية المناطق الغربية. وتملك أغلب الفتيات عقوداً ذهبية رفيعة بعرض أصبعين وتتدلى منها كتلة صغيرة، ويتم تصنيعها في مصر أو سنار. تبدو بعض الحلى أقل جودة وهي التي صيغت محلياً على أيدي الصاغة الأجانب.

ويضاف إلى تلك القلائد الذهبية والعديد من أصناف الحلى الأخرى، ومنها الزمام الكبير الذي يوضع على الأنف وهو من المرجان كذلك، ثم عنقود مرجاني يتدلى من (القصة) التي سبق ذكرها، والأهلة الفضية التي تتدلى على جانبي خصلات الشعر، كما تثبت على الضفائر أحجية فضية بحجم الكتيب بسلاسل من الفضة بالإضافة للأسورة الفضية والحجول على السيقان، إلا أنه لا ينظر إلى الحجول كزينة ضرورية كما هو الحال في برنو.

الرقص محتشم مع التحكم الرشيق في أداء الراقصين وعلى إيقاع هادي ويتم في هيئة ثنائيات بين الشباب من الجنسين وهم في ثياب زاهية، وترتدي الفتيات في مثل هذه المناسبات الملابس الرجالية فوق الشال المعتاد الذي يلف حول الخصر والكتف، ويتحرك الراقصان على شكل دائرة ويترك الراقص يده اليسرى لرفيقته، و كلاهما يظهر الأكمام الواسعة للثياب التي يهزونها برشاقة ويترك أحياناً الراقص رفيقته في الحلبة ثم يعود إليها بخطوات متئدة يشبه أداثنا لرقصة «الكاردل»، في هذه الأثناء ويقوم أحد قارعي الطبول بالتجول حول الحلقة بمقربة من الراقصين، ويظل طبال آخر في مركز حلقة الرقص.

يرقص الرجال حاسري الرؤوس ويحملون في أيديهم المدى الطويلة، ويبدو منظر النساء بهياً للغاية بشعرهن المجدول ووجوهن الجميلة المتوهجة بإحمرار المرجان والمقر، وهو تراب أحمر مخلوط بالزبدة والعطور يضفي لوناً داكناً يتناغم مع الشفاه الموشومة بالزرقة هذا إلى جانب الزينة المسرفة بالحلى الذهبية والفضة. ويزيد النساء جمالاً إرتداء الزي الرجالي مع أن هذا المظهر عندنا (كأوربيين) يعد مثيراً للاشمئزاز.

هناك مجموعة أخرى من نساء الكتكو يعرضن رقصاتهن الشعبية والتي تعرضنا لها عند الحديث عن رحلتي إلى باقرمة.

تتميز النساء والفتيات في ودّاي بالقوام الطويل الأهيف ويفتقرن إلى ملاحة الوجوه، وقد عرفن باستعدادهن التلقائي لممارسة الجنس وتختص كل فتاة منهن بحبيب ويألفن المغازلة مع الشبان.

أما فيما يتعلق بالرجال فهم ذوو نزعة حادة للعنف وبمزاج تهيجي الطابع، ويبلغ العنف حد إزهاق الروح وهي ظاهرة مألوفة في مثل هذا الحفل، وقد كان أحد الشبان الذي سبق واستخدمته في رحلة بافرمة من ضمن الموجودين في حلبة الرقص تلك. إلا أنه جاءني عصراً وهو ينزف من جرح في أعلى ساعده مما استدعى خياطته وكانت ملابسه التي استعارها لحضور هذه المناسبة ممزقة تماماً. استمر الإحتفال لليوم التالي، وتجري عملية الختان للصبيان من الثامنة إلى الثامنة عشر وتكون جماعية في العادة وتجري في احتفال كبير.

والذي يختتن أولاً من الصبية يسمى «تانجاك» أي الزعيم، ويُعد قائداً للمجموعة حتى الشفاء، أما الذي يختتن اخيراً فيسمى «أراك» ويمنح عند الوجبات فضلات الأكل فقط، وتتم عملية الختان في هاون كبير حيث تلقى المخلفات والدماء، ويعد نوعاً من العار إبداء أي إحساس بالألم، أما إذا تحمل الصبي عملية الختان بشجاعة فربما أهداه والده أو أخاه الكبير ثوراً أو كبشاً. أو قد يتعهد أحد أعمامه بتزويجه إحدى بناته. ويخاط الجرح بأشواك الكتر[1] وتنزع بعد ثلاثة أيام من عملية الختان، وفي هذه المناسبة ينتعل الصبي المختون صندلاً لأول مرة.

وقبل أسبوع من عملية الختان يجهز الصبي سوطاً من لحاء الأشجار وعادة ما يكون من شجر الكلكل أو العشر، ويستخدم فيه كل مهارته إذ له فيه مآرب عدة. البنات من أقارب الصبي يهدينه معظم حليهن بيد أنهن يستردننها بسرعة مع ترك القليل منها معه، أما بالنسبة للفتيات الأخريات اللائي يصادفنه في طريقه فله الحق في تجريدهن حليهن وإذا امتنعت إحداهن فإنه يهددها بسوطه وقد يضطر إلى جلدها من علي البعد خوفاً على جرحه، وتخول له التقاليد -خلال نقاهته – أن يصطاد بعصاه الدجاج[2] الذي في متناول يده وأن يأخذ اللبن الذي يجلبه الأهالي للسوق، أن ينتزع السلع من الباعة المتجولين حتى يفتدوها بأعطية.

ويعطل ختان الصبية عمليات البيع في الأسواق لعدة أيام، وفي إحدى المرات أرسلت عمالي إلى السوق لجلب الطعام فعادوا فارغي اليدين حيث استحوذ الأمير على كل ما معهم من نقود، وعندما يظهر في السوق يجمع الباعة أمتعتهم هاربين من قبضة هذا المستبد الصغير.

وتوضع كل مخلفات الختان في إناء فخاري مليء بالرماد وبعد سبعة أيام تسكب محتوياته بواسطة المختونين في بيت نمل كبير، ويهشم الأراك (المختون الأخير) الإناء الفخاري المليء بالرماد وسط ارتفاع الأدعية. وعندما يشفى الصبية فإنهم يزفون على طرقات المدينة فوق ظهور الخيل والحمير والثيران، وتختتم الاحتفالات بمأدبة عامة.

تجري في وداي عملية الختان للبنات وهو أمر غير معروف في برنو، وعلى كل فإن ختان الفتيات في وادي ليس بالصورة البشعة التي يمارس بها في مناطق النيل مثل دنقلا وبربر وسنار والخرطوم، أما في دارفور فإنهم لا يختتنون الفتيات.

1- يتناول الأدب الشعبي للمناسبة هذه المناسبة ويُكال أن البنات يتحلقن عند إجراء عملية الختان ويغنين "شوك كمان شنو" "غنم كلو باكلو" أي ماهي خطورة الشوك الذي تأكله حتى الأغنام وذلك حثاً للغلام على التجلد.

2- عادة إقتناء الأشياء واقتناص الدجاج وغيره من العادات منتشرة على نطاق سودان النيل وكذلك بقية الطقوس المبينة هنا.

لا توجد أخبار مؤكدة حول مجريات الأمور في دارفور والتي تتوقف على نتائجها، بلا شك، طبيعة العلاقات في المستقبل، والذين بعثوا لجلب الأخبار أتوا بمعلومات متناقضة إذ أورد بعضهم معلومات تفيد بأن الأمير حسب الله انتزع السلطة وأصبح هو السلطان دون منازع، بينما أتى آخرون بنقيض ذلك مؤكدين تولي إبراهيم لمقاليد الأمور، وجاء البعض بما لم يأت به الفريقان الأولان وأشاروا إلى عدم حسم الأمر إلى الآن، وإن الأمير حسب الله قد وطد نفسه في القصر الملكي القديم بينما ربض الأمير إبراهيم متربصاً في القصر الجديد الذي شيده والده . ولم يكن في مقدوري التفكير في المغادرة لدارفور وسط هذه الأنباء المتضاربة، وبدأت في اعتماد خطة للتوغل جنوباً، ومع أمير شاب من سلا شرعت في تعلم شي من لغة الداجو وقارنت معه معلوماتي عن الأقاليم الوثنية في وداي، وقد اقتضت ظروف المرض أن أركن قليلاً إلى الراحة.

لم أتمكن حتى الآن من خلق علاقات ودودة مع كبار المسئولين من المابا الذين هم نبلاء وداي، لقد تقبلوا وجودي بينهم خشية السلطان فحسب، لما رأوه أحسن استقبالي، ومن بين القبائل التي صادفتها في رحلتي، فإن المابا هم الأكثر تعالياً وتعصباً والأكثر ضيقاً في أفقهم، وليست بواعث التعصب لديهم دينية فقط بل تنشأ بصفة خاصة على إحساس بالتفوق على بقية شعوب الإقليم.

نجم عن ذلك زهوهم بأنفسهم وبلادهم ذلك السلوك المتغطرس عند تعاملهم مع الأجانب، لذلك فقد تجنبوني وابتعدوا عني، كما إن الملكة الأم قابلت رجائي لمقابلتها بسخط وتعصب شديدين، كما أظهر أخوها جرمة أبو جبرين[1] تحفظاً في التعامل معي، ولم يسمح لفضوله مطلقاً أن يدفعه لزيارتي في داري إلا أنه يجب عليّ أن أذكر تهذيبه الجم عندما يجمعنا القصر السلطاني.

لقد قربتني الصدفة من نطاق أفراد العائلة المالكة، حيث استدعيت على عجل لمعاينة صبي ركله فرس على رأسه، وهو ابن شقيقة السلطان، سارة، من زوجها الأول عقيد المحاميد، وكنت رأيتها مراراً مع السلطان. وجدت الصبي مغمى عليه وقد أحاط به كل أفراد عائلته وجمع غفير من القوم، كان يبلغ من العمر حوالي الأربعة عشر عاماً ويدل مظهرة على انه سيكون قوي الشكيمة كأمه التي كثيراً ما أثار دهشتي جسدها الضخم.

أصابت ركلة الفرس مؤخرة الرأس مسببة ورماً واضحاً، وأفزعني انبجاس نزيف ظاهر من الأذن وتقيؤ الصبي. خفت أن يكون هنالك كسر بأعلى الجمجمة، وقمت بجس العظام فوجدتها غير مهشمة، وأملت أن تكون حالته مجرد ارتجاج بسيط وذلك لسرعة نبضه وحالة بؤبؤ العين، وبدأت تلك الأعراض المزعجة تزول لحد ما أثناء بقائي بجانب الصبي، وعليه بدأت في وضع ترتيبات العلاج والتي كنت أود بشدة النجاح فيها لرفع أسهمي. حيث أنه ليس من السهل إدراك ذلك في بلاط وداي وبخاصة في مثل هذه المواقف. أصبح يتجاذبني موقفان،

1- أي جبرين لثلاثها تطلق هكذا في كثير من بقاع السودان.

فقد كان علي من ناحية أن ألتقف الفرصة للرفع من شأني مما يملي عليّ أن أعطي الصبي علاجاً سريعاً حتى ولو كان ذلك من قبيل التظاهر.

ومن الناحية الأخرى ربما يكون مثل هذا العلاج ضاراً بسمعتي إذا ما كان التشخيص خاطئاً. عموماً لم أضيع وقتاً في هذه الهواجس فاستخرجت مدية وفتحت فتحة عميقة في منطقة الورم حتى عظمة الجمجمة فوجدتها سليمة، وأصبحت واثقاً من صحة تكهناتي حيث استرد الصبي عافيته بعد أيام قلائل، وأدى ذلك إلى تعزيز مكانتي لديهم.

كما أدى ذلك لتقرب بعض أخوة السلطان لي وتعرفهم عليّ مدفوعين بغريزة حب الذات.

نجا قليل من الأمراء من عملية سمل العيون التي جرت لمجموعتهم في بداية عهد السلطان علي، ومن هؤلاء الأمير يوسف[1]، شقيق السلطان الأثير وابن مومو الملكة الأم، إذ لم يسمل السلطان علي عينيه كما جرت العادة.

تنامت علاقتي بالأمير يوسف وصار أقل ترفعاً بعد أن اكتشف أن بحوزتي بعض ثمار القورو التي أعطيته قليلاً منها، وهي نادرة هنا ويتداول تعاطيها بين علية القوم، وتجلب للسلطان نفسه من برنو بين الفينة والأخرى لاستهلاكه الخاص وهو يحتفظ بكميات منها.

بسبب علاقتي بيوسف، تعرّفت على بعض الأمراء الآخرين ومنهم أبو كيومة شقيق السلطان الذي سملت عيناه عندما وجدوه ينتحب لحظة تتويج السلطان، وفُسر ذلك على وجه الحسد لشقيقه فتم إخضاعه لتلك العملية الوحشية، وقيل أن عملية السمل لم تجر بطريقة كاملة وثار الشك حول قدرته على الرؤية عندما غادر البلاط الملكي في يوم حشدت فيه الفرق والأسلحة بجوار العاصمة وتم القبض عليه في الحال وأخضع في هذه المرة لعملية سمل أكثر فعالية، وأصبح كبقية إخوته يقضي سحابة نهاره في إحتساء المريسة.

وقد جرت لي واقعة مع الأمير الأكثر شقاء «تتلالا» عبد الكريم، والذي تنتمي أمه لقبيلة كوندونقو، فقد تم سمل عينيه فور تتويج السلطان علي بحجة مكره، وقد تردد عليّ عدة مرات مبتزاً بعض الهدايا الصغيرة، واكتشف عثمان، مالك منزلي ذلك عندما وجده معي وهو في حالة من الثمل، فصمم على ألا يخفي الواقعة عن السلطان، وكانت النتيجة أن وضع هذا السكير التعس في الأغلال لستة أسابيع، وقد اخافت هذه العقوبة بقية الأمراء الآخرين فأحجموا عن التردد عليّ لتلقي بعض الهدايا الزهيدة.

وشرفتني الأميرات كثيراً بالزيارة، وكن يقصدنني لما عرفنه عن الكميات الكبيرة من الكافور التي كانت بحوزتي والذي يعتقد الناس في المناطق الإسلامية بأنه يدرأ أعمال السحر والأرواح الشريرة، وكن في غاية الود معي وعلى قدر من حسن الظن بي.

وتُعتبر الكثيرات منهن جميلات بحسب المعايير المحلية، ولكن تقلصت زياراتهن لي للحد الأدنى، وذلك لما ترتب على زيارة إحدى زوجات السلطان لي، والتي إتخذت من إقامتها المؤقتة في مسكن الملكة الأم ستاراً لزيارتي، وكانت تتمتع بجمال وسحر وذات بشرة تميل إلى الحمرة،

1- إعتلى العرش بعد السلطان علي.

وقد رآها مالك الدار لدى مغادرتها سكني رغم أنه لم ينقل ذلك للسلطان إلا أنه لفت نظر الملكة الأم بأن تكون أكثر حرصاً على زوجات إبنها اللائي يقمن بزيارتها. بررت الأمر لصاحب المنزل ببساطة إذ ذكرت له ان تلك الأميرة جاءت طالبة للدواء مع شي من الكافور، إلا أنه عاود الاتصال بي مخاطباً لي بشي من الحدة بأنني بمثل هذا السلوك أعرضه وأعرض نفسي للخطر، بيد أنه أضاف بألا بأس من استضافة الأميرات متى ما رغبن في ذلك إلا أنه يجب عليّ توخي الحرص خاصة عندما يتعلق الأمر «بالهبابات» أي زوجات السلطان.

لا يختلف الأمر في ودّاي عن برنو حيث تمثل الأميرات عنصر بالغ التحرر في مجتمع النساء، ويتعاطين مسائل الحب والجنس بسعادة مع أثرياء العرب والتجار النوبيين، ولا ينطوي هذا النوع من العلاقات على أي خطر في أبشي وذلك لما تتمتع به النساء والفتيات من حرية مطلقة، ولم أكن أتوقع ذلك نظراً لصرامة السلطان.

يتعاطى الأهالي المشروبات الكحولية بإسراف رغم تعصبهم الديني ونهي القرآن الكريم عن ذلك، ولم يعد في إمكانهم التخلص من هذه الممارسة التي صارت تشكل جزءاً من حياتهم الاجتماعية منذ زمن بعيد، ولكن يُعد من العار عندهم إقامة علاقة جنسية مع إمرأة متزوجة أو عذراء.

أفلحت جهودي الطبية الطوعية تجاه كل الأهالي بمختلف درجاتهم في بناء علاقات تلقائية في العاصمة، وتبدلت نظرتهم إلي من إنسان منبوذ إلى نظرة متعاطفة وحزينة لكوني لا أعتنق نفس ديانتهم ودون درجتهم الاجتماعية.

وعندما أتيت لمقابلة السلطان في المرة الأولى أشاح جميع من في البلاط بوجوههم عني بامتعاض وإنتقلوا من الجهة التي كنت بها وأبدوا تعبيرات الإشمئزاز على الوجوه مرددين عبارات تدل على الإيمان «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وتكرر المشهد كثيراً بعد ذلك.

ورويت للسلطان ماجرى لي مع عقيد الزبدة عندما إلتقيته لأول مرة في البلاط، وكيف دار حولي مرة ثم أخرى وهو يتعوذ وينظر إلي بحذر، ولما لم يستطع التغلب على فضوله شرع في محاورتي من على البعد، ثم أخذ يقترب مني ويتراجع خاصة عندما شاهد الجزء الأبيض من بشرتي الذي لم يتعرض للشمس ثم قال لي أخيراً: «والله لقد سمعنا من أسلافنا أن النصارى من أكثر المخلوقات إخافة في العالم، إذ يمكن للنصراني أن يبدو في صورة شخص آخر، وقد كنا نعتقد أن ذلك صحيحاً، ولكننا تعرفنا عليك وعلمنا أنك رجل طبيعي، وبالرغم مما تسببه بشرتك البيضاء من نفور، إلا أنها توحي بأنك أنبل منا أصلاً».

وكان يعتقد أنه بقراءة القرآن يمكن ان يحمي نفسه من الدنس الذي يسببه الاقتراب مني، ثم ردد تعويذة الإيمان المعتادة وصافحني جالساً بالقرب مني.

وقد جرت حادثة كشفت لي نوايا الأهالي السيئة تجاهي، فقد صادف في بداية موسم الأمطار أن كانت شحيحة وغير منتظمة، وأفتى العلماء بأن وجود شخص مسيحي في البلاد هو السبب

في غضب الإله على الأهالي، وعلى ضوء تلك الفتوى ذهب عدد من المرموقين إلى السلطان وطلبوا السماح لهم بقتلي أو إبعادي من البلاد على أقل تقدير. رفض السلطان الاستجابة لطلبهم الجائر وكان يضحك ساخرا من هذا الموقف، ثم لحسن الحظ هطلت الأمطار غزيرة بعد ذلك مما أثبت براءتي.

إنتشرت الحمى أيضاً في موسم الأمطار ووجدت لها مرتعاً خصباً في أبشي إلا أن ضحاياها لم يكونوا بالقدر الذي شهدته كيكوة، واستشرت في الحال وسط الأجانب خاصة العرب وأصابت تجار النيل بدرجة أقل، وكانت الحمى العادية هي الشائعة أما الإصابة بالحمى الخبيثة فنادرة جداً، كما ينذر مرض الدودة الفينية[1] بخطر داهم ولم يعرف له علاج في وداي.

وتجري محاولة علاج الدودة الفينية بربط رأس الدودة عند بروزها بعد إختراقها للعظم ويتركها المريض لتخرج تدريجياً، وقد شاهدت أشخاصاً يحملون في أبدانهم أكثر من أثني عشر إصابة.

عهد إلي بمعالجة أحد سجناء السلطان الذي استاصل الجزام أصابعة وأثر في مفاصله، وقد اهتممت بعلاج هذا الرجل لدوافع إنسانية محضة، وهو عبد جيء به حديثا من مناطق الوثنيين في وداي وينتمي إلى قبيلة «فنقا» التي تستوطن جنوب بحيرة إيرو مصب بحر السلامات، لقد تقرب مني وأراد مرافقتي، وأفصح عن ذلك للسلطان وأدعى أنه لا يزال يحس بآلام. أدرك السلطان باعثه على هذا القول وأراد إهداء هذا البائس لي ولكنني إعتذرت مع حزني لتركي إياه في القصر السلطاني بهذه الحالة المزرية، وذلك لقرب مغادرتي البلاد، إذ لم أر إمكانية الاستفادة منه على أي وجه.

كان لإرهاصات مقدم الخريف أثراً سالباً على صديقي التونسي حاج سالم، وقد أسلفت بأنه كان يعاني من الدسنتاريا الحادة المزمنة الأمر الذي كان يهدد حياته.

1- يسمى الفرنديت وهي دودة تعيش في المياه الراكدة وتخترق عظم الساق و القدم وتبدو مثل الخيط من الثقب.

الرحلة إلى رنُقا
يوليو / أغسطس 1872

بما أن الرسل الذين أبتعثوا سراً إلى دارفور قد فشلوا في الحصول على أنباء مؤكدة عما يجري في بلاطها، لم يعد في وسعي مواصلة الرحلة خلال الأشهر القليلة القادمة – أي بإنتهاء فصل الخريف – ويتعذر على أي قافلة التحرك قبل مرور شهر من الآن على أقل تقدير، رغم وجود نهر واحد يمكن أن يعيق السير شرقاً وهو وادي «كجا»[1]، المصدر الرئيسي لمياه بحر السلامات.

حاج تنقا تنقا وشخص من الجِلّابة يدعى عبدالمجيد الخبير – قائد قافلتنا من دارفور لمصر – بعثا برسول إلى «كوبي» سعياً وراء آخر الأخبار وكان رجلاً من قبيلة برنو، وعد الرجل بأن يعود في خمسة عشر يوماً، أي بمعدل أسبوع في الذهاب ومثله للإياب مع الإحتياط بيوم لتسليم الرسالة وتلقي الرد عليها. ووعد بأن يقوم بالرحة سيراً على الأقدام حتى لا يلفت الأنظار إليه. يبدو الأمر كما لو كان مبالغة لأن أبشي تبعد عن كوبي مسافة سبعين ميلاً ألمانياً، أي أنه سيقطع خلال إسبوعين فقط مائة وأربعين ميلاً ألمانياً – أي حوالي 87.5 ميلاً إنجليزياً – سيراً على الأقدام. نفذ الرسول ما وعد به ولكن زاد على المدة التي قطعها على نفسه بيومين فقط والسبب في تأخرة أن المرسل إليه كان قد بارح كوبي إلى الفاشر.

اقتنعت بألا سبيل لمغادرتي في المستقبل القريب وبالتالي رأيت الاستفادة من الوقت للقيام بجولة في جنوب البلاد، وبقدر ما استحسن السلطان فكرتي سعى حاج أحمد لإقناعي بالعدول عنها بسبب الخريف تارة وبسبب طبائع أهالي رنُقا وما يثيرونه من إضطرابات سياسية هناك، إلا أن الفضول زاد من إصراري للتعرُّف على هذا الإقليم.

كان هناك شاب من أمراء الداجو أبدى استعداداً لتقديم يد العون خصوصاً وأنني كنت أجيد لغة أهلة وأخبرني هذا الأمير كثيراً عن قرى إقليم سلا[2] وكوتي – جنوب رنُقا وذكر لي بان والده كان حاكماً لرنقا وتوفى حديثاً وانه هجر أرض أجداده خشية بطش عمه الذي خلف والده، وهو الآن تحت حماية السلطان علي عسى أن يسترد السلطة مرة أخرى بعونه وتعضيده أو أن يبقى بمأمن في كنفه.

تعد سلا مملكة إسلامية قديمة وأفادني الأمير بأن في وسعه تعداد من تعاقبوا عليها من الحكام وهم واحد وعشرين حاكماً من أسلافه دُونت أسماؤهم في مخطوطة عربية ركيكة تتخللها عدة معلومات غير دقيقة عن أصل الداجو بيد أن هذه المخطوطة لا يمكن أن تقبل كمصدر موثوق به.

تقع سلا جنوب شرق ودّاي – أي بينها وبين دارفور – وكانت تدفع الضرائب للدولتين، وقد لستبقى الداجو حكم سلا منذ أن هاجروا إليها من دارفور منذ قرون وكل عاداتهم وتقاليدهم

1- يقسم هذا الوادي مدينة الجنينة السودانية إلى نصفين جنينة بلد وجنينة اردمتا.

2- تحريف لصليح، أي داجو دار صليح.

تربطهم بدارفور – الوطن الأم – إلا أن سلطنة ودّاي أجبرتهم على كسب ودها أيضاً ليعيشوا في سلام، وكان هذا الأمير الشاب يقاسي من شظف العيش ولذا كان سعيداً بما وهبته له من تكاكي مُقابل الدروس التي يلقنها لي.

علمت – من مصادر أخرى – أن هذا الأمير بالتضامن مع إخوته قتلوا أحد أعمامهم الذي حاول أن يغتصب السلطة ولهذا السبب ظلّ حبيساً – ومنذ مدة طويلة – في ودّاي، وأخيراً قام السلطان بتعيين حاكم جديد لرنقا وهو قريب له من المقيمين في أبشي ثم اخذ على هذا الأمير عهداً مشفوعاً باليمين بالحفاظ على الأمن وأطلق سراحه بعد ذلك.

لهذا الأمير الشاب إلمام تام برنقا وكوتي وما تلاهما من المناطق التي تقع جنوب أرض أجداده وقد زوّدني بمعلومات قيمة عنها.

وحسب روايته فإن رُنقا أرض واسعة تمتد حتى خط عرض (8) جنوباً ولما كان الاقليم تحت سيطرة ودّاي فانني اعتبره المكان الأمثل لمثل هذه الزيارة أكثر من سلا .

كان هذا الأمير مميزاً وسط قبيلته ،طويل القامة حالك السواد مدمن لشرب المريسة ويمكن الحكم علي شخصيته ـ من خلال أحاديثه ـ بأنه محب للمغامرات يجد نفسه في الحملات العسكرية وصيد الفيل والكركدن، بصرف النظر عما يحف مثل هذا الصيد ـ الذي يمارس من علي ظهور الجياد ـ من مخاطر .

تعرفت اخيراً علي رجل من قبيلة البرنو يدعو علي فنتامي، عاش في منواشي، وفي بواكير عهد السلطان علي أبعد من جنوب دارفور إلى كوتي – من أعمال رنُقا – المشهورة بانتاجها للعاج وقبلة تجارته . ومنذ أن احتكر السلطان انتاج هذه المنطقة تمت مصادرة حصيلة التجار من العاج، فبقي منهم من بقي وعاد بعضهم إلى دار فور يعانون من الفاقة والعوز وتوجه بعضهم لأبشي لاسترضاء السلطان واسترداد ما أخذ منهم .عاش صديقي علي فنتامي في كوتي لمدة طويلة متنقلا في مناطقها المختلفة خصوصا في منطقة بحيرة إيرو. أما صديقي الداجاوي فبحكم انه رجل متعلم فقد لقنني شيئاً من لغتهم ولغة رنُقا وأنا ممتن له بهذا الفضل، ويمكنني الأن تعلم شيء من لغة البندة الذين يقطنون جنوب رنُقا وكوتي من على فنتامي، ما يثير اهتمامي في هذه المنطقة بصفة خاصة الأنهار التي تنحدر من الاقليم الجبلي التابع لها وتشكل في النهاية مجموعة نهر شاري التي ينبثق منها نهر هام يصب في أقصى الجنوب، سبق لعلي فنتامي أن رآه، وفي تقديري ألا علاقة له بنهر شاري، ويبدو أن مجراه يتجه نحو الشرق بطول الخُمس الموازي لجنوب أبشي ويُسمى بحر «كوتا» ولعله النهر الذي اكتشفه هنريتش بارث والمسمى «كوبانادا» وقد يكون نهر «ويلي» الذي وصفه جون سوينفورث إلى الجنوب الشرقي من هناك. ينتمي فنتامي لإقليم كنكو ويعرف نهر شاري خصوصاً في المنطقة التي ينقسم فيها إلى فرعين، وأكد لي أن نهر كوتا أكبر من شاري وتنتشر في مجراه الجزر ويعج بالتماسيح وأفراس النهر ويجوبه الأهالي بالقوارب ويصب شرقا ويفوق طول مجراه نهر شاري.

جملة هذه المعلومات أغرتني لقبول إقتراح السلطان بالقيام برحلة إلى رنُقا قبل استئناف السفر إلى دارفور، ومما زادني إصراراً محاولة الاستفادة من هذه الرحلة لتدعيم موقفي المالي بالإتجار في كوتي لأن طول بقائي في وداي استنفد جل مواردي التي تحصلت عليها من البضائع التي زودني بها شيخ عمر، والرحلة إلى دارفور لا زالت تنتظرني، ولا سبيل للحصول على المال هنا في الشمال والعاج رخيص في كوتي ويمكن مقايضته بأقل من عشر ثمنه مُقابل بعض البضائع المرغوبة هناك، إذن عليّ أن اتجه جنوباً. التجار الذين يحملون تراخيص الإتجار بالعاج كان من المفترض أن يحققوا أرباحاً طائلة في كوتي إلا أن صعوبة الترحيل تحول دون ذلك، ومن الممكن اخذ الجمال من أبشي حتى كوتي أثناء موسم الجفاف إلا أنها غالباً ما تنفق هناك، وهي رخيصة الثمن كما في وداي بيد أنها تتطلب الكثير من المنصرفات. لا يتجاوز سعر الحمار أو الثور الدولارين أو الثلاثة إلا أن هذه الحيوانات عرضة للنفوق قبل رحلة العودة من الجنوب ولذا يتعين على المرء أثناء تجميعه للعاج أن يبعث بمن يأتي له بالدواب البديلة التي يحتاجها لرحلة العودة والتي عليه أن يبدأها فوراً. وتعود أسباب نفوق الدواب للذبابة التي يسمونها «أم بوجني» وقد تعرضنا لذكرها عند تناولنا لبحيرة فتري.

بعد نقاش مستفيض مع السلطان نبذت فكرة السفر لكوتي إهتداء برأيه وذلك لأن مثل هذه الرحلة تستغرق زمناً أطول الأمر الذي قد يتعارض مع رحلتي لدارفور. كما إنصب إعتراض حاج أحمد وعلي فتتامي على الرحلة لإنخفاض منطقة بحر السلامات ولكثرة المستنقعات بيد أن السلطان كان يُرى خلاف ما يرون، إذ كانت وجهة نظرة ألا خوف علي من بحر السلامات إذا كان سفري لشاري الأوسط أو سوماري حتى لو كان ذلك في فصل الخريف وعليه حسمت أمري وقررت أن أقوم برحلة سريعة نحو الجنوب.

اليوم يوافق الحادي والثلاثين من يوليو، أبلغني السلطان بأنه في القريب العاجل سيبعث بملك جديد لرنقا يسمى «علو» وعندما أبديت رغبتي في موافقته إلى هناك، استدعى السلطان عقيد السلامات المشرف على الجنوب وأمره بالمثول أمامه برفقة ملك رنُقا الجديد وأي ممن يثق بهم من الرجال وبمجرد مثولهم خاطب السلطان ملك رنُقا قائلاً «هذا الغريب ضيف وهو لا يرغب في تجارة أو مال وأن غرضه هو التعرف على البلاد الأجنبية وبما أنك ستغادر قريباً إلى بلادك التي عهدنا لك بولاية الحكم فيها فسوف تأخذ هذا الرجل معك وحياتك مرهونة بسلامته وعليك أن تستضيفه في منزلك هناك وأن تمشي به وترشده وتدله على كل الأمكنة التي لا تشكل خطراً على حياته وإذا حالت ظروفك دون مرافقته عليك أن تعين من ينوب عنك كأحد أعمامك أو أي قريب لك يكون مسئولاً أمامك ولا تدعه يلج مناطق الأعداء لأن أمثاله من المغامرين وهم مدفوعون بروح المعرفة لا يهتمون بسلامتهم الشخصية، وبما أنه شغوف بمعرفة البحر الأبيض – موطن آكلي لحوم البشر من البندة – عليك أن ترافقه وإذا نفقت دوابه تتولى أنت عملية استبدالها بشتى السبل. كما وجه السلطان كلمات مماثلة لنائب عقيد السلامات

وألزمه بان يرافقني في كل خطوة أخطوها وإذا أصابني مكروه فإنه مسئول أمامه وهو يعرف كيف يحضره أمامه وأمره بان يمدني ببعض الثيران وتنفذ الأمر فوراً.

بدأ الاستعداد للرحلة فاشتريت ثوراً قوياً بمعرفة حاج أحمد وبثمن باهظ بلغ ثلاثة مقاطع تُرمبا، أي أربعة دولارات ونصف الدولار، إلا أن قدرته على الحمل تتلائم وهذا الثمن الباهظ، واشتريت حماراً من أحد الجُلابة بعشرة دولارات وأمدني السلطان بثورين واشتريت كمية من تبغ دارفور بما يعادل ثمانية دولارات وهي سلعة مرغوبة في بلاد الوثنيين كما تحصلت على شي من الخرز الزجاجي الصغير الملون بالأحمر والأبيض الذي يسمى (سيفي) [1] نظير مبلغ خمسة عشر دولار وودع بخمسة دولارات وأربعة دست من المناديل القطنية الملونة بقيمة ست دولارات ثم بعض المنسوجات القطنية المصرية المصبوغة باللون الأزرق الداكن وأخرى مخططة وتسعة مقاطع تُرمبا بما يعادل أربعة عشر دولار.

تتوقف الرحلة الآن على المرسوم المتعلق بتعيين أمير لرُنقا واستلام العطايا الخاصة به وهي – وفقاً للأعرف – حصان وكسوة شرف وسرية. وانتظاراً لتلك الإجراءات تأخر السفر حتى منتصف أغسطس.

وقبل مغادرتي تهيأت العاصمة لحفل زفاف ابنة السلطان لعقيد المحاميد شقيق عقيد الخزام وعقيد الدبابة أبناء العقيد جرمة الذي كان يحظى بمكانة سامية قبل جلوس السلطان علي على العرش، أما بالنسبة لي فإن اسمه يثير الكثير من الذكريات الحزينة إذ لقي مواطني إدوارد فوقيل حتفه على يديه إبان عهد محمد شريف لأنه شكك السلطان في سلوكه وجرى ما جرى، وثبت انه أعدم على أيدي قبيلة العقيد جرمة التي تستوطن على تخوم أبشي بمباركة من السلطان الذي يكن للعقيد تقديراً خاصاً.

خلف العقيد جرمة – بعد وفاته – ابنه الأكبر الذي كان عقيداً للخزام، وسبق لهذا الابن أن أقام علاقة آثمة مع إحدى الجواري، أثناء حياة والده. ووصلت أنباء هذه العلاقة للسلطان، فأسدى خدمة للعقيد جرمة ونقل إليه جرم ابنه وسأله عن نوعية الجزاء الذي يستحقه ابنه، ولما يتمتع به السلطان من رهبة وهيبة رد والده بأنه يستحق الإعدام، بيد أن السلطان استعمل الرأفة – وهو أمر نادر الحدوث –واكتفى بإقالة الابن من منصبه وبعد سنين رضي عنه مرة أخرى وأعاده لمنصبه كعقيد للخزام.

في ليلة الزفاف تم نقل المهر لزريبة عقد المحاميد و العروس نفسها أُحضرت في الليلة السابقة، وكانت الزريبة مكتظة بالخيول والبنادق وأطلقت المقذوفات النارية إبتهاجاً بالمناسبة وأحيطت المنطقة حوالي الزريبة بأعداد هائلة من الفتيات والنساء اللآئي يشاركن في الحفل وهن في أبهى حللهن. لم يكن الزواج مقتصراً على عروس واحدة حيث تُزف ابنة أخرى للسلطان. وفي الصباح قدم الحاج أحمد هدايا الأعيان والوجهاء وكانت عبارة عن أربعة سلال من الحلي الذهبية والمرجان يبلغ ارتفاع الواحدة حوالي المتر ويزيد عرضها عن ضعف طولها تقريبا

1- مقصود سيتي.

وهي من نوعية السلال التي تستخدم في شرق السودان لحفظ السمن والعسل. تمت قسمة الحلى مناصفة بين العروسين، كما جلبت حمولة ألف ومائة بعير من الدخن كمؤن لهن وعدد لا يحصى من الهدايا، إذ أرسلت قبيلة كدوي وحدها مائتين وخمسين حملاً من الغلال وجرمة أبو جبرين ثلاثمائة وعقيد ماجين مائتي حمل وهكذا دواليك. وعند وصولي لمكان الحفل كانت بعض الجمال المُحمَّلة بالمهر قد أخذت مكانها داخل الزريبة للتو، مع ذلك شاهدت أعداداً هائلة منها كانت مازالت في الخارج وعلى ظهورها الملابس والحلى المفضضة والمذهبة وكساء السلطان لإبنتيه.

الزكائب الجلدية التي يستخدمها الأهالي في تحميل الجمال تختلف - هنا - عن النوع الذي يستخدم في برنو سواء من حيث الشكل أو المادة الخام، إذ تصنع في برنو من جلود الأبقار وتخاط بشرائح رقيقة من الجلد، مع فوهة واسعة. أما في ودّاي فتصنع من جلود الثيران وبفوهة صغيرة كعنق الزجاجة وتزين من الجانبين بأجنحة جلدية. وفي حفل الزفاف كانت هذه الزكائب - التي يُطلق عليها اسم قرفة - مغطاة بالأبسطة وكانت جزءاً من المهر مثل الجواري اللآئي رافقن العروسين من دار والدهما. وكانت الجمال مزينة بريش النعام ومحجلة بالفضة. وعند الباب نُحرت عشرات الثيران والأبقار وحوالي المائة من الخراف وكم من الجمال وقُسم اللحم على الأهالي.

إحتل أصدقاء العقيد الصغير وأتباعه والنبلاء وعبيد السلطان أماكنهم في الميدان الكبير عند مدخل الزريبة التي إزدانت بحلة زاهية حيث ظهرت الملابس الفاخرة والقفاطين الحريرية والسراويل ذات اللون الأحمر والأصفر فضلاً عن الشالات الحريرية وكذلك الأحذية الحمراء وأغطية الراس الحريرية وهي من ملبوسات الزينة التي لا تُستخدم إلا نادراً ويقتصر استخدامها على هذه المناسبات لأن السلطان لا يرضى للرجال بالتزيُّن[1]. كان هناك عددا من الفرسان المسلحين بالرماح والسيوف والبنادق وهم يستعدون لتقديم ألعاب الفروسية التي أدخلها العرب البلاد.

أما أنا فقد كنت حريصاً على مراقبة النسوة اللآئي كن في أبهى حللهن وبعضهن منغمس في الرقص والبعض الآخر يكتفي بالمشاهدة، واللائي يؤدين الرقصات كن يلبسن الملابس الرجالية فوق ملابسهن كما لو كن متنكرات. بعثت الملكة الام أختها لتنوب عنها في الحفل وجاءت تقود موكباً محمَّلاً بهدايا لحفيدتها، أما الملكة الأم نفسها فقد كانت ملتحفة بشال حريري مخطط بالأبيض والأحمر يحجب كل جسدها ووجهها وتقود حصانها جارية من حولها جاريتين أخريتين تملآن المكان ضجيجاً ضرباً بارجلهن على الأرض المليئة بالحصى، وكان الكبرتو يحيون الحفل بالقرع على الطبول والنفخ على القرون ويضفون على الحفل بهجة وسرور.

وفي مؤخرة الزفة سارت ثلاثون من الجواري ولا يمكن وصفهن بالاناقة فقط بل كن يرتدين

1- تحرم الشريعة الإسلامية على الرجال ارتداء الحرير والتزين بالذهب.

أفخر الثياب والحلي وتحمل كل منهن سلة ضخمة مغطاة ومزينة بالصدف والودع والخرز الملون لكنني لم أتبين ما بداخلها.

لم يحضر السلطان لمكان الحفل لكنه تابع مساره من على شرفات القصر الذي تعلو أبراجه المدينة، لم يكن هذا الحفل هو الأخير بل تلاه عدد من الحفلات التي أقيمت على شرف هذه المناسبة قبل توجهي نحو الجنوب.

عند بداية شهر أغسطس تواترت الأنباء بان «النورية» أو «النوارمة» وقبائل «ون» في بركو قد تعرضوا لغارة من عربان كانم وهزموهم وأخذوا سته وعشرين منهم كأسرى وأن «نكازاء» زعيم قبيلة الدوباي في طريقه لأبشي مصحوباً بالأسرى من هؤلاء الغزاة. في الأسبوع الأول من أغسطس جيء بثلاثة عشرة من أولاد سليمان كأسرى وكانوا في حالة يرثى لها وحجز باقيهم لدى النورية. ولأن النورية يقضون معظم فصول السنة في بحر الغزال فقد كانوا يخشون من إنتقام العرب وهم على بعد من حماية السلطان ولذلك كانت التوجيهات بأن يوفقوا أوضاعهم مع جيرانهم. وكان لسلطان وداي مشكلة حقيقية في ترويض هؤلاء المتمردين المتفلتين في كانم وفي سبيل تحقيق الوئام بينهم والقبائل التي تعيش على الحدود الشمالية للبلاد مد لهم يد الصداقة رغم أنهم سبق وأن تآمروا عليه عندما كان الصراع مستمراً بينه وبين إخوته حول العرش، وأرسل لهم الرسل وبذل لهم الهدايا واستقبل وجهاءهم وكبار عوائلهم وأكرم وفادتهم. وعندما أسر عدد من العرب والداز ا – في إحدى المعارك ضد البديات من أتباعه – أعدم أسرى الدازا رغم أنهم كانوا مجرد أدوات للعرب وسمح للعرب بالعودة لديارهم، كل ذلك في سبيل حضهم على إنتهاج السلام كوسيلة للتعايش على الحدود الشمالية وفي كانم، إلا أن هؤلاء العرب لم يكونوا على قدر من الوفاء بل قابلوا هذه النوايا الحسنة بالجحود، وكنت موجوداً بالقصر – مصادفة – عندما جيء بهؤلاء الأسرى أمام السلطان وسمعت حكمه عليهم، إذ قال « لقد انتهجت كل السبل المكنة لأجعلكم تفهمون معنى السلام ولكنكم لم تظهروا ما يدل على تحكمكم في أرواحكم الجامحة، فإذ كنتم لا تستطيعون العيش إلا تحت الإحتراب فإنني سأعطيكم الفرصة لتعيشوا هذه الرغبة، سأسلح كل منكم ببندقية وما يلزمها من بارود ورصاص وسأرسلكم مع ملك رُنقا الذي سوف يغادر للجنوب قريباً وهناك ستجدون قطاع الطرق من الوثنيين وأكلة لحوم البشر فأقتلوهم وأشبعوا غريزتكم في الاحتراب والإقتتال». وقد تم إرسالهم فعلاً، وجدت الفرصة للجلوس مع هؤلاء الأعراب قطاع الطرق الذين أمضيت معهم عدة أشهر فيما بعد ولا زلت أذكر مجتمعهم بالكثير من الغبطة والسرور إذ تعاملوا معي – طوال تلك الفترة – بحسن نية واحترام، وكانوا في حاجة لمساعدتي فزودتهم ببعض القطع الخام ليستبدلوا ثيابهم الرثة لأنهم – عند مثولهم أمام السلطان – كانوا شبه عراة ولسد موقفهم الغذائي زودتهم ببعض الخراف الأمر الذي أسعدهم كثيراً.

بما أننا الآن في منتصف موسم الأمطار فقد صرفت النظر من أن أصطحب معي حصاناً

لأن دار رنّقا موبؤة بالذباب والناموس الذي يزعج الحيوانات ليل نهار كما هو الحال في فتري، خيولي كانت في حالة سيئة، فالذي أحضرته كهدية لسلطان دارفور أصابه الهزال وتورم الأرجل وفقدان الشهية، وتعالج مثل هذه الحالة في برنو بالنخالة والنطرون، المشكل في هيئة كرات بما يشبه علاج الاوز في ألمانيا، وكان فرساً أصيلاً عالي البنية ينتمي لفصيلة خيول شمال أفريقيا الشهيرة، أما الحصان الآخر – وهو من نسل خيول برنو – وكنت استخدمه ولم يكن حاله أفضل من أخيه. لم يكن في الإمكان ترك خيولي في الدار أثناء فترة غيابي كما لا يمكن ان اعهد بها إلى أي شخص آخر، استأذنت السلطان في إيداعها أسطبلاته حيث تجد أفضل رعاية فاستجاب لطلبي بكل السرور والترحاب . وفي نفس اليوم الذي أودعت فيه جيادي الإسطبلات وردت انباء مؤكدة من دارفور تفيد بأن السلطان إبراهيم الابن الثالث للسلطان حسين قد استولى على مقاليد الحكم، لكنني لم أتمكن من تأجيل الرحلة التي كنت قد هيأت نفسي للقيام بها. أفادني السلطان بأن هناك سفير من قبل السلطان الجديد آت من دارفور لكنه سيمضي بعض الوقت في أبشي مما يعني أن هناك زمناً كافياً قبل أن تتحرك أي قافلة شرقاً.

غادر ـ حاكم رنّقا الجديد ـ عند منتصف الشهر أما أنا فما زلت في انتظار الكرسي أي المبعوث السلطاني ـ تقابل الكنجيام في برنو ـ والذي عهدت له مهمة مرافقتي وكان قد غادر المدينة متظاهراً برغبته في وداع أهله استعداداً للرحلة، لكنه أرسل من يتعذر عنه متعللاً بإصابته بمرض الدودة الغينية مما أقعده عن السفر والراجح ان سبب إعتذاره هو عدم رغبته في مرافقة شخص مسيحي، ونتيجة لذلك حضر إلى أحد عمال عقيد السلامات وبصحبته كرسي آخر يدعى توم، ينتمي إلى قبائل المنلقا، وقريته «دمبا» ـ إحدى قرى وارا ـ وهو ذو بشرة فاحمة غير حليق ـ خلافاً لما هو متبع ـ تبدو عليه سمات التحفظ، صامت، ويترك إنطباعاً حسناً في النفس.

اليوم هو السابع عشر من شهر أغسطس وفيه أصبحنا مستعدين للمغادرة رغم عدم خلو الرحلة من المشاق والتي تتمثل في الأمطار الغزيرة ونقل الأمتعة لداخل الزريبة، ولم يكن في وسعي التأجيل لأن سلطان رنّقا قد سبقني بالتحرك قبل عدة أيام، ثم إن تحميل الثيران يستغرق الكثير من الوقت خصوصاً وأني كنت أصطحب معي عنقريب ـ تقتضي الضرورة أخذه ـ والعنقريب سرير خشبي لا يسافر الجلابة ولا رجل من السودان الشرقي بدونه خصوصاً في موسم الأمطار، صنع لي عثمان ـ مالك داري ومرافقي السابق ـ عنقريبين يبلغ ارتفاع الواحد ثلث المتر،وتنسج عادة بحبال سعف الدوم أو السيور الجلدية، استبدل عثمان نسيج عنقريبي بالحبال لأن الرطوبة تزيدها قوة وتماسكاً. أخيرا تم تحميل الثيران وبدأ رفقاء الرحلة في التوافد إلى المدينة، ودعت حاج أحمد وبعض أصدقائي من تجار طرابلس وبنغازي الذين رافقوني في الرحلة من برنو، ورافقني عثمان والفكي أبو حش زريبة عقيد السلامات حيث تلقى التعليمات الأخيرة ثم استأذنت العقيد وهو رجل ذو مكانة عسكرية رفيعة إلا أنه كان مخصياً أيضاً.

بدأنا السير متجهين جنوباً، عبرنا الوادي المنخفض الذي تقع عليه مدينة أبشي وهو خال من الأشجار والتربة المحيطة بالمدينة تخالطها الرمال وتتناثر حولها بعض التلال الجرنتية المنخفضة التي تنساب فيها بعض المجاري المتجهة غرباً والتي تندمج لاحقاً في بعض المجاري المحيطة بشمال أبشي كتلك المجاري الهامة التي تنحدر من المرتفعات الجنوبية لسلسلة جبال كوندونقو وتصب في البطحة، وبعد مسيرة ساعتين من الصعود على طول الوادي، تركنا قمة أبقدام المنعزلة غربنا،ثم بعد مسيرة ساعة أخرى ـ جنوباً ـ لاح في الأفق منظر جميل لوادي البطيحة – المتعرج – مع سلسلة جبال الكشامرة التي تقع على الناحية الأخرى من الوادي، ثم رأيت جنوب الجنوب الغربي وعلى الأفق البعيد مجموعة جبال «كجنقا»وبالرغم من أن القرى لا تبدو للعيان لكنّ هناك حقول الذرة التي تنتشر هنا وهناك. الخضرة اليانعة والأشجار الظليلة وتغريد الطيور أدخل في نفسي البهجة والحبور بعد طول إكتئاب بذرته في النفس جدران دور أبشي الطينية ذات اللون الرمادي، ويذكرنا هذا الفصل بالربيع في ألمانيا مع الفارق.

وبعد إهدار الكثير من الوقت في تحميل الدواب، اتجهنا نحو الجنوب الغربي وعبرنا وادي «شق» وعرضه حوالي الثلاثين أو الأربعين خطوة وينبع من جبال «كلنقن» ويصب في البطيحة في «كاورا»، يُوجد مجريان مائيان في هذه المنطقة العميقة ذات الحصى الخشن، وبعد مسيرة سبعة ساعات عسكرنا في قرية كبيرة تدعى «إنجرنجا» وبها حوالي المائتين وخمسين كوخاً وتقطنها قبائل «المنقا». كان الاستقبال مؤشراً غير حميد لأننا لم نجد المسئول عن القرية ولا عبيده، ولم يبد أي من الأهالي الرغبة في أخذنا للمنجاك[1]. يحوي مسجد القرية كوخاً لتعليم الصبية مثل كل المساجد بالمنطقة، كما يستخدم كمأوى للسابلة والغرباء، ولما كانت الشمس على وشك المغيب كان عدد الحاضرين كبيراً. كانت السماء صافية. عسكرنا تحت ظلال الأشجار في بقعة عالية ويبدو أن المكان ملعباً للصبية ولذلك ضايقونا كثيراً بما يتنافى وكونهم طلاب علم لأنهم لم يبرحونا حتى وقت متأخر من الليل وحرمونا من إعداد وجبتنا التي يقتضي العرف أن ندعوهم ليشاركونا إياها.

لحسن الحظ لم تهطل الأمطار في هذه الليلة وكان الجو ـ عند الشروق ـ صحواً وبدأنا في السير متجهين جنوباً صوب الحافة الشرقية لسلسلة من التلال التي تمتد من الغرب للشرق التي أدركنا نهايتها بعد ساعة من السير حيث تحفها قرية أخرى باسم «إنجرنجا»، ثم عبرناها لقرية «أترداء» التي تتكون من حوالي الثمانين كوخاً، وعقب ذلك لاحت لنا جبال «كجنقا» وتقع ناحية الجنوب الشرقي، وعلى الأفق الجنوبي الغربي تشرئب سلسلة جبال الكشامرة وتتوسط هاتين السلسلتين جبال «مرفا» أو «مربا» التي تسد الأفق الجنوبي على مداه. ظلت تعترضنا بعض التلال الجرنيتية الخشنة المفتتة عبر تلك الأرض الرملية التي تتناثر حولها أشجار السنط حتى وصلنا البطيحة[2] وهي تصغير للبطحة أي النهر الصغير. سرنا بعدها حوالي

1- الشيخ.

2- الأبطح هو المكان المتسع الذي يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار ويطلق عليها البطحاء أيضاً. أنظر المعجم الوجيز.

الثلاث ساعات نحو الجنوب الغربي، لم نضع في حسابنا أن يعترضنا نهر في هذا الموضع لأنه لا يتميز بإنخفاض ملحوظ، والمكان مجرد سهل رملي منبسط لا توجد به مجاري. ومع ذلك كان عمق النهر حوالي المتر، وإلى الشرق من هذا الموقع يُقال ان هناك مجري عميقاً. عند نقطة عبورنا من المفترض أن تكون المياه منسابة نحو النهر لأن هذا يحدث مراراً خلال العام. يتجه مجرى النهر نحو الجنوب الغربي ويلتقي بالبطحة في الملم.

بعد عبورنا البطيحة سرنا نصف ساعة نفذت بنا لقرية «كينقا» وهي عاصمة مركز أحمد تقتا ومقره. ورغم وصولنا القرية مبكرين إلا أنني قررت إقامة المعسكر حفاظاً على مصلحة جماعتي واضعاً في ذهني بخل الكشامرة[1] وشحهم. لاحظت إن سيقان الذرة ـ في الحقول ـ تفوق الانسان طولاً وهي محملة بالسنابل وكان شكل الحقول جيداً. قابلنا عبيد حاج أحمد في زريبته بالترحاب وتحادثت معهم بشأن الزراعة وأكدوا لي ضرورة الكد والكدح لتغطية التزاماتهم الضريبية الباهظة. وذكروا لي بإن عليهم تقديم مدين[2] من الدخن عن كل فرد لحاج أحمد في شهر الفطر ثم مدين عن كل منزل للسلطان ومثلهما للفتاشي ـ أي مفتش الممنوعات ـ وبجانب هذه الضرائب عليهم دفع أربعة إمداد للسلطان تسمى «اليورمها» وضريبة الدفاع التي تتكون من التكاكي ويحصلها حاج أحمد وعمال الإقليم، «والكدمولا» وتوفى بقطع من الأقمشة القطنية صغيرة العرض مع الالتزام بدفع عشر إنتاج القطن والخضروات والثمار ... الخ. يجمع حاج أحمد هذه الضرائب ويتولى توزيعها على السلطان وكافة الموظفين المستحقين لها.

فكرنا في الإقامة بكوخ حاج أحمد اتقاءً للريح الجنوبية الشرقية الرطبة التي بدأت تهب منذ الصباح الباكر. تجمعت سحب كثيفة في الأفق الشرقي ـ عند العصر ـ أعقبتها أمطار غزيرة. بالقرب من هذا الموقع يعيش بعض الرعاة من عرب المحاميد وقد اوكل إليهم رعي جمالي التي سأستعين بها في رحلة دارفور.

تحركنا في اليوم التالي نحو الجنوب الغربي وكان طريقنا ينحرف نحو الجنوب ثم الجنوب الشرقي حتى نهاية سلسلة الكشامرة. إعترضنا مجرى مائي ضيق يسمى «أكوراس» يغطي قاعة بالرمال الصفراء الزاهية ويصب في البطيحة. وبعد عبوره قابلنا مجرى آخر يسمى «باترين» يبلغ عرضه حوالي الثلاثين خطوة ويتميز بالعمق وكان خالياً من الماء مثل بقية الأنهار في ذلك الحين.

بعد مسيرة ساعتين ونصف الساعة وصلنا قرية «تارا» العامرة والتي تحتل السفوح الشرقية لسلسلة مرفا ويبدو أنها تمتد من الشرق للغرب وصارت أكثر وضوحاً من موقعنا هنا. تجاوزنا تارا التي تحوي مئات الأكواخ ووصلنا لقرية أصغر تسمى «شرامبولا» وذلك بعد مسيرة ساعة إلا ربعاً نحو الجنوب الغربي، أمضى أمير ردُقا ليلتين هنا ثم غادر القرية منذ يومين، وبعد أن

1- قبيلة.

2- أداة كيل عربية قديمة ويقتصر استخدامها حالياً على السودان الغربي فقط.

سرنا نحو ساعة أخرى وصلنا للحافة الجنوبية الشرقية لسلسلة جبال الكشامرة التي تتربع على سفوحها قرية «أرندو» الصغيرة. الكتلة الرئيسة لهذه السلسلة تمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي ويسمى جزءها الشرقي «كوندونقو» والغربي «كلدي» . كان خط سيرنا يميل نحو جنوب الجنوب الغربي على سهل واسع تغطيه ـ بصفة خاصة أشجار الهبيل وحاولنا ـ عبثاً ـ أن نعسكر في أحدى قريتي «تشافو» وقبلها عبرنا نهراً صغيراً يسمى بتيك يتميز مجراه بالرمال الكثيفة والخضرة والأشجار وعلى الأخص أشجار الصهب العملاقة ويجري نحو الغرب ويُقال أنه يصب أخيراً في البطحة أو البطيحة.

المسجد قبلة السابلة والمسافرين في وداي وبفحصي له اكتشفت إنه كوخ إصطفت عن جدرانه ألواح[1] الصبية من الطلبة المهاجرين وهناك أثر لمكان إضرام النار يتوسط الثقيفة، كما تُوجد بقعة رملية نظيفة تؤدى فيها الصلوات بيد أنني لم أتمكن من مشاهدة هذه الطقوس إلا نادراً، والإقامة في المسجد تنطوي على مزية توفر حطب الحريق دون أي تكلفة أو ثمن.

يسعى الصبية من الطلبة لكسب قوتهم نهاراً بالعمل وبالتالي يقتصر تحصيلهم للدرس على الفترة المسائية فقط – أي ما بين المغرب والعشاء – ثم من الفجر حتى شروق الشمس ويستذكرون دروسهم على الضؤ المنبعث من النار المضرمة بالحطب الذي يتكفلون بجلبه وعلى كل منهم قدر معلوم، بعض هؤلاء الطلبة تقل أعمارهم عن العاشرة مع ذلك يقضون أوقات فراغهم في التجوُل للحصول على ما يسد رمقهم أو ما يزيد بقليل، طوال سني دراستهم وذلك لما يحصلون عليه من عون كمقابل لخدمتهم في الحقول بيد أن عملهم هذا لا يمنعهم من تلقي ما تيسر من تعليم على يد الفقيه. وهنا أيضاً يرتدي الطلبة الفراء – كما في برنو – وينحصر متاع الواحد منهم في لوح خشبي للكتابة وقصعة صغيرة تستخدم كدواة وقلم قصبي بالإضافة لقصعة أخرى تستخدم ككوب للشرب ويجمع عليها الطالب ما يجود به الغير من عطايا وصدقات، وعندما يتقن أحدهم حفظ القرآن يعود إلى قريته حيث يعمل بالتدريس في الخلاوي أو ككاتب عمومي.

توافد علينا عدد كبير من أهالي تشافو وبخلاف توقعاتنا كانوا ودودين وأقل فضولاً من غيرهم وعند المساء أتحفونا بثلاثة أطباق قدموها وهم صامتين دون حتى ان يلقوا تحية المساء – إمعاناً في الاحترام – ووضعوا الأطباق على الأرض دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة التعرُف على هويتنا وغادروا المكان دون ترديد عبارة الوداع المعتادة «بارك الله».

في اليوم التالي بدأت الرياح تهب من الجنوب الغربي وعند الظهر تجمعت السحب في الشرق أعقبتها أمطار خفيفة، وأثناء سيرنا – جنوب غرب – مررنا بقريتين أخرتين هما «كرناية» و «بوجا»، ثم عبرنا منطقة جبلية حتى جبال كتلو – الحدود ما بين الكشامرة والكرنقا – وهي منطقة تماس قبلي بين القبيلتين، تحركنا إلى الشمال من هذه المنطقة عبر كتلة جبال كرنقا ثم إلتزمنا السير نحو الجنوب مرة أخرى وبعد مسيرة ثلاث ساعات – على الشمال – لاحت لنا

1-ألواح خشبية تستخدم للكتابة.

جبال «كدوماء وهي المنطقة الوسطى في وداي ويحكمها التنجر وكانت مقر داؤود آخر سلاطين التنجر الذي انتهى حكمه على يد عبد الكريم مؤسس السلطنة الحالية. المنطقة جبلية غير مأهولة وإعترضنا فيها القليل من الأنهار الصغيرة ومجراها نحو الغرب والشمال الغربي. الغابات فقيرة مكشوفة وتحولت كتلة جبال كرنقا تدريجياً إلى تلال منخفضة تمتد من الشرق للغرب يكسوها بساط أخضر يتناقض في منظره مع السلسلة الأصلية الجرداء.

وعلى سفوح تلك التلال مررنا بقرية «كبشلو» و «مردفان» وصار طريقنا أكثر إنعطافاً نحو جنوب الجنوب الغربي، وبعد مسير سبع ساعات خيمنا بقرية «أفورا» وتقع على السفح الشمالي وهي من قرى الكرنقا، وقبلها بدقائق مررنا بقرية مستخيدة العامرة.

أخذت الكتلة الرئيسة لجبال كرنقا شكلاً دائرياً أقرب للمثلث تتوجها الصخور الحمراء المتراصة التي تخلو من الأشجار. القطاع المواجه لنا من السلسلة يقتضي مسيرة نصف ساعة وكذلك القطاع الذي يمتد من الشرق للغرب.

لا تُوجد في كل المنطقة قمة تعلو قمة «دار شنفليزه» في الرابن، وتلجأ قبائل الكرنقا لهذه التلال عند ميلها للاستقلال كما تُوجد عدة قرى على سفوحها.

ليس لأصحاب هذه القرى ما يمكن أن يجودوا به علينا ولم نجد في مسجدهم حتى الغذاء الروحي الذي يقدم صباح – مساء، والمتمثل في تلاوة المهاجرين للقرآن.

خلفنا جبال كرنقا – المتسقة – إلى الجنوب وراءنا وعبرنا تلالاً مسطحة نفدت بنا لسلسلة جبلية أخرى تابعة لقبيلة الكرنقا التي يبدو أنها على صلة بقبائل المرفا، وتمتد من الشرق للغرب وتسمى «حجر برنقو».

وصلنا الحدود الغربية لهذه السلسلة بعد ان سرنا لعدة ساعات، وبعد مسيرة نصف ساعة ظهرت سلسلة مماثلة لسابقتها ذات صخور جرنيتية حمراء وعلى سفوحها مررنا بقرية «مانقورنو» التي تحيط بها تلال أقل إنخفاضاً. وهذه التلال جزء من حجر «بوندونقو» التي تحيط بها تلال أقل إنخفاضاً وهذه التلال جزء من حجر «بوندونقو» وتمتد حتى جبل «فتو» وهي آخر معاقل قبيلة الكرنقا. فارقنا جبل « بوندونقو» بعد مسير أربع ساعات، ثم بلغنا جبل فتو بعد مسيرة ساعة ونصف أخرى، وبالرغم من أن الوقت مبكر إلا أننا خيمنا في القرية التي تحمل نفس الاسم وذلك لعدم وجود أماكن مأهولة في «أم دقيمات» الموقع الذي ننوي عبور البطحة منه.

وفي الطريق قابلتنا قافلة كبيرة من الأعراب بصحبة زوجاتهم اللاتي يتحلين بعقود من خرز المرجان ويضعن الزينات على الانف وأمامهم قطعاناً من الماشية جيدة الرعاية وكانوا متوجهين صوب المراعي الشمالية كما إعتادوا ذلك خلال موسم الأمطار. ينتمي هؤلاء الأعراب لقبيلة النوايبة ويرأسهم في أبشي تنتك يوسف، لا تزيد مساكن فتو عن الثلاثين كوخ وقد أوينا لكوخين مهجورين وآخر لم يكتمل بناؤه.

بدأ الذباب يكثر كلما تقدمنا جنوباً حتى رُنقا وما بعدها. بعد أن أصلحت عنقريبي الذي لم يحسن رجالي نسجه، صعدت قمة فنو إلا أنني لم أستمتع بأي منظر ملفت للنظر لأن القمة لم تكن عالية بالوجه الكافي ولأن الجو لم يكن صحواً. ويضاهي هذا الجبل - في ارتفاعه - جبل «رونالدسيل»[1]، وتتناثر حوله كُتل من الجرانيت الأحمر بشكل مرتعاً خصباً لبعض الحيوانات الجبلية التي تشبه الأرانب ويسميها العرب «الكيكو» وهو حيوان رمادي غامق اللون بلا ذيل. هنا فقدنا أثر علو حاكم رنقا الجديد.

تنتشر الغابات الكثيفة من فنو حتى غرب البطحة وإلى الشمال الشرقي حتى ملتقاها مع البطيحة. المنطقة غير مأهولة وتعرف «بخلا أم جرار». توجهنا - بعد هذه المنطقة نحو جنوب الجنوب الغربي. وبعد مسيرة أربع ساعات عبرنا وادي شورم ويبلغ عرضه حوالي العشرين خطوة ويمتد من الشرق للغرب ويبلغ عمقه حوالي المتر وربع المتر ويصب في منطقة أم جرار في البطحة ويبلغ عرض الماء حوالي الستة أمتار. كما كان وادي «تبقاية» الصغير - الذي مررنا عليه فيما بعد - خالياً من المياه ويتميز بمجرى عريض إلا أن عمقه ضحل للغاية ويُقال أن النهرين يلتقيان قبل ان يصبا في البطحة. والغابات التي تغطي مجرى هذا النهر أخاذة للغاية وتُثبت نوعية رائعة من أشجار الجوغان والصهب والكرتو. ما زال هناك مجرى ثالث للبطحة إلا أنه مجرى ثانوي، ويفصلنا هذا المجرى عن سهل واسع معشوشب تتخلله بعض الشجيرات المتناثرة وهو أحد السهول المحيطة بالبطحة. أخيراً وبعد مسيرة ثمان ساعات نحو الجنوب الغربي وصلنا قرية «أم دقيمات» - أحدى أعمال عقيد السلامات - وعلى ضفة البطحة يظهر جبلان وهما جزء من مجموعة جبل فالا و «أولاد بكة».

رغم أن الفرصة قد أتيحت لي بالنزول في زريبة عقيد السلامات إلا أنني فضلت المسجد حتى أتمكن من لقاء الأهالي. تُوجد بالمسجد أشجار عملاقة وكوخ للمهاجرين ملحق به سقيفة. وكانت البطحة - التي يتوجّب علينا عبورها - تفيض بالمياه ورغم أنها لم تصل قمة فيضانها، مع ذلك فإن عرض سطح الماء يزيد على المائة خطوة والتيار قوي جداً.

هناك أعداد من البرنو يعيشون في أم دقيمات ويعشقون الرقص والموسيقى ويقيمون الحفلات حتى ساعات متأخرة من الليل. أما أغلبية السكان فمن قبائل السلامات. قضينا بقية اليوم في محاورة السباحين الذين سيسهلون لنا عملية عبور البطحة حيث لا تُوجد هنا قوارب أو عميج[2] أو القرع كبير الحجم الذي يستخدم في عبور الأنهار. ويستعيض السباحون عن ذلك بوضع الأمتعة في أوعية فخارية كالتي تستخدم لحفظ المياه. اتفقنا مع سته منهم لأداء هذه المهمة مُقابل أربعة تكاكي أو ما يعادلها زائداً عشرين رطلاً من الملح وسته قطع من الورق. وفي الصباح الباكر عند بدء عملية العبور ظهر لنا أكثر من ثلاثة أضعاف الرجال الذين تعاقدنا معهم، وكانوا يتظاهرون بتقديم العون لكنهم - في الحقيقة - كانوا يقصدون التسلية

1- جبل في ألمانيا موطن المؤلف.

2- القارب.

وتزجية الفراغ كما كان بعضهم يهدف للسرقة. تم توزيع الأمتعة على تلك الجرار ذات الفوهات الواسعة وعبر «حمو» للضفة الأخرى للاستلام وبقيت أنا في مكاني للمراقبة. وكان أسلوب النقل بدائياً وأخرق ويقتضي تجزئة العبوات الكبيرة تقليلاً لثقلها وكثافتها لتبقى طافية على سطح الماء. أما الهرج والمرج الذي صاحب عملية النقل جعل من المسير التعرُّف على الأشخاص مرة أخرى. تظاهرت بأنني رسول السلطان لأضفي على نفسي هالة من الأهمية والرهبة. تساقط رذاذ من المطر على متاعنا وأتلف الملح الذي تحول جزء كبير منه إلى تراب أحمر وعندما أكملنا العبور اكتشفنا فقداننا للكثير من الأمتعة التي تحوي الكثير من البضائع المرغوبة في الجنوب والتي كنا ننوي تسويقها هناك بالإضافة إلى بعض الجلود المدبوغة وبعض الأشياء الثانوية. فشلنا في العثور على المفقودات رغم مجادلتنا لهؤلاء الأشخاص.

أعدنا حزم الأمتعة تحت رذاذ المطر بعد العبور وتحركنا في الظهيرة بمعية السباحين الذين كانوا يتوقعون أن يعترضنا نهران آخران - من روافد البطحة - إذ يدخل عبور هذين النهرين ضمن الاتفاق. وصلنا النهر الأول وكان عمق مائه لا يتجاوز المتر الواحد. عبرناه إلى الثاني ووجدناه خالياً من المياه. يتكوّن كلا النهرين من طبقة طينية سميكة تغطي قاعاً رملياً. ويفترق المجرى الرئيس للنهرين على بعد نصف ساعة شرق «أم دقيمات» في جمعة. ثم يلتقيان — مرة أخرى — بعد مسيرة نصف ساعة شمال قرية «أم دم» قبلتنا لهذا اليوم.

بعد مسير قصير وصلنا لقرية أم دم وللأسف وجدنا المسجد مكتظاً بالمهاجرين مما اضطرنا لتمضية الليل في العراء. كان الطقس جيداً. أويت لفراشي تحت ظل شجرة هجليج ظليلة لأنال شيئاً من الراحة بعد الرهق الذي أصابنا من عبور البطحة.

زارنا الفقيه مع طلبته بغرض التحقق من شخصيتي وبمعيته بعض الأهالي الذين أبدوا إعجاباً شديداً ودهشة بالبوصلة والساعة وما شابههما من أدوات بوجه لم ألحظه من قبل. صحيح إنهم ملحاحون بعض الشئ وفضوليون لكنهم ذوي طباع حسنة. وودودين للغاية. تتميز بشرتهم بالحمرة بخلاف بقية السلامات الذين يغلب عليهم اللون الغامق وينتمي السكان «لأولاد داو» وهم فرع من السلامات الذين أرغموا قبل أربع سنوات فقط للاستقرار في هذه القرية الحدودية الصغيرة التابعة لودّاي بأمر من الحكومة. إذ تلقى شيخهم «جدي» توجيهات بمغادرة موطنه ببحر السلامات ليقيم في ودّاي. يعتقد زعماء القبيلة أن الحكومة تهدف إلى ممارسة الضغط على من يقيمون بعيداً عن سلطانها. وشيخ القبيلة الآن في موطنه السابق ولا يرجى حضوره قبل حلول فصل الشتاء. وأغلب رجال القرية توجهوا شمالاً مع ماشيتهم — كعادتهم — عند حلول موسم الأمطار. وتحوى القرية حوالي المائة كوخ. ما أن حل المساء وإلا كنت صديقاً للكثيرين منهم حيث استطعت أن أنشيء علاقات حميمة مع الزوار من الأهالي حتى إن بعضهم اقترح إيوائي في منزل الشيخ الغائب وتطوعوا باستئذان أبنته فاطمة وصديقتها اللتان رحبتا بالفكرة. انتقلت إلى هناك فوراً وكان ذلك مبتغاي لأن أمامنا مجرى صغير يسمى

«الليكور» ينحدر من الشمال الشرقي ويصب في منطقة «تدروني» في «فالا» وقيل أن تياره يمكن أن يجرفنا للخلف لمسيرة عدة أيام، وكان ينبغي أن نستطلع أخباره على مهل. وفي الصباح غادرنا الكرسي توم وحمو المراكشي للتأكد من صحة هذه المعلومة بيد أنهما سرعان ما عادا بأخبار غير سارة مؤداها أن نبقى هنا ليومين أو ثلاثة.

وبالرغم من التعطيل إلا أننا استمتعنا بزيارة نساء القرية وفتياتها اللائي يتمتعن بشيء من الحرية في غياب رجال القبيلة حيث يعشن في فراغ قاتل وكن في غاية الظرف واللطف وأغلبهن من ذوات البشرة الحمراء. وكانت فاطمة -بنت الشيخ – ذات حسنٍ وجمالٍ وليس عليها أ مسحة زنجية رغم استقرار أسلافها لقرون وسطهم وكان زوجها غائباً أيضاً.

تباين الطقس واضح جداً هنا. في صبيحة اليوم الثالث داهمتنا عاصفة عنيفة هبت فجأة وكانت في غاية السرعة، ولا أدري كيف يمكن أن يكون الموقف إذا ما صادفتنا هذه العاصفة في العراء.

مواصلة الرحلة إلى رنقا
25 أغسطس – 1 أكتوبر 1873م

سنحت لي الفرصة هنا في أم دم لتلقي المزيد من المعلومات عن المياه في جنوب غرب وداي وكونت فكرة تقريبية عن بحيرة «ايرو» – مصب بحر السلامات – التي تنساب مياهها غرباً لتكوّن نهر إيرو الذي له علاقة بنهر راشد ووادي «أندوما». كما تمكنت من جمع معلومات هامة عن الأنهر التي تجري جنوب بحيرة ايرو من شرق نهر شاري وأوكاديب وبحر الأبيض وبحر الأزرق وبحر الأرضه.

يقوم السلامات بغارات موسمية على الجنوب بغرض الحصول على الرقيق ويلتزمون بتقديم جُعل معين للسلطان، وتنقسم القبيلة إلى ثمانية عشر فرعاً بيد ان ثلاثة أفرع منها فقط هي التي تحظى بالأهمية. يمكن للقبيلة أن تحشد ما بين الستمائة إلى الثمانمائة من الفرسان. ومما أثار استغرابي إن فرعاً منها يسمى «بلالة» ويبدو إن الاسم مأخوذ من أحد زعمائهم. يدفع السلامات سنوياً لأبشي ما لا يقل عن مائة من الرقيق إضافة إلى خمسمائة أو ستمائة رأس من الماشية، وكانوا قبل البلاء الذي حاق بماشيتهم يدفعون ألف رأس مع ألف تكية[1] والكثير من العسل والعاج وقرون الكركدن وجلود التماسيح وما شابهها مما يستطيع جمعه زعيمهم عقيد السلامات الذي يمثلهم في أبشي.

مضت عدة سنوات فقط منذ ان نبذ السلامات الارتحال للشمال في موسم الأمطار تهرُباً من الضرائب الإضافية التي يتوجّب عليهم إحضارها للعاصمة.

سيطر عليّ القلق خوفاً من أن يكون تيار الليكور ما زال قوياً مما يقتضي المزيد من الانتظار، فتذاكرت مع شباب القرية عن كيفية عبوره عند ارتفاع مناسيب مياهه، فعلمت إن السلامات الذين يعيشون على ضفاف الأنهار لهم وسائلهم الخاصة للعبور. صحيح ان العمبج غير متوفر هنا ولكنهم يستعيضون عنه بالوسائل البدائية التي عبرنا بها من قبل، بالإضافة لذلك يصنعون أطوافاً من أعواد الدخن والذرة وهي سريعة الصنع لكنها لا تطفو على سطح الماء إلا بمعالجة السباحين.

في اليوم التالي الموافق 26 أغسطس، طرأت ظروف أعاقت تحركنا وبالتالي استأثرت بالنوم وحيداً في كوخ الشيخ الكبير بينما نام مرافقي في الهواء الطلق بجوار النار تجنباً للذباب والهوام الأخرى. يوازي الكوخ أكواخ عرب برنو حجماً والاختلاف الوحيد، هو أنه – أي الكوخ – غير معد لحفظ المواشي. أزعجني الذباب في البداية لكنني استسلمت أخيراً للنوم لأنني كنت مرهقاً، وأثناء نومي تسلل اللصوص إلى الداخل وسرقوا جوالاً بداخله بُرنُس وثوب من طراز الدجاج الحبشي وطربوشاً تونسياً وقميصاً وجوزاً من السراويل وكيساً آخر به تبغ وجرة كبيرة مليئة بالسمن، وتخيل لي كما لو كنت سمعت جلبة أثناء الليل ولكنني اعتقدت إن مصدرها

1- ثوب من الدمور.

رجالي، ونسبة للإرهاق الشديد لم أكترث للأمر وواصلت نومي، وفي الصباح وجدنا آثار أقدام لثلاثة أشخاص، وبدأنا التقصي حول الأمر إلا أن التحريات لم تسفر عن شيء ورغم إبلاغنا المسئول الإداري بالواقعة والتهديد باسم السلطان.

بدأت الاستعدادات للتحرُك، واوعدت الفاتنة فاطمة بأنني سأمر عبر أم دم في رحلة العودة من رُنقا، وكم كانت ودودة وحانية وهي توفر لي المأوى تأميناً لي من اللصوص والهوام وكم دعتني لقضاء الليل في مخدعها الذي يتكوّن من كوخين مترادفين والكوخ الداخلي صغير شُيّد على إطار يبلغ ارتفاعه حوالي المتر ويلتصق سقفه بسقف الكوخ الخارجي ويحتوي على ممر يستخدم للأعمال المنزلية وحفظ الأواني.

وأخيراً غادرنا أم دم عصراً إذ لم يكن هناك من مفر لأن الأمطار اليومية جعلت من انحسار مياه الليكور أمراً مستحيلاً. سرنا لساعات قليلة تجاه الجنوب الشرقي حتى قرية «غنامة» وهي من قرى عرب السلامات وتحوي حوالي الثلاثين كوخاً وهنا نحتاج لأي جزء من اليوم لأننا سنعبر الليكور.

نزلنا في المسجد أولاً إلا أننا انتقلنا فيما بعد لضيافة رجل ودود حسن المعشر، ولم يكن الكوخ الذي استضافنا به متين لدرجة تقي من المطر، فضلاً عن عدم براحه لأنه معد لامرأة واحدة دون أن تلحق به سقيفة وكان على زوجته أن تأوي إلى مكان آخر هذه الليلة، ومع ذلك فقد جنبنا هذا الكوخ شر الأمطار التي ظلت تهطل منذ لحظة وصولنا حتى جوف الليل. كان الكوخ صغيراً جداً لا يتسع لأكثر من شخصين مما أضطر الكرسي توم وبلامه وبقية رفقاء الرحلة من البقاء في المسجد ومعهم متاعي أيضاً. وبالرغم من المضايقة الناتجة عن صغر الكوخ إلا أننا نلنا التعويض الملائم من قبل عامل عقيد السلامات –كرسي عيسى – الذي أتحفنا بأطباق من فطائر القمح مع كمية معتبرة من الحليب الطازج وأوعدنا بأن يسهل مهمة عبورنا لنهر الليكور صبيحة الغد.

وبعد مسيرة حوالي نصف الساعة من صبيحة اليوم التالي، وصلنا نهر الليكور بعد أن مررنا بقرية «آدمتي» – المجاورة لقرية «غنامة» التي يقطنها أعراب من قبائل «مومو». وجدنا النهر مرتفعاً وشطآنه مترعة بالمياه حتى أنطمس مجراه الرئيسي وصار لا يمكن تمييزه إلا بقوة التيار وخلوه من الأشجار، وبما أن الشطآن غير متساوية بات من الصعب عبوره خصوصاً بالنسبة للثيران، وكان عمق الماء يفوق الإنسان طولاً وبالتالي أصبح الأمر عقبة أمام رجالي الذين ليس من بينهم من يجيد السباحة سوى حمو وبالتالي لم يعد بمقدورنا عبور النهر دون مساعدة مما اضطرني للعودة إلى غنامه بمعية الكرسي توم. طلبت من عامل عقيد السلامات – المسئول هنا – أن يمدني بسبعة من رجاله، لم يتوان الرجل في تلبية طلبي وجند من هبوا لمعاونتنا على عبور النهر دون أن يتفقوا معنا على أجر، وبعد تمام العبور نفحت كل منهم قطعتين من الورق الخام وحفنة من التبغ فعادوا شاكرين.

واصلنا السير لثلاث ساعات ونصف ووصلنا منطقة متشعبة الطرق وكان اتجاهنا العمومي نحو الجنوب الشرقي، ومررنا - أثناءها - بقري «فج الخلا» و «أم جنقر» التي تتميز تخومها بحقول الذرة والمراعي الفسيحة. ثم عبرنا منطقة متفرعة الأشجار حتى قرية «أم ديبان» وهي القرية الرئيسة لمركز «كدقس». استقبلنا استقبالاً فاتراً لغياب رئيس القرية المكلف باستقبال المبعوث السلطاني، ولحسن حظنا استطاع توم ان يجد لنا مكاناً مهجوراً في منزل لأحد أصدقائه. يتكون الليكور من ثلاثة مجاري صغيرة هي «الغبين» و «الكمبوي» و «أم تماريب» ويلتقون في منطقة «بيرسيس» على بعد مسيرة يوم شرق «كدقس». تحوي منطقة كدقس اثني عشر قرية أكبرها أم ديبان والتي تضم حوالي الأربعمائة مسكن وتقع على بقعة مستوية من الأرض وعلى أفقها الشرقي عدة مجموعات جبلية. فإلى الشرق إلى مسافة مسيرة يوم ونصف تُوجد سلسلة «أم رويه» المنخفضة ثم إلى الجنوب وعلى بعد مسافة مماثلة يُوجد جبل «جيجي» وهو أعلى من سابقه ثم على نفس البعد على شرق الجنوب الشرقي يُوجد جبل آخر يدعى جبل «بيهاس».

تهطل الأمطار هنا يومياً ولكنها غير مزعجة لأن أرض المنطقة رملية منبسطة. مع أننا في اليوم الثامن والعشرين من أغسطس. واصلنا السير لمدة سبع ساعات تقريباً نحو الجنوب الشرقي فيما عدا الساعة الأخيرة التي أنحرف فيها السير شرقاً. دخلنا أرض واسعة الغابات تسودها أشجار السنط والكرنو والنبق والهجليج مع شيء أشجار الحميض «والغرديناء» - ويطلق عليها عرب وداي «أبوثيقويا» - وتجوب هذه الغابات أعداد كبيرة من الأسود تجنباً للمناطق المأهولة. وقد اعتادت هي والذئاب مهاجمة القرى ليلاً لاقتناص المواشي. وفي الصباح أصابنا الكثير من القلق لوجود آثار لأسد في الجوار وسمعنا زئيره المتكرر بالقرب من طريقنا وحتى حماري أصابه الخوف والذعر.

وفي الصباح هطلت أمطار غزيرة وعانينا منها لعدة ساعات حيث ابتلت ملابسنا تماماً ورغم ذلك واصلنا السير حتى قرية «برام» - إحدى قرى الخزام - وكنا في حالة مزرية نرتعش من البرد لكننا - ولحسن الحظ - حظينا بمنزلة مريحة تحتوي على كوخ وطعام يكفي حاجتنا كما تم إمدادنا بالحطب الذي مكننا من تجفيف ثيابنا ومتاعنا على لهب النار ولكن للأسف لم يكن الكوخ واسعاً بدرجة تكفي لتجفيف كل المتاع، الأمر الذي استغرق منا اليوم الذي يليه لتكملة هذه المهمة، وكان هذا التأخير لازماً لإراحة الدواب أيضاً. وبناءاً على نصيحة العرب غطينا ظهورها بلبابيد عشبية للتخفيف من ضغط الأحمال التي عليها. لم يعد حماري صالحاً للركوب نتيجة للجرح الذي على ظهره، وكم كانت معاناتي ستتضاعف إذا ما أصاب هذا الجرح أحد الثيران المخصصة للحمل مثلاً.

كان الأهالي كرماء معنا ودرجوا على تقديم كل ما نحتاجه وبسعر لا يتجاوز مقداراً صغيراً من الملح - وهو سلعة نادرة هنا - أما أسعار اللبن والدجاج والخراف فهي أغلى من أبشي وهذا أمر معتاد في المناطق الباطنة. وبما ان الدجاج من مقتنيات النساء - دائماً - فقد كنت أحصل

عليه بسهولة مُقابل الأعواد المعطرة كالصندل وما شابهه أو مُقابل الحلي الصغيرة الشائع استخدامها بينهن.

تكسو لون الأهالي الحمرة، ومنذ عام 1870 نبذوا حياة الترحال لأن مواشيهم نفقت بسبب الطاعون. فوجئت بأن نساء هؤلاء الأعراب تأثرن بعادات وداي حيث لا يتخطين الرجال إلا وهن جاثيات على ركبهن ومن على مسافة معقولة، ولا يمنعهن الماء ولا الطين الآسن من التقيد بهذا السلوك، ورأيت بنفسي عدداً من الفتيات يرتدين الحرير وهن زاحفات على ركبهن فوق بركة من المياه، وحتى في مثل هذه الظروف لا يحبذن التخلي عن هذا السلوك حتى ولو أذن لهن الرجال أو أعفوهن منه درءاً للمشقة والعنت.

أكملنا عملية التجفيف ثم استأنفنا السير صبيحة اليوم التالي الموافق الثلاثين من أغسطس وكان خط سيرنا يميل نحن شرق الجنوب الشرقي صوب سلسلة جبال «بيرسيس» الممتدة من شرق الشمال الشرقي نحو غرب الجنوب الغربي وعلى سفوح تلك السلسلة مررنا على قريتين تحملان اسم «مكرك»، وعبر تلك الروابي اتجه خط سيرنا نحو الجنوب. تلت هذه السلسلة و على بعد مسافة قصيرة من الأولى واحدة أخرى - على يسارنا - ثم مررنا على نهر راكد وهو أحد روافد بيرسيس ثم حططنا الرحل في قرية بيرسيس بعد مسيرة استغرقت خمس ساعات. ظل الطريق يتصاعد تدريجياً أثناء السير، لأننا دخلنا منطقة الكجاكسة الجبلية، وكالعادة نزلنا بالمسجد الذي يتميز بسقيفة قوية متقنة السقف وكوخ يسر الناظر ولكنه - للأسف الشديد - كان مكتظاً بمراقد المهاجرين المرتبة مرقداً فوق مرقد على نمط كبائن السفن. عاد الناس من الحقول عصراً وكذلك رئيس القرية، وتم نقلي – ومتاعي إلى كوخ الرئيس، وكان هذا في الوقت المناسب تماماً لأنني إتقيت شر الأمطار التي هطلت للمرة الثانية في هذا اليوم. تتكوّن القرية من حوالي خمسين كوخاً، وفيها شاهدت – لأول مرة – عملية نسج الثياب، وكان النساج جالساً على حافة مغارة مثبت بها دواسة تحت إطار خشبي رفيع مرفوع إلى أعلى، والخيوط الطويلة مثبة على الأرض على بعد مسافة من فوهة المغارة أما الخيوط العريضة فيحركها النساج.

الملك «علو» الذي كان من المفترض أن أرافقه في السفر أمضى الليل هنا ليمكننا من اقتفاء أثره وسلك الطريق الذي يتوجّه شرقاً وهو يتقدمنا بيومين.

كان تقديرنا أن نأخذ الطريق من بيرسيس إلى أولو مباشرة إلا أن الأهالي أخبرونا بأن الأمير اختار الطريق الشرقي عبر قرية «تابِلِ» تفادياً لخطورة ذباب «أم بوجناء». في الحادي والثلاثين من أغسطس استأنفنا السير وسلكنا الطريق الذي يتوجه نحو الجنوب الشرقي وبعد مسيرة ساعة ونصف الساعة وصلنا قرية[1] مرافقي الصغيرة والتي تحوي حوالي الأربعين أو الخمسين كوخاً، وتجنباً لأمطار الظهيرة عقدنا العزم على إدراك قرية «بوتا» التي تقع على بعد مسيرة يوم إلى جنوب الجنوب الشرقي لقرية «مرافمين». مازالت تابِلِ على بعد منا ويتعين تجنب إقامة المعسكر في الخلاء بسبب الأمطار الغزيرة. الطريق يخترق غابة جميلة وأصبحت

1- ا الكرسي ثوم.

الأشجار تزداد ينعة ونضاراً كلما توغلنا جنوباً وهي مكتسية بالنباتات المتسلقة التي تزيدها زهواً وجمالاً، وحتى أشجار الصبار البرية أصبحت أكثر ينعة وخضرة. تقع بوتا على السفح الشرقي لأحد الجبال وتحفها غابة كثيفة ويبلغ ارتفاع الجبل المائة متر، ومن أعلى هذا الجبل يمكن رؤية جبال سلا ممتدة على الأفق البعيد من الشرق إلى الجنوب الشرقي على بعد مسير يوم منا.

تحوي القرية خمسين مسكناً وهي من أعمال ودّاي. استقبلنا رجل لطيف المعشر بالبشر والترحاب واستضافنا بالمسجد الذي شيدت سقيفته على أرض غائرة تتجمع فيها مياه الأمطار، وحتى الكوخ لم يكن متين البنيان، ثم فيما بعد انتقلنا لمنزل المنجاك بعد عودته من الحقل حيث قابلنا بالترحاب هو وزواره من الأهالي الذين كانوا في غاية اللطف والكرم رغم عدم تمدنهم الواضح.

كانوا مندهشين لسراجي الذي كان عبارة عن خزان من الحديد بفتيلة قطنية تُوقد بالسمن، إذ ظلوا يحملقون بدهشة وانبهار في هذا الاختراع الذي لم يسبق لهم مشاهدته والذي يدل - حسب فهمهم - على عبقرية أهل الشمال. الأهالي يعاملونني كما لو كنت في مهمة رسمية وكم كنت في حاجة لبث مثل هذا الإحساس في دواخلهم. صحيح أن السفر إلى بحر السلامات بغرض التجارة هو أمر شخصي إلا أن الأهالي كانوا على قناعة بأن سفري إلى ربّما كان بتفويض من السلطان ولم تكن لدي مصلحة في نفي هذا الاعتقاد.

ابتعت من مضيفي إبراهيم ميدو كبشاً صغيراً مُقابل خمسة أمتار من الخام بما يتجاوز السعر في أبشي. لاحظت أن الأسعار - في المناطق الباطنة - تتجاوز الأسعار في العاصمة رغم محدودية التنافس.

وثقت تعاملاتي التجارية الصلة بالأهالي وبصفة خاصة مع رجل وامرأته اللذان لم يكتفيا باستشارتي في مسائل البيع والشراء فحسب بل امتد إعجابهم بكل متعلقاتي، وكان دائماً يلفت نظر زوجته خديجة لتنال حظها من المشاهدة والاستمتاع الأمر الذي استهوى بقية الأهالي. ومن ملاحظاتي هنا عدم وجود ظاهرة تعدد الزوجات. لم يكن خافياً على الأهالي واقعة أنني رجل مسيحي ولم يُظهروا إلا القليل من الامتعاض لأن إلمامهم بالثقافة الإسلامية ضئيل لدرجة لا تمكّنهم من إدراك مدى فداحة الجرم في اعتناق المسيحية كما يعتقد بقية المسلمين.

كان استقراري مضنياً وأنا أسكن ذلك المسكن الباذخ الفسيح لأذبح الكبش الذي بحوزتي. يا لهولها! يالهول تلك العاصفة الرعدية القاسية لكم أقضت مضجعنا، هي عصفت فجأة فلما هدأت بعض الشئ انهمرت علينا أمطار غزيرة حتى خلنا أنها لن تكف. أغرقت الكوخ تماماً فطفح متاعنا وتلف منه الكثير وكم عانى الذين كانوا معي وكنت أحسنهم لأني احتميت بالمنقريب خاصتي واستلقيت عليه بعد أن وضعته في بقعة ليس من السهولة وصول المياه إليها.

ومع حلول المساء جاءني صاحب الدار حاملاً معه إناءً به الكثير من ثمار المخيط [1] المخمّرة

1- نوع من الثمار البرية.

التي يقتات عليها الناس في أوقات الشدة عندما يشح الغذاء وفي ظروف المجاعات، ومن المؤلم أن الأهالي ليس لديهم إلا النذر اليسير منه.

ما زالت الأمطار تهطل وبغزارة أيضاً ولم تكف إلا صبيحة اليوم التالي، وتأكيداً لرغبتنا في بلوغ تابلا في يوم واحد، قررنا تمضية اليوم الأول من سبتمبر حيث نحن. كان عليّ أن استفيد من بقائي فذهبت أتعلم بعض مفردات لهجة الكجاكسة وشيء من لغة المرفا، الأمر الذي وجد قبولاً حسناً من الآخرين خاصة مضيفي وجيرانه الذين استقبلوا المحاولة بحرارة وحماس. من جانبي قدمت لمضيفي فرخين من الورق هدية له، وفرخاً لكل من جيرانه، فعبروا عن امتنانهم بفيض من دعواتهم الصادقة وأمنياتهم، ثم قرأوا الفاتحة سائلين الله أن ينعم عليّ ويباركني.

من الملاحظ ان طبيعة التربة في هذا الإقليم طينية حمراء جميلة تعلوها طبقة خفيفة من الرمال. يجد الأطفال بغيتهم في اللعب بالطين إذ يقومون بتشكيل بعض لعبهم بمهارة وإتقان، تماماً كما يفعل أطفال العرب في كانم وبوركو حيث كانوا يشكلون تماثيل للجياد. أما الأطفال هنا فتراهم مغرمين بتشكيل تماثيل الكركدن و الأفيال.

علمنا ان أمير رنقا غادر قبل أربعة أيام متوجهاً نحو تابلا ولكن من المحتمل أن يبقى بعض الوقت ب «منقاري» على بحر السلامات تجنباً لمباغتة الأمطار، وبالتالي يسهل عليه تخطي المستنقعات الواقعة بين منقاري ورنقا، وبما أننا الآن على مقربة من المنطقة المنخفضة تلك التي يفيض فيها بحر السلامات فمن المؤكد أن تغدو رحلتنا مضنية وشاقة للغاية. ها هي الأرض تبدو في انخفاض من حين إلى آخر وبصورة متكررة مما أعاقنا كثيراً وأضاع علينا ثمين وقتنا. لكن لحسن طالعنا بدت من حولنا بعض الروابي والمرتفعات الحجرية و الرملية أيضاً..

اتجهنا صوب الجنوب ثم جنوب الجنوب الغربي مخترقين غابة غاية في سحرها وشاعريتها، عبر صفوف الروابي فوق أرض غير مأهولة كل ذلك عبر نهيرات تنساب فوق قيعان حجرية، وبعد مسيرة خمس ساعات ونصف الساعة وصلنا مفترقاً للطرق، يتفرع الأول ناحية جنوب الجنوب الغربي إلى «أولو» بينما يتجه ثانيهما نحو جنوب شرقي تابلا. في هذه الغابة الكثيفة تنمو بزهو أشجار الأبنوس ونبق الفيل و بعض الشجيرات الشوكية ذات الثمار الصلبة والمرة في آن واحد، وهي تماثل تلك الشجرة التي يسمونها في برنو «دوديم» وفي وادي يطلقون عليه «أم مديكو»، وتحتوي على ثمرة صفراء حامزة ومنعشة في ذات الآن. كان أن رأيت للمرة الأولى شجرة الخيزران والتي يطلق عليها اسم «قامسا». وشجر الرطرط أيضاً ذا الأوراق الطويلة وهي عاطلة من ا فرع والذي يمكن أن يستخدم لحاؤه في أوقات الندرة بديلاً للفلفل. إلا أنه من مدعاة الأسى والأسف أن تتراكم - وهكذا بعيد الظهر - تلك السحب المرعبة في الشرق، وما كان علينا إلا أن نؤثر الإقامة بمعسكرنا بعد ان أقمناه بعجل لحماية أنفسنا من وطأة تلك الأمطار في وقت مثالي وذلك قدر إمكاننا وإمكانياتنا. شيدنا سوراً سميكاً من فروع أشجار السنط ثم

وضعنا أمتعتنا على دكة عالية صنعناها هي الأخرى من فروع الأشجار أيضاً. وجمعنا ما جمعنا من حطب الحريق وواجهنا قدرنا ومصيرنا الذي حل هكذا عند منتصف الليل تماماً. هاهي الأمطار وقد أخذت شكل العاصفة الرعدية العنيفة القاسية.

إذا كان الشخص مسافراً على ظهر ثور أو حمار فإن الخيمة التي من ضروراتها الحماية من الأمطار تغدو عبثاً، بل عبئاً وهي فوق ذلك غير عملية ولذا كنت على حق حين أحجمت عن إحضار واحدة معي.

وفي يومنا التالي صبيحة الثالث من سبتمبر وجدنا أنفسنا وقد أهدرنا – نصف يومنا خواء لأننا بمجرد شروق الشمس قمنا بنشر أمتعتنا وأغراضنا وبعض حاجياتنا على السور الذي شيدناه أمس مساءً كي تجف عند منتصف النهار وقد فعلت، عندها بدأنا سيرنا وبعد مسيرة ساعتين ونصف الساعة باتجاه جنوب الجنوب الشرقي وصلنا الجبل الذي يحتضن قرية تاية على جانبي سفحه من جهة الشمال وذلك بعد أن عبرنا وادياً عريضاً تكتنفه أشجار السمار الطويلة، والذي حفرت به بعض الآبار عند فصل الجفاف، هي حقيقة في أن كل روابي تاية مغطاة أجمعها بالأشجار، وفي أحيان ترتفع بدرجة موهنة وعصيبة علينا فترغم دوابنا على صعودها، وهناك من أعلى قمة الجبل رأينا بل لمحنا سلسلة جبال تقع وراءها وهي تسد عرض الطريق من بونا، والى الجنوب الغربي منها مجموعة جبال «كبيت» والى الغرب جبال كرير وجمو وتشكل هذه الجبال مجموعة جبال الكجاكسة المنعزلة.

تعد تاية أكبر قرى الكجاكسة ويتراوح عدد أكواخها ما بين المائة والخمسين إلى المائتين تتخللها الحقول والحدائق التي تمتد على مد البصر والتي تفصل بين الأسيجة والزرائب مخلفة ممرات ضيقة للغاية لا تكاد الدواب تمر منها إلا بالكثير من المشقة والعنت. كان الملك غائباً في أبشي ونائبه مشغول في حقله بالتالي صار لزاماً علينا اللجوء إلى المسجد لأن النائب لم يفلح في أن يوفر لنا سكناً بعد عودته. ويتكون المسجد من كوخ وسقيفة وكانت المنامات خالية من المهاجرين إلا من الفقيه العجوز الذي شاركني النوم.

الأهالي ودودون جداً لكن عددهم الكبير سبب لنا الكثير من الإزعاج، ورغم حرصي على إخفاء متعلقاتي التي تبعث على الفضول إلا ان قنديلي البدائي كان كافيا للفت نظر العديدين منهم وقد كانوا يرون فيه تجلي قدرة ذكاء المسيحيين.

في اليوم التالي الموافق للرابع من سبتمبر واصلنا سيرنا نحو الجنوب الشرقي حتى قرية «أولو» وإلى جنوبها والجنوب الغربي منها يتراثي سهل واسع تنتصب إلى الجنوب الشرقي منه قمة منعزلة وتقع على بعد مسيرة يوم بالقرب من بحر السلامات شرق جبال أبو رسون. بعد ثلاث ساعات من السير بلغنا قلب سلسلة أولو التي تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ثم بعد مسيرة الساعة نحو سفحها الجنوبي الشرقي نفذنا إلى أولو وهي تصغر قرية تاية، أكواخها حوالي المائة فقط بيد أنها تبدو مزدهرة جداً.

تمكنت من الحصول على كوخ فسيح وكان لسجادتي المشابهة للسجادة السلطانية الممنوحة للحاكم الجديد مفعول السحر في تسهيل أموري ورفع مقامي عند الأهالي.

أمضينا يومنا هنا لان خادمي المراكشي - حمو - كان يعاني من التهاب العيون فضلاً عن رجاءات الأهالي وهكذا اضطررنا لتأجيل السفر. تحول مدخل داري إلى سوق يعج بالبيض والدجاج ويمكن الحصول على هذه المواد بالملح، كما عرضت علينا كميات من لحوم الجاموس والزراف أيضاً حيث يصطاد الأهالي كميات كبيرة منها من على ظهور الجياد والمنطقة تعج بقطعان كبيرة منها.

كان أمامنا واد مشهور يصعب عبوره أثناء موسم الأمطار بلغناه في اليوم التالي الموافق السادس من سبتمبر. الطريق محفوف بالكثير من المنعطفات الحادة واجتهدنا في السير عبر غابة كثيفة تنتشر فيها أشجار السنط الشائكة التي يسميها الكانوري «دوسو» ويطلق عليها العرب اسم «ابندرو»، وظل الشجر يزداد كثافة كلما تقدم بنا السير مما يقتضي الحذر من أشواكه الحادة. التربة هنا طفلية الطابع – أي طين ورمل – وتغمرها المياه المتفرقة التي تخفي تحتها الكثير من الأغوار الخطيرة. ثم بعد قليل نفذنا إلى منطقة أكثر انفتاحاً من تلك البقعة الغابية التي تُسمى «سرير الجلابي» وهي أرض تغطيها صخور حمراء اللون ويكمن سر التسمية في أن أحد الجُلابة كان مسافراً إلى الجنوب ولم يتمكن من اجتياز منطقة المستنقعات – التي لا تزال أمامنا – فابتنى لنفسه كوخاً على أعلى شجرة تمر هندي[1] وأمضى كل فصل الخريف هنا ومن يومها أطلق الاسم على المكان.

واصلنا السير وعند الظهر وصلنا لتلك المستنقعات الرهيبة التي يُطلق عليها اسم «السنطة» وهي عينة من مستنقعات بحر السلامات الذي يسمى هنا بحر كوتي، والمنطقة سهلة العبور في الصيف أما الآن فهي تنضح بالمستنقعات والبرك الطينية التي لا قرار لها، ولا يُوجد أثر يدل على الطريق وأصبحنا نعتمد على معلومات الكرسي توم فقط.

الدابة التي امتطيها كانت تخوض الوحل حتى تنطمس أرباعها. ومنذ أن أصبح حماري عاجزاً عن كل شيء، حتى عن الحمل، صار شغله الشاغل الالتفات إلى نفسه والاعتناء بها محافظاً على ما بقي منه. لقد استمتنا في السير قدماً، وكان مأملنا ومبلغ غايتنا أن نصل نهاية السنطة. إذ أصبح جلياً أننا تهنا وفقدنا أي معلم من معالم طريقنا، دوابنا صارت عليلة، بل إن علاتها تفاقمت وتعددت ثم تكررت، ومتاعنا أمامنا نراه يسبح في مياه المستنقعات الآسنة، ها نحن الآن لصيقين بهذا المستنقع اللعين وغمرت مياهه دوابنا حتى أنها كادت أن تسبح فيه، ووصلت مياهه أفخاذنا وما بعدها.

أما الكرسي فقد تركنا لنستكشف طريقنا وحدنا، لكن ولكي تتم مأساتنا ويصل عذابنا حده كان أن تبدت في الأفق جبال هائلات من سحب سوداء داكنة، فما كان علينا إلا الصبر ساعات وساعات في انتظار عودة توم إذ لم يكن من الممكن تحركنا يميناً أو يساراً أماماً أو وراءً. وتحت

1- المقصود شجرة العرديب.

زخات أمطار تلك الليلة التي بدأت تهطل، أصبحنا في غاية السوء، صرنا في منتهى ضروب اليأس والإحباط، في آخر الأمر هدأت الأمطار من ثورتها، ثم تقلصت وخفت أخيراً بالقدر الذي مكننا من الالتفات حولنا، ولإمعان النظر في كل ما هو محيط بنا، فإذا بـ «توم» يعود بغتة ليخبرنا بأنه بالإمكان الاهتداء إلى الطريق فيما إذا أخذنا طريقاً قطرياً، بمعنى أن نعود للنقطة التي فقدنا فيها (أعين الطريق). لكن الأمر في حقيقته كان في حاجة لساعات وساعات ولضنى وجهد. فما إن تحركنا لخطوات قلائل حتى اختفت دوابنا في لمح البصر ولم تبن منها إلا رؤوسها، وأمتعتنا على ظهورها لا خبر لها ولا أثر على السطح. كان وبعجل جرت محاولتان لانتشالها إلا أن الفشل الذريع كان حليفنا، لم نفلح في رفع أمتعتنا ولم نفلح في دفع حيواناتنا للسير مرة أخرى، فما وجدنا من وسيلة سوى أن نحمل أمتعتنا من على حيواناتنا على رؤوسنا وظهورنا وأكتافنا على طول الممر الطويل الذي جف لحد ما، لقد استمتنا استماتة رهيبة في مواجهة الطين اللازب الذي لا يمكن بحال سبر غوره، أو معرفة حدوده وكل تلك الأغوار العميقة التي تموج ما دونه وكل تلك الأمطار التي ما زالت تنهمر في تشف وإصرار.

يا إلهي! ها هي الساعات تمر ريثما قبل أن نتمكن من إنقاذ أمتعتنا وإنقاذ حياتنا من هذا المصير الذي على ـ أسوأ الفروض ـ في اعتقادنا أنه لن يستغرق بأي حال من الأحوال نصف ساعة ومع ذلك مازلنا على مشارف السنحلة التي لم نبلغها بعد.

نحن الآن فيما يبدو على الطريق الصحيح لكن هذه الأمطار أعاقتنا من متابعة سيرنا، لكن قيض الله لنا العثور على شجرة سامقة بوجه كاف بحيث لا يمكن للمياه أن تطالها، قصدناها، وهو أمر حتماً سيوفر لنا مكاناً ملائماً لتمضية ليلتنا العسيرة به، ها هي أجسادنا مبتلة، قميئة، نتنة جراء الطمي والفيض وغيرها، وها هي دوابنا ترتجف برداً وإرهاقاً، وها هي الأمطار التي لم تكف لثانية واحدة، حقيقة قد كانت ليلة مرعبة، بأسف ستظل ذكراها عالقة بعقلي وسأذكرها عمري كله. سأذكرها حتماً ما حييت، لم نفكر البتة في إعداد وجبة ذلك لأن حطب الوقود لا يمكن أن يشتعل، ولتتمة وتكملة عذاباتنا هبت جيوش الناموس والهوام وشنت هجومها علينا، وهي ذات طبيعة نشطة خاصة حينما أليل الليل ولم تتركنا ولو للحظة واحدة لننعم بهناء النوم، وعندما أشرقت الشمس وجدنا أرجلنا مغمورة في الماء و أعلى أجسادنا متكئة على الشجرة، أثناء عبورنا لذلك المستنقع أصبح عنقريبي تالفاً تلفاً كاملاً وغير صالح للاستعمال ما لم يتم ترميمه.

أينما يتجه المرء يجد الرطوبة والطين والبرد والجوع واليأس والقنوط وهو الشيء السائد الذي أضحى مهيمناً ومتسيداً على كل شيء عداه، وكان جراء كل هذا الذي عانينا منه إصابتي بذلك النوع من الحمى الرهيبة تلك المخيفة.

أخيراً خفت حدة الأمطار، وتجلت أشعة الشمس التي أيقظت فينا الأمل كل الأمل. بعجل صنعنا بعض الأطر الخشبية وعليها وضعنا أمتعتنا وكل أغراضنا ابتغاء تجفيفها لنستمد من

بعدها للمغادرة عند العصر تماماً كي يتسنى لنا قضاء الليل خارج السنحطة.

خرجنا من منطقة الغابات الملتمة، المتشابكة ذات المستنقعات العسيرة، وبعد مسيرة نصف ساعة وأبصارنا مصوبة على صفحة «بحر كورتي» وعلى مبعدة قليلاً إلى الجنوب الغربي يطلقون عليه «بحر منقاري»، ثم في آخر أمرهم يتممون عليه باسم «بحر السلامات». في هذه النقطة بالضبط يبلغ عرضه حوالي الثلاثمائة خطوة رغم تياره العنيف الذي لم يصل لأعلى منسوب له. إن المجري الجنوبي الغربي – الأعلى – يعلو منسوب مياهه المتوقع إلى مترين أو ثلاثة أمتار. جددنا في السير ولمسافة ساعة كاملة ونصفها، رغم المنعطفات الكثيرة على طول مجرى النهر، سيراً تجاه الجنوب الغربي. وعسكرنا ليلاً على مقربة منه. كان حول النهر تتهدل غابة كثيفة جداً هي غاية في الكثافة بين كل هذه الأحراش، وبين هذا القصب المتكاثف تعيش أفراس النهر كما يعيش الكركدن والجاموس مع بعض الضباع. في هذه الغابة أيضاً تجد الزراف والظباء والأفيال. أقمنا معسكرنا في بقعة هي عبارة عن فجوة وسط هذا الكم الهائل من القصب الذي ترعرع ونما على شاطئ النهر على بعد يسير من الغابة وأهوالها.

كنت محظوظاً إذ أنها لم تمطر في هذا المساء ولا في الليلة التالية، لكنني وبكل أسف لم أبل من تلك الحمى التي لازمتني وحاصرتني بتلك الشاكلة وحتى لحظتي، كان الأمل في الوصول إلى «منقاري» وهو باعثي الذي تبقى لي، وهو الذي يحثني على السير مستفزاً لهمتي على المضي قدماً، والتي لم تفتر.

في اليوم التالي أعني في الثامن من سبتمبر سلكنا طريقنا المتجه نحو جنوب الجنوب الغربي عبر كل تلك المستنقعات على طول مجرى النهر وسط العشب والقصب المتعالي الذي حجب عنا التمعن ومشاهدة المنطقة بوضوح كما كنت أرجو وأتمنى، وهناك كثيراً ما ضللنا طريقنا رغم جهدنا واجتهادنا في الاهتداء إليه وسط تلك الأحراش والقصب الكثيف المتنامي بسخاء.

ومغبة ذلك أننا كنا نتتبع آثار فرس النهر ظناً منا بأنها آثار بشرية، وبعد نصف ساعة أو أكثر من الجهد والبذل قادتنا تلك الآثار نحو المستنقع الذي يفيض بالمياه والذي يعد مرتعاً مثالياً لهذه الحيوانات. بعد أربع ساعات من الضنك والألم ألفينا طريقاً مسدوداً بالمياه الراكدة المتخلفة عن انحسار مياه النهر الذي لم يعد له وجود هنا. وللرهق الذي أصابني والحمى قررنا إقامة معسكرنا خصوصاً وأنه لا أثر لمعالم الطريق ولا أمل لبلوغ قرية منقاري – التي ترنو إليها النفوس – اليوم.

سقطت من على ظهر ثوري فاقداً للوعي وظللت في هذا الوضع حتى جوف الليل وكان من حسن حظنا أنها لم تمطر في تلك الليلة ومن أشق ما ينتظرنا متاعب الباعوض وكيفية مقاومته.

في اليوم التالي درنا حول الرجل – أي المستنقع – المليء بأفراس النهر واتجهنا نحو الجنوب الغربي وسلكنا أحد الطرق الذي يقع على يميننا وواصلنا سيراً جاداً لست ساعات ونصف

الساعة وهي الرحلة إلى القرية الأولى في منقاري وتُسمى دمبين والتي لم تكن لتستغرق كل هذا الوقت لو كان طريقنا مستقيماً، وبما أننا نقترب من المناطق المأهولة أصبح الطريق يتضح شيئاً فشيء، وحلت الأعشاب الفقيرة مكان الأحراش الكثيفة بيد أنها تبلغ قامة الإنسان. الأشجار - هنا - متفرقة أعقبتها حقول غنية بالذرة والذرة الشامية. تجدد الأمل في النفوس وبث منظر الحقول في دواخلنا شعوراً عذباً بأننا على أعتاب الجنة. خيمنا تحت ظلال شجرة جميز باسقة تظلل الميدان الذي يتوسط القرية كبديل للسقائف المعتادة.

وعقب وصولنا تجمع عدد كبير من الأهالي يدفعهم فضولهم - كالعادة - ونسبة لإصابتي بالحمى لم يكن في وسعي إشباع فضولهم وإلحاحهم. لذلك كلفت توم ليبحث لنا عن مقر خاص حتى لو أقتضى الأمر اللجؤ للإيجار. ولحسن الحظ وجد ضالتنا عند رجل طيب من أصل نبيل سبق وتقلد منصب ملك «تركاما» - أي الإقليم الواقع شمال «رنقا» - إذ ابدى هذا الرجل استعداده لاستقبالي في داره المكوّن من كوخين احدهما مخصص لأمتعته والآخر لمعيشة عائلته ولذلك تخيرت فسحة صغيرة - خلف الدار- معدة للصلاة كمكان لإقامتي.

كان الوقت يمضي بطيئاً وأنا أعاني من الحمى وبلغت أسوأ حالاتي ولكنني كنت بعيداً عن إزعاج الأهالي وفضولهم. وفجأة ودون سابق إنذار حل علينا رسول موفد من قبل السلطان علي وقد قام الرسول بهذه الرحلة راجلاً ودون أن يكون مصحوباً بأمتعة وفي أقل من خمسة أيام واتاني بأنباء مفادها وصول سفير دارفور لأبشي وسيعود-هذا السفير- فوراً.

لقد كان لوصول هذا الخبر إضافة لما اعانيه من الحمى التي كنت استخدم الكينين لعلاجها، ثم صعوبة طريق المستنقعات إلى «جبراري» التي تقع على بعد مسيرة يومين أو ثلاثة، كل هذه العوامل دفعتني لأن أقرر العودة إلى أبشي. صحيح أنني سأواجه السلطة ورعبها والذكرى السيئة التي تركتها في نفسي إلا أن كل هذا لا يضاهي الرعب الذي إعتمل في نفسي من مواصلة السير لثلاث أيام أخر في هذه الأرض السبخية التي أمامنا إذا ما قدر لنا مواصلة الرحلة. بلغتنا الأنباء بأن الحاكم علو تخلص هنا من أحمال الملح وفقد حميره وثيرانه، وأما نحن فقد أمضينا عدة أسابيع في هذه الرحلة المضنية وقل حملنا من الملح - بسبب المياه - بمقدار النصف تقريباً وأرهقت دوابنا ومرضت وسرقت ثيابي ولم يتبق لي منها إلا أسمال بالية وخارت قدرتي على المقاومة تماماً. عندها راودتني الرغبة في العودة شرقاً وأيقظ هذا الإحساس في نفسي الحنين للوطن والأهل وجدد في دواخلي القوة والعزم للرحلة المعاكسة.

بالإضافة لما ذكرته، لم يكن في وسعنا مواصلة الرحلة إلى رنقا قبل حلول شهر رمضان مما يعني مزيداً من التعطيل لرحلة دارفور. قراري بالرجوع أعطاني إحساس بالأمن وكان له مفعول السحر في شفائي من الحمى.

اليوم الجو صحو والسماء صافية. حاولت أن أقضي الليل في الهواء الطلق إلا أن جيوش الناموس والهوام كانت لي بالمرصاد. انتقلت لكوخ مضيفي ولضيق المساحة قضيت الليل في

نفس المكان الذي قضيت فيه ليلة البارحة، محتويات كوخ مضيفي عبارة عن حاويتين طينيتين كبيرتين كلاهما في شكل الزجاجة، وتعلو كل منهما فتحة عليها غطاء من السعف وكلاهما مرفوعة على أحجار لحماية محتوياتها من النمل والجرذان ويبلغ ارتفاع الواحدة قامة الرجل والقطر حوالي المترين أو الثلاثة ولكبر حجمها فإن صناعاً متخصصون هم الذين يُعهد إليهم ببناء مثل هذه الحاوية والكوخ الذي يغطيها، ولا يشيد الكوخ بالطريقة المخروطية التقليدية العادية المتبعة في الشمال بل يأخذ شكل الجرس. وبجانب ذلك يُوجد نصب خشبي قصير مشدود عليه حصير يتخذه الزوجان كمخدع لهما مع عنقريبين خشبيين، ويعيش في الكوخ مع الرجل وامرأته الدميمة، اثنان من الأبناء وينامان تحت السرير كما تشاركهم الكوخ عنزة لهم. تشيد الحيشان هُنا من أعواد الذرة بدلاً من النسيج العشبي الذي يسمى شرقانية.

قبل المغرب بقليل أشعلت النار وتم طرد الذباب خارج الكوخ بفضل الدخان وتم سد المنافذ منعاً لعودته وبالتالي صار الوضع أفضل، وفي الصباح ورغم عدم شفائي التام من الحمى إلا أنني صرت أقوى على الكلام فتجمع حولي الأهالي للتمتع بالنظر للسجادة المصنوعة في بلاد الهوسا وإبداء إعجابهم بها.

تتكون منقاري من سبعة قرى أما هذه القرية فتسمى «أوسلين» وعلى الضفة الجنوبية للنهر يُوجد مقر الملك، وتتكون القرية من حوالي المائة وخمسين كوخاً أما قريتنا فعدد أكواخها لا يربو على المائة وتتلوها قرى «جيجاري» وكادوكا «ومدك» وكل تلك القرى تقع على الضفة المقابلة للنهر وهي على سفح سلسلة جبلية منخفضة تمتد بمحاذاته، أما على جانبنا فضلاً عن قريتنا تُوجد قرى «عرديبه» و «مابتون» المتجاورتين، لا يطلق على السكان اسم منقاري بل «جقّيل» ويتزعمهم ـ في العاصمة ـ جرمة أبو جبرين وسهمهم الضريبي عشرة من العبيد وثلاثمائة تكية ومائة وخمسون زقاً من العسل، وهم ـ مثل الكجاكسة ـ زنوج دميمون وبصفة خاصة النساء، ومع ذلك فهن يعلين نساء الكجاكسة ـ اجتماعياً ـ إذ ليس من عاداتهن أن تجثو المرأة في حضرة الرجال. وهنا أيضاً تتزين النساء بالمرجان والعاج والحلقان الخشبية التي تغرز في الأنف ويتزيّن أيضاً بعقود الخرز وخرز «الزيلان» الأزرق المستدير كبير الحجم والخرز المستطيل الذي يسمى أولاد الكريش ـ أبيض وأسود ـ ويتبعن طريقة تصفيف الشعر المعروفة في ودّاي ولكنهن لا يسدلن الضفائر على الجبين والوجه.

الناس هنا فقراء فقراً مدقعاً وقد كان لي حديث طويل في هذا الشأن مع مضيفي وزميل آخر له يتميز بالصراحة والوضوح يدعى دبا، وكان حديثنا حول أسباب الفاقة والعوز. والواضح بصورة لا تقبل الجدل أن من رابع المستحيلات أن يجد المرء في السوق المركزي في أبشي منفذاً لتصدير حاصلاته الزراعية وما لديه من منسوجات وأسماك، وعلل «دبا» هذه الاستحالة بالقول (إن سعر حمولة جمل من السمك لا تتجاوز ـ عند المقايضة ـ تكية واحدة ودون هذه التكية الواحدة الخشية من الابتزاز الذي يُمارس على الفرد وبشتى السبل في الطريق إلى أبشي

سواء من قبل رجال السلطان أو عبيده و غيرهم من ذوي النهم والجشع، علماً بأن المواطن لا يتطلع إلى أرباح كبيرة بل يكتفي بما يتيسر من ربح متواضع يمينه لحين) وأضاف دبا بأنه إذا لم يتحين فرصة عودتي لأبشي ليحصل على قميص جديد من ولي نعمته عقيد الدريش، فإن من الصعب عليه تكبد المشاق ولمدة عشرة أيام متواصلة على تلك التربة السبخة بمستنقعاتها الرهيبة من أجل الحصول على قميص.

بالرغم من مكانة مضيفي كملك سابق «لرنقا» ونبل أصله إلا أنه لا يمكن أن يصنف إلا كرجل فقير، ومع ذلك كان ودوداً طيباً معتداً بنفسه، ورغم كبر سنه كان يسعى للزواج على زوجته الدميمة وهو لا يشترط الثراء فيمن ترغب الاقتران به، كما ذكر لي في زهو وكبرياء – وذلك تأكيداً لما يحظى به من احترام وسط الأهالي، وكم كان ممتناً عندما أعطيته بعض الورق الخام وكثير من الملح وإبرة خياطة وبعض أعواد الصندل لزوجته، كان متحسراً لعودتي المبكرة وكان يأمل في أن أبقى بمنقاري حتى تنحسر المياه عن مستنقع جيراري لكي أواصل رحلتي لرنقا لأنه يرغب في مرافقتي إلى هناك لإنجاز بعض الأعمال التي تخصه.

بقي أمير رُنقا لمدة سبعة أيام هنا لمعرفة الموقف ما بين منقاري وتركاما وأخيراً قرر المخاطرة وواصل رحلته لأن رجاله ـ في رنقا ـ يستعجلون وصوله للظروف السياسية السائدة هناك، فترك الدواب التي لا تستطيع مواصلة الرحلة هنا في منقاري وتخلص من أغلى أحماله ـ أي الملح ـ لأنه سيتلف حتماً عند عبور ذلك المستنقع المترامي الأطراف. تبعد تركاما مسيرة يومين فقط في موسم الجفاف وتقع جنوب شرق منقاري.

المحصول الرئيسي في منقاري هو الذرة الشامية ويسمى هنا «أم أباطه» ويصنع منه أهالي بحر السلامات الدقيق الذي يستعمل في عمل العصيدة.

اشتريت بعض الدقيق والسمك المجفف لصنع المرق والأدام وذلك استعداداً لرحلة العودة.

بذلت الكثير من الجهد لأجد من يرشدني لطريق سمعت عنه ويُقال أنه يقع شمال مستنقع السنطة قيل عنه أنه طريق سهل وذلك لأنني لا أقوى على عبور السنطة بسبب الحمى التي لا زالت تسكن بدني، لكنني اكتشفت ـ للأسف ـ بأنه لا وجود لمثل هذه الطريق وكان عليّ ـ طوعاً أو كرهاً ـ بدء رحلة العودة ومن نفس الطريق.

اليوم التاسع عشر من سبتمبر هو بداية رحلة العودة، أصبحت الدواب منهكة وفي ضعف مستمر بسبب ذلك الذباب الفتاك، وبعد مسيرة عدة ساعات تمكنا من الاستدارة حول مخلفات مياه النهر التي مررنا عليها عند قدومنا إلى «دمبين» والتي كانت ممتلئة بأفراس النهر ثم عسكرنا بسبب الدواب، منذ بدء رحلة العودة وحتى تجاوزنا لمنطقة المستنقعات لم تسقط قطرة من السماء ولكن اليوم بالرغم من أن الجو لم يكن ينذر بشيء، تلبدت السماء مساءاً بالسحب، ثم هطلت أمطار غزيرة تلتها عاصفة عنيفة ثم عاودت الأمطار الغزيرة الهطول عند منتصف الليل وأصبحنا في حالة مزرية، حاولنا ـ أثناء هطول الأمطار ـ تغطية أمتعتنا والاحتماء

بالحصر وجلود الأبقار وما شابه ولكن ذلك لم يجد فتيلاً. صحونا مبكرين ـ والواقع إننا لم ننم أصلاً ـ بسبب الباعوض الذي كان ينفذ إلى داخل أغطيتنا ونحن في هذا الوضع البرمائي المزري.

كان اليوم التالي مخصصاً للتجفيف كالعادة، وبعد أن جففنا ملابسنا ومتاعنا استأنفنا السير عند الظهر وخيمنا في المساء في تلك البقعة المجاورة للنهر التي خيمنا فيها في المرة السابقة.

وفي اليوم الثالث الموافق للرابع عشر من سبتمبر كنا في مواجهة السنطة المرعبة. ولأننا لم نحد عن الطريق الصحيح ـ هذه المرة ـ عبرناها في ساعتين فقط وكان إنجازاً ضخماً مقارنة بما تكبدناه من مشاق أثناء رحلة الذهاب. كانت الدواب تغوص بأحمالها ونحن نقتلعها من الطين اقتلاعاً ولأكثر من عشرين مرة وكان هذا كافياً لأن تبدو منهكة مثل هذا الإنهاك وكم كنت سعيداً ببلوغها السهل الصخري المسمى بسرير الجلابي عند المساء وبالرغم من إن إقامتنا لم تكن مريحة بسبب أرتال النمل وجيوش الباعوض إلا أننا كنا محظوظين إذ وصلنا «أولو» ظهيرة اليوم التالي وجال بخاطري طيبة أهلها وحسن الإقامة بها.

رغم قصر الفترة التي تغيبنا فيه عن «أولو» إلا أن حقولها نمت بشكل ملفت للنظر، فالذرة التي لم تكن سنابلها قد ظهرت ـ آنذاك ـ أوشكت الآن على النضوج ولما كان الكرسي نوم مغرماً بلحوم الجاموس التي تناولناها في رحلة الذهاب وما زال يذكرها بالمدح والثناء، توجب علينا البقاء ليوم آخر، فقام الأهالي بدورهم بمدنا بهذه اللحوم الطيبة مرة أخرى، هنا أيضاً تخلصت من حمل الملح الذي تبقى معي واستبدلته بسن فيل صغير الحجم وقررت أن أسلك طريقاً آخر.

ويقع هذا الطريق على بعد يسير نحو الغرب ويقال أنه أفضل وأوسع من طريقنا. في السابع عشر من سبتمبر عبرنا سلسلة جبال تقع غرب اولو وفي الظهر وصلنا منطقة أرضها ذات صخور جرانيتية تحتها قرية «قفو» المتواضعة، والتي وصلناها بعد عبورنا لمستنقعات صعبة للغاية ولمدة حوالي ساعة من الزمن و تتبع لملك أولو. بالرغم مما بلغني عن جودة هذا الطريق إلا أنه كان وعراً جداً خصوصاً عند العصر. عبرنا وادياً ضيقاً ذا مجرى عميق به قليل من الماء تلته منطقة مستنقعية يغطيها القصب العالي وصلنا بعدها قرية«مزريو» والتي عسكرنا بها قبيل المغرب بقليل. أصبحت التربة أكثر تماسكاً وصلابة، ولما كان الكوخ والسقيفة الموجودين في ساحة القرية يبدوان خربين ومتهالكين، عثر نوم على كوخ لرجل أرمل يعيش لوحده وهو أمر نادر هنا. رتبنا أمتعتنا بوجه جيد اتقاءً لنذر عاصفة قوية لم تتوقف أمطارها إلا في منتصف الليل.

يشارك مضيفي السكن اثنان من العزاب وقاسمتهم الإقامة في الكوخ الوحيد وقد حمانا من مياه الأمطار ومن شر الباعوض رغم إن حجم الباب لا يتلاءم والمصراع المثبت عليه. كان

صاحب الدار كاتباً بيد أنه يشغل أوقات فراغه بغزل القطن مثل بقية الأهالي الذين يشتغلون بغزل القطن في الساحات العامة والمنازل وينسجون التكاكي، وتتم عملية غزل الخيوط عن طريق آلة ذات حلقتين خشبيتين مشدودتين إلى إطار يستخدم لحلج القطن، ثم عن طريق قوس بيد الغزّال والقطن في اليد تبدأ عملية الغزل، ويعيد الغزّال الحركة وهكذا دواليك .

تحوي قرية « زربوه حوالي المائة كوخ وتقع على السطح الغربي لتلال جرانيتية كالتي شاهدناها في ديار الكجاكسة. إلى الشمال الشرقي تُوجد جبال « كرري » المتقدم ذكرها وإلى الشمال الغربي « جبل جمو». للأسف فقد ساءت حال دوابنا وامتنعت عن الأكل منذ الأمس مما اضطرنا للبقاء في زربوه ليوم آخر.

وفي اليوم الثالث الموافق التاسع عشر من سبتمبر وبعد مسيرة ثمان ساعات كاملة نحو شمال الشمال الشرقي وصلنا قرية « جفجفينا». تسود المنطقة التربة الحجرية وبعض المجاري المائية الصغيرة ومن ضمنها وادي « فرخ» الذي عبرناه ويبلغ عرضه حوالي العشرين خطوة ويتميز بشطآنه العالية. في الصباح عبرنا منطقة ذات غابات واسعة، ثم منتصف النهار عبرنا غابة كثيفة الأشجار تتخللها بعض المستنقعات التي كانت تعوق سيرنا ومن نباتات هذه الأرض يُحصد السرقوم ولهذا السبب يسميها الأهالي «بُربر أم حطبة» وتنتشر فيها أشجار « ابندرو» وتبق الفيل الذي له أشواك كالمخلب، كما تُوجد شجرة زكية الرائحة تسمى الدروت أوراقها متدلية، ويستخدم حطبها للبخور، وعلى الحدود الشمالية لتلك الغابة تنتشر أشجار الرطرط الضخمة التي يستخدم لحاها للكتابة. وبعد اجتيازنا للغابة توسط الطريق سلسلتين جبليتين وكان خط سيرنا جافاً تماماً، تتخلل تلك الوهاد والمنخفضات عدة بقع حمراء اللون تبدو جافة لأول وهلة إلا أن الثيران تغوص فيها حتى مناكبها مما يضطرنا لننزعها من الوحل، وتعد قرية جفجفينا إحدى قرى الكجاكسة يساكنهم القليل من البرنو وتحوى حوالي الستين كوخاً.

وفي اليوم التالي، بعد أن قطعنا مسافة في السير نحو شمال الشمال الشرقي انتهت السلسلة التي على يسارنا كما تضاءلت السلسلة الأخرى التي على اليمين بحيث تمكنا من عبورها نحو الشرق، ثم بعد ساعات عبرنا « وادي دليبة» الذي يصب في نهر « تندرون» غرباً في مقاطعة « فالا»، وكانت هذه السلسلة ذات انحناءة كبيرة نحو الشرق ثم يتغير مسارها نحو الجنوب الشرقي ثم تنحرف تدريجياً نحو الشمال، وبلغنا نهايتها بعد أربع ساعات من السير الذي التزمنا فيه اتجاه الشرق، بعدها قررنا النزول بقرية مكورك على السفح و التي تقطنها قبائل البرنو. تركت القرية انطباعاً حسناً في نفسي لجمال أكواخها وسقيفتها التي على الساحة العامة وطيبة أهلها. لم نتمكن من الاستجابة لرجائهم بقضاء الليل معهم، وكان أن واصلنا سيرنا نحو الشمال الشرقي ثم تدريجياً نحو شمال الشمال الشرقي وعبرنا الممر الذي سبق وسلكناه من برام إلى بيرسيس والدرب المطروق الذي سلكناه أخترق كل قرى مكروك التي سبق ومررنا بها.

تجاوزنا تلك القرى التي كانت على يميننا وعن طريق مرشد خبير، سرنا عبر قفر ثم سهل وأرض تكسوها الحشائش وبعد ست ساعات وصلنا بيرسيس وهي على سفح جبل يحمل نفس الاسم ويكاد هذا الجبل أن يكون جزءاً من السلسلة الجبلية التي كنا نشاهدها طوال اليوم شرق الطريق الذي سلكناه.

تميز سير يومنا هذا باختفاء التربة الطينية والمستنقعات تماماً وأصبحت الأرض رملية ذات طبيعة صحراوية تتخللها الصخور ويسمى هذا النوع من الأرض « بالنقعة، وأصبح للتربة لوناً أحمراً إلا أن الطبيعة تختلف بحيث تسود أحياناً بعض الغابات الواسعة التي تنمو بها تلك الأشجار التي قلّ ما تُوجد في مناطق أخرى، إذ تتميز بقصر جزعها وخشبها المرن وتبدو مدببة من أعلاها بشكل حاد، ويطلق عليها باللغة العربية اسم « الفار» ولها رائحة مخدرة، لذا يستخدمها الأطفال في صيد العصافير. كنا في حاجة لطريق جيد نظراً لحالة دوابنا المنهكة وكنت أتساءل دائماً، هل تقوى هذه الدواب المنهكة على بلوغ أبشي؟.

القرية كبيرة وتحتل رقعة معتبرة من الأرض وبالساحة ما لا يقل عن أربعة أكواخ لإيواء الغرباء والمهاجرين من الطلبة، ثلاثة من هذه الأكواخ غير صالحة للسكن ويستغلها في الوقت الحاضر الطلبة، وحتى الكوخ الرابع كانت حالته بائسة أيضاً إلا أن توم اكتشف كوخاً كبيراً أمامه فناء وملحق به كوخ آخر صاحبه غير موجود في الوقت الحاضر، ولما كان توم رجلاً معروفاً هنا لم يستعصى عليه إيجاد مثل هذا الكوخ لقضاء الليلة .

عاملنا الأهالي بأريحية وكرم فياض وأتحفونا لأول مرة بمرق اليسروع[1] فضلاً عن الإدام العادي، ولم يكن طعمه – أي المرق- رديئاً رغم أنه ولحسن الحظ لا يدخل في صناعة الإدام دائماً.

لقد خارت قوى الثيران وأصبح لزاماً علينا الاستجمام ليوم آخر لأننا سنعبر البطحة بعد مسيرة يوم طويل. وفي صبيحة اليوم التالي لم نتمكن من بلوغ البطحة رغم السير الجاد لكننا وصلنا قرية أكروب المتاخمة لشاطئها الجنوبي. كان اتجاهنا من بيرسيس نحو الشمال وعلى السهل الذي ينحدر نحو البطحة. علينا أن نعبر مجريين مائيين ينحدران من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي يسمى أحدهما «كميوي» وهو أحد روافد الليكو، استرعت إنتباهي حقول القمح والعناية التي يولونها لحقول الفول السوداني والسمسم المنتشرة هنا، وبالقرب من البطحة صارت الحشائش أكثر كثافة وطولاً والتربة أكثر خصوبة والأشجار منتشرة مع تعدد المجاري المائية. الغابات مازالت قصيرة وأشجارها متفرقة ومن الملفت للنظر أن أشجار الطلح التي يسميها الكانوري « كرمقا» تنتشر هنا بكثرة. معدل اتجاهنا كان نحو شمال الشمال الشرقي تقريباً. بالقرب من حقول الذرة يُوجد مخزون وافر من المياه تستخرج من جوف الرمال بعد الحفر لأعماق بسيطة بما يعرف لدى العرب باسم السرف.

منظر حقول الذرة المحيطة بأكروب جعلنا نمنى النفس بمشاهدة قرية عامرة وإقامة

1- يسميه سكان غرب السودان "دود مانا".

مريحة لهذه الليلة. وبعد مسيرة جادة لمدة سبع ساعات وصلنا القرية وكم كانت خيبة أملنا كبيرة لمنظرها البائس، حتى اتضح لنا أخيراً بأننا تجاوزنا أكروب الرئيسة غربنا إذ حجبتها عنا حقول الذرة والأرض المرتفعة. جميع القرى التي تحمل هذا الاسم تُعتبر قرى ثانوية مقارنة بالقرية الرئيسة التي لم يسعفنا الحظ بالنزول فيها. كان النهار حاراً مما زاد متاعب الدواب، وبالرغم من قناعتنا بأننا سوف لن نجد الراحة لكن لم يكن هناك من بد سوى التخييم هنا.

تتبع القرية لعرب الثوابية وكان الرجال قد رحلوا بصحبة مواشيهم إلى المراعي الشمالية وتبقت النساء فقط وكن في أعماقهن غير مرحبات بقدوم أي ضيف ومع ذلك كان استقبالنا ودياً ولم يوضحن لنا ان هناك قرية كبيرة وذلك احتراماً لموجبات الضيافة وفضيلة الجود والكرم والتي قل ما يراعيها عرب وداي، ويمكن إسناد عدم ترحابهن بمقدمنا للفقر المدقع الذي يعانين منه. بعض الأكواخ لا تستحق أن يطلق عليها الاسم إلا مجازاً ويتكون الكوخ عادة من سياج بأعمدة أفقية ورأسية ومسقوف بحصائر الدوم وهو صغير لا يكاد يسع لأكثر من شخص واحد خصوصاً تلك الأكواخ التي تأوي كبيرات السن من النساء. أما أوانيهن المصنوعة من الخزف فهي مشتتة هنا وهناك دون ترتيب أو نظام. ويحتفظ سكان القرية بحيواناتهم في زرائب صغيرة ملحقة بالبيت شأنهم شأن العرب من رعاة الماشية.

لا يوجد ما يمكن شراءه في هذه القرية ولا حتى دجاجة مما دفع بـ بباه العبد المراكشي الذي جلبناه من باقرما للخروج بحثاً عن شيء نقيم به أودنا، فأتانا في النهاية بسحليتين سمينتين من نوع السحالي الملونة، وكان للحمها نكهة ومذاقاً طيباً. لا يأكل المابا الأصليون مثل هذه الحيوانات شأنهم شأن بقية شعوب العالم الإسلامي رغم أنها غير محرمة كالخنزير مثلاً، إذ يعتبرون لحمه مكروهاً؛ أما القبائل الأخرى فلا تستهجن أكلها. هبت عاصفة شديدة أثناء الليل ولكن لحسن الحظ لم تهطل أمطار وإلا كنا وأمتعتنا في موقف أصعب حيث لا ملجأ ولا غطاء.

وفي اليوم التالي الموافق الثالث والعشرون من سبتمبر وبعد مسيرة ست ساعات وصلنا نهر البطحة والذي يجري من شرق الشمال الشرقي لغرب الجنوب الغربي وهنا ملتقى لفرعين يشكلان مجراه. ينحدر أحدهما من الشمال الشرقي والآخر من الشرق ويبلغ عرضهما – معاً – حوالي المائة خطوة تقريباً والمجرى طيني ومع ذلك عبرناه دون مشقة بسبب قاعه الرملي، وبعد اختراقنا حقول قرى « بيشين » الصغيرة والتي يبلغ عدد أكواخها حوالي الستين وتقطنها قبائل البندلة فقدنا الطريق في الغابة الكثيفة التي تحيط بالقرية وبعد عدة محاولات ولمدة أربع ساعات متواصلة عدنا لنقطة البداية ويعزى هذا الخطأ لسوء نية سكان القرية الذين ضللونا في وصف الطريق. استرشدنا أخيراً بمعلومات الكرسي توم الذي توجه بنا شمالاً عبر مجاري مائية متعددة تظللها الأشجار اليانعة، ونسبة لإرهاق الدواب قررنا تمضية النهار تحت ظلال الأشجار. تحركنا عند الظهر وكانت تعترض طريقنا الكثير من الوديان التي تجري نحو الغرب

وكان الطريق ينحرف تدريجياً وعلى رأس كل نصف ساعة نحو شمال الشمال الشرقي. واصلنا سيرنا ولعدة ساعات وقبيل الليل بقليل هددنا تراكم السحب الرعدية أثناء جدنا لبلوغ قرية « فجة، ولم نكن نعلم على وجه التحديد مايستغرقه الوصول إليها من زمن لكنا علمنا من النساء العربيات في أكروب اللائي التقيناهن في مرفا بأن القرية لا تزال بعيدة.

لاحت لنا بعض المزارع وفي الحال بدأنا في البحث عن القرية حتى شاهدناها أخيراً وهي قرية صغيرة غرب خط سيرنا تتكون من حوالي العشرة أكواخ وكان أحدهما خالياً وعندما توجهنا له أتضح لنا أن النساء العربيات الست القادمات من أكروب سبقننا إليه لكنهن تنازلن لنا وتفرقن على بقية أكواخ القرية.

بدأت الأمطار في الهطول قبل دخولنا القرية وانتهت في الثلث الأخير من الليل. وفي الصباح كانت السماء ملبدة بالغيوم مع تساقط زخات من المطر وبالتالي لم يكن في تصورنا بدء المسير قبل أن ينتصف النهار. كانت لدينا مشكلة كبيرة في الوصول لام فجة لأن المنطقة تعج بالدروب الصغيرة المتقاطعة في كل الاتجاهات، بيد أن الموقف أنجلى عصراً إذ بدت المنطقة مكشوفة، فإلى الشمال الشرقي بشرق جبل «كوكر» الذي مررنا به يوم أمس، ثم إلى الشمال الشرقي تلال قبائل «موبو» التي تقع على بعد ساعات، وتتوسط تلك التلال قرية مرافعين. وأمامنا الآن سلسلة جبال مرفا، وبعد مسيرة عدة ساعات وصلنا قرية أم فجة التي تقطنها قبائل الموبو، ولجأنا كالعادة للمسجد، وكان علينا الاستقرار فيه لأن الملك غائب ولا يمكن الحصول على كوخ في غيبته رغم حاجتنا الملحة له وذلك لأن السحب بدأت في التجمع و كوخ المهاجرين مكتظ بالصبية الذين لم يبدو أي استعداد لإفساح المجال لنا لتمضية الليل فيه. الموبو قبيلة صغيرة لها علاقة بالمرفا والكجاكسة ويبدو على وجوههم البشر والتواضع مما يرجح الرأي القائل بأنهم أناس ممتازون.

وفي اليوم التالي كان علينا أن نبدأ مسيراً شاقاً لأننا سنخترق منخفض يقع بين سلسلة « لاجيا، وجبال « المرافعين » التي تغطي سفحوها المستنقعات والأغوار المائية. عبرنا بعض المجاري المائية الضحلة التي تصب غرباً، ثم نفذنا لأرض مرتفعة وعبرنا قرية لقبائل الموبو تسمى «بقباق» تاركين سلسلة جبال شمبول غربنا، - على بعد مسيرة ثلاث ساعات- حتى وصلنا منطقة ذات تلال صغيرة. تحوي بقباق حوالي الستين كوخاً فقط، بيد أن حقولها واسعة وتقع على السفح الغربي للجبل. وبعد خمس ساعات اضطررنا لأن نخيم لعدة ساعات تحت كتلة جرينيتية هائلة على ظلال أشجارها الوريفة بقصد إراحة الثيران.

كان السير عسيراً على دوابنا المنهكة عبر تلك التلال التي تغطيها الغابات الكثيفة. أصبح اتجاهنا نحو الشمال الشمال الغربي والسلاسل الجبلية التي كانت على جانبي الطريق توحدت هنا وأصبح لزاماً علينا اجتيازها. ثم بعد عبورها بساعة وصلنا قرية « كرناية» الصغيرة وتيسر لنا - من أعلى الجبل- إلقاء نظرة على السهل الذي يفصل بيننا وجبل مرفا.

تنمو على الساحة العامة لقرية « كرناية» شجرتين ضخمتين من الكرنو وتستمد القرية اسمها منهما. وجدنا كوخ المسجد خالياً، وكان الأهالي ودودين وهم خليط من قبائل المرفا والمويو، فقدموا لنا فطائر القمح وسنابل الدخن الطازج ثم ابتعنا منهم الدجاج وبعض الوجبات مُقابل إبر الخياطة والملح.

بعد اجتياز السهل وتلك السلسلة الجبلية المنخفضة، دخلنا سلسلة المرفا التي تمتد من الشرق للغرب وتتميز بتلالها العديدة وتتوجها قمتان تسمى إحداهما « أم بلاية» وهي محدودبة على شكل القبة وتقع أمامنا على الشمال مباشرة، وبها قرية تحمل نفس الاسم، والأخرى قمة عالية متسقة الشكل وتقع إلى الجنوب الغربي من« أم بلاية» وتحيط بقرية «هوجين» التي لا تكاد ترى من فرط إحاطة الجبل بها. ثم من أم بلاية توجهنا شرقاً ولم نبلغ الجبل إلا عصراً لأننا بعد عبورنا لحقول قرية « تيري » عسكرنا منتصف النهار على واد كبير اتقاءً لحرارة الشمس، و الوادي على ما يبدو عليه من الكبر إلا أن منبعه من جبل قريب. وخلال الساعات القليلة التي توقفنا فيها والتي كان من المفترض أن ننال فيها قسطاً من الراحة، قضت مضاجعنا عاصفة رعدية أسقطت علينا أمطاراً خفيفة. ظهرت على الجانب الآخر من أم بلاية سلسلة تتمدد أمامنا من الشرق للغرب وكان خط سيرنا يتجه نحو الحافة الغربية لهذه السلسلة.

أصبحت الوديان والجبال تتوالى هكذا حتى المساء. لاحت لنا سلسلة جبال الكشامرة على الأفق الشمالي الغربي، وخلفنا سلسلة جبال مرفا. وصلنا قرية « العوليب» العامرة وسكانها من قبائل المرفا والباقرمة، ثم مررنا بعدها بقرية « بدين» ثم قرية « لين» والتي تقل عدد أكواخها عن المائة كوخ كأغلبية القرى، وكان علينا التوقف عدة مرات لإراحة الدواب. وعند معاودة السير عصراً أصبح الطريق أكثر وضوحاً مما سهل سيرنا.

نحن الآن على وشك بلوغ سلسلة الكشامرة، وعند المغيب حططنا رحلنا بقرية «اراك» لتمضية الليل وهي من طلائع قرى الكشامرة.

وفي اليوم التالي وبعد أن عبرنا قرى « منقلتي» و« قرباجو» وبقر الضكر وقرن الكبيش» وكلها من قرى الكجاكسة، وصلنا البطحة بعد أربع ساعات من السير ثم خيمنا بعدها على ضفتها الشمالية تحت شجرة تمر هندي ظليلة، وكان السير خلال هذا اليوم بطيئاً جداً وبدت على دوابنا مظاهر الإرهاق والضعف وصار لزاماً علينا تخفيف أحمالها في بقر الضكر وعلينا نقل تلك الأحمال حتى البطحة بمساعدة الأهالي. تجرى البطيحة هنا عبر أرض كثيفة الغابات لا تعلو مجرى النهر كثيراً بحيث إن أقل فيضان للمياه يغطي كل الأرض المحيطة بالمكان، ولذلك كان مجرى النهر خصباً للغاية ويصلح للزراعة ودرج الأهالي على استغلال تلك الأرض في زراعة القطن والثوم والشمار والبصل وما شابه ذلك، وأصبحوا يجنون كميات كبيرة من تلك المحاصيل التي يغزون بها سوق أبشي.

مجرى هذا النهر يوازي عرض البطحة بثلاثة أو أربعة أضعاف ونقطة عبورنا كانت مليئة

بالرمال الصافية، ولما كانت قوى أحد ثيراننا قد خارت تماماً لم يكن في وسعنا سوى تمضية الليل هنا تحت ظلال أشجار التمر هندي مع ذبحه للاستفادة من لحمه، ولكثرة الضباع في المنطقة كان لزاماً علينا إبقاء النار مضرمة طوال الليل درءاً لخطر هجومها على الدواب المنهكة أصلاً.

وبالرغم من انتشار الغابات الكثيفة على مجرى البطيحة، إلا أن حيوانات وحيد القرن تنتشر هنا، والمعروف أنها تتلف المزارع في هذا الموسم لكننا لم نرى أي منها. وفي الصباح قمنا بتجفيف لحم الثور واستمتعنا بكبده الذي أكلناه نيئاً بالكيفية التي تؤكل بها كبد الإبل الألذ مذاقاً. وبعد اكتفائنا تم بيع بقية اللحم لنساء القرى المجاورة اللائي يستخدمنه في صنع الإدام نظير شيء من قصب السكر وسنابل الدخن الطازج.

اليوم يوافق الثلاثين من سبتمبر وبعد السير لساعات قليلة وصلنا « اركب» العامرة التي تحوي أكثر من مائة كوخ، ثم وصلنا لقرية « انجرنجا» ومنها اهتدينا للطريق وهكذا دخلنا مركز أبشي الذي يتميز بشح الماء.

ولانتهاء موسم الأمطار أصبحت مشكلة المياه تطل برأسها في كل الأرجاء، وكان التزاحم شديداً حول بئر القرية لدرجة أننا لم نتمكن من الحصول على نصف قربة من الماء إلا بعد ساعتين كاملتين.

واصلنا سيرنا حتى قرية « فلفو» وخيمنا عندها على أن ندخل أبشي في اليوم التالي الموافق الأول من أكتوبر مساءاً. توقفنا في البطيحة حتى استردت بقية الدواب قوتها بحيث حملتنا لأبشي بارتياح.

الاستقرار في أبشي
أكتوبر 1873- 11 يناير 1874م

أثناء غيابي توفى صديقي التونسي حاج سالم من القيروان وكان خلال فترة مرضه يقيم بمنزل مضيفي عثمان. كما حل سفير السلطان إبراهيم ومرافقيه ضيوفاً بنفس الدار. ولما كان العدد كبيراً جداً اضطررنا للنزول بدار الراحل سالم بمعية تاجر من بنغازي يدعى براني، كان يعاملني باحترام رغم أنه سنوسي، بيد أنه وبكل أسف سقط هو الآخر ضحية لحمى الخريف.

انتشرت حمى الملاريا وكثر ضحاياها في أبشي وكنت واحداً منهم، وحتى المجابرة والجلابة من التجار الذين اعتادوا العيش هنا لم ينجو من ويلاتها بمن في ذلك المدعو الفاضل وهو تاجر من بنغازي كان يحظي باهتمام السلطان بفضل صداقته للسنوسي الصغير[1]

كان الفاضل تاجراً ثرياً وبفضل هذه الثروة تمكن من اقتناء أشبال الأسود والظباء، ورغم مشقة نقلها عبر الطريق الصحراوي إلا أنها مرغوبة جداً في طرابلس والقسطنطينية. و أنا شخصياً تحصلت على حيوانين أحدهما قرد ذو ذيل طويل يُعد من أجمل أنواع القرود التي رأيتها والآخر كيكو ويسميه العرب " تيس الخلا ". وأنا أحب القرود أما الكيكو فقد اشتريته لأتيقن من أنه أبتر (بلا ذيل).

وبالإضافة للحمى انتشرت عدة أنواع من الأمراض والحميات، إذ سقط أحد أحفاد حاج أحمد صريعاً بالتهاب النخاع الشوكي وكان شاباً في الثامنة عشر من عمره، كما حصد هذا المرض الكثير من الأطفال، وما لفت أنتباهي معاناة الكثيرين من المسنين من حمى الأمراض الجلدية وربما كانوا مصابين بالحصبة التي يسميها الكانوري "تنينين" ويسميها المابا "كجنينقا" . كما علمت بأن الكثيرين سقطوا ضحايا لمرض التهاب البلعوم والحنجرة - ربما دفتريا- وذلك بعد فترة وجيزة من الإصابة بالمرض، ونسبة لتكتم الأهالي على الإصابة بالمرض لم يكن في وسعي متابعة هذه الحالات. ثم لاحظت أن بعض الجلابة مرضى بالتهاب الكبد وهو داء قاتل.

في مثل مناخ أبشي تبدو مقاومة الأمراض ضعيفة مقارنة بالوضع في الشمال ورغم ذلك فإن آثار المرض هناك أيضاً تشتد وطأتها على الكثيرين منهم.

بعد ترتيب الدار وشراء حاجياتي زرت حاج أحمد تنقا تنقا ثم ذهبت للسلطان الذي استقبلني بحفاوة شديدة.

وبينما كنت في القصر علمت بأن كمكلك فطر كبير الخصيان الذي يقيم بباب الحريم أصيب بطعنة رمح اخترقت لوحة الكتف الأيمن والرئة وذلك أثناء مشاجرة نشبت بين رجاله ورجال " دوقوينقا" عامل السلطان المخصي أثناء جلسة لاحتساء المريسة أقامها الكملك، و

1- الراجح أنه السيد محمد المهدي السنوسي الابن الأكبر للسيد محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية التي كان مقرها في الجغبوب حتى تم نقلها إلى الكفرة.

أُصيب – في هذه المعركة- ثمانية آخرون إصاباتهم بليغة. أهتم السلطان بإصابة كبير الخصيان اهتماماً شديداً وبالرغم من تفاؤل جرمه أبو جبرين بإمكانية إنقاذه إلا أنني كنت واثقاً من أنه لن ينجو ومع ذلك كنت أعاوده يومياً بناءً على توجيهات السلطان الذي كلفني بأن أرفع له تقارير دورية عن حالته رغم أن جرمه أبو جبرين هو الذي يتولى تطبيبه، كانت معالجة الجرمة تركز على إفراغ الرئة من الصديد والدم المحتقنان داخلها وذلك عن طريق ضخ السمن في صدر الرجل المنكوب مستخدماً قصمة صغيرة كالقنينة يولج فوهتها الصغيرة داخل الجرح مع صب السمن من الفوهة الواسعة. سعة تلك القصعة حوالي رطلين من السمن المحمّى الذي ينساب لداخل الصدر ببطء شديد دون أن يهدر منه شيء، وبمجرد نفاذ السمن لداخل الرئة يبدأ الهواء في الخروج من صدر الرجل العليل وسط آهاته وأناته المتتالية. وفي أول جلسة وكنت حاضراً أفرغ الوعاء حوالي سبع عشر مرة في الجرح مع إعادة العملية كل يومين.

ومن مرضاي حاج الخضر – من قطرون- وكان يعاني من روماتزم المفاصل المنتشر آنذاك حتى بين الأطفال، وظل بعض المرضى يتداوون بدخان الطلح والهجليج أو بالغطس في مياه الينابيع المعدنية مع دهن المفاصل والفخذين بالعطرون، وفي تقديري الخاص أن كل تلك المعالجات لا طائل منها. كنت أعاود أحد المرضى يومياً ولعدة أسابيع وكنت أجده غامساً مفاصله المصابة وفي وعاء مليء بالسمن ودرج على أن يظل على هذا الوضع معظم ساعات اليوم.

أحد خيولي الذي أودعته إسطبلات السلطان والذي كنت أنوي إهداءه لسلطان دارفور نفق، والآخر حاله لا يسر. وبعد أن أخذته لداري نفق هو الآخر بلسعة من تلك الذبابة الخبيثة التي تقضي على الحيوانات في فترى. أما الحصان الجميل الذي أرسله الشيخ عمر كهدية للسلطان بمعيتي فقد نفق أثناء فترة غيابي من فتر الدم. ولم تكن علته المرض أو الذباب فقط بل أن تغيُّر الهواء يؤثر في الخيول المجلوبة من برنو وما يعضد هذا النظر هو أن الحصان الذي أحضره عثمان والذي اختبره جيداً قبل شرائه وكان يمتلئ قوة وجمالاً، أصابه المرض أيضا وسرعان ما نفق.

سارع معارفي من التجار لزيارتي وكان أغلبهم من الجُلابة مهنئين لي بسلامة العودة، ولا يمكنني وصف تلك المشاعر الودية التي غمرني بها أبناء النيل بصرف النظر عن موطن قدومهم سواء جاءوا من دنقلا أو بربر أو كردفان أو سنار أو كسلا. هناك فروق واضحة بينهم وتجار ساحل شمال إفريقيا ويمكن اكتشاف تلك الفروق بمجرد الجلوس إليهم. لقد عاشرت الكثيرين من سكان شمال إفريقيا ولسنوات طويلة مضت مثل سكان طرابلس وبنغازي وحتى المجابرة سكان واحة جالو، ومن المفترض أن يكونوا أقرب إليَّ من أفارقة الداخل إلا أن الواقع لم يكن كذلك، ورغم أن الأيام أثبتت لي أن سكان جالو هم الأكثر نبلاً وأريحية إلا أنهم لا يضاهون تجار النيل المعروفين بميال البحر وداً وأريحية وصدقاً.

بعد وفاة العجوز براتي لم أعاشر سوى فتني - شقيق تكرسي - الذي تعرفت عليه في كيكوة وبالرغم من إنه لا يختلف عن مواطنيه في خصلتي المكر والأنانية لكنه كان يظهر لي وعلى الدوام التهذيب والصراحة والوقار. صديقي حاج سالم أيضاً لم يكن في مكنته ذم المجابرة بالوجه الكافي إذ كانت له تجربة مريرة عندما انضم لهم في رحلة من الشمال. ولم تقتصر تجربته معهم على مشاركتهم العيش في واحة جالو حيث أساءوا معاملته وحملوه من الأعباء ما يفوق طاقته، بل كان يصب جام غضبه عليهم لأنهم هموا بتركه وحيداً في الصحراء عندما كان يعاني من المرض ونبذوه دون رحمة.

كان حاج سالم رجلاً عنيفاً متحجر المشاعر لا يرحم. وبالرغم من أنه يرتبط مع المجابرة بوشائج الدم والقربى وكان من المفترض أن يكونوا أقرب الناس إليه إلا أنه أصبح لا يكف عن أذاهم - منذ ذلك الوقت - بكل الوسائل الممكنة. وبالرغم من أنه يبدو فظا غليظ القلب مع من هم دونه، مع ذلك يظهر للغير كرجل قوي صريح وحاسم في تصرفاته، إذ لا تقتصر حذاقته على تصريفه لعمله التجاري فقط بل كان بطبعه إنساناً أميناً وأريحياً، وثاقب البصر.

وبالرغم من أنه شريف من مدينة القيروان المقدسة التي لم تطأها قدم لمسيحي منذ عام 1881م إلا أنه لا يترفع عن التعامل معي، بل كان يظهر لي مشاعر الصداقة والود ولم يكن يبخل عليّ بنصائحه القيمة وكان لصيقاً بأبناء النيل أيضاً حيث عاشرهم وعرفهم عن قرب.

مبعوث سلطان دارفور هو الجلابي شمس الدين وكان شاباً عريض المنكبين غليظ العنق يبلغ طوله حوالي الستة أقدام وهو من كوبي - أحد مراكز دارفور - وقد تعرفت عليه وعاملني بتهذيب شديد مثل كل أبناء جلدته، وله حوالي الشهر منذ أن وصل إلى أبشي ولم يحدد تاريخ مغادرته حتى الآن والتي لن تكون - في كل الأحوال - قبل انتهاء شهر الصوم، و اكتشفت - فيما بعد - إن تباطؤه في المغادرة كان بسبب رعايته لتجارته الخاصة، كما كانت للسلطان علي أسبابه السياسية التي تحضه على عدم استعجال مغادرة السفير. في هذه الأثناء كانت ترتيبات القافلة المغادرة للشمال تجري على قدم وساق وكانت رهن شارة السلطان الذي كان ينوي إلحاق قافلته الخاصة المتوجهة إلى القاهرة بها، وهي قافلة أعتاد إرسالها لمصر كل أربعة أشهر تقريباً، و بدأ تجميع جمال السلطان التي يرعاها عرب المحاميد بالإضافة إلى تجارته من العبيد والعاج والريش التي كانت تحت عهدة أربعة من رجاله الذين سيرافقونها للقاهرة.

في العشرين من أكتوبر حظيت بزيارة - غير متوقعة - من الفكي آدم الذي تعرفت عليه في كيكوة وكثيراً ما مدني بمعلومات عن وداي، وها هو الآن يعود لموطنه الأم، محتمياً بجرمة أبو جبرين وبناءً على ذلك نال عفو السلطان بعد اشتراكه في مؤامرة تتلاك آدم ابن السلطان عبد العزيز الذي كان ينازع في العرش، شأنه شأن مرافقي الفكي أبو، الذي مازال ينتظر الفوائد العظيمة من السلطان المتسامح، بيد أن توقعاتهما قد خابت.

جاءني الفكي آدم بأخبار هامة من برنو مفادها إن ولي العهد أبوبكر مازال مواصلاً حملته

العسكرية في "فكا وكريكري وبدي " لكنه لم يحقق نجاحاً ملموساً. أما أشهر أمراء " بدي " الذي يسمى أجين بن بابوتشي الذي يقيم في فتتي - الموجهة ضده الحملة- استطاع عن طريق الهدايا والعهود المشفوعة باليمين أن ينسحب دون خسائر وهذا هو الموقف حتى الآن. أما "خيروا" - المقر الملكي الجديد- فقد تم تعميرها بالعديد من المباني الطينية بجانب أكواخ القش كنواة لمدينة جديدة. كما أفادني بأن لامينو الرجل القوي قد فقد الحظوة عند سيده أكثر فأكثر، وبالتالي فقد المدن الخاضعة له ومركزه وقبيلته. كما شمل حديث الفكي آدم، باقرمة والحرب التي تدور رحاها هناك رغم أن أقواله مشوبة بشيء من عدم الدقة استرضاءاً للسلطان علي، وحسب أقواله فإن عبد الرحمن - الحاكم الذي عينه سلطان وداي- يتقدم الآن في كل الجبهات بعد أن ترك مكان إقامته السابق في "بديري" و الآن في طريقه إلى "مسينا" - التي تجاورها- ولكن يقال أن المنطقة تعاني من شح في الغلال كما يحدث دائماً في شمال شرق باقرمة - وإن الفاتشا- قائد عام جيش الباقرمة والحاكم السابق لبادنقا قد تصرف خلافاً لوعده بأن يبقى في باقرمة كقائد عسكري وقال إنه سلم القيادة لشقيقه، ويقال إنه أحرز نجاحاً كبيراً ضد أبو سكين واستولى على ستة وثلاثين ومائة من خيوله إلا أن أبوسكين نقل قيادته إلى "بقومان" . وواضح إن ملك باقرما الجديد يعاني من نقص حاد في المواد الغذائية لأنه بعد مدة وجيزة من وصول الفكي آدم لأبشي جاء إعرابي - سبق وقابلته في لافون عند عودتي من باقرمة- يشكو عبد الرحمن عامل السلطان على باقرمة في بضاعة اشتراها منه ولم يسدد ثمنها.

بدا صوم شهر رمضان في الخامس والعشرين من أكتوبر وظهرت متاعب الحصول على الغذاء اليومي لي ولجماعتي مما اضطرني لاستئجار بعض الجواري من النساء اللائي يقمن في الأحياء المجاورة وذلك بغرض إعداد الوجبات المعتادة وهي وجبتين في اليوم، وبالرغم من إني أوفيت بالتزاماتي معهن لأسابيع إلا أن مخزوني الكبير من الغلة شجعهن على الاختلاس، لقد زودتهن بالنلة واللحم لصنع الإدام. نفذت هذه المواد في أيام لا تتلاءم وهذه الكمية رغم أنه لم تطرأ أي زيادة على عدد الوجبات. وأخيراً فقد أخرجني صديقي الوفي حاج أحمد تنقا تنقا من هذا المأزق وأرسل لي جارية لتهتم بشئون داري. أصبح مالك الدار يزودني يومياً بالكسرة والمراكشي حمو يجهز الإدام من لحوم الدجاج. كنت أنفق على وجبة الإفطار نصف تكية - أي ما يعادل خمسة دولارات- كما كنت أحصل على الألبان من العرب القادمين من الجنوب الذين اعتادوا النزوح شمالاً بصحبة مواشيهم في فترة الخريف[1] وطوال هذا الموسم يقيمون في مساكن مؤقتة جوار المدن.

الثيران التي استخدمتها في رحلة «رنقا» قمت بذبحها لأنها لم تعد بذات نفع في الوقت الحاضر على الأقل واتخذت من لحمها قديداً. المشتروات اليومية لتغطية حاجات البيت لم تعد رخيصة كما كان الوضع من قبل ولعدم وجود عملة ثابتة فإن التعامل مع غير التجار يعتبر

1- هي هجرة سنوية لقبائل البقارة هرباً بمواشيهم من الذباب الميت والوحل.

مضيعة للوقت.

قد يعرض المرء كمية كبيرة من التكاكي لشراء سلعة ما ويفشل في الحصول عليها لأن صاحبها قد يصر على إلا يقبل بدلاً عنها إلا خرز العنبر أو حلقاً معدنياً مثلاً. وبالرغم من الافتراض بأن مقاطع التّرمبا والتكاكي أدوات حقيقية ومستقرة للتعامل، مع ذلك لا يفوا بهذا الغرض دائماً. يساوي مقطع التّرمبا تسع تكاكي أما الدولار ماري تريزا [1] فلا يتجاوز سمره الستة تكاكي إلا نادراً، وشراء اللوازم الحياتية اليومية يستوجب استبدال التكاكي بسلع قابلة للتداول.

السلع القيمة كالسمن والعسل والغلال والحلقان الجيدة والعنبر وبعض أنواع الخرز القيم يشتد عليها الطلب، أما المواد الأدنى قيمة كالخدور ـ الخرز الخزفي ـ وأولاد الكريش وخرز السيني، فتعد وسائط مرنة في التعامل ويتم تداولها بطريقة أسرع. أما بالنسبة للصنف الأول فيتم تداوله في شكل عقود تتراوح عدد حبات الواحد منها مابين الثلاثين إلى الأربعين خرزة حسب الحجم.

العقد من النوع الأول كبير الحجم وخرزه شفاف لحد ما ويكلف الواحد حوالي خمسة وعشرين مقطع تّرمبا. والنوع الثاني يكلف نصف هذا الثمن أما الثالث فربع ذلك. وأفقر النساء تحرص على زيادة زينتها من الخرز كل ما كان ذلك ممكناً بدلاً من أن تحصل على شال جديد، علماً بأن الشال هو ملبسها الأساسي.

لا يعارض الأزواج نزعة التزيّن لدى النساء ولا تتورع النسوة في إنفاق نقودهن في شئونهن الخاصة أو في الشئون المنزلية إذ يقتصر دور رب البيت على إحضار أشياء محددة لتسيير الحياة اليومية بيد أنه لا مانع من مساهمة الزوجة بما تحصل عليه من عائدات بيع الألبان والدجاج مثلاً. فإذا نفذ مخزون المنزل من المواد الغذائية ولم تجد الزوجة ما يفي حاجتها تقوم ببيع حليها وما تحصل عليه من مال تنفقه على المنزل ولا تسترده من الزوج. وفي الخريف درج أهالي القرية الواحدة على الاشتراك في ذبح بقرة على أن يتم اقتسام اللحم كل حسب سهمه. وفي أغلب أيام السنة تختص المرأة بتوفير المواد الغذائية المكونة للإدام كالجراد والبصل وبعض الثمار وفي أحسن الأحوال الدجاج وخلافه من المواد الضرورية كما تعد عصيدة الذرة التي تؤكل يومياً.

ويقدر الربط الضريبي للأسرة بعدد أكواخ النساء لا الرجال، وتحصل منهن ضرائب « السلام» و«الدفاع» و«الكدمولة ». لاشك أن هذه الضرائب تؤدي إلى رفع الأسعار وتعقد معاملات السوق.

بخلاف الدخن فإن أي سلعة – معروضة هنا- يفوق سعرها السعر المتداول في برنو وبفارق بيّن، لكن في الخريف عندما يأتي العرب بمواشيهم للشمال يتوفر السمن والعسل وبأسعار زهيدة.

1- عملة نمساوية كانت تسمى محلياً بالريال أبو طيرة.

وفي هذا الموسم يرد إلى الأسواق الخيار البرى الصغير ذو الطعم اللذيذ إلا أنه خال من النكهة ويطلق عليه الكانوري اسم «قرلي» وقد صادفنا الكثير منه في ديار الوشيين في باقرمة ولاقون، وعلى الشخص أن يتوخى الحرص قبل التهامه لأنه أحياناً يكون أمر من العلقم، كما يعرض بطيخ كبير الحجم لكنه ليس من النوع الجيد، وتوجد منه عينات مختلفة الأحجام لكنه بمختلف أنواعه رديء المذاق.

شرع السلطان في إنشاء حديقة للفاكهة وعيّن المدعو مرابض من رضوان ليقوم برعايتها لكنه لا يفقه في الزراعة أكثر مما يفقهه أهالي وداي، إذ لم يتمكن من إنبات شجرة واحدة واقتصر الإنتاج على الطماطم والشطة وما شابههما.

بعد صراع مرير مع المرض ولمدة أربعة أسابيع توفي كملك فطر متأثراً بجراحه وعُين احد أفراد قبيلة الداذا خليفة له. والمعروف أن عدد أفراد هذه القبيلة قليل وسط الخصيان، والمختار فتى لم يبلغ مبلغ الرجال إلا حديثاً يسمى شرف الدين، وقد أتى هذا الفتى من كردفان – أثناء تغيبي– إذ كان في بعثة ابتعثه لها السلطان.

للأسف الشديد لم اشف من الحمى بعد وظلت ملازمة لي طوال شهر رمضان ولم تنقطع عني إلا لفترات بسيطة، وكانت الآلام تتناوب بدني مع التهاب الطوحال والكبد الذي أعاني منه، وكم ليلة قضيتها وأنا محموم مما أنهك قوتي وأهزل بدني، ولهذا السبب قلت زياراتي للسلطان رغم أنه ناشدني الإكثار منها بالذات خلال شهر رمضان لأن مشغولياته تقل أكثر من ذي قبل. وبحسب ما جرى عليه العرف فإنه يقضي معظم اليوم على تلك الدكة الطينية المشيدة داخل السقيفة التي على باب الديوان. وفي الخامس والعشرين من نوفمبر احتفل الناس بعيد الفطر وكنت ليلتها محموماً بحمى حادة لدرجة أنني دخلت في غيبوبة لم أفق منها إلا عند خروج الناس لصلاة العيد.

وبقدر ما يسرت لي الظروف فقد كسوت اتباعي ثياباً جديدة وكان نصيب محمد ثوباً أبيضاً من ثياب برنو ونال بلامة ثوباً مصبوغاً بالأسود لعدم اهتمامه بالنظافة وكسوت حمو ثوباً من الصوف يسمى «جبة أو بركة» من نوع الثياب التي يرتديها العرب وزودت عبدو بجوز من السراويل، كما كسوت الكرسي تومِ ثوباً جميلاً يسمى «الكريشي» من تلك الثياب التي تصنع في كانو. وبحسب رواية حمو ومحمد فإن نصف من حضروا الاحتفال كانوا على صهوات الجياد وكان العدد لا يقل عن الألف أي ما يماثل العدد الذي شاهدته في كيكوة في مناسبة مشابهة. وفي هذا الاحتفال يجرى تفتيش كتائب العقداء «النقفاء الذين هم في كامل عتادهم الحربي إلا أن مقاتلي القرى التابعين للعقداء لا يحضرون في مثل هذه المناسبة، وحسب ما روى لي فإن كل من عقداء السلامات والمحاميد والراشد يأتمر على مائة من الفرسان، ويأتمر كبير الخصيان على خمسين والميرم سارة على حوالي الثلاثين وبقية القادة مابين العشرين والخمسين.

كان نصف الفرسان على صهوات الجياد والنصف الآخر يرتدون الدروع ويمتشق كل منهم

حسامه. أما المشاة – أي قوات السلطان النظامية– فعددهم كبير جداً. زائداً العبيد المتسلحين بالبنادق ويبلغ عددهم حوالي المائة عبد ومثلهم من الخيالة الأتين من التصر وكانوا من الطويرات أو السياس.

والمعلوم أن التنقا المتسلحين بالبنادق والذين يتبعون للعقداء هم نواة جيش السلطان وجوهرة جيشه. كذلك فإن أفراد الحاشية ملزمون بإجراء تمارين ضرب النار يومياً. وهنا عدد من الرماة المهرة من حملة البنادق ذات الفوهتين، فإذا أضفنا لهم قوات العقداء من حملة البنادق والذين لا يتجاوز عددهم الخمسين لدى أكبر عقيد من قادة العرب الرحل، يكون جملة ما يملك السلطان لا يتجاوز الألف بندقية .

استعرض مدفع صغير بدون قواعد حُمل على جمل، وعند الاستخدام يُوضع على الأرض وتُسند مقدمته بحجر. أما الخيول فهي من نسل خيول دارفور.

كان السلطان يجلس تحت مظلة ملونة يحملها العبيد، وبالقرب منه ثلاث مظلات سلطانية مصنوعة من الريش، ثم أربع مظلات أخرى محمولة أمامه ترمز للمعارك التي تم اغتنامها فيها، و حملة هذه المظلات لا يشتركون في الألعاب الاستعراضية التي انغمس الجميع فيها وقد أعجبني أبوسكين الذي كان يؤدي رقصات رشيقة.

جرى العرف بأن تقدم الهدايا للملوك والأمراء في مثل هذا اليوم التي تسمى سلام– ويسمونها أحياناً «عادة» وجمعها «عوائد»– ويتولى جمعها حاج أحمد تنقا تنقا من التجار الأجانب.

تم جمع 120 مقطعاً من تجار النيل بواقع مقطع عن كل فرد، بينما لم يتجاوز ما ساهم به الكوكا والكانوري عشر هذه الكمية مما ألقى بظلال سالبة على قيادتهم العليا.

بمجرد انتهاء شهر الصوم تواترت الأنباء بقدوم تجار طرابلسيين إلى وداي وهم الآن في « بركو»، وقبل وصولي بعام وفد إلى أبشي – لأول مرة– اثنان من المستثمرين الطرابلسيين بعد غيبة دامت عدة سنوات وقد قاما بأنشطة تجارية متعددة مما شجع لقدوم هذه القافلة. المدعو مرابض القادم من قطرون والذي تزامن وصوله لأبشي مع قدومي إليها لينال دعم السلطان لقافلة آتية من طرابلس عبر تبستي وفزان وبركو، لم يتلق رداً ايجابياً وذكر له السلطان –مباشرة – بأنه يشجع وفادة القوافل ويرحب بالتجار الأجانب إلا أنه لا يضمن لهم الطريق إلا في حدود سلطانه أي حتى «ون» – من أعمال بركو– على طريق فزان وحتى وانيانقا على طريق بنغازي.

بالرغم من كل هذه الظروف فها هي قافلة من طرابلس تتلمس أبواب أبشي قوامها مائتين وستين جملاً . وبعد أيام من ورود هذه الأنباء أتى بعض التجار مبشرين بوصول مقدمتها وهي مائة وتسعون جملاً حطوا في عردة لدى قبائل المحاميد وتخلف ستون آخرون في «ون» بسبب ما أصابها من الإرهاق والإعياء، حتى أنها لم تتمكن من تكملة الرحلة إلى أبشي. بعث السلطان

لرئيس قبيلة «ديربي» في «ون» وأمره أن يستبدل تلك الجمال بأخرى وأن يأتي بأحمالها لعردة.
وفي التاسع من ديسمبر حظيت بزيارة من هذين التاجرين اللذان زوداني بأخبار غير دقيقة عن الأحوال في أوربا وبشراني بوصول المدعو «زوميت» محملاً لي برسائل ونقود من «روس» قنصل النمسا في طرابلس .

منذ مغادرتي لطرابلس علمت بأن علي رضا باشا حقق نجاحاً مع كثير من الحكام وفقاً للأعراف التركية القديمة وكان لفزان تجربة مماثلة، وإذا قدر للرواة أن يحمدوا الله على نعمه الكثيرة خلال العامين المنصرمين فإن لاشيء يدعوهم لمدح حكوماتهم من قبل أو من بعد.

كان جميع أفراد القافلة من الطرابلسيين وكنت آمل أن التقى فيهم ببعض أصدقائي من فزان. استغرقت الرحلة حوالي الخمسة أشهر بما في ذلك فترة بقائهم في فزان. كانت حمولة الجمل في حدود الثلاثمائة وخمسين إلى الأربعمائة وزن، إلا أن ربع هذه الجمال لم تعد صالحة، والمعروف إن جمال الشمال تتمتع بسمعة طيبة في قدرتها على تحمل المشاق إلا أن جمال قبيلة الكبابيش – في السودان– هي الأقوى والأكثر قدرة على التحمُّل لذلك فإن الجُلابة القادمون من دنقلا إلى دارفور يحملون الواحدة منها ثمانية أوزان.

وبعد بضعة أيام استقبل الطرابلسيون باحتفال رسمي في الفاشر –أي مجلس الحكم– في الساحة الرئيسة بالقصر، وحضره القادة والوجهاء على صهوات الجياد في كامل زينتهم يتقلدون الأسلحة التقليدية. قام السلطان بتفتيش صفوفهم ثم بمثهم وبص حبتهم عدداً من الخيول المنتقاة كهدايا لقادة القافلة .

لم أتمكن من المشاركة في الاستقبال بسبب الحمى، وفيما بعد ركبت حماري حتى زريبة عقيد المحاميد لألقى بالتحية على هؤلاء الوافدين وأقابل محمد بيه قائد القافلة وهو حفيد ليوسف باشا.

كان محمد بيه محملاً ببعض الهدايا من الحاكم العام ومن أخيه ومن التاجر محمد زوميت وآخرين غيرهم. في الحال أقام التجار معرضاً لبضائعهم والتي تشمل ملابس من المخمل والحرير والأوسمة والثياب المغربية البيضاء، ولطول ابتعادي عن استخدام مثل هذه الألبسة الجميلة شعرت بالخجل من جلبابي الرث وسط هذا الرهط من التجار الذين كانوا يبدون في أحسن هندامهم رغم برود عواطفهم.

كان استقبالهم لي معقولاً، بيد أنني أصبت بخيبة أمل لأن محمد زوميت لم يفكر في أن يسلمني بالرسالة المرسلة بصحبته والتي كان يحتفظ بها داخل أمتعته حيث أعتذر لي بأنه لا يعلم موضعها بالضبط وسط هذا الكم الهائل من الصرر. يا له من رجل بلا قلب لم يضع في اعتباره انقطاع أخبار وطني عني ولمدة سنتين متتاليتين، و كان على أن اتوقع مثل هذه المماطلة لأنه سوف لن يفعل قبل أن يفض كل (الصرر) التي تحوى بضاعته.

الخيول الجميلة التي بعث بها السلطان للضيوف سُلمت لهم، واحتفظوا بها كتذكارات، وخُصص لأي تاجر منزلة خاصة به في ساحة صغيرة تحوي القليل من الغرف، رغم أن تلك الغرف لم تكن برحة كتلك التي رأيتها في كبكوة.

استدعيت لرؤية السلطان قبل الفجر لأنه كان يعاني من نزلة معوية خفيفة فوصفت له «بودرة الدوفر» وهي بودرة مخدرة وسبق ووصفتها له عدة مرات ولحظتها كان عقيد المحاميد يقدم هدايا طرابلس، وكانت هدايا قيمة جداً تساوي عدة آلاف من الدولارات من بينها سرج مطرز بالفضة مغلف بالمخمل وركائب من الفضة وطقم شاي فضي وملابس مختلفة الأنواع والأشكال وساعات ذهبية......الخ. وعندما عاودت السلطان عصرا للوقوف على حالته ومدى تقبله للعلاج، مثل أمامه محمد بيه لتقديم هدايا مشير طرابلس والتي تتكوّن من سيف وبرنس يمني[1]. وفي هذه المناسبة أظهر السلطان رفعته واعتزازه بنفسه وصراحته في الحكم على الأمور. حيث لاحظت أن مقبض السيف وغمده المعدني سبق استخدامهما وكان هذا سبباً كافياً ليرد السلطان هدايا المشير.

خاطب السلطان محمد بيه ببرود قائلاً: إنه كسلطان لا يستعمل أي شيء سبق واستخدمه إنسان قبله وعليه أن يرد الهدايا لسيده وله الحرية في أن ينقل له أسباب الرفض. ولما انزعج محمد بيه لعدم قبول السلطان للهدايا، هدأ من روعه بعبارات تنطوي على المجاملة والود وذكّره بأنه ليس مسئولاً عن هذا الحدث المؤسف وأنه يكن له كل الوفاء والعرفان كما لو كان المشير قد أوفده بأثمن الهدايا.

وضمن ما أرسله حاكم طرابلس رسالة شخصية للسلطان يعرّفه بي، بيد أن السلطان لم يتقبل الأمر وعلق قائلاً: إن باشا طرابلس لا يلقنه كيفية التعامل مع ضيوفه.

انتهزت فرصة تلقي الخطابات من طرابلس لأجد مدخلاً للتحدث مع السلطان في أمر هو أحد البواعث الحقيقية لرحلتي إلى وداي، أي التحري عن مصير إدوارد فوقيل والبحث عن مذكراته. سبق وأجريت بعض التحريات مع بعض المقيمين في أبشي أثناء قدومه لانني لم أكن اتوقع أن يملكني السلطان كل الحقائق عن تلك المأساة، ولم يكن في مقدوري مغادرة البلاد دون أن أثير هذا الموضوع ودون أن أسعى للحصول على مذكراته إذا وجدت.

كنت في البداية حذراً في أن أطرق هذا الموضوع واضعاً في اعتباري تحذير صديقي حاج أحمد المتكرر من مغبة السؤال عنه ونصيحته لي بأن أنسى هذا الأمر حفاظاً على حياتي، ولما كان السلطان الحالي لا يتحمّل وزر موت فوقيل، تقيدت في البداية بنصيحة صديقي وامتنعت عن إثارة الموضوع لكنني رجعت وشرحت له بأنني سوف لن أطرق سبيل مخاطبة السلطان مالم تسد أمامي كل السبل في سبيل تحقيق هذا الالتزام الاخلاقي. الآن تهيأت الفرصة لأتخذ مدخلاً غير حقيقي حتى لا أثير حفيظته. ذكرت له بأنني تلقيت رسائل من بلادي تتضمن كلها تعبيراً عن السعادة الشديدة للصورة التي عكستها عن صفاته - أي السلطان- وذكائه وحسه

1 - نوع من الثياب يبدأ في شكل غطاء للرأس ثم يتدلى كالعباءة إلى مادون الركبة.

المدلي ومن بين هذه الرسائل واحدة لأب مسن من أبناء بلادي قضى ابنه في وداي، وذكرت له بأننا معشر الأوربيين نقدر الكتابة التذكارية لأي عزيز لدينا انتقل إلى جوار ربه، وقلت له بأن هذا العجوز البائس لما عرفه عنك وعن شهامتك طلب مني أن التمس منك إراحته وذلك بأن تعيد له مذكرات ابنه التي ربما تكون موجودة في أبشي. تفاجأ السلطان بهذا الحديث وعقدت الدهشة لسانه لدقة معلوماتي وحاول أن يُظهر لي بألا علم له بالواقعة فسألني عن كيفية موته فأجبته بأن الواقعة مرت عليها سنينا عددا وقلت له ، إنك كنت صغيراً وقتها وتقيم في منطقة الباطنة بعيداً عن القصر السلطاني ورغم إننا في بلادنا نملك معلومات دقيقة عن الطريقة المروعة التي اغتيل بها، إلا أن العالم الأوروبي كله على قناعة بأنك لست مسئولاً عن هذا الحادث وبَحكم ديننا فإننا شعوب لا تميل للانتقام، وانني لم أفاتحك في هذه الحادثة المؤلمة إلا لعلمي بشهامتك وعدلك فضلاً عن إنني أنوي نشر هذه الخصال التي عرفها الكل عنك وعلى نطاق العالم وبأنك أكثر الملوك نُبلاً وفضلاً واستقامة على طول بلاد السودان، وأضفت له بألا أحد يهتم بأملاك هذا الرحالة الفقيد ولا أحد يحفل لضياعها بل تنصب كل رغبتنا في الحصول على مدوناته أو ما تبقى منها وذلك إشباعاً لرغبة والده العجوز وتعزيز مكانتك في نفوس الأوربيين.

استفسر السلطان عن اسم القتيل ثم بدأ في ترديد اسم «عبد الواحد عبد الواحد»[1] كما لو كان يشحذ ذاكرته وأخيراً انفرجت أساريره وبدأ كأن الذاكرة قد أسعفته وخاطبني قائلاً:

« انظر يا خواجة – الاسم الذي يطلقه المثقفون في هذا البلد على المسيحي كما هو الحال في سوريا ومصر ودارفور– إن موت مواطنك حدث قبل تولّي العرش وليس لدى معلومات وافية عنه إلا أنني سأجرى بعض التحريات حسب رغبتك وسآمر بأن تسلم لك أي مذكرات متى تم الحصول عليها.

أكدت له بأنه لا يوجد في أوربا من يُحمّله جريرة والده واننا لم نلجأ له إلا لما عرفناه فيه من عدل وإنصاف، وحتى هذه اللحظة كنت متأكداً من أن جهدي سيضيع هدراً.

كان السلطان محرجاً من جريمة والده مع إحساس بأن تبعات هذا الفعل ستقع على عاتق حكومة وداي، وبديهي أنه يود لو بقيت هذه الحادثة طي الكتمان.

أكد السلطان لاحقاً بألا أثر لمذكرات فوقيل إلا أن هذا لا يعني اختفاؤها إلى الأبد وربما تظهر في أي وقت لاحق لان تمزيق المستندات أو إتلافها أمر نادر في العالم الإسلامي، ولما كانت اللغة العربية هي وسيلة التخاطب و الأداة الوحيدة لقراءة وكتابة العلوم الدينية، بالتالي فإن أي مكتوب يعامل باحترام شديد ولا يتلف قصداً .

أما عن تحرياتي الخاصة فقد ثبت لي أن إدوارد فوقيل غادر كيكوة عبر فترى في بداية 1865م ووصل أبشي آخر هذا العام واستقبله السلطان محمد شريف بيد أن استقباله لم يكن ودياً. كان فوقيل لا يتصرف بحصافة ولم يضع أي اعتبار لخاصية الشك وضيق الأفق الذي

1 -يبدو أن فوقيل تسمى بهذا الاسم شأنه شأن جميع الرحالة الأوروبيين الذين يتسترون خلف الأسماء العربية.

تتميز به شعوب وداي وهذا هو السبب الذي عجل بهلاكه. كان بطبيعته رجلاً نشطاً ويقضي معظم ساعات اليوم خارج مسكنه يتجول بجواده أو على أرجله حول المناطق المتاخمة لأبشي مستعيناً بالكتابة والرسومات في تدوين ملحوظاته الأمر الذي أثار ريبة الأهالي. كان يقيم مع والد عقيد المحاميد الحالي أي العقيد جرمة الذي كان – آنذاك– يشغل ذات المنصب، وكان يحظى بتقدير السلطان وثقته، وهو الذي لفت نظر محمد شريف لتصرفاته وذلك بعد وصوله بأيام قليلة فقط وصورها بأنها تصرفات مريبة وغير عادية. وكان محمد شريف طاغية بطبعه ميال لسفك الدماء وخصوصاً في مواجهة الغرباء مثل العرب الفزانيين والطرابلسيين وكم أراق دماءهم من قبل. فعلى سبيل المثال قدم إليه في إحدى المرات شريف من بنغازي فقتله في الحال باعتباره جاسوس للأتراك. استغل الأهالي هذه النزعة العدوانية المتأصلة فيه ضد الأجانب ووجهوها ضد كل ذي شعر أشقر وعيون زرقاء. وهكذا حرضوه ضد فوقيل وصوروه كما لو كان جاسوساً ابتعث في مهمة لجمع المعلومات امتداداً لبعثة الشريف الذي قتل من قبل.

لم يكن محمد شريف في حاجة لأدلة تثبت إدانة الرجل وتكفي الشكوك لاستلاب حياته، ثم ماهي قيمة الروح الإنسانية في بلاد مثل وداي؟.

استجاب السلطان لنصيحة الجرمة ورد عليه بمنتهى البساطة قائلاً (إذا كان الأمر كذلك فإن من الأسلم قتله) وفي يوم من الأيام خرج إدوارد فوقيل إلى إحدى الضواحي بصحبة رجال الجرمة وعند صخرة جرينتية على إحدى بقاع هذه الضاحية تم قتله بالهراوات ذات الرؤوس الحديدية كالتي يستخدمها «الكربرتو» عند تنفيذهم لأحكام الإعدام. وقد أتيحت لي الفرصة لمشاهدة الصخرة التي أعدم بجوارها. ولم يستغرق بقاؤه في أبشي –حتى قتله– أكثر من ثلاثة عشر يوماً فقط.

إذا كنت قد كسبت ثقة بعض الأهالي وحملتهم على البوح بما يعلمونه من أسرار حول هذه الواقعة، فإن التحدث في مثل هذه الأمور يظل من قبل الإفشاء بأسرار الدولة العليا، وكان الخوف من السلطان يكمم أفواه كل من أتاحت لهم الظروف الالمام ببعض الوقائع المتعلقة بهذه الحادثة. والذين اخبروني بما جرى كان دافعهم الأول والأخير هو إراحتي من مشقة البحث والتنقيب لأنهم يعتقدون إن مثل هذه التصرفات تشكل خطراً كبيراً على حياتي، وقالوا لي – في محاولة منهم لثني عزمي– « اسمع ياخواجة نرجوك ألا تهتم بهذا الموضوع لان هذا الرجل يختلف عنك فهو لم يكن طبيباً مثلك ولا يحب الناس ولا يرغب في زيارتهم أو التحدث إليهم لأن إلمامه بالعربية بسيطاً، وكان يعيش على البيض فقط وهو تصرف لا يجب على الرجل الذكي أن يأتي بمثله، وهو لا يكتب بالحبر كما يفعل الآخرون بل يستخدم أقلام القصب للكتابة». لقد كانت هذه التوافه هي أسباب إدانته وكان محصلتها النهائية إزهاق روحه الطاهرة.

التقارير التي رفعها ورنر مزنقر [1] من كردفان إلى أوربا في العام 1862م والتي استقاها

1- هو رجل سويسري ذهب إلى مصر في عام 1852 وعمل بالتجارة وفي عام 1861م رافق حملة هوقلن للبحث عن إدوارد فوقيل إلا أنه فشل في دخول دارفور، عمل قنصلاً لفرنسا وانجلترا في مصوع ثم دخل في خدمة الخديوي حتى قتل في فالا عام 1875م.

من الشريف محمد الشنقيطي كانت دقيقة فيما عدا تاريخ الواقعة، وكان هذا الشنقيطي قد غادر كيكوة إلى أبشي في نفس قافلة د. فوقيل، وبعد مقتله خاف على نفسه فأسرع في مغادرة وداي خشية أن يقاد بنفس التهمة - أي الجاسوسية- خصوصاً وأنه قادم من ساحل شمال إفريقيا أو على أقل تقدير قد تخشى السلطات جانبه في أن يفشي بما جرى لذلك الشريف الذي قدم من بنغازي.

لاحظت أن السلطان علي كان مرتبكاً لإثارة أمر مقتل فوقيل والمعلوم أنه لم يكن موافقاً على إعدام بيورمان الذي قتله عماله في كانم ورفض استلام أسلابه، وبالإضافة إلى ذلك فإن بيورمان لم يقتل في أرض وداي. ترددت في تذكير السلطان بهذه الحادثة لأنه قد لا يتقبل الأمر خصوصاً وأن درجة المسئولية هنا تختلف عن مسئوليته إزاء ما جرى لفوقيل.

كان في رأي حاج أحمد أن من الكبائر إثارة مثل هذه الأمور في حضرة السلطان ولذا ظل واجماً طوال فترة تناولي للموضوع ومندهشاً للجرأة والتهور الذي أتسمت بها تصرفاتي رغم تحذيره المتكرر لي، وأخاله يقول في صمته هذا « أنتم معشر الأوربيين سخفاء ولا تقدرون ماهية استقبالكم لدى سلطان مثل سلطان وداي وبهذه الطريقة الودية الكريمة بل تسعون إلى حتفكم بظلفكم».

التباين في الطباع بين عرب الشمال الافريقي - الأسيوي - وأبناء النيل أطل برأسه مجدداً إذ أن محمد زوميت الذي أرسلت لي خطابات ونقود بصحبته لم يكتف بتأخيرها حتى يفرغ بضاعته فقط بل ماطلني في تسليم مبلغ الثلاثمائة وخمسين دولار التي أرسلها لي القنصل رومي ولم يسلمني لها إلا بعد الكثير من المراوغة والتسويف، علماً بأنه استلمها في طرابلس من عملة «ميري تريزا» كاملة الوزن بيد أنه حاول أن يقنعني بأنه استلمها كقطع « خام» بما يوازي ما عرضه عليّ من ثمن، وعندما أصررت على استلام نصف المبلغ -على الأقل- نقداً قام بخلط الدولارات «ماري تريزا» بعملات أخرى أقل قيمة مؤكداً لي بأنه استلمها بنفس الوضع في طرابلس مع إنني كنت واثقاً من أنه استخدم الدولارات في شراء بضائع للاستفادة بربحها. وعند التسليم أثار الكثير من المشكلات فيما يتعلق بالشهود الذين يجب أن يوقعوا على إيصال الاستلام، كما تلفظ بالكثير مَنّاً لما قدمه لي من خدمة دون مُقابل. وكم كان هذا السلوك مختلفاً عن تصرف حاج حمزة الدنقلاوي الذي سلمني «خمسمائة دولار «ماري تريزا» أرسلت لي بصحبته من مصر دون إشهاد أو إيصال وسلمني لها كاملة وفي نفس اليوم الذي وطأت فيه أرجلي أرض الفاشر.

الدولة والشعب

لم أحظ بمجال ملائم للكتابة بتوسع عن ودّاي ومناطق الوثنيين التي تحدها من الجنوب إلا ذلك النذر اليسير من التحقيقات الأولية. ولم أعثر على معلومات دقيقة عن امتداد السلطنة وحدودها إلا في إطار يقتضي التعامل معه بشيء من الحذر والتحفظ، وهكذا صار لزاماً عليّ أن أقصر شرحي على قسم عام سأتحدث فيه عن قبائل ودّاي مشفوعاً بنبذة مختصرة عن تاريخها. كما آمل أن يكون جهدي المتواضع أساساً لمزيد من الدراسات عن هذه البلاد التي لا تزال في الكثير من أجزائها أرضاً بكر.

إن أول من وطأت أرجله أرض هذه البلاد من الأوروبيين هو مواطني سئ الحظ إدوارد فوقيل الذي لقي حتفه ثم تلاه مورتز فون بيورمان الذي دفعه إرث أسلافه في حب المغامرة لاقتحام هذه المجاهل حتى لقي حتفه هو الآخر على حدود البلاد وكان ضحية لعقدة التعصب والخوف من الأجانب المتأصلة في أعماق أهالي وَدّاي. وما استقيناه من معلومات وردت في كتابات الشيخ محمد التونسي في مؤلفه « رحلة إلى ودّاي» تُعد معلومات غير كافية عن الأرض التي جاءت مضطربة وخاطئة وتجاهل الكثير من الحقائق وجُلها مبني على معلوماته وافتراضاته الخاصة مما أعطى صورة مشوهه عن المنطقة.

وعلى أية حال فإن ودّاي الأصلية تُحد من الشمال بالصحراء ومن الغرب ببحيرة فترى ومن الجنوب ببحر السلامات ومن الشرق بدارفور ومجرى بحر السلامات الذي يتجه نحو الجنوب، وتقع ودّاي على خط الطول 18°-30° شرقاً على الطول المتوازي الثالث عشر، وتمتد أربع درجات 20°-21° شرق لحوالي ثلاثة ونصف درجة. مساحة المنطقة غير معروفة على وجه اليقين ولكن يمكن أن تقدر - جزافاً- بثلاثة آلاف ميل ألماني أي ما يعادل ثلاثة وستين ألف ميلاً إنجليزياً مربعاً. وتدخل ضمن سيطرة سلطان ودّاي بعض قبائل الدازا الصحراوية، والوانيا، والبديات، وبحيرة فتري، بالإضافة إلى جزء من كانم، وبحر الغزال، وباقرمة ثم جنوباً عبر بحر السلامات حيث ضمت ودّاي مقاطعة رنقا التي تُعد هي وكوتي الحزام الجنوبي للدين الإسلامي وتمتد سيطرة ودّاي في هذا الاتجاه لتبلغ إقليم النيام نيام في دار بندة.

إذا وضعنا في الاعتبار المقاطعة المستقلة - وهو أمر له مبرراته لأن سمات التوحُد مع السلطنة أقوى من أن تعتبر مجرد إقطاعية - فإن رقعة السلطنة ستتضاعف بحيث تزيد المساحة عن الخمسة آلاف من الأميال المربعة أي مائة ألف ميل إنجليزي، وتبعاً لذلك فإن عدد السكان سيتضاعف بالطبع بوجه يتلاءم مع هذه الزيادة التي طرأت على رقعة البلاد الجغرافية. فإذا صرفنا النظر عن المقاطعات والقبائل التي ضمت حديثاً لودّاي تكون المساحه في حدود الثلاثة آلاف ميل السابق ذكرها.

في السودان الشرقي يُقدر عدد السكان بألف شخص لكل ميل الماني مربع ويبدو أن هذا التقرير معقول ومقبول بصفة عامة خصوصاً في دارفور ولكن من المسلم به أن هذا المعدل

يقل في منطقة برنو ومع ذلك فإن هذا المعيار قد يصدق في ودّاي. لقد بنيت إحصاءاتي عن عدد السكان على المعلومات والتقارير التي تلقيتها من الثقاة ممن لهم إلمام بجغرافيا البلاد. وقد بذلت جهداً شاقاً في سبيل الحصول على هذه الإحصاءات وتحليلها ولم أفرغ منها إلا قبل بضعة أشهر فقط، وبناءً على هذه الدراسات تمكنت من الحصول على معلومات قيمة تعضد تلك التي أستقيتها من مضيفي، وقد استعنت في هذا الصدد بأسماء وأحجام القرى معتمداً على الإحصاءات التقريبية للقبائل المختلفة. وبناءً على ما تقدم قدرت للقرية متوسطة الحجم حوالي المائة وخمسين مسكناً، ومتوسط قاطني المسكن الواحد حوالي السبعة أفراد. كما وضعت في الاعتبار أن حوالي ثلث أو ربع هذه القرى ربما سقط عن محدثي سهواً. وبناءً على ذلك قدرتُ عدد السكان بمليونين ونصف المليون واضعاً في الاعتبار حقيقة إن الجزء الأكبر من البلاد صحراوي الطابع وبالتالي يخلو من السكان.

ترتفع المنطقة بوجه عام من الغرب للشرق بحيث يبلغ ارتفاع جزءها الغربي حوالي المائتين وخمسين إلى الثلاثمائة متراً فوق مستوى سطح البحر. أما الارتفاع في الشرق فيتراوح مابين الخمسمائة والستمائة وخمسين متراً.

وبسبب ندرة المياه ـ في بعض المناطق ـ بقيت أغلب أراضي الشمال صخرية جرداء. أما الجنوب فتسوده التربة الطينية الخصبة. ويشكل نهر البطحة والبطيحة المنحدران من الجبال الواقعة شرق وشمال شرق ودّاي شرياني الحياة بالنسبة للبلاد. وبالرغم من أن هذين النهرين يتوقف جريان المياه فيهما أكثر أشهر السنة، مع ذلك تبقي العديد من البرك المائية التي تتخلل مجريهما فضلاً عن أن الماء يتوفر تحت تربتهما الطينية وعلى أعماق قريبة لا تتجاوز المتر ونصف المتر فقط. أما في موسم الأمطار فإن مجرى هذين النهرين يزخر بمياه غزيرة.

يعد بحر السلامات جنوب ودّاي المنفذ الرئيسي للمياه المنسابة من السفوح الغربية والشرقية لهضبة جبل مرة في دارفور. وصحيح أن المياه لا تتوفر في مجراه طوال العام وصحيح أن طول مجراه لا يضاهي مجرى البطحة لكنه يوفر إمداداً أكثر من المياه.

بحر السلامات الذي يُسمى هنا «وداي اسونقا» يمثل الحدود بين ودّاي ودارفور على طول امتداده حتى سلا بما في ذلك الوديان الصغيرة التي تصب في مجراه. ولهذا النهر عدة أسماء مثل « ودّاي اسونقا وكجا وكايا » حتى يفقد هويته كواد فيما بعد ويتحوّل إلى بحر «كوتي» وسنقاري وأم التيمان وبحر السلامات». كما يُطلق عليه اسم «بحر الطين» أيضاً. يتجه مسار هذا النهر نحو الغرب وعند جنوب « كبيت» يغير خط سيره من الغرب للجنوب الغربي، ويصب جزء منه في بحيرة ايرو على بعد مسيرة ثلاثة أيام غرب دار رنقا. ويبدو أن هناك فرعاً صغيراً منه يصل حتى نهر «شاري وباباتشكام» بحر ايرو.

بحيرة إيرو الوارد ذكرها تكبر بحيرة فترى كثيراً وتحوى بعض الجزر التي تعج بالتماسيح وأفراس النهر، ويتحصن بها السلامات عند النوائب.

أما بحر « اندوماء – وتعود التسمية لبعض أبناء راشد – فيصب في بحيرة ايرو من جانبها الشمالي ومصدره بحيرة «بقدي» ويبلغ إتساع هذه البحيرة حوالي نصف بحيرة ايرو تقريباً وتصب فيها عدة وديان تندفع نحوها من الشمال ورغم أن محيطها يقل عن بحيرة فتري لكنها تختزن كميات وافرة من المياه.

أما رنُقا أو دار رنُقا والتي أصبحت جزءاً من سلطنة ودّاي في عهد السلطان علي، فلها سلطانها وتقع جنوب بحر السلامات وتشكل الحدود الحقيقية لدار ودّاي.

من قرية منقاري نقطة نهاية رحلتي عند زيارتي لبحر السلامات يمكن للمرء أن يصل لقرية «تركاما» التي تقع أقصى شمال إقليم «رنُقا» على بعد مسيرة يومين من السير تقريباً، ثم بعد مسيرة يوم ونصف اليوم يمكن للمرء أن يبلغ إقليم «كوكا»، وفي اليوم السابع يمكن للمرء أن يبلغ نهر «اوكاديب» الذي ينبع من دار فنقرو بدارفور، والذي يُطلق عليه عند منابعه اسم «اولف» والراجح أنه يجمع مياه العديد من الوديان عند بلوغه دار رنُقا في منطقة « كُرْدُل» ذلك الإقليم الجبلي الذي يقع جنوب «سمياره والذي يقطنه الوثنيون، والى الجنوب منه وديان «ميراب وينقل ثم تترجام والنيت» وتقع هذه الوديان متوالية من الشمال للجنوب ثم يخترق المنطقة حتى يتحد مع أوكاديب بالقرب من حدوده الشرقية، ويُقال أنه يصب في شاري لدى منطقة «بوا». يمكن للمرء أن يسافر إلى الجنوب من أوكاديب لعدة أيام في قفر غير مأهول.

بعد أن يتجاوز المسافر منطقة الأنهار السابق ذكرها والتي تنحدر من شرق وجنوب إقليم فلا وأقصى شمال بندة، يمكن له أن يعوِّل في اليوم العاشر نحو الجنوب الغربي ليصل في اليوم الحادي عشر لقرية دُلفو أول قرى إقليم كوتي.

يتفق وصف مجرى أوكاديب في هذه المرحلة مع ماشرحه لي خادمي الذي زار هذه المنطقة في غارة لجلب العبيد من قرية «سبنس» على بحر السلامات والتي تقع على بعد مسيرة يومين شمال شرق بحيرة إيرو. وبحسب روايته فقد بلغ أوكاديب في خمسة أيام.

يقطن « الفنقا » جنوباً و« الكُلفي» غرب وجنوب غرب بحيرة ايرو، ويقال أن قرية الكُلفي تبعد حوالي مسيرة عشرة أيام إلى الشمال الغربي من كوتي وتُوجد منطقة غير مأهولة تُحد رنقا وتقع شرق الطريق الذي سلكه محدثي.

ووفقاً لما توفر لدى من معلومات فإن مجرى هذا النهر يبلغ عرضه حوالي المائتين إلى الثلاثمائة خطوة وعمقه حوالي المتر إلى المتر ونصف وذلك في أشهر الصيف وقبل ارتفاع منسوب المياه فيه، وقد بلغ محدثي بحر الأبيض في ثلاثة أيام من منطقة عبوره لنهر أوكاديب بالقرب من تقاطعه مع بحر الأزرق الذي يعادل نصف أتساع بحر الأبيض بيد أنه عميق جداً عند الخوض فيه.

ينبع بحر الأبيض من الشرق وبالرغم من إن مصدري –علي فنتامي– رجل ينتمي لقبيلة البرنو التي تقطن كوتي وعاش هناك لسنوات، إلا أنه لم يفلح في تزويدي بمعلومات كافية عن

منابع النهر.

تتوافر المياه على مدار العام بنهري الأبيض والأزرق، أما نهر أوكاديب فقد تضاربت الآراء بشأنه. يُقال إن بحر الأزرق منبعه جبال ليل وهي على بعد مسيرة خمسة أيام ونصف اليوم من كوتي ومسيرة يومين جنوب بحر الأبيض.

أخيراً فإن مسيرة أربعة أيام أخرى تكفي لبلوغ منطقة جنوب جبل «بنقا» بإقليم «بندا مربا» ويُقال إن هذه المنطقة هي المنبع الحقيقي لبحر الأبيض.

الخطوط العريضة التي أوردتها تتفق والمعلومات التي استقيتها من خادمي الذي استغرق أربعة أيام ونصف اليوم في رحلة العودة من بحر الأرضة لبحر الأبيض عند ملتقاه مع بحر الأزرق. قدّر مخبِّري - علي فتنامي - مجرى بحر الأرضة بأنه يضاهي مجرى نهر شاري أتساعاً وبالذات عند منطقة كُسري[1] نقطة التقاء شاري مع لوقون بيد أن أتساعه لا يجاوز الثلاثمائة خطوة عند وادي تنيت في دارفور، لكن - خلافاً لذلك - ذكر لي خادمي بأن بحر الأرضة أكبر من ذلك وبناء على تقديراته فإن لبحر الأرضة تياراً قوياً حتى في غير موسم الأمطار ويتخلل مجراه العديد من الجزر مثل نهر شاري رغم أن عمقه لايتجاوز المتر ونصف المتر وتجوبه الزوارق التي يستخدمها الوثنيون الذين يقطنون على شطآنه.

وبعد مسيرة حوالي الخمسة أو الستة أيام من كوتي، وصل مخبري إلى نهر كبير يسمى بحر «كوتا» وهو أكبر من نهر شاري بكثير ويزخر مجراه بالتماسيح وأفراس النهر ويعج بالجزر المأهولة. وخلافاً للأنهار السابق ذكرها التي تجرى نحو الشمال الشرقي، يتجه هذا النهر نحو الغرب وقيل بألا علاقة له بنهر شاري و مصبه في ديار الفلاته إلا أنني لم أتأكد من صحة هذه المعلومة. وخلاصة الأمر، إذا صحت هذه الرواية فإن هذا الوصف ينطبق على نهر «كويندا» الذي ذكره الرحالة بارث، ونهر إلى الذي تحدثت عنه شوينفرث والذي يشكل منطقة أعالي نهر شاري. كذلك فإن هناك احتمال بأن يكون لوقون مستقلاً عن نهر شاري خلافاً لما نقل لي، بيد أن المؤكد هو أن النهرين لا يجريان بطريقة متسقة من حيث وقت فيضان كل منهما كما أن هناك تباين واضح في الطريق الذي يسلكه كل منهما الأمر الذي يعضد هذا النظر.

عند أقصى نقطة بلغتها أثناء رحلتي إلى باقرمة، ألفيت كل الشواهد تؤكد بأن بحر الأرضة هو رافد شاري بيد أنني لم اقف على ما يؤكد أين التقيا أو أين إفترقا، ولذلك مازال في حكم التخمين القول بأن ابرو يصب في شاري، أو أين يصب فيه الأوكاديب وبحر أبيض.

أما عن الوضع في رنُقا وكوتي فيمكن أيجازه بوجه تقريبي بناء على تقديرات رجل من رنُقا والذي ذكر لي بأنه وصل الطريق إلى وادي صالح من «كهدني» - من أعمال رنُقا - في تسعة أيام، ثم بحسب ماورد في تقرير لأحد المسئولين في كوتي فإنه - أي المسئول - وصل أرض الخليفة من بركاوية - في دارفور - في أربعة عشر يوماً وأن نفس المدة لنفس الرجل وهو متجه شرقاً عبر ديار البندة أوصلته لقرية «صالح تيت» في إقليم ميرى من أعمال بندة، ويقال إن هذه القرية تبعد

1- هي المنطقة التي تقاتل فيها رابح فضل الله مع الفرنسي الكونت لامي حيث لقي الاثنان حتفهما في تلك المعركة.

مسيرة خمسة أيام جنوب حفرة النحاس.

ويمكن تقسيم رنقا لأربعة مراكز، ويحوي كل مركز منها حوالي الخمس عشرة قرية. ففي أقصى الشمال توجد «تركاما» ويقع جنوبها إقليم أرض الخليفة، ثم إلى الجنوب كوكا والتي تحد من الجنوب بنهر الأوكاديب الذي يشكل الحدود الجنوبية لدار رنقا، أما المركز الرابع فهو أفوير ويقع غرب المراكز الثلاثة المتقدم ذكرها.

تعبر دار رنقا العديد من الوديان والأنهار الصغيرة وتربتها سوداء صلبة، لكن المركز الشمالي ذو طابع رملي، أما دار كوتي والتي تعتبر جزءاً من رنقا فتقع جنوب غرب كوكا، و لها امتداد يبلغ طوله حوالي مسيرة يومين من الشرق للغرب ويحوي حوالي أربع عشر قرية.

سكان المناطق التابعة لرنقا جلهم وثنيون إلا أن أهالي رنقا نفسها مسلمون وينتمون لقبائل «منقاري وكبيت »، وهم قوم طوال القامة ذو بشرة غامقة، عنيدون ويحبون الحرب والقتال ويتميزون بالخفة والنشاط ويصطادون الأفيال وأفراس النهر، ويفصل ديارهم عن بحر السلامات غابه كثيفة والتي تتحول في موسم الأمطار إلى أرض صعبة المسالك يتعذر عبورها لكثرة المستنقعات العميقة التي تتخلل تلك الغابة الطينية اللزجة.

يذهب عقيد السلامات في رحلة تفقدية سنوية إلى إقليم رنقا حاثاً الأهالي على الإغارة وغزو مناطق الوثنيين في الجنوب لإمداد السلطان بحاجته من العبيد والعاج.

وكما علمنا من قبل فإن دار رنقا موبؤة بالباعوض والذباب السام ولذا تندر فيها المواشي والحمير والخيول أما الاغنام فتستطيع مقاومة هذه الهوام أكثر من غيرها. كما توجد بالمنطقة أنواع متعددة من الدواجن. تزرع في دار رنقا أنواع مختلفة من الغلال كالدخن والذرة والذرة الشامية. ويستوطن كوتي القليل من التجار القادمين من شتى المناطق وبالأخص من برنو ويتوغلون غرباً حتى بلاد السارا ويعيشون شرق شاري ونحو الجنوب الغربي حتى بحر الأرضة وجنوباً حتى كونا مروراً بفروع قبائل بندة المتعددة والذين يكوّنون نسبة معتبرة من السكان، كما يعيش القلا إلى الشرق وهم قوم يشتهرون بعدم الوفاء والخيانة.

يمتلىء إقليم شرق رنقا بتجمعات مياه الأمطار «الرهود»[1]، وتبدأ الأرض إرتفاعاً تدريجياً من جهتي الشرق والجنوب حتى تتحول إلى مرتفعات جبلية، وتقتصر مقتنيات الأهالي من الحيوانات الأليفة جنوب هذه المنطقة على الماعز والكلاب والدواجن فقط وتنعدم المواشي وجميع أنواع الدواب، أما الحيوانات المتوحشة فتوجد منها السباع والضباع والخنزير أكل النمل وأبوشوك إلا أن الزراف يندر وجوده هنا.

ومن أشجار المنطقة القطن وشجرة الزبدة ونخيل الزيت والدليب والكمبا والتبغ وأنواع مختلفة من الأشجار التي تشبه شجرة التين، والكثير من الجذور التي تصلح للأكل.

يطلق أهالي رنقا وكوتي لفظ الأجانب على قبائل البندة التي تعيش في بحر الأبيض والأزرق والأرضة وضفة كوتي الشمالية لكونهم من أكلة لحوم البشر كما يُطلق عليم اسم «نيام نيام»

1- البرك ومفردها "رهد".

أيضاً. و أفادني محدثي – البرناوي- بأنهم يتحدثون لهجة واحدة ولقنني بعض مفرداتها التي يتحدثها بطلاقة.

تسود دار بندة التربة الحجرية والطينية السوداء المختلطة بالرمال ومحاصيلهم الرئيسة هي الذرة مع القليل من الدخن ويتخلل المركز بعض المناطق الطينية الصرفة والبعض الآخر ذو طبيعة حجرية، كما توجد بعض المجموعات الجبلية المتفرقة.

يكتسي البندة بلحاء شجرة الجميز وتكتسي النساء بلحاء أشجار الهبيل ويشحذون أسنانهم رجالاً ونساءً ويثقبون آذانهم وأنوفهم وشفاههم ويتزينون بحلقان حديدية يسمونها «زن»، وهم قوم مولعون بإحتساء المريسة ويدخنون التبغ بشراهة.

والبندة من أكلة لحوم البشر ومن أسنان ضحاياهم يصنعون العقود التي تتزين بها نساؤهم وأطفالهم، وتشيع بينهم عادة تعدد الزوجات والزواج -في فهمهم- يعني التملك لأن النساء يشترين بالخرز والحديد وما شابه ذلك. تتكوّن أسلحتهم من الأقواس والسهام والرماح والحراب الصغير. وفي كل منزل كوخ صغير يستخدم كمعبد للآلهه «ومبا»وزوجها الإله «بوتكولو» ويقدمون لهما القرابين على الضريح، وهناك يعمدون عبيدهم وأطفالهم حديثي الولادة.

يُعتبر إقليم شمال ودّاي أقل المناطق خصوبة وتسوده الأراضي الجافة والحجرية حيث تنعدم المياه في بعض المناطق وأرضه لاتصلح إلا لزراعة الدخن وبعض الأقطان.

أما أقاليم الشمال الشرقي والشرق الأوسط فتمتاز بغزارة الإنتاج بسبب إنسياب نهر البطحة وتنتشر فيهما زراعة الدخن.

يُزرع القمح في إقليم فتري ويحصد مرتان في العام الواحد خصوصاً في المناطق المجاورة للبحيرة، مرة في بداية الخريف والأخرى في الشتاء أو الربيع، وتنتشر زراعة الفول اللوبيا والسمسم والتوباكو والنيلة في كل مناطق الإقاليم مثل دار سلا وفتري. كما تنتشر زراعة القطن في الأراضي الطينية السوداء وتنتج المناطق المجاورة للبطحة جل إنتاج البلاد منه، أما القمح فيزرع ولكن بكميات متواضعة وكذلك الأرز الذي تنتشر زراعته في دار زيود.

تتخذ الأواني المنزلية من القرع وهو من النباتات البرية مثل الخيار البري «نقرلي» الذي يؤكل طازجاً. ويُوجد البطيخ إلا أنه من عينات غير جيدة. ويتغذون كذلك على بعض البذور المستخلصة من بعض النباتات مثل « الكريب البري» و أبو أصابع والعدار والحسكنيت وبرتميل» ومع ذلك يبقى الغذاء الرئيسي هو الدخن، أما دار الصعيد - أي الجنوب - فبفضل تربتها السوداء الخفيفة تصلح لزراعة العديد من المحاصيل كالقطن والقمح وغيرها.

تكسو مناطق تاما الغابات الكثيفة المتشابكة الأشجار، إلا أن هناك عدة مناطق تخلو منها كديار الميما مثلاً، ومن بين الأشجار المنتشرة هناك القرض الذي يستفاد من ثماره وأخشابه ثم السيال والطلح والحراز، أما الأشجار الأكثر إنتشاراً فهي نبق الفيل والاهليج (شجر الصابون) والكتر والندرو والشاو[1] - الأراك - والخيزران «الرطرطه والعُشَر واللبان والطندب والكرنو

1- الحقيقة أن اسم الشاو والسواك كلها اسم لمسمى واحد وهو شجر الأراك والذي تستخدم عيدانه السواك.

والهشاب والتمر الهندي الذي يتكاثر في الصعيد حيث التربة الغنية وتُعتبر ثماره سلعة تجارية هامة لأهالي هذا الإقليم. ومن بين أشجار هذه المنطقة «الأمبسوا» وهي شجرة معروفة بعلوها وتحوي أوراقها مادة سوداء تُستخدم في الأصباغ. كما تُوجد أشجار الدليب خصوصاً في وادي الحمرة وفترى رغم قلة أعداده. ومما أثار دهشتي وجود أخشاب الدوم في فترى والتي لم أشاهدها في مختلف بلاد السودان التي زرتها الا نادراً.

إذا سلمنا بأن أراضي وداي أدنى خصوبة وخضرة من أراضي جارتيها دارفور وبرنو مع ذلك فإن مواردها لا تزال بكراً ولم تستغل إلا في حدود ضيقة جداً وتظهر هذه الحقيقة بوجه سافر في ديار الوثنيين بالجنوب.

ينتشر النعام في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية في الشمال. وتُوجد أعداد كبيرة من الأفيال في المناطق الواقعة جنوب بحر السلامات أي رنقا وكوتي وعلى سهول كتايل أيضاً.

مقاطعات جنوب وداي حتى الخط الخامس ماتزال أرضاً بكر لم تمتد لها يد الإنسان ويصعب الانتقال عبرها.

يُوجد في وداي الكثير من الضواري كالسباع التي تكثر في دار الصعيد والى الجنوب منها وتتمركز بصفة خاصة على الغابات المجاورة لنهري البطحة والبطيحة وفي بحيرة فترى وتشكل خطورة شديدة على الإنسان والحيوان، ويصطاد الأهالي الأسد بمهاجمته جماعياً بحيث يثيره أحدهم وهو متحصن بدرقته وأثناءها يهاجمه الباقون ويقتلونه بالرماح. يُوجد الخنزير البري في وديان البطحة والبطيحة وفي وادي حمرة أيضاً وهو من الحيوانات الخطرة. كما يُوجد الفهد في ديار كدوي والمراريت وفي دار الصعيد وفي الجنوب وفي المناطق الجبلية المغطاة بالغابات، كما تُوجد النمور والتي تباع جلودها بأسعار عالية جداً. ومن فصائل القطط الكبيرة المفترسة هناك سنور «الأقر» وجلده غير منقط ، ثم هناك سنور آخر أصغر من الفهد أصفر الجلد منقط بالأسود كما يوجد نوعان من السنانير المتوحشة يميل لون الأول للسواد و في حجم الكلب، قوي البنيان قاتل ينتشر - على وجه الخصوص - في بحر منقاري والآخر يسمى «بسة» أو « نجم الخلا» وهو قط ذو لون غامق ويُوصف بأنه متوحش جداً تخشاه حتى الأفيال والسباع.

تُوجد في وداي ثلاثة أنواع من الضباع وهي الكراي وهو ضبع ذو لون أصفر مائل للسواد «ودنقلاية» وهو رمادي على سواد، أبيض الذيل « والأرتيك» ويجمع جلده مابين النقط والخطوط.

وتُوجد التماسيح في البطحة وفي كل البحيرات الكبيرة الموجودة في أواسط البلاد وخصوصاً في المناطق المتاخمة للبطحة والبطيحة. ينتشر الكركدن ذو القرنين وقطعان كبيرة من الزراف والجاموس في المناطق التي تقل فيها الكثافة السكانية. كما تنتشر في الجنوب قطعان كبيرة من الظباء والغزلان، وقد تعرفت على أربعة أنواع منها ويبدو أن فصائل الظباء تفوق هذا العدد بكثير، وهي تكبر الغزلان حجماً وتخلو رؤوس إناثها و إناث الغزلان من القرون. هناك الكثير

من أنواع الزواحف كالثعابين والسحالي أضافة للعقارب كما تُوجد السلاحف البرية والمائية، والأولى هي الأكبر حجماً لحومها محببة تؤكل. تنتشر أنواع مختلفة من القردة تعرفت على ثلاثة أنواع منها وهي « المنقو» وهو قرد صغير أسود اللون فروته رمادية، وآخر أسود كبير الحجم يسمى بلغة المابا «قرّ» ويعيش في «تيستي»، ثم « الأبلاي» وهو قرد صغير أسود اللون يتميز بطول ذيله. تخلو ودّاى من طيور البيناء ولكن يُوجد اللقلق[1] والبط الذي يهاجر من المنطقة بمجرد إنتهاء فصل الخريف. تتعدد أنواع النمل إلا أن هناك ستة أنواع يمكن تمييزها باللون والحجم. يعيش النمل على شقوق بجوار أماكن حفظ الغلال أو على الأشجار أو حتى في المنازل وله لسعة مؤلمة جداً.

أما عن الحيوانات الأليفة فهناك المواشي والأغنام والجمال وبأعداد كبيرة لدرجة أن أسعارها تقل بمقدار الربع عن السعر الجارى في برنو ولا تكاد مواشيهم تختلف عن تلك التي يرعاها عرب الشوا في برنو ويغلب عليها اللون البني .

لايستخدم الودّاي الثيران في الركوب ولا لحمل الأمتعة إلا نادراً وذلك لتوفر الجمال والحمير التي يشيع إستخدامها في الشمال و توجد منها أنواع كثيرة. جميلة المظهر قوية ويغلب عليها اللون الرمادى كما تُوجد أنواع بيضاء وسوداء ولكل الحمير خطوط سوداء على الظهر والكتفين.

تستورد الجمال إلى ودّاى من دار «تورتالو» ومن المنطقة الغربية التي تتوسط وارا وفترى وتتميز بطول القامة وضخامة الجسم والقوة مثل جمال التبو إلا أن جمال ودّاى تفوق جمال التبو قوة، ولها وبر أصفر ناعم، وتشتهر بألبانها ولحومها التي تعتبر طبقاً مفضلاً للأثرياء منهم «ويقتصر نحرها على السمان صغيرة السن، ويمكن للجمل منها أن يحمل أربعمائة وزن، وهناك أخرى يقتصر إستخدامها على الركوب ويسمى الواحد منها « المهارى» إلا أنها أقل تميُزاً عن جمال سواكن وجمال الطوارق أيضاً.

تخلو جلود أغنام ودّاى من الشعر أما أغنام الجنوب فلها شعر قصير ناعم. وتتميز خراف الجنوب بصغر الحجم وهي أقل جودة من خراف الشمال والتى تزداد جودتها تدريجياً كل ما توغلنا شمالاً لدرجة أن خراف دار زيود تعتبر متوسطة الجودة مقارنة بتلك التي تربى في الشمال والتي تتميَّز بطول الساقين والذيل وكثافة الشعر وأغلبها ذات لون بني داكن.

يشرب الأهالى ألبان الأغنام وبإسراف شديد ويفضلون لحومها على لحوم الأبقار ويتخذون ملابسهم من فرائها، كما تُوجد أعداد هائلة من الماعز أيضاً لدى قبيلة الاسنقور بصفة خاصة وقبائل دار الصعيد حيث يملك الفرد منهم مابين الخمسمائة إلى الألف رأس ويغلب عليها اللون الأبيض، ويُعتبر لبن الماعز ولحمه غذاء ممتاداً ويستفاد من جلوده في صناعة القرب بالإضافة إلى عدة استخدامات أخرى.

<u>الخيول في ودّاى</u> باهظة الثمن ونادرة وليست مليحة إلا أنهم مع مرور الزمن طوروا نسلاً

1- طائر السمبر ويطلق عليه في غرب السودان اسم الكلجو ومفردها كلجوية.

جيداً وذلك باستيراد الخيول العربية الأصيلة، ومما تجدر ملاحظته هو أن خيولهم نشطة ذات طاقة جبارة وقدرة فائقة على تسلق الصخور، ويغلب عليها اللون الكستنائي والأحمر ويندر أن تجد فيها اللون الأسود أو الأبيض، والأستنقور أكبر مربيي الخيول ثم الرُّحَّل من القرعان وأولاد، حميد، وللسلطان خبرة وفراسة في معرفة الخيول ولذلك يقدم منفعتها على حسن مظهرها.

أما العنصر البشري في ودّاي فيتكون من عدة قبائل حيث تتمركز القبائل الحرة في دار «المابا» وهم نواة السكان ويتلوهم المهاجرون من القبائل الأفريقية، ثم القبائل العربية التي تتكوّن من مجموعتي الأبالة – أي الرعاة الأبل- في الشمال والبقارة- أي رعاة الماشية- في الجنوب وأخيراً قبائل الجنوب الوثنية ومجموعات التيدا في الشمال. والأهالي من القبائل السوداء تكاد تربطهم لغة عامة، هي « البورا مابانق»، ولا تجد بينهم فوارق أساسية في السمات الشخصية. والمابا هو اسم للمنطقة التي تقع في قلب السلطنة ويُقال إن أصل الكلمة عربي وتتكون من مقطعين «ما» وتعني الماء و«با» وتعني أبي أي أن أصل التسمية هي «أبونا الماء» في إشارة لتلال المابا الغنية به.

وإذا تمعنا في العنصر البشري المكوّن لشعوب ودّاي بدءاً بدار المابا التي تقع شمال شرق وارا – العاصمة القديمة- يحتاج المرء لمسيرة ثلاثة أرباع اليوم للوصول لديار كدوي الذين يسميهم العرب أبوسنون، وتبدأ ديارهم من جبال « كدوك» حتى جبل « الناس» وسر تسميتهم بأبي سنون يعود لحمرة أسنانهم التي يُقال أن الماء هو السبب في تلونها. ولعبور ديارهم يحتاج المرء لمسيرة يوم ويصدق هذا التقدير على عرضها أيضاً. وتتكون من عدة مجموعات جبلية منتشرة على نطاق الإقليم إلا أن جبالهم لا تكوّن أي مجموعات متسلسلة، وأعلاها قمة جبل « كورجاقو» وتبلغ مجموعة قرى الإقليم الكبيرة منها والصغيرة ثمان وتسعون قرية وجميعها تتمركز في سفوح الجبال.

تخلو المنطقة من الغابات الكثيفة وأنهارها هي « وديان أَجْلَبا وكوكرملين وفهندرنوكي ونالنجالة» – الذي يصب في البطحة- وكلها أنهار ذات أهمية قصوى للأهالي. ولقبيلة كدوي خمسة فروع هي « موتك» في الغرب «وجالالك» في الجنوب، و« مارجالك» في الشمال و«اوجاك» في الشرق و«التمينا» أي الحدادين، والأوجاك هم الأكثر عدداً والموتك هم الأرفع مكانة. أما أغلبية التمينا فيعيشون في شتات وسط القبائل الأخرى وفي الصحراء، وهم محتقرون في ودّاي.

يتحدث الكدوي لغة المابا وهم قوم أشداء أولو بأس معمرون شأنهم شأن سكان الجبال شجعان، يأخذ الرأس شكل رأس الخنزير أعناقهم ضخمة ورغم مايتصفون به من شجاعة ليسو ميالين للمبادرة بالخصومة ويعتبرون من أفضل شعوب وداي. متدينون ومشهورون بالكرم والإحسان للفقراء من ذوي قرباهم، ولا يكذبون ولايسرقون ويلتزمون بما عاهدوا عليه.

يترأس الكدوي ملكاً يعينه السلطان لأنه يخشى نزعتهم الاستقلالية، وينتمي ملكهم دائماً لأسرة « جابيد » وتحتفظ هذه الأسرة بزعامة قبيلة كدوي من زمن موغل في القدم. يلتزم

الكدوي - بجانب الضرائب العامة- بتقديم الدعائم الخشبية للخيمة السلطانية وكمقابل لذلك يتلقون الهدايا من السلطان وتتكوّن في العادة من المواشي والملابس وخلافه.

ويفصل كدوي عن أولاد جمعة جبل « موقن» وأحد الأنهار الصغيرة، و ديار أولاد جمعة شمال قبيلة كدوي وكانوا في السابق مجموعة قبلية واحدة ولما كان سلاطين وداي يخشون وحدة هذه القبيلة وقوتها عزلوا أولاد جمعة عن كدوي وذلك إبان عهد السلطان عروس الصغير وأسبغ عليهم اسم أولاد جمعة وهو اسم الكملك المشرف عليهم آنذاك، وينتسب أولاد جمعة لابن «جدي كليون» وهي الأم الكبرى لكل قبائل كدوي الأصليون الذين ينتسبون لبنتها، وينقسم أولاد جمعة لتسعة فروع وتنتشر قراهم حول مجموعة من الجبال المتفرقة التي تسود ديارهم والتي تمتد من الشّرق للغرب لمسيرة يوم ونصف اليوم من الشمال للجنوب، ويتميّز الإقليم بالجبال الشاهقة التي تكسوها الغابات وينبع من تلك الجبال وديان، ومع ذلك فالمياه شحيحة جداً هنا.

يعيش المراريت أو أبوشارب - و يطلق عليهم اسم «أبي» أيضاً- في منطقة تقع بين إقليمي كدوي وتاما، واسم مراريت مشتق من اسم أبيهم القبلي «مارا» أما اسم «أبي» فليس له خلفية تاريخية موثقة . واسم أبو شارب مثل أبو سنون يتضمّن إشارة لسمات خلقية معينة رغم إنني لم ألمس فارقاً بين شواربهم وبقية القبائل الأخرى، ليس هناك فوارق عضوية تميّز المراريت عن كدوي أو أولاد جمعه، ومع ذلك فهم شجعان ومهرة، ملامحهم ليست مليحة، يشتهرون بقوة القلب إلا إنهم كذبة غدارون وأقل تديناً من كدوي، كما أفادني محدثي بألا صلة بينهم والتاما حتى في اللهجة. ويبلغ طول إقليم المراريت مسيرة يومين وعرضه مسيرة يوم من الشرق للغرب.

ويخترق هذا المركز وادي ليود الذي ينبع من المرتفعات التي تقع بين دارفور وتاما ثم يلتقي -فيما بعد-بواديي «دلال ومزين» اللذان ينبعان من تاما ويصبان في نهر « فرنجاك» ثم ينبع منه نهر آخر يسمى وادي « مريا» وهو غني بأشجار النخيل والينابيع ويخترق إقليم كدوي ويسمى هناك «جندا كيينق» ويُطلق عليه اسم « اكتمون» أيضاً الذي يواصل سيره حتى وادي ملنقا.

تنقسم القبيلة إلى أربعة وعشرين فرعاً يتحد أغلبهم سياسياً مع أولاد جمعة كما يتحد بعضهم مع أهالي دار الصعيد في مركز «بتقنك» وتقع قراهم على سفوح جبال عالية لكنها تقل في ارتفاعها عما سبق ذكره من جبال، وتتميز بالغابات الكثيفة، والإقليم غني بأغراس النخيل وسط الينابيع المنتشرة فيه، وبه نبع ساخن مشهور في منطقة «درنة».

يشكل المراريت درعاً قبلياً ضد تاما الذين لا يؤمن شرهم وللقبيلة رجال متفرغون يتولون الرقابة بالتناوب من أعلى الجبال للتحذير من أي تحركات مريبة على هذه الجبهة.

تقع ديار الميما[1] «مونوتوه» شمال المراريت وأولاد جمعة، والميما قبيلة كبيرة إلا أن أعداداً

1- أشار ابن بطوطة في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي إلى بلدة ميما التي لاتبعد كثيراً غربي مدينة تمبكتو ولاحظ هذا الرحالة أن

كبيرة منهم هجروا الديار وتفرقت بهم السبل في جنوب وداى حيث فقدوا هويتهم وسط القبائل. وللميما لغة خاصة تختلف عن لغة «أبي» وعن «البورا مابانق»، يشتهرون بالشجاعة إلا أنهم لا يتسمون بالتدين وحسن الخلق، ويحتلون إقليماً واسعاً يبلغ طوله مسيرة ثلاثة أيام من الشرق للغرب وعرضه مسيرة يومين، وينقسم الميما لثلاثين فرعاً يتبع بعضهم لإدارة المحاميد ويعيش البعض الآخر مع الرزيقات والتوايبة والمهرية والمللنقا. ومع ذلك لهم رئيس منفصل «ملك» حر له سجادة سلطانية، وبخلاف ذلك لا يختلف نظامهم الإداري عن أولاد جممه.

يتمركز المللنقا جنوب إقليم الميما في ست أو سبع قرى حول الجبال المتناثرة المجاورة لمدينة وارا. والمللنقا قبيلة صغيرة لكنها ذات بصمة واضحة في تاريخ وداى، ويعدوا من أقدم القبائل الموجودة في البلاد، وتقديراً لدورهم التاريخي فإن لزعيمهم «التوجونقوه - أي الجندي- الكثير من الامتيازات رغم إنه دون سلطات حقيقية. فعلى سبيل المثال يحق له الجلوس على السجادة في البلاط وهو الامتياز الذي لا يشاركه فيه إلا واحد أو اثنان من أمراء الإقطاع. فضلاً عن ذلك يحق له تغطية رأسه بالبرنس في حضرة السلطان وليس عليه أن يميط ثوبه من على كتفه كما يفعل الآخرون. وأكثر أفراد القبيلة منتشرون في إقليم جنوب وداى، وتجاورهم في الشمال الشرقي قبائل «المادبا» وتحتل قراهم السفوح الجبلية لبعض الجبال المنخفضة. وماورد ذكره عن بعض القبائل السابقة وعن عدم أهميتهم التاريخية وأعدادهم وقوتهم ينطبق - بصورة أشمل- على «المادبا» و«المادلا». يقيم «المادلا» في شكل مجموعات قبلية صغيرة على سفوح جبل صغير، يجاورهم بعض «الكبقا» إلا أن أغلبيتهم تقطن إقليم « كلنقن» ويتوسط ديارهم جبل « كبقا» الذي يُقال أن بقمته كميات وافرة من المياه مما يؤمن لهم الملاذ الآمن عند الخطوب، الأمر الذي ولد فيهم مشاعر استقلالية كانت تقض مضاجع سلاطين وداى، حتى تمكن أحدهم مؤخراً من إخضاعهم وأجلاهم من هذا الجبل وشتت شملهم.

تقع ديار «الجانيانقا» على مدى مسيرة يوم ونصف اليوم من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ويوازى عرضها مسيرة نصف يوم وتشتمل على حوالي الأربعين أو الخمسين قرية. إلا أن السكن في هذا المركز لا يقتصر على الجانيانقا[1] وحدهم بل يشاركهم فيه كدوي والمللنقا وغيرهم، وعبارة جانيانقا تعني المراة مما يشير للأصل الوثني للقبيلة. والرواية المتواترة هي أن بعض الوثنيين المراة هاجروا إلى هنا وهكذا سرت التسمية على الإقليم بأسره.

يقع إقليم الأسنقور جنوب تاما وغرب دارفور ويحده إقليم المراريت والمساليت ويمتد غرباً حتى مناطق التداخل القبلي على أودية لبود ومونجبوك ودلال. ويأخذ الإقليم شكل المثلث ويبلغ من أدناه إلى أقصاه مسيرة يومين ويمتد من غربي الشمال الغربي إلى شرق الجنوب الشرقي، والمسافة من منتصف الضلع الشمالي الغربي حتى ضلعه الجنوبي تبلغ مسافة يوم أو بعض

معظم سكان مدينة تمبكتو من الميما أو قبائل الملثمين (الطوارق) ويبدو أن شعبة منهم انتقلت ناحية الشرق.

1 -واضح من الترجمة أن أصول القبيلة ترجع لجماعة وثنية تسكن الإقليم والأرجح أن تكون من القبائل النيلية خاصة وأن سكان غرب السودان يطلقون على القبائل الجنوبية التي تسكن النيل اسم "الجانقى".

يوم. أما الضلع الشمالي الغربي فهو متعمق في ديار المراريت بيد أنه لا يمتد لدارفور إذ يفصله عنها وادي أسونقا مع وجود إقليم صحراوي صغير مجاور للنهر يعتبر امتداداً طبيعياً لتلك الحدود.

ويغلب على الإقليم الطابع الجبلي إلا أن جباله متفرقة وأشجاره قليلة ويخترقه نهران كبيران هما وادي لبود الذي ينبع مابين دارفور وتاما، ووادى دلال الذي ينبع من جبل «ترجس» بإقليم المساليت. ويتكون الإقليم من ثلاثة مراكز وعدة قرى . يهتم الأسنقور بتربية الخيول ويدفعون ضرائبهم منها عيناً، ولهم ربط محدد يلتزمون بالوفاء به مرة كل ثلاث سنوات مع حمل من الدخن بمعية كل حصان. أما عن طباعهم فيقال إنهم قوم ذوو حدة ميالون للغدر والانتقام. و يتفوقون في تدينهم على الكثير من القبائل من حولهم. ليس للهجتهم علاقة بالبورا مابانق ولا بالمراريت أو الميما، بل تتطابق ولهجتى التاما -سكان جبل مون في دارفور- والقِمِر».

وإذا جاز لنا التحدث عن قبيلة «كلنقن» جنوب وارا فستكون هذه التسمية مجاراة للخطأ الشائع الذي استقر في وجدان الناس، إذ لاتوجد في الواقع قبيلة بهذا الاسم بل هو اسم لإقليم ثم أسبغ على قاطنيه الذين هم خليط من كدوي ومراريت وكبقا وعرب تصاهروا منذ القدم غير أن ثقافة المابا هي التي سادت بينهم، فإذا كان عامل الزمن وسنة التكاثر أدت إلى تفرعهم -على مدى قرون طويلة- إلا أن هذا لم يشكل عائقاً في سبيل التوحُّد واستيعاب العناصر الأخرى لدرجة أن ملامح لقبيلة جديدة بدأت تلوح في الافق، بيد أن هذا لامس الأصول الحقيقية لتلك القبيلة. فإذا قيل أن السلطان إتخذ زوجة من «كلنقن» فمن الراجح أنها من كدوي، لأن الزوجات الشرعيات لسلطان وداى لا يمكن أن ينتمين لقبيلة الكبقا أو المراريت مثلاً. ومما تجدر ملاحظته هو أن عادات وتقاليد المابا تُعتبر الأنموذج لما يجب أن يكون عليه الأحرار من الأهالي لأنهم — أي المابا- أول من أرتضى الإسلام ديناً. وتنحصر مجموعتهم في قبائل «كدوي وأولاد جممة وماتلمبا وملنقا ومادبا والميما وكوندونقو» وجميعهم يتحدثون لغة المابا. أما القبائل المهاجرة مثل المراريت والكبقا ، الذين لا يُعرف تاريخ هجرتهم فيتحدثون لهجة مختلفة، بينما يتحدث بعض المهاجرين من الوثنيين كالجانيقا والبندلة لغة المابا التي إكتسبوها مؤخراً.

إقليم «كلنقن» ذو طبيعة جبلية تخترقه الكثير من الأنهار الصغيرة بالقدر الذي يمكِّن الأهالي من زراعة الدخن الذي يمثل غذاؤهم الرئيس وليس بالإقليم غابات ولا وديان سوى وادى «كرنجاك». يتميز الأهالي بنزعة السلم ويشاركهم في هذا أهالى دار الصعيد.

تقع ديار الكجنقا جنوب كلنقن ويسميهم العرب «بأبى درق» وهم جزء من المابا، وبجانب لغة المابا لهم لهجتهم الخاصة، وأبن السلطان الذي ينتمى لأم منهم يُعتبر مؤهلاً لإعتلاء العرش. فالقبيلة صغيرة العدد وتعيش في رقعة محدودة من إقليم تسوده التربة الصخرية، والجزء الاعظم من هذا الإقليم تقطنه قبائل أخرى. يتسم الكجنقا بالشجاعة والإقدام إلا أن

أخلاقهم ليست حسنة. ويمتد إقليمهم لمسيرة يوم ونصف اليوم من الشمال للجنوب ومسيرة يوم من الشرق للغرب. يخترق الجزء الأكبر من الإقليم من ناحية الشرق مجرى لنهر كبير، كما يلتقى هنا مونجبوك بنهري مع لبود ودلال اللذان إتحدا في دار الصعيد قبل اللقاء هنا بمونجبوك. وهذه الانهار مجتمعة تكوّن نهر البطحة.

ينقسم المساليت إلى فرعين مساليت الحوش ويعيشون شرقاً في حدود دارفور الغربية ومساليت البطحة ويعيشون في الإقليم الممتد غرب البطحة. وتقع ديار مساليت الحوش جنوب قبائل الأسنقور وشمال المنابع العليا للبطحة وغرب الإقليم المأهول الفاصل بين وداى ودارفور، ويمتد إقليمهم من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ويحتاج إجتيازه لمسيرة يومين ونصف اليوم من السير الجاد. أما المسافة من الشرق للغرب فلا تحتاج لأكثر من يوم أو بعض يوم. تُوجد بالإقليم بعض التلال الصغيرة ولكن لا تُوجد به أي سلسلة جبلية تستحق الذكر، والأنهار التي تخترقه هي « وادى حمرة » أحد روافد البطحة ويصب في رنقا ووادي كجلي- أحد روافد دلال- ووادى « أدرنج» وهو من روافد وادى الحمرة.

أما مساليت المنطقة الشرقية عموماً - وليس في ودّاى فقط - فهم متهمون بأنهم من آكلي لحوم البشر وموصومون بخاصية الحقد والإنتقام والغدر وعدم الوفاء وحدة الطبع، ومع ذلك يُوجد بينهم الفقهاء والكثير من الطوائف التي تتعصب للإسلام. لاتتسم بشرة المساليت بالسواد الحالك ومع ذلك يُصنفون ضمن الزرق «أي السود» وتنتمي لهجتهم للمابا وعددهم قد يماثل عدد الميما والأسنقور لكنهم يفوقون كدوي عدداً.

يمتد إقليم قبائل « الكوندونقو» الذين يسميهم العرب أولاد «ميس» لمسيرة يوم ونصف اليوم من الشرق للغرب وبعض اليوم من الشمال للجنوب، وهم جزء أصيل من شعب الوداى إلا أنهم ليسو من المابا النقيين رغم مماثلتهم لهم في طباعهم وأخلاقهم، ويُقال بأنهم شجعان مثل كدوي. وبجانب لغة المابا لهم لهجة خاصة لا تتميز عنها كثيراً.

ديارهم ليست كلها جبلية وتتخللها الكثير من الأراضى الخصبة ويزرعونها بالدخن واللوبيا والقطن والبسلة. بالإقليم العديد من الجبال المنعزلة وبه سلسلة جبلية تمتد من الشمال الشرقي للجنوب الغربي، ثم إلى الجنوب الغربي من سلسلة كدوي -جنوب تيير- وحتى حدود« كوندونقو» الغربية. تخترق تلال تلك المنطقة بعض المجاري الثانوية فقط، والنهر الوحيد هنا هو «تايلتجاك» الذي يبدأ رحلته من «ميرنا» - في بلاد تاما والمراريت- ويتجه نحو الجنوب الغربي عبر إقليم الجانيانقا.

تقع ديار الكشامرة جنوب البطحة وتمتد حتى موقع ملتقى البطحة بالبطيحة والكشامرة زنوج نقيون لا يختلف تكوينهم وطباعهم عن بقية المابا الأصليين لكنهم لا يُعدون ضمن السادة والنبلاء وسحط قبائل ودّاى، ويشتهرون بالكذب والطاعة العمياء وإيثار السلامة. لغتهم هي نفس لغة المابا تقريباً بيد أنها تختلف في مفرداتها عن لغات المساليت والمرفا والكوندونقو

والكجنقا.

أما « المرفا، فهم قوم يشبهون الكجاكسة أو ربما كان أصلهم واحد وتختلف لغتهم عن لغة المابا. وتقع ديارهم جنوب شرق قبيلة الكشامرة وغرب الكجنقا ومساحتها مسيرة يوم من الشرق للغرب وربع اليوم من الشمال للجنوب ويماثلون الكشامرة عدداً.

والى الغرب منهم يعيش، الكرنقا، في إقليم جبلي، وهم قوم محاربون تهابهم القبائل الأخرى لحميتهم ولهذا السبب ينصب عليهم السلطان ملكاً- مثل كدوي- وعادة ما يكون من العبيد، ولهم لهجة خاصة بهم ويبدو أنها مشتقة من لغة البورا مابانق.

يحتل أولاد علي الإقليم الواقع غرب إقليم المساليت وعاداتهم وثقافاتهم أقرب للمابا وللغتهم علاقة خاصة بالبوارا مابانق ويهيمنون عليهم. تعدادهم مثل الجاتيانقا وديارهم دائرية الشكل ويقدر امتدادها بمسيرة يوم من الشمال للجنوب وربع يوم من الشرق للغرب وتزخر أرضهم بالجبال والوديان وأهمها وادى «أدرنج، وهو رافد من روافد وادى الحمرة، و وادي « التق، وهو واد عريض يحسب في البطحة. وهم – كقبيلة- لهم علاقة بالمرفا لكنهم أكثر سواداً من المابا، ولهم علاقة مع قبيلة المويو أيضاً ولا تزيد مساحة ديارهم عن مسيرة ربع اليوم من الشمال للجنوب ومثلها من الشرق للغرب، ولا تتجاوز قراهم العشر وتتحلق جبلاً كبيراً. تتحدث القبيلة البوارا مابانق بالإضافة للهجة خاصة بهم تختلف عن كل اللهجات الموجودة في ودّاى.

« الفلا » – يطلق عليهم باللغة العربية اسم « بكا»- وهم قوم يشبهون المابا ويتفقون معهم في العادات والتقاليد وتبلغ مساحة ديارهم مسيرة يوم ونصف اليوم من الغرب للشرق ويوم أو بعض يوم من الشمال للجنوب وعددهم يساوى المرفا تقريباً.

يقطن « البرقد» إقليم « بريج، ويحتلون خمس قرى فقط وهم عبيد للسلطان ولا يمتزجون مع القبائل الأخرى، يتميز لونهم بالسواد الحالك وهم أغمق من المابا. ملامحهم زنجية صرفة وتطغى عليهم خصائص وصفات وعادات شعوب أواسط أفريقيا ولهم لهجة متميزة عن غيرها من اللغات.

«الموبى زرقة، وتقع ديارهم شرق إقليم بريج المتقدم ذكره وتفصلهم عنه « برية كتايبك» التي تشبه سهول «أمبركى » الواقعة بين إقليمي موبي زرقة و موبى حدبة وتتوغل حتى ديار الوثنيين ويحتاج المرء ليوم واحد ليدور حول هذا الإقليم الذي تتخلله تلال وأنهار.

وكان الموبى وثنيين عندما أعتنق المابا الإسلام حتى أجبروا على إعتناقه مؤخراً، ولعل هذا هو التفسير الوحيد لاحتفاظ السلطان بحق سبى أطفالهم وخصوصاً الفتيات وفقاً للقاعدة «التي توجب على المجرم ان يفتدى حريته بدفع أحد أطفاله للسلطان، ولم يحسن إسلامهم حتى الأن رغم أن بينهم الكثيرين ممن أدوا فريضة الحج، ولعل حجهم في حد ذاته يعود لاعتقادهم بأنه يسبغ عليهم الحماية من طغيان الحكومة. للموبى لهجتهم الخاصة وهم قوم سود البشرة وجوههم مقبولة وسلوكهم يبعث على الثقة والإطمئنان. وتفصلهم عن موبى الحدبة برارى

كتابيل وهم مثل سابقيهم لم يعتنقوا الإسلام إلا قسراً وعلى أيدي العباسيين، ولازال فهمهم له ضحلاً ولذلك يطغى عليهم ماضيهم الوثني من عبادة للأصنام والأشجار وغيرها، وهم أغمق لوناً من موبى حدبة ولهم لهجة خاصة بهم ذات علاقة بلغة الكوكا، وتمتد ديارهم لأكثر من مسيرة يوم من الشرق للغرب ثم ينداح إقليمهم في ديار الكوكا حيث لا تُوجد حدود واضحة تميز حدود الإقليمين، أما من الشمال للجنوب فيمكن عبور ديارهم في يوم واحد فقط.

يحتل مساليت البطحة المنطقة الواقعة شمال المسامجة شرق كوكا وجنوب الجنوب الغربي لدار زيود وغرب كرنقا، وديارهم واسعة وتمتد لمسيرة أربعة أيام من الشرق للغرب ويوم وربع اليوم من الشمال للجنوب. وكما يشير اسمهم فهم يعيشون حول البطحة ويفوقون مساليت الحوش عدداً ويقلون عنهم وحشية رغم إنهم غير مبرئين من أكل لحوم البشر أيضاً، ولا يختلفون عن جيرانهم الشرقيين إلا في إلمامهم باللغة العربية فقط وذلك نتيجة لقربهم واتصالهم بالعرب.

يسكن الكوكا المنطقة المعروفة باسم دار كوكا وينقسمون إلى كوكا أصليين «هراز» وكوكا «امدينا» وهم شعب مختلط الأعراق والأصول ولهذا السبب يحتقرهم الأهالي، والشقة بين طائفتيهم بعيدة جداً بحيث لا يتزاوجون فيما بينهما. و تتمثل الخصائص البدنية للكوكا في الأجسام المتينة والتقاطيع المتسقة والطول الفارع ولون بشرتهم الذي يشبه بشرة المابا ويشتركون مع البلالة والميدوقو في اللهجة وللهجتهم علاقة بلهجة الباقرما، وتحد ديار الكوكا من شمال الشمال الغربي بإقليم فرعان «تبو» كسارو وكريدا والى الشمال الشمال الشرقي بإقليم «درنق» أي جمبو ومن الشرق بدار زيود وتفصلهم عنها براري أميركي المتقدم ذكرها ويحدهم من ناحية غرب الجنوب الغربي إقليم الداجو ومن الغرب إقليم الدغادين -وهم خليط من العرب والكوكا- ويحدهم الجمادين من غرب الشمال الغربي، وتخترق ديارهم البطحة ويجرى الجزء الأطول منها في الشمال والأقصر في الجنوب، ووديانهم هي «وادى شوشيت وأماترك والمسامجة والدبكر» وكلها تصب في البطحة.

يقطن أبو سمين والبلالة إقليم فترى وهم أصحاب البلاد الأصليين والأكثر عدداً ويهيمن البلالة على أبوسمين، ولأبوسمين بشرة سوداء وهم قوم طوال القامة ملامحهم غير متسقة وينتمون لكوكا أمدينا ويتحدثون نفس لهجتهم، ويُعاملون كعبيد ويدفع بعدد كبير منهم كضرائب لسلطان ودّاى. أما البلالة فمن ذوى اللون النحاسى أو البرونزى وبشرتهم أفتح من التبو لكنهم يماثلونهم في القوام الرشيق، و هاجروا إلى هنا من كانم لكنهم الآن لا يتحدثون إلا لهجة الكوكا، ورغم تبعيتهم لودّاى والتزامهم بدفع الضرائب إلا أنهم تحت إمرة سلطان منهم وقياساً بماضيهم المجيد فهم يعتبرون أكثر نبلاً حتى من سلطان ودّاى، ونسبة لهذه المكانة السامية التي يتمتع بها سلطانهم فإن له قصب السبق في تحية السلطان كما يحق له أن يمتطى صهوة جواده داخل مقره، وباستثناء السلطان فإن الكل ملزم بأن يترجل عن المقابلة.

يستغرق إقليم فترى مسيرة يومين من الشرق للغرب كذلك عرضه، ومنطقة شمال البحيرة هي الأوسع والأكثر إكتظاظاً بالسكان من الجزء الجنوبي. مياه البحيرة نقية وبها القليل من الجزر وتستخدم أحداها ملجأ وقت الخطوب. وتُعتبر البحيرة لافون البطحة مثل بحيرة تشاد التي تمثل لافون شارى. علماً بأن نهر البطحة ينساب نحو الغرب حيث يلتقي بالبطيحة ثم يكملا مشوارهما حتى بحيرة فترى.

تأتى بعد البلالة قبيلة الميدفوودبارهم جنوب شرق فترى ويدعون الانتساب لكدوى ويزعمون بأن أجدادهم هاجروا منذ زمن قديم إلى هنا ولا يُوجد ما يؤكد هذه الرواية، ويتحدثون لغة الكوكا.

تتوسط ديار الداجو إقاليم مويى زرقة وأبو تلقان والكوكا ومويى حدبة أى برارى كتابيل، ومساحتها حوالي مسيرة ثلاثة أيام من شمال الشمال الشرقي إلى جنوب الجنوب الغربي، ويوم وبعض اليوم من شرق الجنوب الشرقي إلى غرب الشمال الغربي، والداجو مسلمون إلا أنهم لم يتخلوا عن ممارساتهم الوثنية بعد مثل جيرانهم المويى، فعلى سبيل المثال مازالوا يحتفظون بكوخ كمعبد للآلهة يزودونه بالمريسة لاستهلاك سدنته، وتنمو أمامه شجرة تراق تحتها المريسة، وهناك حجرة مقدسة ملحقة بالمعبد.

ومن مفاهيمهم السائدة هي أن الموت لا يمكن أنِ يصيب المرء إلا بفعل السحر والعيون الشريرة، ومتى ما أكتشف الفاعل - بمعاونة الآلهة طبعاً - يُقتل وتصادر ممتلكاته وتُسبى نساؤه وأطفاله ويتم إرسالهم كأرقاء لوداى .

يتميز الداجو بسواد البشرة، و أجسادهم متينة وقوية، لا يتميزون بالرشاقة، ملامحهم قبيحة وتتطابق لغتهم مع أهالي دار سلا ومنهم يتخذ سلطان وداى العبيد وبالأخص جواري الخدمة.

تقطن قبيلة أبورسون إقليماً يحمل نفس الاسم ويمتد من الشرق للغرب لحوالي مسيرة يوم ونصف اليوم وعرضه من الشمال للجنوب يساوى مسيرة يوم وهم قوم سود البشرة ملامحهم عادية ويتحدثون لهجة مشتركة مع قبائل « جقيل وكبيت» اللتان تستقران جوارهم، ويحكمهم سلطان منهم يلتزم بدفع الضرائب لودّاى. تُحد ديارهم من الشرق بسلا ومن الجنوب ببحر منتشارى ومن الغرب بإقليم « جقيل»

أما الجقيل فيطلق على ديارهم نفس الاسم وتمتد لمسيرة يومين من الشرق للغرب ولمسيرة يوم من الشمال للجنوب، واختلافهم عن أبورسون في الاسم فقط إذ يتحدثون لهجة واحدة ويُولى عليهم سلطاناً منهم إلا أن السلطة الفعلية لدى الكرسى المعين من قبل سلطان وداّى. يحدهم من الشمال الكجاكسة ومن الجنوب بحر منتشارى « أم التيمان» ومن الغرب الكبيت ومن شمالهم وشرقهم تُوجد أدغال كثيفة عبورها غير مأمون العواقب لوجود قُطاع الطرق من الأعراب. تندر التلال في هذا الإقليم ومع ذلك تخترقه الكثير من المجاري الصغيرة التي تصب

في بحر منقاري.

أما الكبيت فهم من نفس فصيلة الجقيل ويتميزون باللطف والخنوع، بينهم الكثير من الفقهاء لكنهم أقل شجاعة من إخوانهم القبليين - أبورسون والجقيل- ومع ذلك لا يمكن أن يوصفوا بأنهم جبناء، واللغة الأثيرة لديهم هي العربية.

وما تجدر ملاحظته هو أن الكبيت والجقيل وأبورسون من ذوى البشرة الفاتحة التي تختلف عن بشرة الزنوج وهذا ما يرّجح الرأى القائل بأنهم مزيج من الزنوج والعرب. ومما ترجح لدى هو أن الرسون والجقيل خليط من الزنوج وأولاد حميد، أما الكبيت فهجين من الزنوج وأولاد راشد.

يمتد إقليم الكبيت لمسيرة يومين من الشرق للغرب ويوم من الشمال للجنوب ويحدهم من الشرق إقليم الجقيل ومن الجنوب بحر منقارى والسلامات من الجنوب الغربي وأولاد راشد من الغرب والشمال والشمال الغربي والكجاكسة من الشمال الشرقي.

يقطن المرو شمال أبورسون، ديارهم جبلية كثيفة الغابات تحوى حوالي الخمس أو الست قرى لكنني لم أتعرّف على أحجام قراهم هم وقبيلة الكجاكسة، والمرو أناس طوال القامة أجسامهم ممتلئة ذوو ملامح متناسقة يتحدثون لغة الكجاكسة وهم مسلمون.

يعيش الكجاكسة في جبل «اباسا» وتدل ملامحهم على علاقتهم بالمرفا رغم أن المرفا أصبحوا بمرور الزمن أكثر نقاءاً منهم، والكجاكسة قوم سود البشرة أجسادهم نحيلة وملامحهم مشمة، تتطابق لغتهم مع المرفا يتحلون بالأمانة وطباعهم -مقارنة بشعوب المابا- الأصليين تُعتبر حسنة حيث تنتفي فيهم خصلة التوحُش والعنف التي يختص بها المابا، ولفرط حسن طبعهم يوصمهم الأهالي بالجبن.

وللكجاكسة عدة ملوك ويرأسهم « المانجاك» وهناك الخليفة الذي يمثلهم في البلاط ويحدهم من الشمال التريج ومن الجنوب المرو والجقيل وغربهم برارى كتابيل، أما جبل «أباسا» الشاهق والذي يبدو للناظر من على البعد فيعتبر قلب ديارهم وتتحلق قراهم حوله.

يعيش القُلا على إقليم يحمل نفس الاسم وهم قبيلة كبيرة العدد ولهم لهجتهم الخاصة الا أن اللغة العربية حلت محلها تدريجياً، وتقع ديارهم شمال بحيرة ايرو وهم مثل «البرمبرى» ليس لهم وجود على حدود دارفور كما يسود الاعتقاد، بل يُوجدون في ديار باقرمة. «أما الفنا والفنقا» فيقطنون جنوب وجنوب شرق قبيلة القُلا.

وأخيراً فإن المنطقة المهمة والمستقلة تماماً عن وداى والتى تكتظ بالسكان هي «بلتى» –أحدى ديار الوثنيين– وتقع غرب بحيرة أيرو

أما التاما « تامزان» فيُعتبرون أخوة للأسنقور والقمر - سكان جبل مول- في دارفور والذي يضم بعض قرى الداجو، وهم مثل الأسنقور من ناحية التكوين البدنى والذهني وتتطابق لهجتهم. يهيمن القمر على إقليم تاما وهو الوضع الذي وجدهم الإسلام عليه، وكان سلطان

التاما يُدّين من القمر حتى عهود متأخرة ولكن بعد وفاة السلطان حامد تمكنت إحدى القبائل المهاجرة من سلا من الهيمنة على الزعامة التي أسسها الداجو أصلاً وهذا يفسر المسحة التي على وجوههم وخصوصاً وسط النساء.

والتاما قوم مسلمون، غير ميالين للحرب ولعل الاعتقاد الخاطيء عنهم في هذا الصدد نابع من استماتتهم في الدفاع عن بلادهم ضد الغرباء والمتطفلين مما أعطى عنهم انطباعاً بالبخل وعدم الأريحية وهو اعتقاد خاطيء لا أساس له من الصحة. يتعامل التاما مع بعضهم تعاملاً حسناً، وليس من خصالهم حب العراك والشجار، مثابرين يكرهون الكذب، وبالرغم من أنهم مسلمون إلا أن إسلامهم اسمياً حيث لم يتفقهوا لسبر غور تعاليم هذا الدين والالتزام بها حرفياً، لكنهم في دواخلهم يحترمون شهادة الإيمان أي « لا إله إلا الله محمد رسول الله».

تُحد ديار التاما من غرباً بالمراريت ومن الشمال الغربي بالميما ومن الغرب جبال « كنقاء ومن الشمال الشرقي «كوبو والزغاوة الغربيين» ومن الشرق القمر ومن الجنوب قبيلة « جبيل» التابعة لدارفور ثم الأسنقور وبعض قبائل المراريت.

ويمتد إقليم التاما من الشمال للجنوب والجزء الجنوبي منه يتاخم قبيلة المراريت، ثم يتوغل مركزهم نحو الجنوب الشرقي حيث تُوجد أهم الجبال ومنابع الأنهار ويحيط جبل نيرى الشاهق بأهم مدنهم والتى تحمل نفس الاسم كما ينبع نهر مونجوك من نفس الإقليم ويسمى -هنا- وادي « كنقتو» ثم إلى الغرب يعرف باسم «وادى أمبرواتي» الذي يخترق دار الصعيد باسم مونجبوك.

تتبع دار تاما لوداي بيد أن السلطان محمد شريف سمح لهم بسلطان حقيقي يحكمهم على استقلال على أن يدفع الضرائب لوداى، وهكذا تجنب شرهم وتحاشى خصلة الشك المتأصلة فيهم. وأغلب الحملات التي قادها سلاطين وداى لتطويعهم باءت بالفشل وربما كانت حملات محمد شريف نموذجاً حياً لهذا الإخفاق الأمر الذي دعاه - في النهاية- للوصول لتسوية ودية معهم، وبالرغم من كل مظاهر الطاعة والخضوع من قبل السلطان إبراهيم لمحمد شريف إلا أنه يحتفظ ببعض الاستقلال.

أما القبائل العربية التي تستوطن وداى « الأرمقو» فهم كثيرون ولا أحد يعرف بالتحديد متى بدأت هجرتهم لهذه البلاد والإدعاء بأنها من قرون أمر يحيط به الكثير من الشك والريب لكن الثابت تعضيدهم لعبد الكريم القادم من شندى والذي ينتمى لقبيلة الجعليين عندما أطاح بحكم التنجر وأدخل الإسلام في البلاد.

ومن القبائل العربية التي هبت لنصرته، المحاميد والمهرية والعريقات والتوايبة وبنى هلبة وأبوشدر إضافة للسكان الأصليين مثل أبوسنون وأولاد جمعة والمراريت والميما والملنقا والمادبا والمادلا والدبا والأبيسة، وكمقابل لهذه النصرة حظيت هذه القبائل بإمتيازات خاصة استمرت حتى اليوم. بيد أن هناك بعض القبائل العربية ناصبته العداء ووقفت مع الملك داؤود بالتحالف

مع الكشامرة والكرنقا والقُلا، وهم المسيرية والزبيدية والراشد والحامدة والخزام.

ينقسم العرب[1] في وداي إلى قسمين «الأبالة»، وهم رعاة الأبل و«البقارة» وهم رعاة الماشية، وتعتمد حياتهم على الترحال بحثاً عن المراعي الجيدة، ولا يمتهنون الزراعة إلا في نطاق ضيق وعن طريق العبيد فقط، وقد منحهم السلطان حرية الحط والترحال ويتلقون معاملة حسنة من الكل خلافاً لحالهم في برنو حيث يعاملون معاملة سيئة وتصادر بضائعهم وينظر إليهم بعين الشك والريبة.

وكقاعدة عامة ظل عرب وداي محافظون على نقائهم العنصري بيد أن بعضهم ممن يقطنون مناطق الوثنيين امتزجوا بهم بالتدريج كما امتزج البعض الآخر مع عبيدهم بالتزاوج. ويتمثل الحضور العربي في القبائل الآتية:

العرب البقارة

1- السلامات:

وهم قوم سمر اللون ولتزاوجهم مع العبيد أصبحت ألوانهم برونزية داكنة، كما تزوجوا مع القُلا أيضاً والسلامات قبيلة كبيرة عدد فروعها ومشيخاتها تسع وتسعون وعدد فرسانهم أربعة الآف فارس ومن أشهر فروعهم النجيمية والسيل والعويسية وعمر والدخاخر وأولاد موسى وأولاد حمدون، ويتمركزون في بحر الطين (أي بحر السلامات) وبحيرة إيرو، وعندما تهطل الأمطار في الخريف ويمتلىء الإقليم بالمياه والمستنقعات ينزحون شمالاً. كما تُوجد مجموعات منهم في أم دقيمات وكدفس ووداي طويل.

يترأس السلامات اثنان من العقداء وكرسى وأمين تابع « أي الشيخ» وعند غياب رؤوس القبيلة في وارا مثلاً يتولى الشيوخ تصريف شئونها.

2- المسيرية: وتقع مناطقهم جنوب جبل خارس وينقسمون إلى « حُمر وزُرق» ولا علاقة لهذا التصنيف بألوان بشرتهم، إذ يتدرج لونهم مابين الحمرة والسواد ويضاهون السلامات في العدد بيد أن الزُرق أقل عدداً من الحمر ويتسق نظامهم الإدارى مع السلامات ويشتهرون بالعنف وقطع الطريق.

3-أولاد راشد، هم أكثر عدداً من المسيرية لكنهم أُضعفوا بعزلهم عن الزبيدة والحميدة والحيماد، ومع ذلك فإن في وسعهم الدفع بألفى فارس، وفروعهم هي راشد أزيد وراشد البحارية « اندوما» وراشد البطحة وراشد الحجر وهؤلاء يقطنون خارج حدود وداى .

وتقع ديار أولاد راشد جنوب برارى كتايل في بحر يقدى وأندوما جنوب دار كوكا، كما تُوجد مجموعات منهم وسط المويس في « برمة» جنوب غرب ابوتلفان. ويغلب عليهم اللون

1- القبائل العربية في وداى وهي السلامات – وأولاد حميد وأولاد موسى وأولاد ابوعيسى وأولاد خدير وأولاد علي وأولاد محارب وأولاد رحيم والاصالي وأولاد سرار وأولاد سالم وأولاد غانم وأولاد راشد وأولاد عمر وأولاد مالك وأولاد كرأى وأولاد سليمجان والمحاميد والدقينة والدقاقرة والحسانية والحسأونة والجبابرة والمسة والسليمة وأم داؤود والبطيخ والحيماد والبكرية والكثيرية أولاد حجاز والوحية والهوارة والسعادنة والزيلات وبني وائل وبني هلبة وبني سعد وبني حسن وترجم وجماش وحميدة وخيانية وحزام وزيدة وزيوت وسعادة وطوان وقمر ومسيرية حمر ومسيرية زرق وسلمكات ومقاني وقبائل أخرى – تشاد لعبد الرحمن عمر الماحي – صفحة ٨٠

الاحمر ويحرصون على نقائهم العرقي، ويعيش أغلبهم تحت إمرة الوتنيين أو بجوارهم لكنهم يزدرونهم ويتعالون عليم رغم سؤ سمعتهم . ويتماثل النظام الاداري لهذه القبيلة مع القبائل المتقدم ذكرها.

4-الجمادين وهم قوم من ذوي البشرة الحمراء المائلة للسواد وتدل ملامحهم على نقاء عروبتهم، متدينون ويضاهون أولاد راشد عدداً ولهم حوالي الألف فارس ويتمركزون في فتري وعُلا وخرُوب.

5-الخزام: وهم مثل الجمادين من حيث اللون والملامح والعددية، ومرتبطون – سياسياً- بالزغاوة « أم كملتي» ويشتركون مع الجمادين في أماكن استقرارهم.

6-الشرفة: ويسمّون « بني حسين» وهم قبيلة صغيرة لها إختلاط بالكثير من العناصر خارج القبيلة، يتطابق لون بشرتهم مع لون بشرة السلامات الذين يشاركونهم السكن في مناطق « أم جيلات وكدفس ودما » ويترأسهم عقيد السلامات.

7-الحيماد: وهم عرب نقيون بشرتهم حمراء جيدو البنية يفوقون الشرفة عدداً، ورغم أنهم مسلمون لكنهم يشتهرون بحب الشجار والقتال وأعداء تقليديون للسلامات، ومن الناحية العرقية فهم ذوو صلة بأولاد حميد رغم التباعد الجغرافي بين القبيلتين.

ويحرص أولاد حميد على وحدة القبيلة، ومناطق تمركزهم في قرى منقاري وينزحون في الخريف إلى السهول الواقعة شمال كدفس ووداي البطحة . ومن فروعهم « النديمى والجرار والنعايشة ويتمركز الأخيرون في دار سلا ودار أمير.

8-دقينة: وهم قبيلة كبيرة لها علاقة بقبائل من خارجها وتقع مواطنهم وسط السلامات في ديار برنو والقرعان ولهم وجود قبلي بين أولاد أحمد وأولاد سالم وأولاد علوان، ودقينة قوم متجرفون، وموطنهم الأصلي بحيرتي فتري وتشاد وتنزح أعداد كبيرة منهم في فصل الصيف لباقرمة طلباً للمراعي المتاخمة لتشاري برنو، ويقدر عدد فرسانهم بألف فارس.

9-الشقيرات: وهم من ذوي البشرة الحمراء ويبدو أنهم على علاقة بالمحاميد لكنهم يختلفون عنهم باعتبارهم رعاة ماشية وموطنهم بين نمرو وعد الجميل ويتراوح عددهم مابين الحيمات والشرفة.

10-الترجم، قبيلة صغيرة من ذوي البشرة الحمراء،ويتمركزون شرق البطحة من ديار المساليت حتى ابوقنطورة وينزحون إلى القيزان[1] الشمالية في الخريف.

11-الكلومات: وهم على صلة وثيقة بالجمادين ويفوقون الترجم عدداً ويتمركزون في البطحة غرب دار زيود وينزحون شمالاً في فصل الخريف.

12-بني حسن: ولقبيلتهم علاقة بالمحاميد، وهم قوم حمر البشرة قليلو العدد يقطنون وادي الحمرة وينزحون إلى مراعيهم في الخريف شأنهم شأن بقية القبائل العربية.

13-الزيلات: لونهم برونزي داكن ويماثلون بني حسن من حيث عدديتهم و ذوو صلة وثيقة

1-الأراضي الرملية.

بالمهادي ويتمركزون في وادي بلال، وينزحون حتى كونوقو إبان موسم الأمطار.

14-المهادي: يماثلون الزيلات في لون البشرة والعددية وتقع قراهم جنوب قبيلة الأسنقور، يمارسون الزراعة في هذه المناطق طوال موسم الأمطار.

15-الزنانيت: لونهم برونزي داكن وذوو صلة بالمجانين ويسكنون عد الفرعة.

16-المجانين: هي قبيلة صغيرة تنتسب للمحاميد ويمارسون الزراعة في مناطق حجر تكلا ومجانين وضرّابة ويستقرون في هذه المناطق طوال العام.

17-كروبات: قبيلة صغيرة، لونهم برونزي داكن ويعيشون حياة الاستقرار وسط المراريت والأسنقور في الصعيد.

18-الأشرة: قبيلة صغيرة تقيم بصفة مستديمة في شوكان ونيلة ويحترفون الزراعة.

العرب الأبالة:

1-المحاميد: قبيلة كبيرة ويُقال إن أصلها يرجع للأخوة محمود ومهر ونايب وقريبهم راكال والذي يسمى «عريق» أيضاً وسنتعرّض لهذا بالتفصيل عند تعرُّضنا للقبائل العربية في دارفور، وللمحاميد أربعة ألف فارس على الأقل، وهم قوم حمر البشرة ذوو خلق ودين ويتصفون بالجود والكرم، ويتحدثون العربية الصرفة، وتقع مواطنهم شمال غرب ديار الميما من « عردة» حتى هور وي« وادي قرضة»، وتتكوّن القبيلة من عدة بطون و -عرفت من بين هذه البطون- أولاد حلبو وأولاد شيخ، وأولاد يس وأولاد زيد ونيجا وسيف الدين أو سفيان والنوايبة والمريقات والمهرية وأولاد جناب والحمدية والطيفات.

2-الحمدية والطيفات: لقبيلة الحمدية صلة بأولاد راشد وكانوا قبيلة كبيرة حتى عهود قريبة لدرجة أنهم كانوا يناصبون المحاميد العداء بيد أنهم أضعفوا حتى سالموا أعداء الأمس وأضحوا يشاركونهم المراعي، ويتميّز الحمدية بجمال لون البشرة، ومعتدلون في سلوكهم، جيدو البنية أقوياء يتحدثون العربية الرصينة وتقع مناطقهم قرب وادي الحمرة وابكر وشوكان وعلى تخوم ديار الزبدة وفروعهم هي دلا وحميدة والزبدة.

3-بني هلبة: وينتمون لبني راشد ويبدو إن العلاقة بين القبيلتين بعيدة بعض الشيء، لون بشرتهم برونزي فاتح، والقبيلة صغيرة ويمتاز أفرادها بمكارم الأخلاق.

4-الزبدة: قبيلة تماثل الخزام من حيث العددية، ولهم ثمانمائة فارس تقريباً، ملامحهم مثل أولاد راشد، وهم قوم أقوياء البنية ذوو بشرة نحاسية فاتحة أقل تمدناً ويشتهرون بأنهم نهابين وقطاع طرق.

5- الشكيكات: ويرتبطون سياسياً بالمحاميد بيد ألا صلة بينهم، عددهم قليل ويعيشون في ديار كوندنقو وغرب البطحة، و يرحلون في الخريف لجوار المحاميد وإلى "بتاجنك".

تُعتبر دار زيود مركزاً خالصاً للعرب وتقطنها قبائل الترجم والمسيرية بشقيهم الحُمر والزُرق وأولاد حميد وبعض القبائل الأخرى التي إكتسبت اللسان العربي كالمايا والقليل من

الكوكا والتنجر والقمر والبيرونة -أناس من برنو- والجلابة والمساليت والكشامرة والتاما والجبيل والدرق وهم عناصر من اواسط افريقيا ويعيشون في بير "بويو" ويتميزون بسواد البشرة، وللغتهم علاقة بلغة القمر رغم أنهم لاتحدثون إلا العربية الآن.

هناك قبائل عديدة تعيش خارج ودّاى وهم:

1-الدباية: وأصلهم سلامات وموطنهم باقرمة يرعون الماشية لون بشرتهم برونزي داكن، وتنحصر بطونهم في أولاد موسى وأولاد كراى وأولاد جوى وأصيلة وعجينة ونديما ود دخاخرة وأمرى.

2-قواليما: قوم حُمر البشرة يرتبطون سياسياً بالخزام كارتباطهم بالجمادين وكانوا في السابق يعيشون بأعداد كبيرة في ودّاى لكن أغلبهم نزحوا لديار برنو والبقية الباقية تعيش غرب البطحة وعلى ضفاف نهر شارى كما يُوجد البعض منهم في كانم ويتمركزون حول البطحة إبان موسم الأمطار.

3-عسالة: قوم حمر البشرة ويرجع أصلهم لفزان، محاربون، ولم يخضعوا لسيادة ودّاى إلا بعد مشقة وجهد، ومحافظين على نقائهم العرقي، وأصبح عددهم في تناقص مستمر منذ أن بدأوا النزوح والاستقرار في البقاع التي تتوسط "كورى" في بحيرة تشاد وذلك نأياً عن سيطرة ودّاى، وأما إلمامهم بامور دينهم فلا يزال ضحلاً بيد أن تأثير ودّاى عليهم اوجد بينهم الكثير من الفقهاء والدراويش.

4-أولاد حميد: هم قوم ذوو بشرة نحاسية فاتحة، ينتمون للنواليتا المتحدين مع الجمادين وأولاد مالك والنمورة والحيماد، أماكن إقامتهم في بحر الغزال ومن فروعهم: "أم كوليبة وأولاد راضى وأولاد ميراى وأولاد أحمد أولاد كيدافات".

5-الخزام البحرية: أبناء عمومة لخزام برنو وكانوا كثيرى العدد لكنهم أُضعفوا بالغارات التي يشنها عليهم الودّاي، ويعيشون الآن في باقرمة وفي قرى قليلة على ضفاف نهر شارى :

6-التنجر: يُعدون من عرب ودّاى وملوكها السابقين قبل أن ينتصبها عبد الكريم منهم، وهم مسلمون ما عدا المقيمين في ابى تلفان. لونهم نحاسى أحمر ويتحدثون العربية ومازالت أعدادهم مُعتبرة، ولهم أربعة آلاف وثمانمائة فارس وأماكن استقرارهم في "دار زيود" و"مكرين" "وكدما" في بلاد الكشامرة وأبى تلفان- في رنُقا- و"مندو" في كانم وسنتعرض لهذه القبيلة عند تناول قبائل دارفور.

7-القمر: موطنهم الأصلى ديار تاما وهم أبناء عمومة للأسنقور ويُطلق عليهم بلغة الوداي اسم "إرمبلى" ويعنى الحمامة البرية، أى "القمرية"، وللقمر بشرة نحاسية داكنة وأحياناً نحاسية فاتحة، وهي قبيلة تفرقت بهاالسبل وتعيش في شتات ويكثرون في قيرى أما مواطنهم الثانوية فهى "رأس سليم" وبير بويو وفرشة "في تاما".

8-الزغاوة: وهم أغمق لوناً من التبو والمابا ويتحدثون لهجة واحدة مع الدرموت وتختلف

لهجتهم عن لهجتي الدقا والبوبو، وباستقراء خصائصهم نجدها تتناقض تماماً مع التبو مما يدل على فساد الرأى الذي ينسبهم إليهم، فعلى سبيل المثال فإن الزغاوة يحتسون المريسة ويشربون اللبن الرائب ويصيدون الغزلان بالشراك وهذه الممارسات من المحرمات لدى التبو الذين يعدونها من قبيل ممارسة الحدادين. أما من ناحية التكوين الجسمانى فهم يماثلون التبو عدا لون البشرة ويتفقون معهم في بقية عاداتهم وتقاليدهم.

وطريقة تصفيف الشعر لدى نسائهم تتطابق مع أسلوب نساء القرعان. والزغاوة قوم مُحتقرون في ودّاى ويصنفون في مرتبة واحدة مع الحدادين.

للسلطان محمد. شريف زوجتين من هذه القبيلة. الزغاوة غير متعمقين في أمور الدين ويعيش أغلبهم في دارفور أما في ودّاى فتنحصر أماكن إقامتهم وسط قبائل الميما ثم تمتد مراكز إقامتهم حتى "جمبو" غرباوسط القبائل العربية المقيمة هناك والتي تصاهروا معها. ثم تمتد قراهم حتى "أم كيان وجاجا واريتب وعد القرعة ودار الصعيد".

الزغاوة الذين يستوطنون ودّاى يطلق عليهم اسم "أم كملتي" وفروعهم هي زغاوة "كوبى" وزغاوة "دور" وزغاوة "أنكا" وزغاوة "مندر فوكى" وزغاوة "دورنى" ويقدر عددهم بأربعة آلاف.

التبو "تبدا" أى القرعان المقيمون في ودّاي:

1-كريدا: وهم تبو وداى ويشبهون الأحباش ولهم الكثير من الخصال والصفات المتشابهة معهم. يتميزون بأناقة هندامهم، متينو البنيان لإعتمادهم في غذائهم على اللبن، ومن شمائلهم القوة والملامح المتسقة، لون بشرتهم فاتح لا هو بالبرونزى الغامق ولا النحاسى العكر ونساؤهم مثل نساء التبو لكن يختلفن عنهن في حبهن للشجار شأنهن شأن بنات جنسهن في تبستى. ويُقال أن الكريدا هم أول شعوب التبو التي إعتنقت الإسلام وكان التبو يستوطنون بحر الغزال ويتيمون لبرنو بيد أنهم هجروا تلك الديار مؤخراً وآثروا حياة الترحال منذ عهدى السلطانين عروس الكبير والصغير وذلك بسبب الحملات الموجهة ضدهم. وما تزال هناك مجموعات منهم تقيم في بحر الغزال وقليل منهم في "عمبر ورميلة". ويمثل الكريدة أو الكردة تقلمايا واريا وكوديرا فروعاً للتبو. وينتمى الكردة لكانمبو كردة، والكويو هم الأكثر عدداً والأفتح لوناً ويُقال أن لهم علاقة مصاهرة بالفلاتة كعلاقة الكردة مع أولاد حميد ولهم حوالي ثلاث آلف فارس.

2-الكشيردة: وينتمون لقبائل التبدا المتقدم ذكرها ويشابهونهم في القوام والمميزات البدنية الأخرى، وكانوا كثيرين إلا أنهم أضعفوا بسبب سيطرة وداى عليهم. والآن هم مسلمون متمسكون بدينهم ولهم حوالي ألف فارس وفروعهم شندكورة وسكيردة ونوريا أو توارمة.

3- الحولة أو فملة العرب: يتمركزون في وادى شيرى، لونهم برونزى غامق ولا يختلفون عن التبو كثيراً ولهم نفس عاداتهم وتقاليدهم، ملمون بأصول الدين ولذلك يحبهم الوداي.

ومصاهرتهم لذوى البشرة الحمراء تبدو ظاهرة في ملامحهم فضلاً عن مصاهرتهم

للمواليد من كانم والهمج الموجودين في عدة قرى مجاورة لهم.

4-أولاد سالم: وهم قوم قليلو العدد، ويعيشون مابين "ماو" و "مندو" ولهم إختلاط بقبيلة التنجر أيضاً.

5- أولاد بكار: وتنطبق عليهم ما ذكرنا عن أولاد سالم وتقتصر إقامتهم على "مندو" ولهم إختلاط بالتنجر أيضاً.

6-المدينة: لهم علاقة بالحولة وسلوكهم متشابه ويعيشون في قرى واحدة.

7-الدقورة: هي قبيلة كبيرة لون بشرتهم فاتح، يُقال أن لهم ألف فارس، هم ذوو علاقة بالحولة، ويعيشون شمال شرق "كدوا" وارتباطهم بوداى واه للغاية ويصنفون مع الحدادين والهمج.

8-الكدوا: تتمركز أماكن إقامتهم في وادى شطيطة وعددهم كبير مثل الدقورة ويُعتبرون الأثرى بين القرعان ويقيم بين ظهرانيهم الحسونة " القواليما"

9-الوندلا: ويصعب تصنيفهم كرعايا لوداى، يقيمون مع الكدوا لخشيتهم من غارات أولاد موسى.

10-الكمسوالا: ويبدو أنهم على علاقة بأولاد سالم لكنني لم أقف على معلومات دقيقة عنهم.

رعايا السلطان:

1-بندلا: وهو ليس اسم قبيلة محددة وهم مسلمون يعيشون جنوب دار زيود .

2-عبيدية: وهو ليس اسم لقبيلة أيضا، وهم مسلمون ويتمركزون في دار زيود ودار الصعيد.

3-تورم: وهم قوم مسلمون يقطنون في "أولكى نبرى" و"توندو" في ديار "كلنقن" .

4-دنقية وبلقو: وهم وثنيون يقطنون خمس قرى في مركزى " كيرى ونيتمبا" .

5-مناي: قوم مسلمون ويقطنون "شوكان" .

6- كاسا : وثنيون يقطنون "كيرو"

7-نقاما: قوم وثنيون يقطنون" تيمان" .

8-بانلا: وثنيون ويبلغ تعدادهم حوالي المائتين ويقيمون في إقليم " تريج" .

9- برقد: ويقيمون في إقليم تريج:

أما من ناحية الروابط اللغوية فيمكن تصنيف قبائل وداى على الوجه الآتي:

1-مجموعة المابا:أ-كدوي"أبوسنون" ب- أولاد جمعةج-قالوم د- ضكير هـ- ملنقا و- مادبا ز- مادلا ك- دبا "ماتلمبا"

2-اللهجات ذات العلاقة بلغة المابا: أ- مساليت ب- مرفا ج- كشامرة د- كوندونقو هـ- فلا أويكا و- على.

3-الكجاكسة: وللهجتهم علاقة بلهجة المرفا.

4-المراريت: وللهجتهم علاقة بلهجات الشيل والأورو والكربو والكوبو، ورغم أن القبائل الأخيرة تكون وحدة سياسية مع أبناء عمومتهم من المراريت إلا أن الوضع في دارفور يختلف عما يجري في ودّاي. صحيح أن لهجة المراريت ليست متطابقة تماماً مع تلك القبائل عدا الكوبى الذين ينتمون عرقياً للمراريت ومع ذلك يبقى الإختلاف بين تلك اللغات هو الإختلاف الطفيف في اللهجة فقط.

5-الكبقا.

6-الميما.

7-الزغاوة: أ- الدرموت: ويتحدثون نفس لهجة الزغاوة ب- "درنق" وللغتهم علاقة بلغة الزغاوة.

8- تيدا "فرعان".

9- كوكا: أ- أبوسمين ب- بلالة ج- مودوقو د- المسامجة.

ولهجتهم هي لهجة الكوكا والبلالة، وتلك اللهجة ذات علاقة بلغة باقرمة مع بعض العلائق البعيدة بلغة المسامجة.

10- لغة الداجو في سلا.

11-الموبى: للغتهم علاقة بلغة البرقد في بريج.

12-الجقيل: للغتهم علاقة بلغة الكبيت وأبورسون والمنقارى.

13-رنَقا.

14-مرو.

15-مويو.

16-كورنجا ولها علاقة بلغة الكشامرة.

17-أسنقور، وللهجتهم علاقة بالتاما والقمر وجبيل وبرورريت.

18-المجموعة العربية.

لا يقتصر تشابه المابا على اللغة المشتركة فقط بل إن التكوين البدني والنفسي يكاد يتطابق بينهم فضلاً عن وحدة الأصل والرؤية السياسية التي وحّدت الكدوى وأولاد جمعة وقوت روابطهم مع الملنقا والمادبا والمادلا والدبابة والبيسة وكذلك القالمون المتفرعين من تزواج أولاد جمعة والضكير.

والمابا قوم نشطاء، مناضلون وعصاة، وتاريخ ودّاى حافل بتمردهم وثوراتهم ودائماً يجدون من أولاد جمعة النصرة والمؤازرة ويتضامنون عندما يحتدم الصراع حول العرش. بقية القبائل المتقدم ذكرها إندمجت مع كدوي بحيث لم يعد في الإمكان التفريق بينهم سواء في التكوين أو اللهجة باستثناء بعض الإختلافات الطفيفة في مخارج الألفاظ. ويأتي الإختلاف الوحيد

في العلم والكرم وهما صفتان ملازمتان لأولاد جمعة والكدوى. وقبائل المابا هي الأكثر صدقاً وشجاعة بين جميع القبائل الأخرى، والمعروف عن كل شعوب الجبال حرصهم الشديد في الحفاظ على تقاليدهم وموروثاتهم بجانب حرصهم على الولاء للشرعية. ويشتهرون كذلك بالدفاع المستميت عن حقوقهم ويشقون عصا الطاعة على من يُولّون عليهم مَن الحكام. وتقع مراكز تجمعهم على تخوم العاصمة القديمة وارا. وللكدوى تأثيراً واضحاً على مجريات السلطة وربما يعود السبب لقربهم من مراكز صنع القرار بعكس القبائل الأخرى التي تسكن بعيداً عن العاصمة. وبسبب وحدتهم وتماسكهم كانوا ومازالوا هم الممسكين بزمام الأمور وبالذات فيما يتعلق بشئون الحكم والحكام والمستقبل السياسي للبلاد.

تسكن قبيلة كدوي العديد من القرى الصغيرة المحيطة بالعاصمة وارا ودار كلنقن، وبقية المجموعات القبلية الأخرى إندمجت معهم إندماجاً تاماً وهكذا يمكن القول بأن ديار كلنقن تمثل مركزاً خالصاً لقبيلة كدوي.

يتمركز الجانيانقا في مركز جمبو والذي يُسمى باسمهم أحياناً، وهم على علاقة بالمابا. هذه القبيلة أجنبية عن البلاد ويُقال أنهم رهط من الوثنيين الذين هاجروا إلى هذه المنطقة من قديم الزمان وأنشأوا علائق وثيقة مع المابا. ومن ناحية أخرى يُعتبر الجمبو من المابا الخُلّص. أما الكوندونقو فقريبو الشبه بالمابا من حيث الملامح واللهجة ولهم روابط وثيقة مع أهالي قيرى في ماشيك وأبوسبيحة وبورتاي ودوبو وبيرتود ومع المراكز والقرى التي تقع غرب وجنوب غرب وارا.

يعيش الكجنقا مع المابا وهم كثيرو العدد ويرتبطون بالمابا إرتباطاً وثيقاً خصوصاً وأن لهجتهم لا تختلف كثيراً وينطبق هذا القول على قبائل "التامون" أو "التاقمون" وغيرهم.

الكشامرة والمرفا أغمق من المابا ويماثلونهم في التكوين الجسماني لكنهم يختلفون عنهم في العادات والتقاليد، فعلى سبيل المثال، يأكل الكشامرة بعض الحيوانات كالضفادع وهذا أمر مستهجن بالنسبة لبقية القبائل. والاختلاف بين لغتهم والمابا يقتصر على التباين الطفيف في اللهجة فقط.

أما الكرنقا فهم قوم وثيقو الصلة بالمابا حتى أنهم يعادلونهم في رفعة المكانة وسمو العرق. والفلا أيضاً يتحدون مع المابا وتتفرع لهجتهم من لغتهم.

للكبقا علاقة عرقية واهية بالمابا ويختلفون عنهم في اللهجة لكنهم منتشرون بينهم ويقاسمونهم السكن منذ أمد بعيد، ويكثر وجودهم في مركز كلنقن ومُرّة وقليت وبوشة على عدد من القرى المبعثرة هنا وهناك لدرجة أنهم صاروا وثيقى الصلة بهم. يُوجد إختلاف طفيف بين لهجتهم ولهجة المابا ويستمدون عاداتهم وتقاليدهم منهم.

لقبائل "علي" صلات وثقى بالمابا أيضاً من حيث التماثل في الطباع والتقاليد وسبل كسب العيش، بيد أنهم يختلفون عنهم في اللهجة.

يتمركز المراريت شرق أولاد جمعة وكدوي وغرب تاما لكنهم يختلفون عن هذه القبائل كثيراً ولهم لهجتهم الخاصة ومما يثير الدهشة أن أبناء جلدتهم من الشيل وأولاد كربو يختلفون عنهم في اللهجة. هذا فضلاً عن أن لغات تلك الفروع تختلف عن بعضها البعض لدرجة أنهم لا يفهمون بعضهم أحياناً. ونفس هذه الفروع نجدها في دارفور تشكل كيانات مستقلة عن أبناء عمومتهم المراريت.

ينتمي الكوبو للمراريت ويتحدثون لغة مشتركة وينحدرون منهم. أما الميما فمع مجاورتهم للمابا إلا أنهم يختلفون عنهم تماماً. فهم أسود لوناً ويختلفون في طباعهم عن كدوي وأولاد جمعة. والمسلم به هو تميُّز المابا بالوضوح والبساطة والصدق والكرم وهي صفات مفتقدة لدى الميما. ويُعتبر الميما أقرب شبهاً بالزغاوة لذا يحتقرهم المابا.

يشكل الأسنقور والتاما والقمر وجبيل مجموعة واحدة. وترجع أصول الجبيل لجبل مول في دارفور ويقتصر وجودهم على بروريت فقط. وليس للغة هذه المجموعة علاقة بالبورا مابانق. ورغم عدم إختلافهم الصارخ عن المابا من ناحية التكوين البدني. مع ذلك يختلفون عنهم في الطباع. أما عن تماسكهم وترابطهم ببعضهم البعض فهم لا يقلون عن المجموعة التي تضم الكوكا وأبوسمين والبلالة والميدقو والمسامجة الذين تجمعهم لهجة واحدة أيضاً.

والإرتباط الوثيق بين الأسنقور والتاما والقمر والجبيل ناتج عن التماثل الجغرافي لديارهم ونمط الحياة المتشابهة واشتراكهم في العادات والتقاليد.

أما الكجاكسة والموبي والبرقد والداجو فهناك فوارق جوهرية بينهم والمابا. وبالرغم من عدم وجود رابطة لغوية تجمع هذه القبائل الأربع إلا أن الكجاكسة مثلاً يتحدثون لهجة ذات علاقة لغوية بلغة المرفا. ومع ذلك فهم متشابهون في اللون حيث تسود البشرة المائلة للون الرمادي. وعاداتهم مشتركة مع التقارب في المزاج الغذائي وكيفية صناعتهم للتكاكي.

تشكل شعوب رأس الفيل وأبوقنطورة والكجاكسة وكدقس وجيمي وأم حجيرات وبوير وخير واجد وأم لبان -سكان جنوب البطحة- مجموعة أكبر. ويُطلق عليهم "ناس الخلا" والرابط بين هذه المجموعة. هو التماثل في التكوين والملامح ووسائل كسب العيش.

تقطن قبائل الكبيت والجقيل وأبوسون ومنقاري والمرو أقصى الجنوب. و تقتصر الرابطة اللغوية على الأربع الأوائل فقط أما المرو فيختلفون عنهم تماماً. لكن تربطهم جميعاً عادات وتقاليد مشتركة بما فيهم المرو والذين لاتميزهم عنهم إلا بعض الخصائص الجسمانية المحددة.

وكما أسلفنا فإن هناك علاقة لغوية بين الزغاوة والدرموت وكلاهما على علاقة بـ"درنج" ويشتركون في القدر والمصير لأنهم من القبائل المضطهدة ولعل الزغاوة هم الأنموذج الأمثل لتجسيد هذه الظاهرة .

أما المنطقة التي تبدأ من غرب وارا حتى بحيرة فتري فتسودها اللغة والثقافة العربية كما

هو الحال في دار زيود ومقاطعات عمبر وعردة وماداً وفريوة ورهود ومازا وحليلات، وتستثنى من هذه المجموعات دار كوكا.

ومن المسائل البديهية هي أن يؤثر الإسلام في هذه القبائل ويترك بصماته عليها سواء كان إعتناق هذا الدين قديما أم حديثا، إراديا أم قسراً. وكما سنرى في تاريخ وداي فإن القبائل التي استقرت لفترة طويلة في البلاد هي التي ناصرت عبد الكريم في تأسيس هذه السلطنة الإسلامية، وكان للمابا قصب السبق في إعتناق هذا الدين الجديد، ويشمل هذا جيرانهم المقربين من كدوي وأولاد جمعة والملنقا والماديا والمادلا والملنقا مع المراريت والميما، كما انضمت إليهم قبائل كوندونقو بعد ذلك. وجميع هذه القبائل تقبلت الإسلام إرادياً. في الجانب الآخر نجد أن قبائل الكشامرة والكرنقا والكيقا والقلا والمسامجة والموبى وجزء من الكجنقا والأسنقور والعلى لم يعتنقوا الإسلام إلا قسراً وبحد السيف وهكذا فإن تبعة موقفهم هذا لازالت تلقي بظلالها على علاقتهم بسلاطين وداي حيث لا يتزوجون منهم، بل يقتصرون في التزاوج بنساء المجموعة الأولى، أي المابا والمراريت والميما والكوندونقو، ومازال المابا الأصليون يرعون نفس القيود في التعامل مع القبائل الأخرى المنتشرة في ديار كلنقن وكجنقا. ولا توجد أي سابقة تشير لإتخاذ السلطان زوجة من المراريت أو الميما إذ لا تُعتبر هذه القبائل من سكان البلاد الأصليين، ولا يحظون باحترام مجموعة المابا. وإذا ثبت أن بعض نساء السلطان ينتمين لقبيلة الكجنقا فلابد أن نضع في الإعتبار أن المابا يغطون نصف البلاد تقريباً وأن من يُطلق عليهم لفظ كجنقا غالبا ما يكون مرد ذلك للإقليم الذي يقيمون فيه فقط، وبالتالي فإن هذه الزوجة أو الزوجات ترجع أصولهن – في حقيقة الأمر- لإحدى قبائل المابا دون غيرها.

أما المساليت والقمر المجلوبون من دارفور فقد حددت لهم أماكن بعينها للإقامة القسرية وذلك في عهدي عروس وجودة، وقد سبق القمر إخوتهم المساليت في الاستقدام والإقامة في تلك المستعمرات، أما الجانيانقا فهم مجموعة من الوثنيين الذين هاجروا للبلاد من جهة مجهولة.

سبق و نشأت عدة حروب بسبب تمرد القبائل ضد حكم وداي وينسحب هذا القول على المابا الأصليين أيضاً ومما يحمد لقبيلة المرفا أن التاريخ لم يسجل لها أي تمرد أو عصيان في مواجهة السلطة.

الرابطة اللغوية بين القبائل لا تعني بالضرورة التوحُد في المميزات الأخرى كلون البشرة مثلاً والمعروف أن الوان البشر تتدرج من اللون الأبيض حتى اللون الأسود، ويمكننا أن نلحظ هذا التدرج من سواحل شمال أفريقيا حتى أواسطها، أما وداي وفي الجزء الأعظم من الصحراء الغربية وفي كل أرجاء بلاد السودان فإن هناك سبعة درجات تغلب على ألوان الأهالي، وقد إعتمدناها كأساس في وصفنا لقبائل وداي والألوان هي:

1- الأبيض: وهو لون أغلب الأوربيين والبربر وبعض العرب إلا أن هذا اللون غير موجود في وداي،

2-الأحمر: هذا اللون غير موجود في ودّاى أيضاً.
3-الأسمر: أي البرونزى الفاتح وهو اللون السائد على أغلب العرب النقيين.
4-الأصفر: وهو النحاسى العكر ويشكل لون الكثيرين من العرب وبعض القرعان والكثيرين من المابا والكرنقا.
5-الأخضر: أي البرونزى الداكن وهو لون أغلب شعوب ودّاى وبعض القرعان والكرنقا والميما والزغاوة وأغلب المراريت.
6-الأزرق: من درجات اللون الداكن، وهو لون الكجنقا والكشامرة والمسامجة والكوكا والدرموت والكثير من الداجو ومن شعوب ودّاى بما في ذلك المابا والميما والمراريت وأكثرية الزغاوة.
7-الأسود: هو لون المويى وأكثرية الداجو والدرنق والحداد والكثيرين من الوثنيين الذين يتمركزون في الجزء الجنوبي لودّاى.

أما عن التوزيع السكانى لقبائل ودّاى -باستثناء العرب- يمكن القول بأن الشمال والشمال الشرقي الذي يُسمى بدار المابا هو المقر الرئيسى لمجموعات من شعوب ودّاى الأصليين وهم أبوسنون وأولاد جمعة والملنقا والكجنقا والكرنقا والمرفا والفالا والكجاكسة والمساليت، وكل هذه القبائل تستوطن المنطقة الوسطى للسلطنة. وعلى جزء من الشمال والشمال الغربي للسلطنة يتمركز الداژا والزغاوة. وتقطن الإقليم الغربي قبائل الكوكا والبلالة والمسامجة، والى الجنوب الغربي تتمركز قبائل المويى والداجو وأبوتلفان. أما الإقليم الجنوبي فهو موطن المنقارى والكبيت والبرقد والرنقا، كما تُوجد بعض المجموعات من قبيلة الداجو في الجنوب الغربي، أما الأسنقور فيقطنون الشرق والتاما في الشمال الشرقي.

نظام الحكم والتجارة
وسبل كسب العيش

ينتقل عرش وداي للابن الأكبر المولود من زواج شرعي أو إلى أقرب أقارب السلطان من في عروقهم الدماء الملكية. أما أبناء السلطان الذين ينحدرون من أمهات مستعبدات « إنرميل» أو منتميات لقبائل أخضعت بالسيف فلا حق لهم إعتلاء العرش، وتُعتبر أبوستون(كدوي) وأولاده جمعة والملنقا والمادبا والمادلا والكوندونقو، هم أصل قبائل ودّاي.

يشترط في السلطان أن يكون سليم البدن والحواس وألا يكون مصاباً بمرض عضوي ظاهر، ولا يشترط فيه أن يكون ملماً بالقراءة والكتابة إلا أن الإلمام بها يرفع مكانته.

يتعذّر على السلطان إلغاء أمر أصدره حتى لو أكتشف أن هذا الأمر مبنى على معلومات خاطئة، ويراعي السلطان تعاليم الدين أو على الأقل الظاهر منها كأداء الصلوات اليومية وصيام رمضان، وعدم تقيد السلطان بتعاليم الدين يضر بسمعته وسط العامة.

يرتدي السلطان – عند خروجه– اللون الأبيض ولا يُعتبر خروجه راجلاً أمراً مستغرباً لأن السير بالأرجل ليس مستهجناً في وداي، ويتقلد بحسب العادة سيفاً أو بندقية ولا يدرى أحد في أي فراش ينام لأنه له عدة غرف مجهزة بالأسرة يستخدمها وحده. ويتناول السلطان طعامه منفرداً وتقتصر مائدته على أطباق القمح والأرز ولا يأكل الدخن لأنه غذاء العامة. لم أقف على حقيقة تناول السلطان للبن من عدمه إلا أن من المتفق عليه هو أن أسلافه لا يتناولونه، وفي تقديري هذا الامتناع يعود لاعتقادات خاطئة. يُمتنع على السلطان احتساء المريسة أيضاً. لا يظهر السلطان للعامة إلا يوم الجمعة عند ذهابه للمسجد حيث يجلس بين الناس لأداء الصلاة. والماء الذي يشربه يحمل في أوانٍ مغطاة بالقماش حتى لا تقع عليه عين غريبة وكذلك البئر المخصصة له تغطى بالقماش أيضاً، وتختص بعض النسوة بجلب الماء يرافقهن ثلاثة من الخصيان، وكل من يقابل موكبهن عليه بالركوع وألا فالويل له لأنه سيضرب بالسياط دون شفقة أو رحمة، وعند مدخل القصر يتناول الحمالون الأواني المملوءة بالماء على رؤوسهم وأكتافهم ويرافقهم رجال أشداء حاسرو الرؤوس والكتف الأيمن شأنهم شأن كل من يرتاد القصر من الرجال.

وفي يوم التتويج يجتمع أرباب الدولة في القصر حول منصة عالية تسمى « درجة»[1] مغطاة بالسجاد يجلس عليها السلطان الجديد، يقوم بعد ذلك أكبر الفقهاء الدينيين بوضع العمامة على رأسه وتوضع أمامه الشارات السلطانية والأسلحة إيذاناً بتقلده للسلطة، وتتكوّن الشارة من مظلة ريش النعام وتسمى « ريشة» وتُحمل أمامه في المناسبات زائداً الطبول النحاسية الضخمة «نحاس» ومنشة ريش النعام « نفّاضة» ومظلة من الحرير ملونة بالأحمر والأخضر والأصفر تُسمى « دلالة». الجدير بالذكر إن استخدام المظلة يقتصر على السلطان وحده دون

1- وصفها التونسي بأنها بناء مستدير أشبه بالمصطبة يبنى بين الزريبة وحائط الدار. أنظر رحلة إلى ودّاي ص 143.

غيره من المواطنين.

يتلى القرآن وتسلم للسلطان بعض الأدوات السلطانية من أسرّة و أوراق ثم تتم مبايعته من قبل العلماء ورجال الدين وعلية القوم ويتوسلون لله بأن يبارك خطاه، ثم يخرج المنادى « خشم الكلام» ويطوف بالمدينة معلناً تنصيب السلطان الجديد. بعد حفل التتويج يلزم السلطان داره لمدة أسبوع ولا يخرج إلا لأداء صلاة الجمعة ويتفرغ لتوزيع المناصب العليا بأن يقبل من يقبله ويعين من يراه مناسباً بعد استشارة الكمكلك والتقنا كلك و تلك وهم أرفع المسئولين في الدولة. وجرت العادة بأن يصدر السلطان – في مثل هذه الظروف– عفواً عاماً عن السجناء، ثم يخرج يوم الجمعة للمسجد ويعقد محكمة مفتوحة تقضي في المنازعات وقتياً، ثم يحيل من يحيلهم للكمكلك[1]. أما النزاعات التي مضى –عليها الزمن فتشطب أي « تدفن تحت السجادة»[2].

وعندما كان البلاط في وارا كان لزاماً على السلطان الجديد قضاء أسبوع في جبل « سُرفة» مقر النحاس السلطاني، وبإنتهاء الفترة تُنحر مائة من البقر ومثلها من الإبل والخراف بمدافن السلاطين في «تمنق» على أرواح أسلافه ويقسم اللحم على سكان القرى المجاورة –حراس الاضرحة–، يتبع ذلك بيعة القبائل والأقاليم عن طريق المناديب الذين يرافقون ملوكهم ثم يقدمون « السلام» وهي هدية تساوى أربعة مكاييل من الدخن عن كل رجل. يستقبل السلطان هذا الحشد ويخاطبهم عبر مترجمه « خشوم الكلام» الذين ينتمون عادة لقبيلة العريقات أو المهرية وغالباً ما يكونون فقهاء متعلمون، درجوا على التباري في استعراض فصاحتهم ومواهبهم الشعرية في المدح والذم، وفي الغالب الأعم يخصون الجانيانقا والكبقا والكوبو بسيء القول ثم تبدأ البيعة وإشهار الولاء والطاعة، ثم تقدم أطباق الطعام واللحم ويختص البعض بشيء من الهدايا كقبيلة كدوي مثلاً الذين جرى العرف بأن يمنحوا مقداراً معلوماً من الأطعمة والكساء.

يتلو ذلك تسريح حريم نساء السلطان المتوفى واللائي يتراوح عددهن مابين الخمسمائة والستمائة من هبابات وجوارى. أما الهبابات أي الزوجات الشرعيات فتبقى منهن من لها أطفال أما الباقيات فيؤخذن إلى المسجد وغالباً ما يتراوح عددهن مابين العشرين والثلاثين امرأة ويعرضن على الفقهاء ليأخذوا منهن زوجات ومن لا يحظين بالاختيار تتم إعادتهن إلى ذويهن و بنفس الأسلوب تعامل الجوارى. وإذا كان السلطان الجديد ابناً للسلطان المتوفى فلا يحل له القرب من نساء أبيه ويكتفي بتسريحهن. أما إذا كان شقيقاً له فيحل له أن يختار إحداهن أو بعضهن لنفسه وفقاً لما جرى عليه العرف. أما بنات السلطان المتوفى فالطفلات يلحقن بأسرة السلطان حتى يتزوجن أما الأولاد المولودون لأمهات حرائر ومؤهلون لاعتلاء العرش فمنهم من يُقتل ومنهم من تُسمل[3] عينيه وفقاً لتلك الأعراف الوحشية السائدة والتي

---

1 -جمعها كماكل وهم الاجاويد أعضاء مجلس السلطان

2- يُوجد هذا المبدأ في القوانين الحديثة بحيث تشطب الدعوى للتخلي بمرور وقت معين

3- عادة سمل عيون المنافسين على السلطة عادة عربية قديمة حيث سملت أعين المقتدر بالله أبو الفضل جعفر والمستكفي من خلفاء العباسيين.

يؤرخ لنشأتها ببداية هذا القرن. وتتم عملية سمل العينين بواسطة رئيس الحدادين (سلطان الحدادين) عن طريق قطعة محماة من الحديد.

بعد التتويج تترى الوفود من مقاطعات باقرمة وتاما وسلا ورنقا محمّلة بالهدايا وتحايا رؤسائهم ويتم استقبالهم بالتوسعة اللازمة.

أخيراً يستقبل السلطان سفراء الدول المجاورة -برنو ودارفور - وهم محملون بالهدايا التقليدية من الثياب الفاخرة اثنين أو ثلاثة، وحصاناً وسيفاً ومسبحة مع قطعان من الماشية لتذبح كصدقات على روح السلطان الراحل. ومن الجانب الآخر يبادلهم السلطان الهدايا كنوع من المجاملة والعرفان. بالإضافة لذلك يرسل السلطان أحياناً عدداً من الخصيان إلى القسطنطينية مع عطايا مجزية للمدن المقدسة أي مكة والمدينة.

يبدأ البرنامج اليومي للسلطان بأداء صلاة الفجر التي يحضر الإمام خصيصاً لأدائها، بعدها يذهب السلطان لإحدى غرف نومه العديدة التي تحتل الجزء الشمالي للجناح الغربي للقصر وكلها مؤسسة على طراز واحد، ولا يوجد حولها سوى الخدم الذين سنعرض لدرجاتهم ورتبهم لاحقاً، وهم الأمين الحر والعقيد جيرى والأمين العبد ويطلق عليه، وليد ملك، أيضاً، ومهمتهم تلبية نداء السلطان لكنهم لا يبقون بالقرب منه مباشرة. وأما المخصى العقيد «دوقو بانقا» فيحضر عند الفجر وسنتعرض لسيرته فيما بعد.

باب المدخل المؤدي لغرفة السلطان تُسدل عليه ستائر مصنوعة من الحرير والصوف ويقف عليه « الطوبرات» ويأتي بعد ذلك كل من الكملك والتتما كلك وكلاً من «ملك تتما كلك» الإثنين لتحية الصباح ويمثل هؤلاء أعضاء مجلس السلطان.

يتولى الطوبرات نقل هذه التحية ثم يأتي الرد بالسماح بالمقابلة أو بخلاف ذلك. فإذا كان الرد بالسماح، يجتمع القوم في ساحة تسمى « المقامة» تطل عليها العديد من غرف السلطان ويستدعون إلى حيث يقابلهم فإذا كان الطقس ملائماً تبسط سجادة في المقامة ويحتفظ الجميع بمسافة من السلطان كل حسب درجته ويظل كل منهم في موضعه وبصره مصوب نحو الأرض لا يجرؤ على التطلع لوجهه، ويصاحب سجودهم تصفيق هادئ، ودعاء بطول العمر والرخاء والسلام لمولاهم. وفي عهود سابقة كان على الحاضرين لمجلس السلطان الإنحناء نحو اليمين ثم نحو اليسار هكذا حتى يلامس الجبين الثرى، وقد الغى هذا التقليد درءاً للمشقة.

يتناول السلطان القهوة عقب صلاة الصبح مباشرة، ثم يقدم له الخدم طبقاً من الأدام واللحم مع شيء من الخبز ثم يغادرون في الحال، وجرى العرف بأن يتناول السلطان طعامه وحده ولا يحق لأحد أكل ماتبقى بل يدفن في الأرض. وبعد المقابلة السابق ذكرها تُقدم القهوة مجدداً مصحوبة بالفطائر والحلوى، ثم تقدم وجبة خفيفة بعد القيلولة تتلوها القهوة أيضاً، بعدها يعاود الإمام الحضور لأداء صلاة الظهر. وبعد الصلاة مباشرة يعرض المسئولون تقاريرهم ويتلقون الأوامر بشأنها، وبعدها يوجه السلطان العبيد بإرسال الطعام إلى الضيوف

وانظر كتاب البدء في التاريخ لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي – الجزء الثاني – ص 305.

والمسئولون معاً. ولا يقل عدد الاطباق التي تقدم عن الألف أو الألفين أحياناً. وبعد الصلاة تقدم وجبة أخرى دون أن تصحبها القهوة بيد أن السلطان يتناولها فيما بعد.

وبمجرد ظهور الشفق وقبيل المغيب تُوقد القناديل المزودة بالسمن والمثبتة في جدران الغرف وعندما يرخى الليل سدوله يقوم السلطان بجولة في القصر للاستيثاق من غلق المداخل والغرف بما في ذلك مقار الحريم والإسطبلات والخزائن.

القصر عبارة عن مبنى هائل يقع مدخله الرئيسي غرباً، وينقسم المدخل إلى قسمين يفصل بينهما حائط أحداهما شرقي والآخر غربي، الباب الشرقي مخصص للنساء أما الغربي فيحوى مساكن السلطان والإسطبلات والخدم - الأحرار منهم والعبيد- وسبق لي أن وصفت القصر عند مثولي أمام السلطان لأول مرة مما يغنينا عن الخوض في تفاصيله مجدداً.

يتكوّن قسم الحريم من التلك والللك وكلاهما تحت إمرة هبابة لأن كل هبابة لها مسئوليات محددة في قسم النساء، وقوام هذا القسم عدد من الهبابات والفلاقتة الذين يأتمرون بأمرهن. عدد الهبابات غير محدد وقاعدة الإقتصار على أربع زوجات لا تنطبق على حكام السودان حتى المسلمين منهم. يتكون هذا القسم من خمسين كوخاً - أي كوخ لكل هبابة- ومع ذلك فهناك المئات من الأكواخ بالقسمين وبالتالي فإن عدد الهبابات اللائي يقمن بهذه الأكواخ قد يتجاوز الثلاثمائة. تستلم الهبابة الرئيسة الإمداد الأسبوعي من القمح لها ولمن يتبعها من الهبابات والضيوف، وهناك إمداد شهري لبقية المواد الغذائية، كما تتولى الهبابات مهمة الكساء وتقسيم الحلي على حريم السلطان. أما الخادمات « الفلاقتة» فلا يُسبين من القبائل الحرة في وداي بل تستخدم لهذا الغرض نساء الكوكا والمسامجة وبعض القبائل المهاجرة والمطوّعة. يقيم الخصيان بجوار حريم السلطان ويسمون بالشيوخ ويبلغ عددهم حوالي الأربعين أو الخمسين وأغلبهم مجلوبون من باقرما إلا أن بعضهم ينتمون لقبائل وداي وقد تعرضوا لهذه العملية لجرم إقترفوه، ويتولى بعضهم مراقبة النساء، ومن أشهر الخصيان - بحكم المنصب- عقيد السلامات الذي يُعد من شاغلي المناصب العليا وأحد أهم القادة العسكريين في البلاد، كما يحتل الخصيان المناصب العليا كما هو الحال في برنو.

كبير الخصيان في بلاط وداي هو العقيد دوقو دينقا المشرف على إمدادات القصر والمنسق لعلاقة السلطان بزوجاته، وتخضع لسلطانه القبائل العربية، وهو رجل ذو نفوذ وثروة. يليه في المرتبة « ملك أرتانه أو « ورناق الشيوخ، وهو المشرف على الخصيان ومن أهم إختصاصاته الإهتمام بخدمة السلطان وبالأخص فيما يتعلق بعلاقته مع زوجاته وفضلاً عن ذلك فهو يضطلع بخمسة أو ستة مهام ثانوية.

نبدأ تعريفنا بالأشخاص الذين لهم صلات وثقى بجانب صفتهم الرسمية وأبرزهم « الموموء أي الملكة الأم وهي ذات نفوذ وتأثير على إدارة دفة الحكم، تليها الأميرة -شقيقة السلطان- وتُعتبر كبيرة الأميرات ولذا تلقب « بميرم» وتعد من شاغلي المناصب الرسمية وتستأثر أحياناً

بسلطات واسعة خلافاً لزوجات السلطان اللائي لا يتمتعن بأي نفوذ رسمي وتأثيرهن محدود للغاية. يدخل ضمن زمرة الأمراء الأخوة والخؤلة والأعمام، ويكلف من لم تسمل عيونه منهم بترأس القبائل والقرى المختلفة إلا أن حظهم في الوصول للمناصب العليا يكاد يكون صفراً، ولا يستثنى هؤلاء الأمراء من الخضوع للسلطان شأنهم شأن بقية الرعية.

ويختص بمسئولية رعاية مسكن السلطان أمينان أحدهما حر والآخر عبد. فالحر مسئول عن الخزانة السلطانية الموجودة في داره وبجانب ذلك يختص بمنصب رئيس التجار من الجلابة. أما الآخر فهو مسئول عن الخزانة السلطانية المحفوظة في القصر ويختص كذلك بترتيب ديوان السلطان كما يشرف على طعامه.

يشرف العقيد جبرى على الطويرات ويختص بالإضافة لذلك بحفظ مكتبة السلطان ومستنداته، فضلاً عن ذلك فهو مبعوثه الخاص بإعتباره المسئول عن الطويرات الذين يتولون مهمة توصيل الرسائل وهذا هو سر إطلاق هذا الاسم عليهم. كما يستخدم « عيال اللقداية» لحمل الرسائل الهامة وهم فصيل من الطويرات يبلغ عددهم حوالي العشرين من جملة الطويرات الخمسمائة وكلهم صبية أرقاء تتراوح أعمارهم مابين الأثنى عشر إلى الستة عشر عاماً و من بينهم يتم اختيار العقداء وبعض شاغلي الرتب العليا، وينتدبهم السلطان للبعثات المهمة، وكل من يستدعى بواسطة «عيال اللقداية» للمثول أمام السلطان عليه أن يتفرس في وجهه ليقرأ التعابير المرتسمة عليه. فإذا إنحنى من مسافة وحياه بطريقة ودية كان الأمر خيراً أما إذا اقترب منه بطريقة عدائية واقتاده للقلعة وهو واضع يده عليه فعلى الشخص أن يتحسس عنقه لأن في إنتظاره شراً مستطيراً.

يشرف على الإسطبلات السلطانية أربعة من الرؤساء، وينقسمون بين « التلك واللك» ويسمى الفرد منهم « جرمة» وبجانب مهامهم الأصلية، يُعدون من الإداريين المهنيين في الدولة. فالجرمة «تُلك» هو المسئول الأول عن الخيل – قد يكون حراً أو عبداً – وغالباً ماتسند له إدارة أحد أقاليم غرب البلاد مثل كانم أو غيرها. أما الجرمة «للك» الذي يليه في الرتبة فهو حر المولد وعادة ماتسند هذه الدرجة لخال السلطان. ويتولى الجرمة « للك» – بحكم المنصب– إدارة أقاليم فترى وباقرمة، فضلاً عن ذلك فهو المكلف بإمساك اللجام والركاب عندما يمتطى السلطان جواده. أما « الكريات والسياس » فيوجد منهم ما ينيف على المائة وهم الحراس الخصوصيون للسلطان بجانب مهامهم الأصلية.

الموظفون السابق ذكرهم هم العاملون بالبلاط والمسئولون عن إدارة شئون القصر وخدمة السلطان، أما المسئولون عن إدارة البلاد فهم الكماكلة والعقداء. وتنقسم دار وداى سياسياً لداره ترتالوه أى المديرية الشمالية، ودارترلولوه أي دار الصعيد وهي المديرية الجنوبية، ودار « تلك» وهي المديرية الشرقية، وتشمل إدارات القبائل الحدودية فقط من الأسنقور ومساليت الحوش الشرقية، ودار للك وهي المديرية الغربية، ودار « كدروه وتشمل المراكز الجبلية مثل «

أبو تلفان وديار التنجر، وغيرها بالإضافة للإقليم المتاخم لبحر السلامات، ودار ، جنقرتان، وتشمل إقليم الوتتبين في الجنوب. إختصاصات هؤلاء الكمالكلة لا تتعارض مع السلطات المسندة للمديريات، وكماكل الدرجة الأولى أربعة وهم:

1-كمكلك تُرتالو: ويُطلق عليه كمكلك أولاد جمعة أيضاً وهو المسئول الأول عن المديرية الشمالية والشمال الشرقي.

2-كمكلك ترلولو: وهو المسئول عن إدارة الصعيد أي المديرية الجنوبية ويرافق عقيد السلامات أثناء زياراته التفتيشية.

3-كمكلك بتاقتيك: وهو المسئول عن إدارة المنطقة الوسطى وتخوم وارا.

4-كمكلك زيوذ: وتدخل تحت إدارته كل منطقة الغرب ويصاحب عقيد الراشد عند زياراته التفتيشية .

أما بقية الكماكل فيسمون " عنقريب جا" ويختصون بتطبيق الأعراف والحكم في الجرائم، وتمتد سلطاتهم لحد توقيع العقوبات الاستئصالية. ويخرج من سلطاتهم الرُحّل والحدادون والذين يختص بمحاكمتهم سلطان الحدادين، وكذلك ذوى الدماء الزرقاء ممن ينتمون للأسرة المالكة إذ يتولى محاكمتهم السلطان بنفسه.

وجرى العرف بأن تكون درجة الكماكل حكراً لعوائل محددة. يتجوّل الكماكل كل في دائرة إختصاصه ويقوم بالتفتيش والفصل في القضايا والمنازعات مع تحصيل الربط الضريبي من الأتباع، ويتمثل هذا الربط فيما يسمى " بعادة معلومة" وتُحصّل من القرى المختلفة وهي حمل من القمح وكساء ورأس من الماشية وكبش مخصص، وتُقدم للكماكل تلك الأشياء أثناء تجوالهم ما يسمى بالضيفة وتتكون من ثور وعدد من التكاكى بحسب حجم القرية وكثافة سكانها. يتبع كل كمكلك أربعة من الكماكل الأدنى درجة ويتمتعون بنفس الحقوق وينالون نصف الإيراد ولكل منهم محكمة خاصة يرأسها مسئول تابع له ومما يثير الدهشة حقاً هو أن هؤلاء التُبّع يحملون نفس الألقاب التي يحملها مستخدمو السلطان.

ليس لملك الحدادين أهمية كبيرة لكنه يتمتع ببعض السلطات المطلقة أحياناً، ويعامل بشأنها كما لو كان سلطاناً حقيقياً، فهو رمز للسلطان على فئة الحدادين ويحمل بعض شارات السلطنة لكنه دون سلطة حقيقية، ويطلق على نسائه لفظ "هبابات" وعلى بناته "ميارم" أي أميرات تشبهاً بالسلطان، وله إمتياز المثول أمام السلطان مرتدياً البرنس والجلوس على السجادة وهو حاسر الرأس، فضلاً عن إن له سلطة مطلقة على الحدادين إذ يتولى محاكمتهم ويشترط فيه أن يكون قارئاً للقرآن. ومن ضمن مهامه تطبيب أفراد الأسرة المالكة وبالتالي يحق له الدخول على الحريم. ومن مهامه المنفرة سمل عيون الأمراء من إخوة السلطان وأبناء عمومته عند بداية أي عهد جديد. ومن مهامه قص شعر السلطان أسبوعيا ويضطلع بمهمة تجهيز جثمان السلطان عند وفاته. ومن ضمن وظائفه جمع المجارف والفؤوس والرماح والمدى

والسلاسل التي يقدمها كضرائب للسلطان بعد اقتطاع ربعها وتبلغ أعدادها الآلاف. الحدادون طبقة منبوذة في وداي ودارفور وبرنو وبالأخص بين قبائل " التبو " ولاتقبل مصاهرتهم ولذا يتزوجون فيما بينهم ولايؤاكلهم أحد و عبارة "حداد "سبة لا تغتفر وقد تؤدي لسفك الدماء.

تخضع القبائل الصغيرة لإدارة الشيوخ وتقتصر أهمية الشيخ على الخلفية التاريخية للمنصب فقط. ومع ذلك فإن شيخ الملقا والذي يسمى " جنقو " أي الجندي يتمتع بامتيازات مقدرة وينطبق هذا على شيوخ المادلا والكرنقا والميما.

أما أكثر الموظفين أهمية في الدولة فهم العقداء[1] -أي قادة الجيش- وفيهم الأحرار والأرقاء كما يُوجد بينهم مخصيين أيضاً. ومن مهامهم إدارة القرى التي تقع تحت دائرة إختصاصهم وتطبيق القانون على أهاليها عدا سلطة الحياة والموت. ولما كانت القرى التابعة لهم تنتشر على نطاق البلاد فغالباً ما يشاركهم الكماكل السلطة مثل أن يتولوا هم الإشراف على الأراضي على أن يشرف الكمكلك على الآبار والأنهار. ولهم في بعض القرى السلطة المطلقة. وعندما يباشرون مهامهم القضائية -بالتضامن مع الكماكل- يقاسمونهم الغرامات وتتسق دخولهم الأخرى معهم. وتتكوّن من « عادة معلومة» وهي الضريبة التقليدية المعروفة بـ« الضيفة». بيد أن هذه العائدات تُعتبر ثانوية بالنسبة للعقداء لأنهم هم عادة لا يتجولون في القرى التابعة لهم. ودوائر إختصاصاهم محددة على سبيل الحصر ويقتصر أداؤهم الضريبي على مايقله العرب الرحل وبذلك يحصلون على دخول معتبرة. وأهم إختصاصاتهم قيادة الحملات العسكرية واستنفار الأهالي وحثهم على القتال ويبلغ عدد هؤلاء العقداء حوالي الأربعين وأهمهم عقيد الصباح – أي مدير المديرية الشرقية- وعقيد المحاميد وعقيد الراشد وعقيد الجمادين إذ تفوق سلطاتهم سلطات الكماكل.

الجرمة: منصب يعادل درجة العقيد تقريباً ويعد الجرمة من كبار المسئولين عن الخيول السلطانية ولهم مكانتهم في البلاط ويمارسون نفس صلاحيات العقداء ويماثلونهم في الدخل. وكان جرمة ترلولو أو للك ابوجبرين – إبان زيارتي- أكبر الرجال سلطة ونفوذاً في البلاد.

يلي الجرمة التراجنة ومفردها « ترجنك» ويبلغ عددهم الستين ويتم اختيارهم من أحرار الرجال ويختص أربعة منهم بمراقبة من تجري في عروقهم الدماء الملكية ويمارسون عليهم سلطات صارمة بالأخص عند كشفهم للمؤامرات. ويعتبرون من قوات السلطان الشرطية الخاصة وينفذون أحكام الإعدام على شاغلي الرتب العليا. ويعمل أربعة منهم كضباط لحراس السلطان الشخصيين « عُصبان» الذين يبلغ عددهم الآلاف وعند الخطوب يتمترسون خلف درقات الحديد الا أنهم لا يشاركون في القتال إذ يقتصر دورهم على الذود عن السلطان والدفاع عنه. أما بقية التراجنة الثمانية فيتم توزيعهم على الكماكل للاستفادة منهم في

1- ترجع الصول الوظيفة لمملكة الجمليين إلا ورد في الديباجة النجومية لعبد الله محمد الخبير بأن فتنة قد نشأت بين أجداده وعقداء ملك الجمليين سعد بن عبد السلام ترتب عليها طردهم الى آخر الرواية مما يؤكد الصلة بين سلاطين وداي ودار الجمليين.

إدارتهم لمراكزهم.

ومن الوظائف التي تدر لشاغلها دخلاً محترماً، وظيفة « الفتاشي» أي المفتش، الذي يتولى الرقابة سراً على الممنوعات من المشروبات كالمريسة بنفسه أو عن طريق عماله المنتشرين في كافة أصقاع البلاد. وللفتاشي سلطة توقيع أشد العقوبات على من يُضبط وبحوزته هذه الممنوعات كالجلد وإتلاف الأواني المستخدمة في صناعتها وحلق شعر الرأس، ولما كان لكل معضلة علاج فقد إعتاد الفتاشي غض الطرف عن بعض المخالفات متى ما تم نفحه شيء من العطايا.

يتلو الفتاشي « الملوك» - ومفردهم « ملك»- وهم رؤساء للقبائل الصغيرة ويباشرون مهامهم تحت إشراف الكماكل ويمتثلون لأوامرهم، ويقومون على الأمن العام وينوبون عن رؤسائهم في وقت الحاجة، وهم كثر، إلا أن أكثرهم استقلالاً ونفوذاً هو «السن ملك» - أي المحصل لضرائب الغلال- الذي يقوم بجباية ضريبة السلام من الأهالي بواقع مدين[1] من الدخن عن كل إمرأة ويخزنها بالعاصمة. كما يجمع الفطرة[2] من كافة أقاليم البلاد بمقدار مد عن كل رأس وتحصل بنهاية شهر رمضان، فضلاً عن ذلك تحصّل الزكاة وتبلغ عشر المحصول وقد تقل حتى نصف هذا المقدار في بعض المناطق التي لاتحظى بخصوبة عالية.

وبالإضافة إلى الضرائب المتقدم ذكرها، فهناك ضريبة الديوان وتدفع بصفة رئيسة من الخيول بالإضافة للجمال والأغنام، وتحصّل أحياناً من الغلال، و هذا النوع من الضرائب يقتصر على « الكجنقا» و« الأسنقور» وقبائل «علي» كنوع من الجزاء على ما اقترفونه من شغب وعصيان.

وهناك نوع آخر من الضرائب يسمى الزامولة وهي عبارة عن جُمل معين من الجمال يحصل عقب الغارات على الأعداء. ويتلقى السلطان ثمانية أمداد عن كل مسكن للتنجر في دار زيود بالإضافة للقطن الخام أو المغزول وشيء من القماش وعشرة تكاكي عن كل رأس وجُعل من المال عن كل امرأة بصرف النظر عن كونها متزوجة أم لا. كما تحصل الضرائب عن صيد الأسماك أيضاً ويتولى ذلك موظف مختص يعاونه عدد من المرؤسين الذين يجوبون قرى البطحة، وذلك بإنتهاء موسم الفيضان عندما تتحول لبحيرات وبرك، ومقدار هذه الضريبة ثمان سمكات عن كل عشرة.

يُعد البندلة من العبيد ويقطنون جنوب البلاد ومن التزاماتهم الضريبية دفع أربعة أمداد من العسل عن كل فرد منهم، كما يتولى عرب الجنوب - السلامات والراشد- جلب العاج وتسديد ضرائبه عيناً كل أربعة أشهر وتبلغ حصيلته المائة أو المائتي ألف وزن، وينال السلطان نصف هذه الكمية.

تبلغ ضرائب الجمال حوالي الخمسة ألف رأس وتحصّل من مربيي الإبل ومن الرحل كل

1 - المد وحدة كيل ويستخدم في غرب السودان وحتى الآن.

2- بحسب الأعراف في السودان هي زكاة الزروع.

أربعة اشهر. أما العرب مربيي الماشية فيدفعون نصف هذا العدد عن كل أربعة أشهر أيضاً كما تُنتقى الفحول وتُخصى وترسل للسلطان كضريبة كل أربعة أشهر ولايترك منها إلا ما هو ضروري للتناسل والإكثار. كما تحصل الضرائب عن الحصائر والجلود المجلوبة من دار زيود وعن اللبان و قضبان الرماح التي ترد من ديار المساليت وعن أعمدة الخيم التي تجلبها قبائل أبوسنون وعن بيض النعام الذي يجمعه الزغاوة وعن بيض الدجاج البرى من قبائل الشرق وعن السمن الذي ينتجه مربيو الماشية ويبلغ مقداره حوالي الألف وعاء تتكفل بدفعها كل قبيلة على حدة، وقصعة ملح عن كل رأس من قبيلة المحاميد. كما تحصل الضرائب عيناً عن الأواني المستخدمة لحفظ الماء أو العسل، ومن القِرَب التي يصنعها « الدرموت» وهم فرع محتقر من قبيلة الزغاوة.

وإذا جاز لنا التحدُث عن الإدارة في وداي فإن مسئولية العدل والقضاء تقع على عاتق الكماكل كما سبق و رأينا رغم أن إختصاص القضاء وفض المنازعات من مسئوليات السلطان الشخصية. يختص السلطان -دون غيره- بمحاكمة أفراد عائلته وعائلات الكماكل والقتلة من العامة. فإذا أدين أحد بالقتل العمد فإما أن يسلم القاتل لعائلة القتيل أو تُوقَع عليه العقوبة الملائمة بمعرفة العلماء. ومن التقاليد المستقرة هي أن تعفو أسرة القتيل عن القاتل تقديراً واحتراماً للسلطان. أما إذا لم يوافق أولياء القتيل فالعقوبة الغالبة هي إزهاق روح المدان قصاصاً مالم يفتد نفسه ويشترى حريته بدفع الدية ومقدارها مائة من الإبل أو الماشية[1] وفي حالة العفو يسقط القصاص والدية. وكان السلاطين - في عهود سالفة- يتولون تلاوة الأحكام بأنفسهم كل جمعة في الساحة العامة أمام القصر.

هناك محكمة مكونة من ستة أعضاء - اثنان من الكماكل ومثلهما من الملوك والفقهاء- تنعقد هذه المحكمة يومياً وبشكل مستديم، وأثناء زيارتي وجدتها تباشر مهامها وترفع ما استعصى عليها من أحكام للسلطان كما تحيل له كبريات الأمور ليفصل فيها شخصياً.

وكما ذكرنا من قبل فإن الكماكل يعملون كقضاة للمديريات المختلفة ويبتون في كافة المنازعات إلا ما يخرج عن نطاق إختصاصهم، وأحكامهم غير قابلة للطعن. تعاقب جريمة السرقة بالغرامة حتى لو إقترنت بالإكراه وعند العود تكون العقوبة الإعدام.

كذلك يُعاقب مرتكبو جرائم الخيانة العظمى والزنا بالإعدام. أما القذف فعقوبته الغرامة.

تنفذ عقوبة الإعدام على المدان أمام الكماكل بالهروات ذات الرؤوس الحديدية ويتولى تنفيذها الكبرتو - أي طبقة الموسيقيين المنبوذة- أو بواسطة عبيد السلطان. أما العقوبات التي تُوقع على مرتكبي جرائم المجاهرة بالعصيان وزراية سلطة الدولة ينفذها الكبرتو أيضاً. تنفيذ الأحكام على الخونة والمارقين بأساليب متعددة، وينفذ الإعدام على عتاة اللصوص شنقاً ويتولى تنفيذه العبيد. أما الإعدام رمياً بالرصاص فيقتصر على ذوي الرتب إذا ما اقترفوا ما

1-هذا الحكم يطابق ما تقضي به أحكام الشريعة الإسلامية.

يقتضي مثل هذه العقوبة ويتم التنفيذ في حضور السلطان. يتولى التراجنة تنفيذ أحكام الإعدام في الجرائم السياسية. أما قُطّاع الطرق والمدانون بأغتيال الملوك فيتم إعدامهم بوضعهم في الخازوق أو بإلقائهم في حفرة منصوبة في قاعها العديد من الأنصال الحادة، ويتولى هذه المهمة العبيد أيضاً. ولما كان السلطان علي معروف بصرامته وتشدده في الأحكام، فقد درج على إخضاع أحكامه المتعلقة بأمور الدين لرأي العلماء[1].

أما عن القوة العسكرية لودّاي ففي حالة نشوب الحرب تلتزم كل قبيلة بالدفع بفرسانها للميدان ويختلف الأمر بحسب الجبهة التي يدور فيها القتال. فإذا تعلق الأمر بدارفور يتم حشد أكبر قدر من المقاتلين. وتختلف درجة الاستنفار إذا كانت جبهة القتال غرباً.

تقع حدود دارفور على منأى من قبائل المحاميد وأولاد راشد وبالتالي لاتشارك هذه القبائل في النزاعات التي تثور على هذه الجبهة إلا القلة القليلة منهم، اللهم إلا إذا كانوا يتوقعون الحصول على غنائم كبيرة. يملك سلكان ودّاي ما يقارب الأربعة ألف من البنادق القديمة والمجلوبة بواسطة العرب من نواحي طرابلس وساحل شمال أفريقيا. أما الأسلحة التي تعمل بالبارود فقد جلبها تجار النيل وهي عينات رديئة قليلة الفعالية ويستخدمها رماة مجندين يبلغ عددهم حوالي الألف. هناك أثنا عشر مدفعاً برونزياً - ويُقال أنها أربعون - من العيار الصغير، صُنعت محلياً بأيدي المصريين أو عساكر الأتراك وربما الميكانيكيين من البرونز إلا أنها دون قواعد تسهّل استخدامها وليس بين جند السلطان طوبجية متمرسون لاستخدامها وبالتالي تُعد عديمة النفع.

في الحرب يبدأ القتال بأمر مباشر يسري على جميع أجنحة الجيش الذي ينقسم لثلاثة أقسام، الوسط ويتقدمه السلطان زائداً الجناحين. ويقف العقداء في الطليعة ويتكوّن الوسط من عقيد المقدمة وعبيد السلطان المسلحين بالبنادق ثم العلماء والكماكل واد «تقا كلك»، ويتبعهم أولاد الدلالة -حملة الفؤوس - الذين يجتثون الأشجار من على الطريق ويتبعهم الكريات والسياس -حملة الرماح والبنادق - المتحصنون بالدروع، يتلوهم «أولاد الدرقة»، وهم فرقة تحمل التروس وتتولى حماية السلطان ومن خلفهم الطويرات من حملة الرماح بقيادة العقيد جبري وبعض خدم السلطان وأتباعهم ثم سلطان الحدادين وأتباعه ثم الخصيان ورجال الملكة الأم - المومو- ورجال كبيرة الأميرات - الميرم- وأخيراً عقيد المؤخرة.

والسلطان هو القائد الأعلى للجيش ومع ذلك لا يشارك بشخصه في القتال بل يبدأ الهجوم العبيد - من حملة البنادق - الذين يتصدرون الوسط ومتى ما اشتد أوار الحرب وحمي الوطيس يشارك الكل في القتال، وفي حالة الهزيمة تواصل الحاشية القتال حتى الرمق الأخير.

أما السلطان فيترجّل من على حصانه ويفترش السجادة السلطانية وينتظر مصيره في صبر وإباء لأن فراره عار لا تمحوه الأيام.

لا تقل النظم الاجتماعية لأهالي ودّاي دقة عن النظام الإداري للدولة، وسنبدأ بالمساكن إذ

1- هذا النظام متبع حتى في التشريعات الحديثة، ويحل لذلك بالنظام المصري حيث لا تطبق عقوبة الإعدام قبل عرض الأمر للمفتي

تتكون القرية من عدة أكواخ من القش ولا تستخدم المباني الطينية إلا في العاصمة وبعض مدن الجلابة مثل نمرو، ولكن حتى المترفين من هؤلاء التجار لا يزيد عدد الغرف - في مساكنهم - عن غرفتين أو ثلاثة. ورغم أن من المتيسر صناعة الطوب الأحمر إلا أنه لا يستخدم في البناء بل إقتصر استخدامه على القصر السلطاني والمسجد فقط. تُسقف غرف الطين بتثبيت العوارض الخشبية على جدران الغرف وغالباً ما تكون من أخشاب الدليب ثم يطرح فوقها القنا ويغطى بالأعشاب وجريد الدوم وحُصُر القش ثم تطرح عليه طبقة من الطين وبذلك يكتمل السقف. ورغم وجود الجير فهم لا يطلون المنازل بل أقتصر الطلاء على القصر السلطاني والمسجد الجامع.

يترك الأثرياء نُصف دورهم خالية من المباني عدا بعض الأكواخ المتناثرة هنا وهناك، كما يحوي المسجد الجامع عدداً من الأكواخ كنزل للمسافرين وعابري السبيل.

تأخذ أكواخ القش الشكل المخروطي وذلك على النمط الدائري المستخدم في برنو ولكنها ليست متينة كتلك التي يبنيها الوثنيون في الجنوب.

ويتكوّن الكوخ من عدد من الدعائم الخشبية المثبتة على الأرض في شكل حلقة مع عوارض من الأخشاب الرفيعة دائرية الشكل التي تُثبت أعلى الدعائم الخشبية مثبتة عليها أخشاب رأسية أخرى تلتقي بقمة الكوخ في شكل هيكل مخروطي وعلى هذا الهيكل يُطرح غطاءاً كثيفاً من عشب المحريب ويثبت بحصائر عشبية منسوجة بدقة وإتقان. ويتم تشييد الكوخ على مرحلتين تبدأ بالجزء الأسفل ثم يُرفع الجزء المخروطي بعد تجويده على الأرض، يبلغ ارتفاع الجزء الأسفل حوالي المتر أو المتر ونصف المتر، وبعد إكتمال التشييد تُزيّن قمة الكوخ بمجموعة من بيض النعام. يجيد الداجو والميمي تشييد هذا النمط من الأكواخ ويستخدمون - بدلاً عن المحريب- بعض الحصائر التي يُطلق عليها اسم «سكو» تمتيناً للسياج، كما يستخدم التاما - لهذا الغرض - نوعاً من الحشيش يسمى «العويش» والذي يستخدم غذاءاً للخيل أيضاً.

لا يضيف أهالي ودّاي أي إضافات داخلية للكوخ لكن أهالي بونو يبطنونه من الداخل بذلك النسيج العشبي الذي يسمونه «السقيد» والذي يستخدمونه من الخارج أيضاً بدلاً من قصب الدخن الشائع الاستخدام في ودّاي.

يتكوّن الكوخ ـ من الداخل ـ من دكة طينية مفروشة بحصير من سعف الدوم تُستخدم كسرير مع وعاء طيني كبير يسمى «دبنقة»[1] ويُستخدم كمخزن للغلال وحجم الدبنقة - لدى الداجو والميمي - ضخم جداً بحيث يتعذر تحريكها ولذلك تبنى قبل تشييد الكوخ الذي تحفظ بداخله.

يستخدم الأهالي الأواني الفخارية للطبخ وحفظ الماء، والقصع كصحاف للطعام بيد أنهم لا ينقشونها كما يفعل البرنو. بالإضافة لما ذكرنا من أواني فإن بعض صحاف الطعام تصنع

1- تسمى السويبة ويُطلق عليها في شمال السودان اسم التشيبة.

من الخشب[1] وتزود بأرجل خشبية أحياناً.

يستخدم الأهالي لحفظ العسل والسمن السلال المصنوعة من السعف وتسمى «حنقة» وتطلى من الداخل بالقار، فضلاً عن أوعية وسلال تسمى «تولكايا» وتستخدم لحفظ الملابس، ثم هناك أجربة مصنوعة من جلود الأغنام تسمى « كفويا»، وبالإضافة لهذه الأواني هناك نوع سميك من السلال يسمى «كونيو» يصلح لحفظ الأطعمة لأطول مدة.

تحوي المساكن الكبيرة العديد من أكواخ القش مع فناء واسع، ويحرص المقتدرون على تزويد المنزل بأكواخ تستخدم أساسًا لاستقبال الضيوف وتسمى «دبالا»، أما الفقراء فيتعاونون على تشييد كوخ عام ليستخدم كمنزلة للضيوف. وفي القرى الكبيرة، هناك ثلاثة أنواع من الأكواخ التي تستخدم استخداماً عاماً، أولهم السولو الذي يخصص لكبار السن ثم التورك للرجال من سن الخمسة والعشرين حتى سن الخمسين وآخر ثالث يختص به الصبية. وفي القرى الفقيرة يُوجد كوخ واحد يتخذ كمسجد ومدرسة للنشئ من الطلبة المتجولين[2] مثل الـ «بتل ستودنتن» في ألمانيا – أي الطلبة المتسولون – كما يأوي إليه المسافرون وعابرو السبيل وتُؤدي فيه الصلوات اليومية.

وتلحق بالكوخ سقيفة يستظل بها الرجال ويقضون بعض أعمالهم مثل الغزل والنسيج وصناعة الحصُر وهي حرفهم التي يجيدونها بجانب الفلاحة.

ولكل رجل مسكن خاص لكنه لا يلجأ إليه إلا ليلاً، وليس من طبعهم أن يتناول الرجل طعامه منفرداً – لأنه أمر مستهجن– أما الصبيان من غير المتزوجين فلا يهجمون لمساكن ذويهم.

يلتزم الصبية من صغار السن بخدمة من يكبرونهم أثناء تناولهم للطعام. وإذا ما طلقت الزوجة لا تغادر بيت الزوجية بل يتعين على الزوج أن يجد لنفسه مسكناً بديلاً، وغالباً لا يستعصي عليه الأمر لأنه من المرجح أن يكون متزوجاً بغيرها، ومفهومهم لهذا السلوك هو أن الزوجة قد لا تجد من تلجأ إليه خصوصاً إذا كان مسكن ذويها بعيداً.

تختص الزوجة برعاية البيت ولا تغادره إلا لجلب الماء والحطب أو في موسم الزراعة والحصاد، كما تصنع المرأة الحصُر والمنسوجات العشبية التي تستخدم في سقف الأكواخ، وتقوم بطحن الغلال على الرحي وتعد الطعام، وتستخدم للحمل ما يسمى بـ«الدوقوديك»[3] – يسميه العرب «أم ضامن» – وهو عبارة عن عصاة توضع على الكتف يتدلى من جانبيها حبلان مصنوعان من الجلد وينتهيان بأنائين يستخدمان لحمل الماء والحطب ولحمل الرُضّع – أحياناً – وذلك باستخدام قصعة كبيرة لهذا الغرض، أما الأطفال الأكبر سناً فيحملون على الظهر بعد إحكامهم بفراء من الجلد. يستعيض الأستقور والتاما والمراريت عن الحبال الجلدية بأخرى مصنوعة من لحاء اللوبيا والكلكل، ويحمل الأهالي الحطب والقش على أيديهم

1-القدح.

2- يسمون «المهاجرين».

3-يعرف في السودان باسم «الجوز» وفي بعض المناطق يسمى«الكرتلي».

وظهورهم أو على الأكتاف لكنهم يستهجنون حمله على رؤوسهم.

رأينا في معرض وصفنا للمساكن أن لكبار السن مجتمعهم الخاص وكذلك الشبان، مجتمع الكبار يسمى «جَمْعَة» ويستأثرون بالكوخ الكبير الذي يُطلق عليه اسم «سولو» الذي يحوي فناءً كبيراً محاطاً بسياج، ويلحق بالفناء عدد من السقائف. ويبدأ تجمعهم في الصباح حيث يقتلون الوقت في غزل القطن وتبادل الحديث، ويؤدون صلواتهم جماعة ويتبادلون طعامهم جماعياً حتى ينفض سامرهم بدخول الليل.

يحمل المانجاك - أي الزعيم - درجة «الجرمة» ويمينه الكمكلك ويخضع لرقابته ويمارس وظيفته بالتضامن مع أحد المسئولين المرؤوسين للكمكلك أو العقيد ويُطلق عليه اسم «زرب ملك» أيضاً ، ويختص بتنسيق تأجير الحقول وهو أمر يكتنفه الكثير من الفساد والريبة وكثيراً ما يتعرض شاغله للاعتداء خصوصاً إذا ما ضُبط متجاوزاً للأعراف أو مسيئاً لاستخدام السلطة. ولا تُعتبر هذه الوظيفة جاذبة ولا مرضية للتطلعات لأن الأهالي يعتبرون شاغلها كمن يثري على حساب الغير، ولذا يُعد العبد الذي يعمل في خدمة الحكومة أرفع شأناً من المانجاك الحر الذي يضطر للإنحناء إقتضاءاً لراتبه.

يفصل المانجاك - عند غياب الكمكلك والعقيد - في بعض القضايا البسيطة ويوقع عقوبة الغرامة لكن سلطته محدودة ولا يرضى الأهالي بأحكامه إلا نادراً، وذلك باستئنافها لمحاكم أعلى.

يختص الجرمة بمسئولية الرقابة على الآداب ويتولى الإرشاد وتوجيه الأعمال العامة ويفصل في المخالفات التي لا تدخل ضمن صلاحيات الكمكلك ويحاكم أمامه المتهربون ومروجو الإشاعات وغيرهم فإذا عاد المذنب لنفس الفعل يوجه له إنذاراً شديد اللهجة، كما يطرد مرتكبو الأفعال الفاضحة من القرية، وتقتصر سلطاتهم -عند توقيع العقاب- على الغرامات التي تُقدر بكمية محددة من الغلة ولا يحق للمدان استئناف أحكامهم.

لجماعة الصبيان علاقة بالجرمة إذ يستجيبون لندائه لأداء الأعمال العامة ويستنفرهم للخدمة العسكرية عند الخطوب وما شابه ذلك من أعمال، وله سيطرة تامة على هذه الفئة دون أن يكون له حق توبيخهم كأفراد، بل يمكنه إلقاء اللوم على الجميع، ولا تقتصر سلطة الجرمة على الصبيان فقط بل تمتد لتشمل النساء أيضاً.

يطلق على الشاب الذي بلغ سن الخمسة وعشرين سنة -بلغة المابا- اسم كُرْتُو - أما من هم دون هذه السن وحتى سن الثامنة عشر فيطلق على الفرد منهم لفظ فرفروك وجمعهم فرافر. يعيش الفرافر في الخلوة إلا أنهم يعدون في زمرة الشبان، ولهؤلاء كوخ جماعي يسمى تورلك يلجأون إليه ويمارسون حرفهم فيه كما يفعل الكبار، ولهم شيخ يطلقون عليه لقب ملك وبلغة المابا ورناق[1] يختص بحفظ النظام بينهم ويتم عزل كل من لا ينصاع لنظم وقوانين الجماعة

1 -هذا الشيخ[illegible] متعارف عليها ويظهر اسمه في الأدب الشعبي المابا مثل: ورناقا يقول نموتو طير باكي الموت حقيقة والحياة باطل، أي أن شيخنا يهددنا بالموت مع أن الموت حقيقة والحياة باطلة.

أو يقصر في القيام بواجباته. لا يلتزم الصبيان بأداء الصلاة جماعة بل يقتصر هذا على من هم أكبر سناً.

تخضع الفتيات والشابات من النساء – حتى سن الثلاثين– لسلطة شيخ الصبيان[1] رغم أن لهن شيخة خاصة تسمى تنجاك بيد أنها تخضع له بدورها. للشيخ سيطرة على الشابات ممن يطلق عليهن لفظ الأراك أيضاً ويتولى رقابة علاقتهن مع الصبيان والحفاظ على أخلاقهن وسلوكهن عند ممارستهن للأعمال العامة.

يتولى الصبيان صيانة القصر الملكي في وارا ويغتنمون هذه العزلة للإتيان بالأفعال السيئة، كما ينطوي تجمعهم – في أعداد كبيرة – على مخاطر جمة لدرجة أن أحد أبناء أخوة السلطان تعرض للموت أثناء فضه لأحدى المشاجرات.

يشكل «التورتي» ومفردها ترماك الفئة العمرية الثالثة وهم مجموعة الصبية ممن لم يصلوا لسن السداسي – أي من بلغ طوله ستة أشبار– ودون من بلغوا مرحلة «الفرفروك» أي دون الثامنة عشر. ويعيش التورتي أو التُرتي» مع بعضهم البعض في الخلوة لتحصيل العلم ما لم يكونوا مطلوبين لأداء الخدمة العامة. وللكرتو والترتي نظامهم الخاص والتزاماتهم العامة ويُطلق على زعيمهم لفظ «ملك» أيضاً ولهم ارتباطاتهم الخدمية مع البنات اللآئي يماثلونهم سناً. أما النساء ما بين مرحلة السداسية والشباب فلهن «تانجاك» و«اراك» وتخضع كل فئة منهما لملك التورتي. ومن مسئولياتهن الأسياسية خدمة الخلوة ومعلميها وذلك بأداء الأعمال المنزلية والفلاحية. يلتزم كل صبي في الخلوة بجلب حطب الوقود يومياً ويستثني من هذا الإلتزام هؤلاء الذين يشرفون على أضرام النار، وتقتصر الدراسة في الخلاوي على القرآن الكريم فقط.

ويحتفل بحفظ الطالب لأجزاء معينة من القرآن[2]. وبعد أن يكمل حفظ المصحف ـ عن ظهر قلب ـ ويجتاز الفحص أمام الفقيه تعم الفرحة داره وتنحر الذبائح وتقام وليمة ثم يحمل الصبي على ظهر حصان ويطاف به على شوارع القرية إشهاراً لهذا الإنجاز العظيم، ويتلقى الصبي التهاني وتعرض أمامه سداسيات البنات لينتقي منهن زوجة المستقبل وذلك بأن يترجل من على ظهر الحصان ويضع يده على كتف من وقع عليها الاختيار مما يملأها إعزازاً وفخراً بما أسبغ عليها فارس الساحة من شرف لا يضاهيه شرف.

يحرص الأهالي على تلقي علوم الدين وهم متقدمون على شعوب برنو في هذا المجال، وتنتشر المدارس الابتدائية ـ أي الخلاوي ـ في كل قرية وهناك إلزامية في تلقي التعليم لا تقل عما هو متبع في بلادنا. أما المدارس الأعلى فيبلغ عددها حوالي الثلاثين موزعة بين المراكز والأقاليم، وتشكل الكتب المجلوبة من مصر أساسا للدراسات العليا، وعلمت من محدثي بأنهم يركزون

---

1 -تشتد سلطته لدرجة أنه يستخدم الكرباج في التوبيخ.

2- هي سور محددة وعند بلوغها وحفظها يدون التلميذ السورة في اللوح بعد أن يزخرفه بالألوان وتُسمى "الشرافة". ويحمل التلميذ اللوح ويعرضه على الكافة لتلقي الهبات تشجيعاً [illegible] ومن سور الشرافة البينة والتين وغيرهما.

في دراساتهم على الفقه الإسلامي كما يتلقون دروساً في اللغة العربية مثل الإملاء والنحو وما شابه ذلك من علوم.

تشتمل الخدمة الجماعية بناء وصيانة المنشآت العامة بالإضافة لبناء وصيانة الأكواخ المستخدمة استخداماً عاماً ويشترك في هذا العمل الجميع بما في ذلك النساء، أما الصبية والفتيات والبنات صغيرات السن فيقع على عاتقهم صيانة «التورك» فقط.

يتولى الجرمة بمعية الصبيان والفتيان مهمة المحافظة على المدارس، ويمتد هذا الإلتزام ليشمل مسكن مليكهم «الشيخ» والذي يشاركهم في صيانته الكبار والصغار. وعندما يكون الاستنفار المتعلق بصيانة أي مبنى صادر من الكمكلك أو المقيد يهرع الجميع استجابة للنداء، ومن ضمن المسئوليات العامة للجرمة إعداد بيادر درس الغلال والتي تنظم بمعرفة من يُعرف بالسون ملك».

تحرث الحقول جماعياً بما يعرف «بالنفير» بواسطة الصبيان تحت إشراف الجرمة ويشرف على حقول السلطان مسئول خاص يسمى كشنجاك يتولى مراقبة العمل ويجمع الحصاد ويمد المستنفرين بالطعام والمريسة التي تقوم بإعدادها نساء القرية خصيصاً لهذا الفرض.

تُعتبر الأراضي التي تروى بمياه الأنهار حكراً للسلطان، ويُسخَّر الأهالي لفلاحتها ويُطلق على هذا المهمة اسم «مك»، وتطلق كلمة «بك» على أعمال السخرة المتعلقة بزراعة القطن الذي يستولى الكماكل على ما ينتج منه ويستأثرون بأفضل الأراضي المنتجة له. والحكمة في هذا الامتياز هو إحتياجهم للقطن في صناعة بطانة الدروع لأتباعهم من الفرسان ولخيولهم أيضاً.

يلتزم كبار الرجال وصغارهم – من عُمّار القرى- بتمهيد طريق السلطان عند خروجه للغزوات العسكرية مثلاً ويطلق على هذا الالتزام اسم «منجاك فدا».

تقع مسئولية الاستنفار للخدمة العسكرية على الجرمة والشباب، ويتم حصر الرجال ممن يستطيعون حمل السلاح ويُجند نصفهم، وسلطة الإلحاق بالتجنيد أو الإعفاء منه هي من صميم اختصاص المنجاك ومسئوليته.

في موسم الزراعة – أي عند بداية الخريف- يتوجَّه الجميع رجالاً ونساءاً للحقول وتشارك المرأة زوجها في الأعمال الزراعية بالتناوب رغم أن لكل منهم حقله الخاص حيث يُراعى فصل الذمة المالية بين الزوجين في وداي.

وعند الحصاد يعطى الزوج زوجته مقداراً معلوماً من الغلة يبلغ حوالي الإثني عشر مكيال، وتقل الكمية إذا كان له عدة زوجات حتى ستة مكاييل، أما إذا لم يكن الإنتاج جيداً فعليه أن يسد النقص بالشراء من السوق.

فضلاً عن الغلال يلتزم الزوج بأن يكسو زوجته سنوياً وذلك بأن يشتري لها شالاً كبيراً – إزار – يلف حول الخصر[1] ووشاح يغطي الرأس والكتفين كما تُستخدم فراء الأغنام والماعز

1- ازار يسمى محلياً بالفرقاب.

أحياناً. تلتزم الزوجة الامتثال لزوجها وتبقى على طاعته وتقف على راحته، فإذا ما قصر في حقوقها لا تتردد في التظلم منه واللجوء لمنزل أهلها إذا استدعى الأمر. أما الضرات فغالباً ما يسود علاقتهن التوتر. يُعد الشجار - بين الرجال - أمراً مستجهنا لكن لو وقع يكون بسبب الإفراط في احتساء المريسة.

وبما أن العرف جري بينهم على إنجاز الأعمال بالجماعية والاستنفار، يأخذ الإحتفال بالاعياد نفس المظهر تقريباً بحيث تجتمع كل فئة عمرية مع بعضها البعض سواء للرقص أو الاحتفاء بالعيد مثلاً، ويقتصر دور النساء - في الأعياد بصفة خاصة - على الاعداد فقط.

وأهم الأعياد في وذّاي، عيد الفطر أي العيد الذي يعقب شهر الصيام، يليه العيد الكبير - عيد الأضحى- الذي يحل في اليوم العاشر من ذي الحجة عندما ينحر الحجاج أضاحيهم في جبل عرفات بمكة، ونمط الأحتفاء بهذين العيدين واحد، يليها الاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة.

وعند حلول العيد يقضي النرتي والفراقر ليلتهم في تلاوة القرآن، أما مجموعة الصبيان «الكرتو» فلهم إحتفالهم الخاص حيث تتولي النسوة اللآئي في أعمارهم مدهم بالطعام المكوّن من اللبن والكسرة، أما الفئات الأصغر سناً فيتناولون ما تبقى من أطعمة.

وللشباب إحتفالهم الخاص أيضاً ويجري في اليوم الثاني للإحتفال بالعيد، وتقوم البنات من صغيرات السن على خدمتهم.

تلتزم كل النساء بما تستوجبه هذه المناسبات من خدمات بصرف النظر عما إذا كانت زوجة أو ثيب وإلا تعرضت للعزل الاجتماعي. وجرت العادة بأن يخرج الأطفال -أولاد وبنات - للتسول[1] وذلك بطرق الأبواب واحد واحداً ولا يصدهم أحد بل يزودونهم بالطعام والحلوى.

وفي هذا اليوم يرتدي الجميع الملابس وبحلول العصر يقيم النرتي بمعية البنات حفلاً خارج القرية يتبادلون فيه الرقصات حتى غروب الشمس. وطريقة الرقص هي أن تنتظم البنات في وضع شبه دائري وهن يتغنين بأمجاد الأسلاف وعظمة أهلهن وبلدهن مع الإشادة بالنرتي، يصاحب ذلك الغناء تصفيق ايقاعي جميل، وفي هذه الأثناء يؤدي النرتي الرقصات أمامهن، ويتمثّل الرقص في التحرّك للأمام والخلف مع التلويح بالأسلحة البيضاء بهمة وحماس شديدين، وبمجرد الإقتراب من الفتيات يسارعن بالركوع ليشعروهم بالإنكسار والضعف، ويستمر الرقص على هذا المنوال لثلاثة أيام على التوالي.

يشارك الصبيان البنات اللآئي في أعمارهم الرقص أيضاً. وتتكون حلقة الرقص من دائرتين بحيث يحتل الرجال الدائرة الخارجية وتحتل البنات الداخلية، ويشارك في الحفل أثنان من الطبالين ويؤدي الرقص في شكل ثنائيات رجالاً ونساء على إيقاع الطبل الذي يقرع من الجانبين.

---

1 - هي في الحقيقة ليست تسولاً بل تهنئة بالعيد وفي المقابل يمدهم الأهالي بالنقود والحلوى لأن الناس في بلاد السودان يعتبرون العيد مناسبة لإسعاد الأطفال.

أما إحتفال رأس السنة والذي يسميه الكانوري «سرلبو» - أي البطن الممتلئ - يبدأ بإخماد النيران في كل المنازل وحتى الرماد يحمل للخارج، ومع بداية العام الجديد توقد نار جديدة في الكوخ المخصص لكبار السن ويأخذ كل رجل شعلة إلى داره وتختص النساء بإضرام تلك النار وذلك باستخدام عود مثقوب من الحطب مع وضع خرقة بجوار الثقب وتبدأ النسوة في الفرك على الثقب بعود يتخيل لمن يراه أنه لولبي الشكل لفرط سرعة الفرك وهكذا حتى تشتعل الخرقة.

وقبل بداية العام الجديد يخصص يوم للصوم والإغتسال، وفي أول أيام عيد رأس السنة الجديدة تقدم الأطباق المحملة بمختلف أنواع الطعام. وفي المساء يتبارى فرتي القرى المختلفة ويبارزن بعضهم البعض بالأعواد المشتعلة مبارزة استعراضية دون خوف على أنفسهم أو على ما يرتدونه من ملابس.

تسود البراءة العلاقة بين الجنسين ويلتقون كل مساء بساحة القرية للرقص، والتعلق ببنت معينة يتم بمعرفة أمها ومباركتها حيث يزور الشاب الأسرة ليلاً ويطرق الباب فتخرج له الأم، وبعد أن تستوثق من شخصيته تنادي بنتها ثم تخلي لهما المكان، أما إذا كان الشاب مرفوضاً من قبل الأسرة فتضطر الفتاة للهرب معه لأضرحة السلاطين في وارا. ويتكفل الحارس بتكملة مراسم الزواج ويردهما لقريتهما ويحوزتهما شهادة منه تفيد بأنه عقد قرانهما بطلب منهما. ولكن مثل هذه الزيجة ينظر لها بعين الاستهجان والزراية.

أما إذا كان الشاب يعشق فتاة من قرية أخرى فإن شبان هذه القرية يتعرضون له في محاولة منهم لمنع هذه العلاقة بالقوة إذا لزم الأمر. أما إذ تمكّن من مراوغتهم وظفر بقلبها فعليه أن يهدي خصومة عجلاً أصفر اللون أو أحمراً محجلاً على أربعاته باللون الأبيض.

يلتزم الزوج بنفقات الخطبة والزواج ويأتي بالذبائح التي يولم منها للحفل، وعليه أن يهدي عروسه عدداً من المواشي يتناسب ومقدرته المالية. كما عليه أن يكسو صهره عباءة و صهرته بقرة حلوب وأن يهدي أقاربها ممن يكبرون والديها بعض الهدايا الرمزية. ويقدم ذوو قربي الزوج بعض الحلي أيضاً.

وفي يوم الزفاف يقدم الزوج بعض الهدايا الأخرى تسمى «حق فراش العروس» وعادة ما تكون من الرقيق والخيول والأبقار بحسب درجة ثراء الزوج، وله الحق في استرداد هذه الهدايا إذا لم ترض الزوجة تطلعاته كأن تكون غير عذراء مثلاً.

فإذا كان العروسان من متوسطي الحال بحيث لا يستطيع الزوج توفير مسكناً مستقلاً. يبقى العروسان في دار إحدى الأسرتين لفترة مؤقتة ومع ذلك يبقى الاندماج في الأسرة الجديدة محدوداً. فعلى سبيل المثال فإن الزوج لا يتناول الطعام أمام صهريه ولعدة سنوات وكذلك الزوجة بالنسبة لوالدي الزوج أو إخوته الأكبر سناً. أما الزوجة فلا تكتفي بعدم مؤاكلته أو الأكل أمامه فقط بل تحرص على أن تحتفظ بمسافة منه -أثناء تناوله الطعام- حتى لا يسمع

صوت مضغها. ومن آداب الأكل عندهم، ألا يتناول الأطفال طعامهم مع الكبار حتى لا يخلوا بقواعد الأدب وحسن السلوك.

تخضع العلاقة بين الأفراد لضوابط صارمة حفاظاً على الاحترام، فإذا قابل أحدهما شخص من معارفه فإنه لا يكتفي بالتحية فقط بل يصافحه ويسأله عن أحواله وكيف أمسى، أما إذا قابل شخص لم يسبق له التعرُّف به فيكتفي برفع يده تحية له ثم يذهب كل منهما في حال سبيله. وإذا مر الرجل على جماعة من الجالسين فعليه أن يجلس لبرهة ليسألهم عن أحوالهم ثم يلقي عليهم التحية ويذهب لحال سبيله.

أما اذا إلتقى الرجل امرأة من معارفه فأنها تبقى على بعد حوالي عشرين خطوة منه، وتدير وجهها بالإتجاه المعاكس وهي منحية أو جاثية على ركبتيها حتى يمر الرجل من أمامها. ويتوجّب على المرأة ألا تتجاوز رجلاً جالساً إلا حبواً على ركبتيها، وهكذا يفعل الصغار عند تعاملهم مع الكبار أيضاً حيث لا يتجاوزون من يكبرونهم سناً إلا زحفاً على ركبهم، ولا ينهض الفرد منهم حتى يبتعد عمن يلقى عليه التحية تماماً. لا يلتزم الأطفال بتحية من هم أكبر منهم إلا إذا كان هؤلاء الكبار قادمين من سفر، وفي هذه الحالة ينحني الابن لأبيه وتجثو البنت على ركبتيها، ويكتفي الأب – رداً على هذه التحية- بوضع راحة يده اليمنى على الكتف الأسر للصغير دون أن ينبث ببنت شفة.

يحظى السلطان بتقدير شديد من المواطنين ويعاملونه كما لو كان نصف إله، ولعل الفهم يتناقض والثورات التي يحفل بها تاريخ ودّاي، بيد أن ما تتوجب ملاحظته هو أن تلك القبائل التي قادت هذه الثورات لم تبادر بالعداء بل كان الباعث لعصيانها – دائماً- هو رغبتها في الحفاظ على القواعد التي تحكم اعتلاء العرش وأولوية الحق في التتويج. ووفقاً لما أورده التونسي، فقد جرت العادة في ودّاي بعدم السماح للأفراد التسمي باسم السلطان، وإذا صادف أن تطابق اسم مواطن مع اسم السلطان [1] الجديد عليه أن يغير اسمه في الحال، وقد ظل هذا العرف حتى إلى ما قبل عهد خريفين، والذي في عهده فقط سمح لأفراد أسرته بحمل أسمه ومنذ ذلك العهد بدأت هذه العادة في التلاشي التدريجي حتى طواها النسيان، وعند وصولي لودّاي كان اسم السلطان علي و اسم والده محمد شريف متداولاً بين العامة.

لا يعرف مواطنو ودّاي من هو أعلى من سلطانهم إلا سلطان القسطنطينية، وفي عهود سابقة كان لهم نفس المفهوم إبان سيطرة سلطنة برنو البائدة إلا أن هذا المفهوم قد تبدل خصوصاً في عهد محمد شريف والشيخ عمر الذي استمد حكم بلاده من والده المغتصب للسلطة. ولعل هذا المفهوم هو الذي دفع مستشاري محمد شريف لنصحه بألا يهاجم تلك السلطة ذلك الهجوم الذي لم يحقق سوى نجاحاً محدوداً.

من أعرافهم المستقرة، إن الأسرة إذا رزقت بمولود جديد تُطلق ثلاث زغاريد إذا كان المولود ذكراًوزغرودتين إذا كانت بنتاً، ولا يفطم الجنين إلا بأكمال حولين، ولعل رواية صديقي

1- حتى عهد السلطان عروس لم يكن مسموحاً للأفراد بنطق اسم السلطان وإلا طالهم العقاب.

الفقيه وقوله بأنه يتذكر كيف كان يتغذى من ثدي أمه وهو في المهد ليس من باب المبالغة لأن الإنسان ذو الذاكرة المتقدة يمكن أن يتذكر مثل هذا الحدث وهو في مثل هذا السن، ولعل صديقي الفقيه يتمتع بذاكرة حديدية.

وفي اليوم السابع للولادة يحلق شعر رأس الطفل مع الحرص على تكرار الحلاقة بصفة دورية بحيث لا يستبقى من الشعر إلا خصلة صغيرة في مقدمة الرأس، أما البنت فيترك لشعرها العنان بعد السنتين الأول.

يُحمل الأطفال الصغار على الظهر- عكس برنو الذين يحملونهم على الأرداف-، ويطوق الصغير بفراء من الجلد، وبعد مرور شهرين تبدأ الأم في تدريب البنت على الجلوس منعاً للطول - كما يعتقدون - أما الولد فيبدأ تعويده الجلوس بعد مرور أربعة أشهر من واقعة الميلاد.

يُطوّق عنق الطفل بحزام جلد عريض يسمى (فرتك) لحفظ وضع الرأس، ويبدأ الأطفال في تعلم المشي عند بلوغهم الشهر الثامن.

وكما سبق وذكرنا يبدأ ختان الأطفال ما بين سن الثامنة والثانية عشر وقد تناولنا الطقوس التي تصاحب الختان بتفاصيلها، ونفس هذه الطقوس تُمارس عند ختان الإناث أيضاً. وعندما يبلغ الصغير سن الدراسة يخرج من رقابة والديه وتنتقل ولاية الإشراف عليه للفقيه[1] الذي يشرف على دراسته.

يتجوّل الأطفال من الجنسين حفاة عراة، ثم - في مرحلة سنية معينة - يرتدي الأولاد القمصان، ثم السراويل فيما بعد. ثم في سن متقدمة ينتعل الصبي صندلاً أو حذاءً من جلد الأغنام غالباً ما يكون أصفراً أو أحمر اللون من تلك الأنواع التي تصنع في باقرمة أو برنو وبذلك يكتمل كساء الصبي. أما البنات الصغيرات فينطلقن عاريات، وفي أحسن الأحوال يرتدين حزاماً جلدياً يُسمى (الرورو أو الرحط) وتتدلى منه سيور رفيعة كثيفة تُزيّن بالودع - أحياناً- لستر سوءتها، وبعد أن تتقدم البنت في السن تستتر بخرقة من القماش القطني طولها حوالي الباردة وبعرض كفة اليد تُوضع بين الفخذين وتُشد حول الوسط بأربطة رفيعة تتدلى في شكل الذيل وتسمي «الكنفوس».

تتزين البنت بالحلي كالأقراط والأسورة وعندما يبلغ طولها حوالي الخمسة أشبار يُثقب أنفها ويُزين الثقب بـ«الزمام» الذي يُعد من حليهن المفضلة، ثم تتمنطق بالمنطقة النسائية وهي من أهم زينات نساء وداي، ثم تصفف شعرها على النمط المتقدم ذكره.

لاحظت -عند معاودتي المرضى - توافد الأقارب والأصدقاء لرؤية المريض ولا يكتفون بالحضور فقط بل يتطوعون بالنصح، وإذا كان المريض يحتضر يجتمع الأقارب القريب منهم والبعيد انتظاراً لموته، وبعد وفاته يتعجلون دفنه حتى لا تبرد الجنازة كما يقولون، ويعتبرون التعجيل بالدفن أمراً مستحباً. ويختلف أسلوبهم في دفن الميت عن بقية الأقطار الإسلامية

1- يجمع الفقيه الطلبة ويهاجر بهم لمكان بعيد بغرض التعليم وإذا يطلق على الطلبة لفظ (المهاجرين).

قليلاً، حيث يوضع الميت في حفرة يبلغ عمقها فخذ الرجل إذا كان المتوفى ذكراً، وحتى الكتفين إذا كانت أنثى، وبعد الدفن تُسوَّر المقبرة بالأشواك والحجارة حفاظاً على الجثمان من نبش الحيوانات المفترسة. وعقب الدفن يجتمع الأهل ويقوم الفقهاء بتلاوة القرآن لمدة سبعة أيام متواصلة ويقدم لهم – في هذه الأثناء الطعام والمريسة .

بالنسبة لأموال الميت يرث الذكر حتى لو كان على علاقة بعيدة بالمتوفى ويفضل على الأنثى، وتنال البنت نصف ما يناله الولد وينال الأولاد حصص متساوية وهذه القواعد تعد تطبيقاً لتعاليم القرآن [1] وبالتالي لها قوة إلزامية على الكافة كما هو الحال في سائر البلدان. فإذا لم يكن في التركة ذكر فإن الإناث لا يرثن كل شيء بل يؤول جزء منها للسلطان. ومن القواعد المتبعة بأنه ليسَ للمحتضر الحق في إبرام العقود أو الوصية أو أن يتصرف في أملاكه أو يحرم وارث من حقه في الميراث [2].

لم يعد الرجال يرتدون الفراء بل أصبحوا يلبسون – بدلاً عنها – الثياب والسراويل والصنادل، وهناك أربعة أنواع من الثياب بحسب جودة الخامة «التكية» المصنوعة منها. وجميع الأقمشة المصنَّعة محلياً بيضاء اللون لأنهم لا يحبذون الألوان الداكنة، فضلاً عن أن حرفة الصبغ متدنية جداً في وداي.

وثياب الأهالي ليست واسعة كثياب برنو، إذ يرتدي الفرد منهم جلباباً واسع الأكمام فضفاض الجوانب، فتحة الرقبة دائرية الشكل خالية من الزينات. يرتدي الأثرياء الملابس المجلوبة من كتكو «دار مكاري» أما أكثرهم ثراءاً فيرتدون الأقمشة الأوروبية التي تستورد عبر طرابلس ومصر، ويرتدي الفرد منهم ثوبين أحدهما فوق الآخر، أما البرنو فيرتدون أربع أو خمس من القطع بعضها فوق بعض.

وفضلاً عن الملابس العادية يرتدي وجهاء الرجال القفطان الحريري أو القطني فوق الجلباب العادي، والبرنس المستورد من الشمال وعادة ما يكون أبيض اللون أو أسود أحياناً ويشيع استخدامه هنا خلافاً للبرنو، كما يُستخدم البرنس الأحمر عند القتال.

تستخدم التكاكي لحياكة السراويل وتتميَّز بالاتساع وتصل حتى كاحل الرجل، كما ينتعل الرجل الصندل ويُطلق على الأنواع المنقوشة منه اسم «نعال باقرمة». وفي موسم الأمطار ينتعلون نوعاً من الأحذية الخشبية – كما في برنو– ويُسمى «كركب»، وتنتشر كذلك الأحذية الملونة المصنوعة من جلود الأغنام ولكنها لا تنتعل إلا عند ركوب الخيل لأنها مصممة بطريقة تمكن الفارس من إنفاذ إصبعه الكبير في الركاب. يسير الرجال وهم حاسري الرؤوس حليقي شعر الرأس والذي يحلق بمعدل مرة كل أسبوع. ويرتدي العلماء والحجاج وكبار السن الطواقي القطنية البيضاء والتونسية الحمراء، أما الطرابيش فيقتصر استخدامها على الأجانب ومستخدمي الدولة الذين يخلعونها في حضرة السلطان. لا يستعمل الأهالي مناديل الجيب

1- تقضي الشريعة الإسلامية في الوراثة بأن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، كما يحجب الذكور الإناث.

2- هذه القواعد معروفة في الشريعة الإسلامية والقوانين الحديثة وهي القيود التي ترد على تصرفات المريض بمرض الموت.

وهي غير معروفة هنا. يحلق الرجال شواربهم ويطلقون لحاهم وهي خفيفة الشعر كما أورثتهم إياها الطبيعة.

يتزين الرجال بالخواتم الفضية ويضمون -على سواعدهم- الأطواق المصنوعة من العاج أو القرون أو الخزف أو الحجارة. والزينة الرئيسة للرجال هي ما تسمى بثمَرة الدوم وباللهجة المحلية «موكلا» أي تلك القروح التي على الأصداغ الناتجة عن تكرار الحجّامة. بالحجّامة الزجاجية وهي – لدى شعب ودّاي – زينة للفتى وشارة للشجاعة والحماسة وحب القتال.

يندر أن يسير الأهالي غير مسلحين ويُعتبر السلاح مكملاً للهندام وعادة ما يكون رمحاً طويلاً أو مجموعة من الرماح الصغيرة ومديتين إحداهما مشدودة للساعد. أما الوجهاء فيحملون السيوف والعصي الصغيرة المزوقة بالحديد التي تُعلّق بجانب السرج. إضافة للمدية التي تسمى «بلنجاك». ثم هناك حوالي العشرة أنواع من الرماح تختلف في الطول وتروس بقطعة من حديد ولكل منها اسم خاص[1].

يستخدم محاربو ودّاي درقة طويلة تغطي المحارب الرابض كلية وتأخذ شكل ظفر الإبهام، وتتكوّن من إطار خشبي مدرع بجلد الأبقار أو الجاموس أو الزراف، وفي مناطق الوثنيين يستخدم جلد الفيل أو الكركدن.

يرتدي الفارس اللبس المبطن تحت الثياب ويسمى «لبس»، ولبس الفرسان بطبيعته ثقيل الوزن وبالتالي لا تُكثف بطانته، وعادة يصنع من الأسلاك المعدنية ويكسى بالتكية أو القماش. وتغطي الرأس خوذة معدنية تتدلى منها سيور مبطنة لتشد إلى العنق. وتكسو الحصان سترة مبطنة تتدلى حتى كواحله ولا يظهر منه إلا الأنف والعينين وتبدو الأزرار النحاسية على الصدر كما لو كانت أدوات للتزيين وليست للحماية. وتثبت على مؤخرة السرج خوازيق معدنية مدببة لمنع الخصم من القفز على ظهر الفارس.

أما بالنسبة للنساء فبجانب النطاق – السابق ذكره – والذي يزين بالمرجان والزجاج والخرز في أربعين أو خمسين جدلة والذي يستخدم كلبادة سميكة بين الفخذين، يشيع استخدام الشال الذي يغطي الفخذين ومؤخرة الرأس. وهناك شال ثالث يسمى «فردة» -بالعربية – و باللغة المحلية فردة جنجرمنك، وتقل حجماً عن النوعين السابقين ويستر الفخذين والساقين حتى يجر في الأرض، ويزداد طول الذيل بحسب درجة الثراء حتى يبلغ الاثني عشر ذراعاً بدلاً عن طوله العادي الذي لا يتجاوز الثلاثة أذرع، ويدل طول الذيل على أن صاحبته من الطبقة العليا. ويُصنع هذا الشال من أجود أنواع التكاكي أو الأقمشة الحريرية الصافية أو نصف الحريرية. أما الفردة العادية فتصنع من التكاكي، ويُطلق على هذا النوع اسم فردة «أندركي». وفي دار زيود ودار الصعيد تسير نساء المابا وخلفهن صغار العبيد وهم يحملون الذيل المتدلي لفردة الأندركي. هناك نوع آخر من الفراد يسمى «فردة كرمناجاك» وهي قطعة واحدة من القماش تغطي الكتف مع إبقاء الكتف الأيمن مكشوفاً، ثم تمتد من الكتف الأيسر حتى المعصم.

1- للرماح أسماء تختلف بحسب الأحجام مثل الكوكاب والطيفا والشلاليد.

وتلك الفردة مخاطة ومطرزة بالحرير. وهناك كساء على الساعد الأيمن يتدلى حتى الركبة ويحاك من التكاكي الجيدة وعليه خطوط بيضاء وسوداء إلا أن هذا النوع من الكساء غير شائع الاستعمال.

ترتدي المترفات من النساء تحت الفردة السراويل الحريرية والتركيدي، وقد اقتضت دواعي التباهي والترف زيادة طول الشال الذي يوضع على الرأس والكتفين المسمى «ترك مشون» مثل ما أدخل على الفردة من زيادة، حيث زاد عن الطول الأصلي البالغ ثمانية أذرع وبعرض أربعة إلى ستة عشر ذراعاً. وتصنع من أجود أنواع التكاكي أو القطن الأوروبي أو الحرير ويلف به كل الجسم، إذ أن التقاليد تقتضي تغطية الرأس والوجه بجزء منه. أما النساء اللائي أدين فريضة الحج، فيضعن شالاً صغيراً على الرأس يماثل الشالات التي يرتديها العلماء والذي يُتخذ كعمامة أحياناً.

تتزين النساء بالقلائد والأسورة والخلاخيل وزينات الشعر، ويضعن على الأعناق تلك القلائد المسماة كرومانك، وهي عبارة عن خرز بيضاوي الشكل من السوميت -أي الكحيل- أو من قطع المرجان أو الذهب أو الفضة أو السكسك بأنواعه وأشكاله المختلفة. المرجان ذو الأحجام المختلفة يستورد من الخارج. لكن هناك أربعة أنواع مميزة تباع بالرطل. تنضد عقود المرجان وتحلى بالزيتون «أي الكواديم» والمنصوص وهو عبارة عن كرات كبيرة شفافة مختلفة الأحجام لونها أصفر أو أحمر. كما يستخدم العقيق للعقود الطويلة التي تتدلى من العنق. أما العقيق الأحمر المطعوم بالخرز فسعره غال جداً بحيث يتكلف عبداً سداسيا أحياناً.

من أدوات الزينة الشائعة في وداي، الأسورة المصنوعة من الفضة أو النحاس أو الصفر أو العاج أو الجرانيت، وتلبسها المرأة على الساعد - أعلى المعصم - وعادة ما تكون أربع أو خمس قطع. أما نساء العرب فيشيع وسطهن التزين بالعاج.

كما تستخدم النساء الخلاخيل وهي عبارة عن كرات كبيرة مجوفة مصنوعة من الفضة المحشوة بقطع معدنية صغيرة. والخلاخيل رفيعة السمك رغم كبر حجمها مما يقتضي المزيد من التكلفة، وتُحلى بحلقات من الفضة. أما الفقيرات من النساء فيزينها بحلقات من الصفر.

يصفف الشعر في شكل ضفائر صغيرة غير محددة العدد. وتسدل المرأة المتزوجة مجموعة من تلك الضفائر على جبينها، بالإضافة إلى ضفيرتين غليظتين تفترقان على جانبي الرأس. أما الضفائر التي في المؤخرة فتزين بحلي فضية مصاغة بشكل الهلال الذي يتدلى قرناه للأسفل -خلافاً لموضة نساء برنو- ويتم وصلهم بخيوط محلاة بالمرجان، وتمتد هذه الخيوط حتى الضفائر الأمامية في مقدمة الرأس، ثم ترد إلى الخلف مرة أخرى حتى أعلى الأذنين.

أما منتصف الرأس فيزين بعدد من الأهلة الفضية صغيرة الحجم مشدودة من القرنين بخيوط صغيرة محلاة بالمرجان وموصولة بالهلال الكبير وتتساقط تلك الخيوط على الجبين

وتتدلى إلى ما دون الأذنين وتزود - على الأطراف - بكرات صغيرة مجوفة من الذهب أو الفضة. وواضح أن هذا النوع من الزينات يغطي الرأس تماما إلا أن منطقة ما فوق الأذنين تُحلى بأهلة فضية أيضاً تتجه قرونها للأسفل. هناك حلق كبير محلى بقطع صغيرة من المرجان يُعلق على ثقبي الأذنين. ولا تكتمل زينة المرأة في ودّاي إلا بلبس «الزمام»[1] وهو أفضل الحلي لديهن ويصنع من المرجان ويوضع على ثقب في الأنف الأيمن.

أما نساء العرب فيستعملن الزمام المصنوع من الفضة على النمط المستخدم لدى نساء ودّاي وقد يأخذ شكلاً دائرياً أحياناً.

اللثة والشفتين تنقشان بشوك السنط حتى تسيل الدماء، ثم تشبع اللثة ببرادة الحديد حتى يصير لونها أسوداً مائلا للرمادي وكذلك الشفاه التي يستخدمون لها صفراء الثور بدلا عن برادة الحديد حتى يصبح لونها أزرقاً[2].

وبجانب الزينات تعتني النساء بنظافة الفم ونادرا ما ترى إمرأة دون أن تضع مسواكا على فمها، وهو فرع من أغصان شجرة «السواك» - أي الأراك - يمضغ من أحد طرفيه فيصبح الطرف الممضوغ كالفرشاة، وبمجرد أن تجلس المرأة تبدأ في سواك أسنانها. ولهذه الفروع خاصية نظافة الأسنان والحفاظ على طراوة الفم وطيب الأنفاس.

ما زالت النساء في تاما يلبسن الفراء الجلدية المزدانة من الشعر الملونة بالتراب الأسود. ويتزين بحلقات نحاسية أو برونزية على الأنف الأيمن كما تفعل نساء القمر والأسنقور، ويتخذن أساور وخلاخيل من نفس المعادن، ويصففن شعورهن على نفس النمط المستخدم في ودّاي إلا أنهن يستعن بالخرز الأبيض - كزينة للرأس - بدلا عن المرجان، مما يجعل منظر الرأس أبيضاً، كما يضعن خيطاً من الخرز الأبيض كزينة للأذنين بيد أنهن لا يعالجن اللثة والشفاه كما تفعل نساء ودّاي.

يتغذى شعب ودّاي بالدخن ومشتقاته زائداً الأنواع الأخرى من الذرة وتسمى «نقابيري» إضافة للقمح والأرز واللوبيا والسمسم. ويستخلصون الحبوب من بعض النباتات البرية مثل «الكريب» و«أبو أصابع» ، و«العدار» و «الحسكنيت» و«البرتميل» وتستخدم هذه الحبوب كغذاء للإنسان.

اللحوم متوفرة في البلاد ويستأثر الأثرياء بلحم الضأن والإبل وبخاصة كبده الذي يتناولونه نيئاً. أما لحم البقر فمتاح للعامة ويُعد الأفقر والأقل جودة.

يشتهر الجلابة وسكان فيري بحبهم لأكل اللحم، ويشتهر الكوكا والمساليت وغيرهم ممن يعيشون على ضفاف الأنهار بحب الأسماك مثل سكان بحر السلامات في الجنوب. أما سكان جنوب البطحة فمعروفون بإجادتهم لطبق «الانقانديري»، ورغم كونه وجبة غير مرفوضة إلا

1- حلقة ذهبية أو فضية في الأنف الأيمن للمرأة كنوع من الزينة.

2- تلك العادات كانت تمارس في السودان حتى وقت قريب وتسمى دق الشلوفة، أي الشفاه. ويصاحب العملية الغناء مثل: دقولا دقولا [illegible] شورة أي تم تكحيل شفاه بنت الرجل ذو [illegible].

أن تناوله أمر غير معتاد في ودّاي. وبالإضافة إلى ما تقدم يتناول الأهالي لحوم الأسود والتيتل والكثير من أنواع الحشرات.

يعتبر الكشامرة والكرنقا والمرفا والكجاكسة «أرتانه» طبقة واحدة، وينظر إليهم أهالي ودّاي نظرة فوقية. ويشتهرون بأكل الضفادع ولا يتأففون من أكل السحالي أيضاً. وإذا جئنا الذرة والدخن والغلال المستخلصة من النباتات البرية، تُعتبر اللوبيا من الأكلات المفضلة لدى الكوندونقو والكشامرة وسكان دار الصعيد. أما الكجنقا فضلاً عن اللوبيا يحبون السمسم أيضاً. ويُعد الكركدي طبقاً مفضلاً لدى الأسنقور والمراريت والمساليت.

بالنسبة للمابا، يُعتبر العيش هو طبقهم المفضل -بجانب الأطعمة الأخرى- ويعدونه بطريقة أفضل مما يفعل البرنو لأنهم يجيدون طحن الغلال وسحنها بالحجارة بدلاً عن سحقها بالهون كما يفعل البرنو، ويحسن الودّاي إعداد العجين ويصنعون منه أنواعاً مختلفة من الأطعمة كالـ «كودوقوديا» والريك والعصيدة وكلها أطباق مميزة تتدرج جودتها بحسب درجة اختمار الدقيق وعجنه ومرونته ومدة بقائه في النار.

تصنع العصيدة – لدى المابا والكشامرة – بضرب الطحين المخلوط بالماء على النار حتى يتصلب ثم يؤكل مخلوطاً باللبن كما هو الحال في برنو وغيرها. كما تؤكل العصيدة مع الإدام المطبوخ من بعض المواد الجافة أو المطحونة، ويأتدمون أحياناً بالسمك الطازج مخلوطاً بالخضروات وأحياناً بأنواع معينة من الثمار وبعض أوراق الأشجار والملوخية، ولديهم الكثير من الطبخات التي لها مذاق لذيذ كتلك التي تُصنع من الخيار وأوراق التمر هندي، ولكل إدام اسم معين. وقد تعرفت على ثمانية وعشرين نوعاً منها.

هنالك عدة استخدامات للذرة لدى القبائل المختلفة، منها ما يعد للسفر وهو غذاء حلو المذاق ثم الكيك المصنوع من الذرة أو الأرز أو الدخن وغيرهم، ويؤكل مخلوطاً بالعسل أو اللبن بعد أن يشبع بالتوابل. وأحياناً تجفف تلك المأكولات لوقت حاجتها.

تُصنع الخمور المحلية من الدخن والذرة وأحياناً من البلح والعسل وذلك بتخمر تلك المواد بعد إذابتها في الماء، وتُشرب تحت مسميات مختلفة مثل مريسة غبيشة ومريسة أم بلبل ومريسة كوردي ومريسة خال ومريسة جرنجا، وقد عرفت ثلاثة أنواع من تلك المصرح بها وهي لأنواع غير مسكرة وتصنع من الذرة والماء وتختلف عن بقية الخمور بقلة تخميرها وبالتالي تختلط حلاوة مذاقها بشيء من المرار.

وسبق لنا القول بأن شعب ودّاي أكثر الشعوب إدماناً للمشروبات الروحية بالرغم من الرقابة الصارمة المفروضة عليها، وتعاطي هذه المشروبات يُعد أمراً مستهجناً في أبشي. وسبق لنا الذكر بأن أهالي ودّاي الأصليين ليسو ودودين ويتميزون بالعنف والميل للشجار، وعند تعاطيهم للخمور تطفو وحشيتهم على السطح. وإبان تواجدي في أبشي لا يكاد يمضي أسبوع دون أن تقع مشاجرة عنيفة ناتجة عن تناول المواد المسكرة وغالباً ما يروح البعض ضحية لها سواء بالموت

أو بتلقي الإصابات البليغة.

ومما يتوقعه المرء في مثل هذا النظام الاجتماعي المعقد والذي يقوم على نظام الطبقات هو أن تزدهر التجارة والحرف، إلا أن الأمر ليس كذلك في وداي، لأن الأهالي أدنى تحضراً مقارنة ببلاد الهوسا والبرنو - مثلا - التي تنسج فيها أفضل الملابس القطنية المزينة والمنقوشة بإبداع وإجادة تامة.

كما يجيد الهوسا دباغة جلود الأغنام المختلفة الأشكال والتي تدخل في أدق الصناعات. وتتميز دارفور بصناعة الحصائر والسلال وترد هذه المنتجات حتى سوق كيكوة بغزارة.

أما شعوب وداي فليس لهم مهارات لإنتاج مثل هذه الصناعات وفي سبيل الحصول على حاجاتهم من تلك المنتجات يضطرون للجوء للقبائل الأخرى، فإذا أراد الفرد منهم تشييد كوخ أو غرفة - مثلاً - يلجأ لخبير من باقرما أو برنو، وللحصول على أفضل الملابس يلجأ للشراء من منتجات هوسا أو برنو. وإذا كانت الحاجة لملابس أوروبية فعليه اللجوء لخبير من باقرمة أو برنو.

أما المصنوعات التي ينتجها أهل وداي فهي غير متقنة دائماً وغير صالحة للاستخدام. فأحذيتهم غير جيدة الصنع وسروج الجياد غير مريحة وسلالهم ومنسوجاتهم القطنية رديئة الصنع. ولهذا السبب اضطر السلطان علي ليوطن حوالي الخمسة عشر ألف أسير من الباقرما بعد انتصاره عليهم ليستفيد شعبه من مهاراتهم، حيث يملك هؤلاء الوافدون الجدد براعة فائقة في أدائهم لتلك الحرف اليدوية.

ومن أهم المكاسب التي حققها السلطان علي هو تنشيط التجارة التي ما تزال مقاليدها في أيدي الأجانب الوافدين من الأقطار المجاورة، إذ تتلقى وداي وارداتها من ثلاثة طرق وهي جالو ودارفور وبرنو. والبضائع المجلوبة عن طريق دارفور عادة ما يكون منشأها مصر. أما البضائع المستوردة عن طريق جالو فيجلبها المجابرة[1]. يجلب بضائع دارفور الجلابة أي تجار النيل. وبجانبهم يأتي إلى وداي سنوياً حوالي المائة من المجابرة ممن يبلغ رؤوس أموالهم حوالي المائتين وخمسين دولاراً - ماري تريزا - وبينهم من يجلب من البضائع بما يوازي الألف أو الألفي دولار إلا أن هناك الكثيرين ممن يقل رأس مالهم عن المائة دولار.

كل المهيمنين على تجارة البلاد هم من الأجانب، منهم على سبيل المثال حاج سالم الذي سبق وتحدثت عنه. وموطنه القيروان في تونس.

وصلت الآن قافلة من طرابلس وهي الأولى منذ حضوري إلى هنا ويدل مظهرها على أن تجهيزها تكلف رأس مال كبير.

أهم البضائع التي تستجلب من مصر هي القطع القطنية «مقطع خام»، طولها حوالي الأربعة عشر متراً وعرضها حوالي المتر أو المترين ونصف المتر، وتستخدم بدلاً عن النقود والدولار. وتقل قيمة الدولار - ماري تريزا - في وداي عن قيمته في القاهرة بحيث يمكن ابتياع قطعتين

1- سكان واحة جالو.

من هذا القماش القطني في القاهرة بدولار، مُقابل ثلاثة دولارات لنفس الكمية في ودّاي. وبجانب القطع الأوروبية التي تستخدم في التبادل السلمي كبديل للدولار، تُوجد بعض القطع القطنية سيئة الصنع «تكية»، وتستخدم في التبادلات التجارية البسيطة بحيث تساوي عشرة أو ستة عشر مقطعاً قطعة من«الكاليكو»[1].

لا تُوجد في الأسواق أي عملة صغيرة وسيطة وبالتالي يلجأ الأهالي لسد النقص بورق الكتابة والخرز الزجاجي.

هناك فوارق حضارية بارزة تميز برنو عن ودّاي، مثلاً العملة الرئيسة المستخدمة في تقويم البضائع في أسواق برنو هي الدولار - ماري تريزا - مع بعض العملات المساعدة مثل الودع الذي له أهمية قصوى وبالأخص ذلك النوع صغير الحجم الذي يستخدم لسد فراغ العملات الصغيرة عند شراء البضائع الأرخص ثمنا أو بكميات أصغر.

بجانب المنسوجات التي اشرنا إليها تشتمل واردات القاهرة على الخرز الخزفي الأحمر الكبير «الخدور» وتستخدمه النساء كزينة حول الخصر تحت الثياب، فضلاً عن خرز العنبر ذي الأحجام الكبيرة مع شيء من الحرير والمخمل الخام والمشغول، وتُجلب هذه البضائع عبر دارفور، أما التجار القادمون عن طريق طرابلس فيجلبون البضائع الفاخرة لكن سوقها ما زال محدودا.

تصل مكوس القوافل القادمة من جالو إلى مقطعين من الخام أو مقطع تُرمبا عن كل حمولة، أما قوافل دارفور فيصل مكوسها إلى السبعة مقاطع ينال منها السلطان خمسة وتأخذ الملكة الأم مقطعين، والسبب في اختلاف التقدير يعود لصعوبة الطريق الصحراوي المؤدي لبنغازي الذي يستخدمه سكان جالو في ترحالهم، ولذا يعتمد الجلّابة القادمون من دارفور -عند عبورهم للحدود- جمع حمولة كل ثلاثة جمال في جمل واحد خفضاً للمكوس، وبجانب المكوس فهناك ضرائب أخرى تدفع لرؤساء التجار من الأجانب والخبراء المرافقين للقافلة ولحكام المديريات الحدودية. ويحصُل اثنان من مقاطع التُرمبا عن كل حملة حمار. أما واردات بلاد الهوسا التي تأتي عبر برنو فهي قليلة جداً وتتمثل في ثياب كانو المصبوغة بالنيلة « تركيدي»، وجلود الأغنام المدبوغة والمصنعة هناك إضافة لمصنوعاتهم من الأحذية الجلدية.

تتكون صادرات ودّاي من العبيد والعاج وريش النعام، ويقوم اقتصادها أساساً على تجارة الرقيق خاصة إذا وضعنا في الاعتبار الاستنفار المتكرر من قبل السلطان لقواده بغية الإغارة على مواطنهم وجلبهم بأعداد كبيرة. والمجابرة هم الوحيدون الذين اعتادوا السفر من هنا حتى طرابلس والقاهرة، وقد صدّروا - لوحدهم - حوالي الخمسة عشر ألف عبداً للشمال، لكنهم لا يميلون للمتاجرة بالريش ويتعاملون في القليل من العاج نسبة لصعوبة المواصلات، أما الطرابلسيون فلا يتعاملون في الرقيق ولا يرغبونه ولكنهم يجلبون أعداداً قليلة من الذكور والإناث كهدايا أو لاستخدامهم الخاص.

1 -يبدو أنه نوع من القماش المستورد.

يصدر العاج وريش النعام عبر دارفور لأنه الطريق الأسهل للشرق، كما تصدر عبر ذات الطرق مواد أخرى مثل التمر هندي واللبان وما شابههم، وكميات الريش التي تصدر سنوياً للشرق والشمال تبلغ حوالي الخمسة ألف كيلو، ويخرج من هذا التقدير ما يصدره السلطان لحسابه الخاص و يُعد من أكبر المصدرين لتلك السلعة. الريش متوفر هنا وبكميات كبيرة ويفوق كل إنتاج البلدان المجاورة رغم أن نوعيته تقل جودة عن غيره. وقبل عشرين عاماً كان الجلد يساوي دولاراً واحداً فقط أو أقل. ومتوسط الريش الذي يغله الجلد الواحد يبلغ حوالي ثلاثة أرطال من اللون الأسود ورطل من الأبيض، وبتعاقب الأيام وزيادة الطلب على الريش وكثرة استنزاف موارده تضاعف سعر الجلد لخمسين ضعفاً تقريباً

بدأ شريف سالم – من القيروان – في شراء العاج لأنه سيعود عن طريق دارفور ونسبة لأن إقامته ستطول هنا، تجنب شراء الريش خشية أن يتلف بسبب العثة، كما تجنب شراء العبيد لما يسببونه من متاعب. وامتدت إقامته في وداي لعامين علماً بأن رأس ماله لا يتجاوز الألف دولار ماري تريزا. تمكن حاج سالم من جمع ألف وسبعمائة وخمسين كيلو من العاج وما زال يحتاج لثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو أخرى. بقية التجار الذين يرغبون في شراء العاج يبيعون بضائعهم بالدين للمقتدرين من الأهالي الذين يسوقونها - بدورهم - في مناطق إنتاج العاج ببحر السلامات ورُنقا وكوتي. إبان تواجدي كان حمل العاج الذي يوازي المائة وخمسين دولار في مصر يمكن ابتياعه في كوتي بالخرز والقطع القطنية بما لا يتجاوز العشرة دولارات فقط.

ولوعورة الطريق الصحراوي المؤدي لبنغازي والذي يستغرق السفر فيه حوالي الخمسين يوماً ولقلة مصادر المياه فيه فإن القوافل لا تطرقه سوى مرة أو مرتين في العام بعكس الطريق بين دارفور ومصر الذي لا يعوقه عائق.

لا يتحرج السلطان – كما هو الحال في برنو – من الدخول في بعض الصفقات التجارية، حيث يقوم بإرسال قافلة إلى مصر بالطريق الصحراوي عبر كردفان أو جالو أربع مرات في العام، ويصدر عاج كوتي – المحتكر له – مع القليل من ريش النعام، وطريق تجارته مؤمن دائماً ولا تعوزه وسائل الترحيل لأن عرب المحاميد وخلافهم من رعاة الإبل يزودونه بكل ما يحتاجه من ركائب، هذا فضلاً عن أن بعض مرؤوسيه يرافقون تلك القوافل، وبما أن هؤلاء المسئولين هم أصحاب القرار بالتالي فإن تسيير قوافله لا يكلف إلا اليسير.

وداي لا تضاهي برنو ولا دارفور ثراءً إلا أن السلطان يعتمد – في إنفاقه الخاص– على تجارته التي تدر عليه حوالي الخمسين ألف دولار ماري تريزا كل ثلاث سنوات.

يتمركز النشاط التجاري في العاصمة أبشي ومدينة التجار – نمرو – أما بقية الأسواق فتقام في ثلاث أو أربع مناطق أخرى فقط.

سوق أبشي لا يضاهي رصيفه في كيكوة من حيث البضائع الواردة نظراً للتحديث الذي أدخله شيخ عمر على التعامل والمتمثل في إدخال الدولار (ماري تريزا) الذي أصبح العملة

المتداولة في كيكوة بجانب الودع. أما العملة المتداولة في أبشي فهي مقطع التُرمبا. ومع ذلك فإن هناك بعض السلع لا يمكن شراؤها بعملات معينة. فعلى سبيل المثال إذا احتاج المرء للسمن أو العسل - ومع وفرة هذه السلع في السوق- إلا أن البائع قد يرفض مقطع التُرمبا أو الدولار ويطلب بدلا عن ذلك الخرز كالكواديم أو الخدور أو خلافه من البدائل، مما يقتضي التخلص من العملة المرفوضة لدى تاجر آخر حتى يتمكن الراغب من الحصول على السلع التي يريدها وبالعملة التي يشترطها التاجر. يسهل الحصول على الدخن ومشتقاته والتكية والفردة ونص التكية مُقابل مقطع التُرمبا.

وأثناء وجودي بودّاي كانت الاثنا عشر تكية تكلف مقطعاً من التُرمبا، والثماني تكاكي تكلف دولاراً واحداً ، وأربعة أمداد من الدخن تكلف تكية - كما في برنو-، وتكفي الفردة لشراء كمية من العلف تقتات منه خيولي ليومين، وتكفي التكية لشراء أربع دجاجات، كما يكلف الكبش فردة واحدة.

أما القمح فهو سلعة نادرة في السوق ويعادل مكياله أربع تكاكي أو نصف دولار، ويجلب الأرز البري من دار زيود - التي مررت بها أثناء حضوري لأبشي - لكنه سلعة غير مرغوبة ولذلك يندر وجوده في السوق.

يذخر السوق بحطب الحريق بيد أن أدوات الطبخ وبقية الأواني المنزلية المصنوعة من نحاس القرع فنادرة جداً هنا. وإذا وجُدت فإن تكلفتها تفوق السعر الذي تباع به في برنو بكثير. وينطبق هذا القول على السفيدي - أي الحصائر المنسوجة من القش- والتي يسميها العرب شرقانية والتي تستخدم في زرب الحقول والسقائف وأسوار الدور والأكواخ.

تاريخ وداي

(نحن مشكاة الإسلام وهداته ونحن للإسلام الحجي واللبي ونحن لسنام الإسلام الكماة والحداة وأباة الضيم فيه). عبد الكريم بن جامع الجعلي..

بينما كانت دولة برنو تحت إمرة حكام مسلمين منذ عدة قرون وتنعم بالازدهار وتمدد سلطانها للكثير من البلدان المجاورة، كانت جاراتها الشرقيتين (دارفور ووداي) ترزحان تحت نير الوثنية، وكان التنجر هم السادة - رغم غموض تاريخ هجرتهم من الشرق - وقد عم نفوذهم هذه المناطق قبل قرون من دخول الإسلام، وسنتعرض لتاريخ هذه القبيلة عند تناولنا لتاريخ دارفور.

يتحدث التنجر اللغة العربية وهم ذوو سحنة فاتحة ويعتبرهم أهالي وداي وبرنو من العرب، وقد قُوض سلطانهم - في دارفور- قبل دخول الإسلام، أما في وداي فقد أجهز عبد الكريم - مؤسسها وحادي الإسلام فيها - على نفوذهم وسلطانهم.

قدم جامع أو والده برفقة عائلته من الشرق قبل سقوط التنجر بوقت طويل، وبالرغم من الاعتقاد الخاطئ لبعض العلماء في الربط بين عائلة عبد الكريم وقبيلة القمر إلا أن أصول هذه الأسرة ترجع للجعليين في شندي بينما تنتمي قبيلة القمر لأواسط أفريقيا. وجدهم هو صالح بن عبد الله بن عباس ولذا يسمون أنفسهم بالعباسيين ويتطابق هذا القول مع ما يقوله سكان شندي وأبو حراز «وعرفة؟» والمسلمية وسنار الذين ينتسبون للعباسيين. مكث هؤلاء المهاجرون - لبعض الوقت- في دارفور بالإقليم الجبلي الواقع شرق كوبي والمعروف باسم «وودا» ثم انتقلوا إلى جبل «برقو» في كيكابية قبل حلولهم بدار وداي.

وبرقو[1] ووداي اسمان يُطلقان بوجه عام للتعريف بسلطنة وداي. اسم وداي يُستخدم في برنو وباقرمة كما يستخدمه سائر العرب الموجودون هناك، بينما يقتصر استخدام اسم برقو على ألسنة أهالي دارفور.

كما يطلق القرعان لفظ «كدو» على هذه البلاد، وعموما فإن الاسم الشائع هو دار صليح أي المنحدرين من الجد العباسي صالح بن عبد الله ولسلاطين وداي كل الحق -ودون أدنى شك- في الانتساب للعباسيين والقول بأن اسم وداي مشتق من رجل اسمه وداعة هو مجرد خطأ شائع.

استقر جامع العباسي في دُبا على تخوم وارا - العاصمة القديمة - وتقع إلى الشمال الشرقي منها، وكان ابنه عبد الكريم[2] رجلا تقياً ورعاً استطاع أن يكوّن مجتمعاً إسلامياً صغيرا

1 - لاتوجد قبيلة بهذا الاسم و الصحيح هو القايا، وعندما فتح الجعليون هذه البلاد اتخذوا منهم زوجات لتقبلهم الإسلام طوعاً وهكذا أصبح جزءا من دستور البلاد، أن يكون السلطان من أم تنتمي لأحدى هذه القبائل.

2 - إن هجرة عبد الكريم من ديار الجعليين أمر معروف لدى المؤرخين السودانيين وقد ورد في كتاب الجعليين إن فرعاً من أحفاد مسمار بن سرار هاجر إلى ديار البرقو [راجع الجعليين لمحمد سعيد معروف ومحمود محمد علي نمر، كما ورد ذكر عبد الكريم في كتاب جغرافية وتاريخ السودان لنعوم شقير ص١١٩، وأشار له العلامة بروفسور يوسف فضل على هامش كتاب الطبقات ص٧٢ حيث عرفه بأنه رجل جعلي قام بالقضاء على الحكم الوثني التنجر.

ارتبط به - دعوياً- منذ أن كان في بديري -من أعمال باقرمة- وعند عودته صمم على إنفاذ مخطط لإزاحة الحكم الوثني، وجرت الأمور كالآتي: كان للملك داؤود - ملك التنجر - بنت تسمى «الميرم أيسة» التي تآمرت مع عبد الكريم لخلع والدها من على عرش البلاد. وعندما أدرك الملك أبعاد المؤامرة غضب على عبد الكريم وأمر بالقبض عليه. تمكن عبد الكريم من النجاة بفضل سرعة جواده. وبدافع من غريزة الحفاظ على النفس صمم عبد الكريم على تحقيق نواياه. زوج عبد الكريم بنات الأسرة لزعماء المحاميد والمهرية والنوايبة والمريقات وبني هلبة وبذلك ضمن ولاء القبائل العربية. ثم استمال القبائل السوداء بالبذل والوعود وشرع في التنفيذ.

وفي اليوم المحدد دعا عبد الكريم مؤيديه من العرب وأمرهم بالزحف على أن يجر كل منهم فرعاً من الشوك مشدوداً إلى ذنب جمله. فأبتلع داؤود الطعم وأعتقد أنه سيواجه جيشاً جرارا لا قبل له به فخاف وولى الأدبار وطورد حتى قتل.

تفرق التنجر بعد مقتل الملك داؤود وتوجه بعضهم إلى كانم طلبا لحماية أمير برنو، ولجأ آخرون إلى جبال أبي تلفان حيث يعيشون تحت إمرة سلطان منهم حتى الآن، وما زال مقر السلطان داؤود المسمى «كدماء» موجود في ديار الكشامرة جنوب غرب وارا على بعد مسيرة خمسة أيام تقريباً.

أما عن كيفية اختيار وارا[1] كعاصمة للسلطنة الوليدة فان عبد الكريم - بعد قضائه على التنجر- عسكر بقواته جوار غابة كثيفة صعبة الاختراق، وعلى غفلة منهم توغلت بعض عجولهم إلى داخلها ورتعت على أعشابها المخضرة ومياهها العذبة. وعند افتقادهم لتلك العجول اضطروا لاقتحام الغابة، وفي هذه الأثناء لاحظ عبد الكريم الخضرة التي تكسو المنطقة ووفرة المياه فاختار المكان كعاصمة للسلطنة، ومن وحي طبيعتها اسماها «وعرة»، وأسس بها مجتمعا إسلاميا وشيد مسجدا في «دبا»، وحكم البلاد لمدة عشرين عاماً في سلام، وقيل أن فترة حكمه امتدت من 1635 حتى 1655م وكان خلال هذه الفترة يدفع الضريبة لدارفور - كما كان يفعل التنجر من قبله - وتتمثل في إهداء أحدى الأميرات كل ثلاث سنوات وكان يفعل نفس الشيء مع سلطان برنو المجاورة اتقاءاً لتحالفهم مع التنجر.

أعتبره الدكتور العالم حسن مكي أحد الشخصيات السودانية البارزة التي وجدت قبولاً في الخارج وعده ضمن ثمان شخصيات بارزة أنظر مقالته في مجلة دراسات افريقية العدد السادس عشر يناير ١٩٩٧م ص١، ولم تقتصر أخبار مآثر عبد الكريم على المراجع السودانية فحسب بل ورد ذكره في كتاب العرب للعلامة المستشرق ل. أ. سيديو ترجمة عادل زعيتر حيث ذكر في صفحة ٤١٩ ما يلي: لم يبدأ نفوذ العرب في شمال أفريقيا وحدها، فما فتئت السواحل الشرقية تخضع لأمراء المسلمين، وأخذ الإسلام يوغل في القسم الشرقي منذ القرن الثامن عشر الميلادي، في هذا الزمن أنتحى بعض بني العباس صالح زعيما سياسيا ودينيا الوادي الذي دان أهله بالإسلام واستولى ساباون الذي يمارس سلطانه الآن على باقرما باسم محمد واقعا بحيرة تشاد، أما عن نسب السلطان عبد الكريم فقد ورد كتاب السور المحسين الشيخ البأس في اتصال نسب إبراهيم جعل لأصله العباسي لجامعه عبد الله محمد الطيب بأن عبد الكريم هو بن جامع بن محمد جودة الأحمر بن رمضان الملقب بصالح الأكبر بن دكن بن أحمد حلوس بن وهر بن دبر بن وداعة بن عاقر الملقب بشرفه الدين بن وهر بن ستادة بن سليمان بن مسمار بن سرار بن السلطان محمد حسن أردم ونسبه يتحد العمود إلى العباس)

1- تحريف لكلمة وعرة بسبب عجمة الأهالي.

خلف عبد الكريم ابنه عروس[1] وحكم بالعدل والقسط في جو يسوده السلام ولمدة تزيد عن فترة حكم والده أي من 1655 حتى 1678م، وفي عهده استطاع أن يقوي البلاد ووسع من «وارا» عاصمة بلاده بحيث أصبحت عاصمة حقيقية. وكان يحظى بحب وتقدير مواطنيه.

خلف عروس أبنه«خريف»[2] الذي قتل في 1681م – أي بعد ثلاث سنوات من اعتلائه للعرش – في حملة ضد «ملبس» سلطان تاما المقيم في «نايري» – والتي يطلق عليها الودّاي اسم «بانقا»–. وكانت قوات خريف قد دنت من دياره وعسكرت في «لاقونقا» فهرب ملبس في البداية ثم عاد مغرياً لخريف بالتوغل، وعندما سارت قوات خريف على بعد مسيرة يوم من نايري عسكر في أبي حديد. وفي هذه الأثناء حل فصل الخريف فطلب رجال ودّاي من قائدهم الانسحاب ليتمكنوا من إدراك موسم الزراعة وعندما لم يستجب لطلبهم فروا إلى ديارهم سراً ولم يتبق معه إلا القلة من أتباعه الخلّص. وعندما طارت الأخبار لملبس قاد هجوماً مضاداً وقضي على السلطان ومن تبقى معه من أتباع.

خلف خريف شقيقه الأصغر يعقوب عروس(1681 – 1707). أما مقتل خريف فقد ارتبط برواية شعبية متداولة تكشف عن الحس العدلي والديني لدى شعوب ودّاي. تقول الرواية «إن الأمطار كفت عن الهطول – عقب مقتل خريف – لسبعة أعوام متتالية كنوع من التأثيم والجزاء الإلهي لعدم إخلاص الرجال لمليكهم وقائدهم. وترتب على هذه الكارثة أن جف الزرع والضرع ونفقت السوام وأحاط البؤس والشقاء بالكل. اعتبر عروس أن هذه الكارثة ما هي إلا عقوبة من السماء جزاءً للخطأ الذي ارتكبه المواطنون في حق خريف وبالتالي أرسل أحد العيون سراً لمعرفة مكان قبر شقيقه في ديار تاما. نجح الرسول في مهمته بعد أن رشا أحدى العجائز من النساء بعقد من الخرز الأبيض، وهكذا عرف أن المقبرة على مجرى نهر تحت شجرة تسمى «سالوب». تحرك عروس بنفسه نحو ديار تاما ونصب خيمة بجوار قبر أخيه وأمر بنبشه وقيل أن الجثمان كان بكامل هيئته لم يتحلل. أمر عروس بحمل الجثمان على فرس مظللاً بمظلة كبيرة وأخذه في موكب مهيب لودّاي، وبمجرد أن وطأت أرجلهم تراب البلاد هبت الريح التي سكنت لسنوات خلت. وعندما ورى جثمانه بالوجه الذي يليق به هطل الغيث مدراراً. تلت هذه المعجزة معجزة أخرى، إذ كانت البلاد تفتقر للبذور اللازمة للزراعة، فأمر الله نملاً بجبال « كوناد»بالقرب من وارا – بالذهاب إلى تاما لجلب البذور فأتي النمل بالكثير منها مما لبي حاجة الناس».

ونتيجة للازدهار الذي عم البلاد، سادت الأهالي روح الاستقلال. وبينما كانت الاستعدادات جارية على قدم وساق لإرسال أميرة– كضريبة – لأحمد بكر سلطان دارفور بحسب ما جرى عليه العرف، هب رجل من العامة يدعى كردي وأعلن – على الملأ – عن معارضته لهذه الضريبة

1- تلويا تمشي المرأة في عرسها وكذلك الرجل. أنظر المعجم الوجيز.

2- غالباً ما يكون اللقب لأن أغلب ألقاب سلاطين ودّاي تشير للخريف، مثل الثيمان ودرت أبو كنجي أي طيور السمبر (اللقلق) وهي من شارات الخريف.

ويرر وجهة نظره بأنها مهينة لشعب ودّاي. سر عروس لوجود مثل هذا الرجل وسط مواطنيه كدليل على إقدامهم وشجاعتهم وسرعان ما أمر بإبقاء الأميرة وبعث بدلا عنها برسولين لسلطان دارفور يبلغانه رسالة منه مضمونها أنه سوف لن يرسل الأميرة و إذا رغب فيها عليه أن يحضر بنفسه لاستلامها. عاد الرسولان دون أن يمسهما مكروه بفضل حكمة أحمد بكر لكنهما لم يستلما رداً محدداً.

وبما أن أحمد بكر رجل مسالم فقد تحفظ – رغم الاستفزاز – من أن يتخذ أي إجراء ضد ودّاي. لم يكتف عروس بما فعل بل بادر بالتحرك نحو دارفور عن طريق. خير واجد» وقرلي» «وتوكات» «وشق» «وفريولي» حتى «شوتاك» وتعني «أحذر الدخول». عسكر عروس في رهد «برقنا» ثم من هذا المكان المتاخم لجبل مرة أغار من عدة محاور. وعندما علم سلطان دارفور –الصابر على الأذى– عن هذا الهجوم أرسل رسولا لعروس يستفسره عما يريد من بلاده، رد عروس بأنه ينوي الحج فأرسل له أحمد بكر أحدى بناته ليتخذها زوجة لطول الطريق المؤدي للحجاز وطلب منه أن يواصل رحلته. لم يستجب عروس للرجاء وظل مرابضاً في موقعه كما عامل الأميرة معاملة غير كريمة. بات لزاماً على أحمد بكر أن يتصرف ضد عروس، ونجح – فعلاً – في الهجوم عليه وحاصر معسكره. وبينما كان عروس يقف تحت شجرة – وسط المعسكر – وهو ممسك بأحد غصونها وجنده يحث على الصمود هجم جنود أحمد بكر على جنود ودّاي المحيطين بقائدهم إلى أن اخترق مقذوف –أطلقه أحد الأعراب – الفرع الذي كان يمسك به وهنا أعطى إشارة بالانسحاب. فانسحب رجاله[1].لم يطارده أحمد بكر بل أظهر رغبته في تحقيق السلام بلا ضرر ولا ضرار. حينها تم إبرام معاهدة بين البلدين احتفل بها على الحدود ووافق الطرفان – بموجبها – بألا يتعدى أحدهما حدود الآخر واعتبار من يتعدى حانثا لليمين.

وعندما آلت السلطة لعمر ليل – حفيد أحمد بكر – عاود مطالبة ودّاي بدفع هذه الضريبة لكنه لم يتلق أكثر من الرد الذي تلقاه جده أي أنه إذا رغب في هذه الضريبة عليه أن يحضر لتحصيلها بنفسه. استجاب عمر للتحدي وجرد جيشاً ضد ودّاي تحت قيادة اثنين من قواده هما «كونينا» وديمة أماء بيد أنهما وجدا قوات العدو مستعدة للعراك. كانت أحدى فرق ودّاي بقيادة كمكلك دودر، تعسكر على وادي دلال الذي ينحدر من الشرق ويكوّن بالإتحاد مع نهري مونجبوك ولبود نهر البطيحة الذي يصب في البطحة عند الملم مسيرة خمسة أيام جنوب غرب وارا. كما عسكر «كمكلك قرين» – في وادي لبود. واجه ديما أمة دودر وهزمه إلا أن قرين تمكن من إلحاق الهزيمة بكتينا. انضم كل من السلطانين – في هذه اللحظة الحاسمة – لجنده

1 – هي معركة كركابية وتعني الكلمة «وضعوا الدروع» أي أن ودّاي استسلموا ورموا الدروع. ذكر التونسي إن عروس عند خروجه مع الحملة خلف أحد أولاده وأخذ الآخر معه وبناء على وشاية فهم الابن الذي رافقه بأن والده ينوي إسناد الحكم لأخيه الآخر. فأخذ تصف العساكر وعاد للدفاع عن حقه في السلطة وترك والده في ضائقة. ومع ذلك حلف عروس ألا يرتد على عقبيه رغم تكاثر قوات الفور فأدار جنده وجهة دون أن يدري وأفهموه بأنهم يتجهون شرقاً وبعد الريبة أيام اكتشف إنه ينسحب من ميدان المعركة دون أن يدري. راجع رحلة إلى ودّاي المرجع السابق.

وسار عروس على طول النهر والتف حول خصومه وتمكن من مؤخرة جيش دارفور وبدلاً من أن يأخذهم على حين غرة، صرخ متحدياً قبل أن يبدأ الهجوم ثم خاض الجيشان معركة حامية الوطيس انجلت عن اندحار قوات دارفور التي تشتت شملها وولت الأدبار، ولما كان فرار الملوك يُعد أمراً مخزياً ويظل عاره عالقاً بالأذهان على مدى الأيام، ترجّل عمر ليل والتف حوله خدمه وأفراد عائلته حتى أفنوا جميعاً وأخذ أسيرا في أبو كندي – من أعمال مركز جمبو – حيث أمضى باقي حياته في تلاوة القرآن إلى أن قضى نحبه ودُفن هناك. حكم عروس لفترة طويلة إلا أن التاريخ لا يكشف عما اكتنف تلك الفترة من أحداث حيث لا تُعطى مثل هذه الأمور الاهتمام اللازم في مثل هذه البلدان.

حكم عروس الصغير بن يعقوب عروس وخليفته لمدة أربعين سنة (1707 -1740) وكان عهداً للسلام خالياً من الحروب وكرّس سنين حكمه في سبيل تحقيق الرفاهية لشعبه وإشاعة الطمأنينة العامة وتأمين البلاد.

خلف عروس الصغير ابنه جودة(1747-1795) وكان في نباهة وقوة جده عبد الكريم ولعل هذا يتضح من كثرة ما يحمله من ألقاب طغت حتى على اسمه الحقيقي، مثل خريف التيمان ومحمد الصليح ـ أي النقي ـ والصريف ـ أي السخي، ومن لقبه (الصليح) [1] أسبغ اسم دار صليح على ودّاي، ويُعتبر جودة – في نظر الكثيرين – بأنه المؤسس الثاني للسلطنة، وخلال فترة حكمه توفي عمر ليل الذي سبق وأسر أبان حكم يعقوب عروس، فاستيقظت الفتنة مع دارفور مجدداً لأن السلطان أبو القاسم شقيق عمر ليل وخليفته قرر الانتقام من ودّاي عقب تلقيه لنبأ وفاة أخيه مباشرة. جمع أبو القاسم جيشاً كبيراً وتوغل في أراضي ودّاي بحجة أنه يرغب في الصلاة على قبر شقيقه وكان بصحبته كنينا وديمة أماء، اللذان عسكرا في «ركنه» إحدى مقاطعات ودّاي بديار التنجر والتي تقع بالقرب من نهر ليود.

لم يتباطأ جودة وتحرك بجيشه شرقاً والتف حول أعدائه كما فعل عروس من قبل. وكان لأبي القاسم ناقة اعتاد على شرب لبنها يومياً. وفي أحد الأيام أحضرت له جاريته «أم دميرام» وعاء اللبن فلاحظ أنه أسود تغطيه طبقة من الغبار ولم تستطع الجارية تفسير ذلك. وفي الحال احتاط أبو القاسم للأمر وجهز قواته لملاقاة العدو، خصوصاً بعد أن أفاده الكشاف الذي على الشجرة بأنه يرى شيئاً يلمع مثل الماء ويعكس وهج الشمس فعرف أنها سيوف ودّاي، وذكر له الكشاف الآخر بأنه يرى أجسام تتحدر كالحجارة فعرف أبو القاسم أنها خيول جودة تغطي سروجها اللبابيد. ثم إضافة الكشاف بأنه يرى أشياءً تهتز مثل أعواد الذرة فصرخ أبو القاسم قائلاً: إنها رماح ودّاي، وأمر جنوده بالاستعداد للمعركة. وسرعان ما تقابل الجيشان وكان سعيد – عقيد الجمادين – بقواته على يسار جودة وعقيد الراشد عن يمينه. وعندما طلب السلطان من سعيد أن يتحرك إلى خطوط العدو الخلفية، رد بأنه لا يستطيع أن يناور متخفياً بالكيفية التي اقترحها السلطان بل أنه يفضل أن يقاتل أمامه، ولم ينتظر تعقيب سيده بل حمل

1- الواقع إن اسم صليح مشتق من اسم جده رمضان الملقب بصليح الأكبر.

على خصومه وقاد قتالاً شرساً ضد مقدمة جيش الفور حيث يقف أبو القاسم وفقد ثلث رجاله لكنه حقق نصراً مؤزراً وأسر أحد الرجال معتقداً أنه أبو القاسم لكن الأسير لم يكن - في واقع الأمر - سوى أمين البحر الكنيجاوي الذي حل لحظتها محل السلطان. أما أبو القاسم فقد أصيب في كتفه وولى هارباً لبلاده ولم يكتشف هذا الخطأ إلا مؤخراً.

أمر جودة بالغنائم فطرحت أمام الأسير ودعاه ليأخذ منها ما يشاء، وينطلق إلى بلاده، إلا أن أمين رفض هذا العرض الذي اعتبره مهيناً وشائناً. ظل أمر تبادل الشخصيات - في دارفور - سراً إلى وقت قريب ولكن محدثي الذي ينتمي لقبيلة كدوي العريقة كان مصدراً موثوقاً به وأكد لي بأنه اطلع على هذا السر في دارفور التي عاش فيها لاثنتي عشرة سنة.

قاد جودة خلال فترة حكمه ثمان حملات ضد الوثنيين «الجناخرة» في جنوب البلاد، كما أخضع الجزء الأكبر من كانم والتي كانت تحكم بواسطة «ميل» خليفة حاكم برنو. لم يكن جودة يقود العسكر بنفسه بل أسند الأمر لعقيد البحر «فرفة» الذي احتل «مندو» قلب سلطنة التنجر. حكم جودة لستة وأربعين سنة لكنه ضعف في أواخر سني حكمه بسبب كبر السن، وصار العقيد داؤود بركة هو الذي يصرِّف شئون الحكم. لهذا السبب رأى بعض القادة التخلص منه إلا أن الرأي العام كان مناهضاً لهذا التوجُّه. ظلّ جودة على عرش ودّاي حتى وافته المنية. وقبل أن تجاعيد وجهه - في أواخر أيامه - تهدلت وغطت عينيه مما يضطره لرفعها عند الرؤية، ومع هذا العمر والخلل الذي أصاب نظره روي أنه وثب مرة على ظهر فرسه عندما تلقى إنذاراً كاذباً بقرب اقتحام الأعداء للأبواب وظل متحفزاً حتى تبين له أن الأمر كان مجرد إشاعة لا أساس لها من الصحة.

خلف جودة أبنه صالح درت وبالرغم من أنه رجل حسن الطباع إلا أنه يفتقر للمؤهلات الحقيقية للحاكم مما أوقعه تحت سيطرة مستشاريه وعبيده كما سقط - فيما بعد - ضحية لخيانتهم. كان لصالح تسعة أبناء هم عبد الكريم الملقب بصابون والذي تنتمي أمة لقبيلة المنقا[1] ورضمة[2] ومحمد شريف وأسد وعبد الجليل وتيراب ومحمد وأحمد وعثمان. وكان يفضّل ابنه أسد على عبد الكريم رغم أن أم الأول أدنى أصلاً ومنبتاً، ويعود السبب لحدة عبد الكريم وروحه العدائية تجاه والده ومستشاريه. وبالرغم من إن لعبد الكريم الكثير من الأتباع إلا أنه ظلّ بعيداً عن البلاط ومناطق النفوذ.

استمر عهد صالح درت[3] لثمان سنوات. وفي أحدى المرات بينما كان في رحلة بعيدة بمعية القليلين من أتباعه ذاعَ خبر يفيد بموته[4]. ولم يعرف ما إذا كان الخبر مدسوساً من أحد كبار رجاله أو أنه مؤامرة من الهبابة أي الزوجة الكبيرة. تم تحضير القبر في «تمنق» ونظراً للكتمان

1- أسمها ساوية. أنظر رحلة إلى ودّاي للتونسي المرجع السابق، ص142.

2- الصحيح نهيض ويلقب بأبو نهيض رضمة.

3- الدرت لدى شعوب السودان هو موسم الحصاد.

4- حسب رواية التونسي إن الخبر صحيح ولم يكن افتاء. أنظر الرحلة إلى ودّاي المرجع السابق ص 145.

الذي يحاط به مرض السلطان أو موته في هذه البلاد، وللعزلة التي يفرضها السلطان على نفسه والتي لا يخترق أستارها إلا القلة من المقربين، فإن هذا اللغط والغموض ليس بأمر مستغرب وربما كانت الهبابة نفسها ضحية للمؤامرة والتدليس، ولأنها كانت تخشى أسد وأتباعه سارعت بإبلاغ عبد الكريم بخبر الوفاة وذلك بأن أرسلت له وعاء فارغاً كإشارة لخلو العرش.

تحرَّك عبد الكريم في الحين والساعة نحو وارا رغبة في الحصول على التأييد والنصرة. كما بعث الرسل لشتى البقاع طمعاً في تعزيز موقفه عن طريق ستة من العقداء والذين لم يترددوا في الوقوف بجانبه، ولم يكتفوا بذلك بل أزاحوا عن طريقه خطر قواد والده.

وبحلول الظلام اقتحم عبد الكريم القصر[1] وهكذا أصبح في موقف المناوئ لأبيه رغم ما يكنه له من تقدير واحترام. أما عن السلطان الذي قيل أنه قد توفى، عاد عند منتصف الليل وبمجرد علمه بالمؤامرة انسحب إلى ديلمك من أعمال كدوي. وفي اليوم الثالث أعلن عبد الكريم نفسه سلطاناً للبلاد وأعدم كل المناوئين.

ارتفعت الأصوات لتعلن بأن صالح درت ما زال حياً مع اتهام عبد الكريم بالتآمر ضده. أجاب عبد الكريم بأنه مستعد للتنازل عن العرش إذا ما قدم له الدليل على صحة هذا الادعاء. ثم بعث بالرُسل الذين لم يأتوا بما يجلي الغموض فآثر أن يذهب بنفسه للتحقق من شخصية والده الذي أتخذ قيادته لدى جيش كمكلك عبد الباقي المعسكر في "باتوما" بإقليم مادلا.

واجه صالح درت أبنه وهو على قيادة قوة صغيرة فتعرَّف الأخير عليه وهم بالانصياع والتخلي عن العرش إلا أن والدته استحلفته بألا يستسلم دون اتخاذ الإحتياطات الازمة اتقاءا لشر والده المعروف بالقسوة والصرامة. وبينما كانت الأفكار تتجاذب عبد الكريم بين الولاء لوالده وحبه لأمه من جهة وغريزة حب الحياة من جهة أخرى، كر أحد فرسانه على صالح درت وأرداه قتيلاً. أعدم عبد الكريم القاتل لكنه اضطر للنزال الذي تفجر عقب مقتل السلطان وأثخن خصومه ضرباً وتقتيلاً.

تمكَّن صابون[2] من إعتلاء العرش بيد أنه كان يتوجس خيفة من أخيه أسد أثير والده. أما بقية أخوته فقد كانوا أطفالاً آنذاك. لم يكن أسد موجوداً عند وقوع تلك الأحداث، وبمجرد علمه بها فر إلى دارفور طلباً لحماية السلطان محمد الفضل، وبعد عدة محاولات لإغتياله باءت كلها بالفشل، نجح صابون في استدراجه لودّاي للمطالبة بالعرش. وأقام أسد قيادته في «بيرطويل» شرق وارا وحوله حاشية من رجال التشريفات وكانوا في حقيقتهم من رجال صابون

1- كانت أبواب القصر مصفحة، فإنتدب صابون الفقيه موسى لتذليل هذه العقبة، فشج موسى رأسه وشق جلبابه وذهب للقصر مدعياً إن صابون هو الذي فعل به ذلك وبقي في القصر، وفي المساء وبمجرد حضور صابون ورجاله غافل موسى الحرس وأخذ المفتاح وفتح لهم الباب ومن لحظتها احتلوا القصر.

2- قيل أنه من أعظم سلاطين ودّاي وكان شجاعاً كريماً. قال عنه التونسي « كان من مكارم الأخلاق وعلو الهمة والتقوى والصلاح والجود بمكان عظيم. فكان من مكارم أخلاقه يضاهي المأمون بن الرشيد العباسي وكان في كرمه يفوق الرشيد والبرمكة بل لو سبق حاتماً اليوم لما ذكر حاتم على ألسنة العرب في الشعر والنثر أما شجاعته وبراعته فأشهر من أن تُعرف. أنظر رحلة إلى ودّاي المرجع السابق ص 33 ونصف بأن التونسي عاصره وعاصر السلطان محمد الفضل سلطان دارفور.

وفجأة أخذوه على حين غرة واقتادوه أسيراً إلى وارا حيث سُملت عيناه بتعليمات من أخيه.

في السنة الثانية لحكم صابون أنفذ حملته المشهورة لباقرمة ضد السلطان عبدالرحمن «قورانقا» تحت ستار ردعة عن سلوكياته[1] التي تتنافى مع قواعد الدين. نجحت الحملة وغزا باقرمة وقتل عبدالرحمن ونصّب - بدلاً عنه - ابنه «بركومانداء» الذي حكم لفترة طويلة حتى توفي في ودّاي إبان عهد محمد شريف، ومنذ ذلك التاريخ صارت باقرمة تدفع الجزية لودّاي.

أما شقيقه رضمة، فبمجرد أن شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجولة سقط هو الآخر ضحية لشكوكه لأن صابون كان على استعداد للتخلص من الأعداء أو من يتوسم فيهم ذلك. وعندما شاهد أخوه محمد شريف ما آل إليه رضمة من مصير فرّ لدافور رغم أنه كان طفلاً آنذاك.

بعد سنة من الاستقرار جرّد صابون حملة ضد تاما الذين صدوا –بنجاح تام –كل محاولات ودّاي لاخضاعهم. وكان سلطانهم «أبو دريك» يعيش في «نيري» على جبل يحمل نفس الاسم. أقام صابون قيادته في «برواتي» وظل يشحذ عزيمة قواده وهددهم بأنه سيطيح برؤوسهم إذا لم يتحلوا بالشجاعة والإقدام التي صنعت أمجاد ودّاي. ناشده قواده بالتريث حتى نهاية المعركة وبشروه بالنصر والفلاح. تبارى القواد في إظهار شجاعتهم وقوة شكيمتهم وبما يشبه المعجزة تمكنّوا من اقتحام حصون أبو دريك، الذي فر لديار الزغاوة شمال شرق البلاد. عاد صابون لوارا بعد أن دمر القرى واجتث الأشجار وسبى الفتيان. لكنه - أخيراً - أبقى على «أبو دريك» بعد أن التزم بدفع الجزية لودّاي.

نجح صابون على مدى السنوات التي تلت حرب تاما في اخماد تمرد كدوي والقمر، ثم وجه اهتمامه لربط بلاده بالبحر الأبيض الأمر الذي سنتعرض له في هذا الموضع.

حكم صابون لعشر سنوات فقط، وبالرغم من جبروته وميله لسفك الدماء، وهمته ونشاطه في سبيل الحفاظ على سلطانه إلا أنه كان واحداً من أكثر سلاطين ودّاي فطنة وذكاء، أما عن ظروف وفاته فيكتنفها الكثير من الغموض ويبدو أنه قد أصيب برمح في 1813 بينما كان يتنزه في منتجعه المفضل «دوتي» من أعمال «دوكري» على طريق نمرو، ويُقال أن قتله تم على أيدي بعض قطاع الطرق، وقد فاضت روحه بعد أن وصل القصر ولم يتم التعرف على القتلة. ترك صابون ستة أطفال هم محمد بساطي ويوسف وادريس وسيف النصر ودايوق وجعفر ابن أمينة التي تنتمي لقبيلة المادبا.

نُصّب محمد بساطي سلطاناً على ودّاي إلا أنه توفي بالجدري بعد شهرين فقط من إعتلائه العرش ويبدو أن قصر فترة حكمه هي السبب في اسقاط اسمه من قائمة سلاطين ودّاي مع إبراز اسم يوسف كما لو كان الخليفة المباشر لصابون. خلف محمد بساطي أخوه يوسف وكان طفلاً ولذلك تصدى أقاربه لشئون الحكم، وقاموا بسمل عيون كل متطلع ينتمي لأسرة صابون وفقاً للأعراف السائدة آنذاك.

1- قيل أنه تزوج من ابنته.

وعندما بلغ يوسف[1] مبلغ الرجولة سعى للتخلص من قبضة الأوصياء، وقاد حملة ضد تاما إبان حكم عبد الله الشريف إلا أنه لم يحقق شيئاً؛ وتعود الأسباب لأقاربه الذين كانوا يحرضون قواده للعمل ضده مما افقده مناصرتهم وتعضيدهم. وفي السنة العاشرة لحكمة أعادة الكرة مع تاما إلا أن الفشل كان حليفه للمرة الثانية وذلك بسبب مؤامرة استهدفت حياته تزعمتها أمه واقاربه الذين كانت لهم وصاية العرش. وتنحصر المؤامرة في أنهم أرسلوا له طعاما مسموماً في معسكره تمهيداً لتنصيب سيف النصر. اشتركت زوجات يوسف التسعون في هذا التآمر. لم يعجل يوسف بتناول الطعام بل اختبره على كلب سرعان ما مات فتأكد إنه مسموم وبالتالي لم يتردد في إرسال المتآمرين بمن فيهم إخوته وزوجاته التسعين للجلاد. كما قام بسمل أعين من تبقى من إخوته وأودعهم السجون ثم قفل راجعا لوارا بعد أن أشبع رغبته في التشفي والانتقام.

قاد يوسف – المشهور بخريفين – حملة ضد الوثنيين في «أبو تلفان» وأخرى ضد سلا إلا أن مصير هاتين الحملتين كان كمثيلاتهما حيث أخفق في أن يحقق نصراً حاسماً. وبعد عودته من حملته الأخيرة أقام في «تاراء على بعد ساعات من وارا. اتصف يوسف بحب الانتقام وسفك الدماء الأمر الذي نفّر قلوب المواطنين وحضهم على التخلي عنه. ولم يقتصر إذاه على الغير بل امتد ليشمل عظماء دولته حتى اقتصر بلاطه على العبيد فقط.

أصبح يوسف خطراً داهماً على الكل بسبب حماقته وشهوته للقتل وصار من المتعذر التنبؤ بضحاياه ومتى تدور عليهم الدوائر وكان القرب منه خطراً واي خطر. أما التصرف الحميد الوحيد الذي يمكن أن ينسب له – مؤخراً – هو فك أسار خالته «سمبل» وأمه أمينة اللائي كن رهن الاعتقال عقب المؤامرة التي استهدفت حياته. ولم يكتف باطلاق سراحهن بل رد إعتبارهن وأعاد ممتلكاتهن المصادرة.

ضاق الناس ذرعاًبوحشية يوسف مما حض أربعة من أركان حكمه للتآمر عليه لوضع نهاية لهذه المآسي وهم أمين شريف وأمين تيسة وعقيد يقردي وعوض أفيرفر. حيث قدموا له شرابا مسموماً وبقوا في الجوار إنتظاراً لما يحدث. تأكد يوسف من أن الشراب الذي تجرعه ممزوج بالسم فامتشق حسامه وكر على أقطاب التآمر لكنهم تمكنوا منه وقتلوه خنقاً.

أصبح الصبي راغب ابن خريفين هو المرشح لإرتقاء سدة الحكم، وقد كان، إذ تم تتويجه في العام 1829م بيد أنه لم يكن أفضل من والده بل سفك المزيد من الدماء خلال فترة حكمه القصيرة.

كانت والدته من أصل وضيع – أي مُستعبدة – وتغلغل نفوذ مستشاريها بحيث صاروا الحكام الفعليين للبلاد وانتهجوا سبيل البطش وسفك الدماء كوسيلة لإرساء دعائم الحكم. ولما كانت هي ومستشاريها من أصول عربية، كان المخطط يرمي للتخلص التدريجي من أحرار الرجال مع تمكين العرب والعبيد من السيطرة على مقاليد الأمور، وهكذا أصبح القتل والإعدام من

1- ملقب بخريفين.

الأحداث اليومية المعتادة. تيقظ المسئولون لهذا المخطط وحاولوا التحرك وكان أول الغيث محاولة كمكلك ترلولو يعقوب وهو رجل من الملنقا الذي خطط للإطاحة بحكومة الأوصياء في وارا بيد أن المحاولة أحبطت بتدخل من تنزيل أم السلطان وأعدم ترلولو.

عقب هذه المحاولة دعا عشرون من رجال الملنقا البارزين لاجتماع في وارا للتفاكر حول الخلاص من حكم راغب إلا أن أمر هذا الاجتماع قد أميط عنه اللثام وتم إعدام المتآمرين جميعاً. ولم يكتف رجال السلطان بذلك بل هاجموا قرى الملنقا مما إضطر أهليها للفرار والاحتماء بقبائل كدوي.

ترتب على هذه الاحداث أن اجتمع مجلس للقبيلتين - ملنقا وكدوي - اللتين تحظيان باحترام كبير في وداي وقرروا وضع حد لهذا الوضع المأساوي ورشحوا رجلاً ينتمي للأسرة المالكة يعيش مع قبائل كدوي يدعى عبدالعزيز بن ردمة وهو حفيد لصابون فاندفن ابن السلطان جودة.

كان عبدالعزيز يعيش في سلام بمعية أسرته ولم يشغل فؤاده بأمور الحكم والعرش. ابتعثت القبائل المجتمعة رجلين من الملنقا لعبد العزيز وهم آدم نون وعبد المحمود ووجدوه بمعية صديق له يعمل نساجاً. طلب الرجلان الاختلاء به إلا أنه تمنع في البداية بمقولة أنه لا يخفي شيئاً عن صديقه النساج. وبعد إلحاح شديد استجاب لرجائهم. أخبره الرجلان بأن راغب توفى وان العبد «دقري» يجلس على عرش وداي وقرر قتل أحرار الرجال وبدأ مشروعه بقبيلة الملنقا في وارا. ثم عززا قولهما بالحلف على المصحف لأنهما لاحظا أن عبدالعزيز ما زال متردداً في قبول روايتهما.

أخيراً قبل عبدالعزيز التكليف درءاً للأخطار التي تحيق بالبلاد ورجالها. وتوجه في الحال لـ«كنقون» - المركز الرئيسي لكدوي - وقضى على حاكمها وهو عبد، كما تم دحر التجريدة التي أرسلت من وارا للقضاء على التمرد في «تكلبي» بيد أنها عاودت الكر مما أجبر كدوي والملنقا على الفرار الأمر الذي استفز نساءهم اللائي أظهرن حماساً منقطع النظير. ترتب على هذه الأحداث اجتماع ليلي أمه فضلاً عن الكدوي، المادبا وأولاد جمعة والميما والمراريت والجانيانقا وبتانجينا، وتوجهوا - في الحال - نحو وارا. قابلتهم إحدى الكتائب على مشارف المدينة وبعد معركة حامية الوطيس إنجلى الموقف عن انتصار قوات القبائل على الجيش الحكومي. تابع الكدوي هجومهم مستخدمين الرماح والتحموا بأعدائهم في معركة استخدموا فيها السلاح الأبيض وهزموا كتيبة للجلابة كانت تتسلح بالأسلحة النارية وشتتوا شملها وفر من بقى منهم واحتموا بمسجد وارا لكنهم حوصروا وقتلوا. وقيل أن قطعاً خشبية نقشت عليها تعاويذ ألقيت على خيول الأعداء، كانت سبباً في دحرهم.

تعرضت وارا - مقر السلطان - للسلب والنهب ونودي بعبد العزيز سلطاناً للبلاد وصلى في المسجد وبشر بالسلام معلناً نهاية عهد العداء والضغائن ثم أمر بإحضار السلطان المخلوع - أي جرمة دقري - إلا أنه فوجئ بأن الماثل أمامه هو راغب بمعية اثنين من صغار العبيد. عرف

عبدالعزيز أنه قد دُس عليه فزرف الدمع على ما آل إليه راغب ولكنه لم يجد مفراً من قتله حفاظاً على السلام ودرءاً للفتن كما حكم على المبعوثين اللذين كذبا عليه بالعمل كجلادين.

أصبح عبدالعزيز سلطاناً للبلاد بيد أن الأمن لم يستتب طويلا بالرغم من حسن إدارته واحتكامه للشورى وإفشائه للعدل بين رعاياه، حيث ظهر له أعداء جدد بين أصدقاء الأمس من قبيلة «الملنقاء» الذين تآمروا عليه واستقدموا من ينازعه على العرش، لكنهم هزموا في «كدزاء» بواسطة كمكلك أبو أمه. ثم استقدم الكلنقن الأمير جعفر إلا أن عبدالعزيز تمكن من كسر شوكتهم وقتل جيفر، وأتى التتر والجانيانقا بتصرفات مماثلة ولجأوا لأسلوب الإغتيال إلا أن مخططاتهم قد أميط عنها اللثام وقبض عليهم وأعدموا في الحال، كما تمت ملاحقة بقية المتآمرين من قبل كملك أبو أمه وجرمة عبدالقادر ودمروا قرى التتر والجانيانقا وقتلوا كل من طالته أيديهم، والأسرى الذين أقتيدوا إلى وارا لم يكن مصيرهم أفضل من سابقيهم وهكذا أخمدت الفتنة بيد أن هذا لم يكن السهم الأخير في جعبة المتآمرين كما جرت العادة في وداي.

تلت ثورة التتر ومن شايعهم فتنة الكوندونقو والذين سعوا لتنصيب الأمير رشيد. باغتهم عبد العزيز في «بورتي» واستأصل شأفتهم مستخدماً التمويه كسلاح في المعركة. كانت هنالك مظلتان بصحبة الجند يحملها العبيد، إحداهما حمراء والأخرى زرقاء بيد أن السلطان لم يكن تحت أي منها. وجه الأعداء كل قوتهم صوب المظلتين مستهدفين السلطان وأهملوا بقية الجبهات حتى انهزموا وتشتت شملهم.

استنزف إخماد هذه الثورات الكثير من الجهد والوقت وأُغرقت البلاد في حمام من الدم، بيد أن السلام ما لبث أن عم حتى أبتليت البلاد بمجاعة حادة نصح - على أثرها - كبار القادة عبدالعزيز بالتوجه لبلاد الوثنيين في الجنوب لجلب الغلال، رفض عبدالعزيز الفكرة في البداية لكي لا يترك البلاد مكشوفة للأعداء إلا أنه رضخ أخيرا تحت إصرار مستشاريه. توجه الجند جنوباً وبقي السلطان مع قلة من المخلصين له غير إن مخاوفه سرعان ما تحققت حيث تواترت الأنباء بتقدم جيش دارفور ضد البلاد وتوغله داخل أراضيها وفي هذه الأثناء سقط عبدالعزيز ضحية للجدري وتوفي وكان ذلك في السنة السادسة لحكمه.

ترك عبدالعزيز تسعة من الأبناء، كلهم في سن الطفولة، وباسم أكبرهم آدم الذي كان في السابعة من عمره، سيطر خاله كمكلك أبو أمه على مقاليد الحكم وتولى أمر جمع القوات الصغيرة المتفرقة للتصدي للجيش الغازي تحت إمرة كمكلك أبو. امتثل أبو للأوامر - في البداية - إلا أنه وبدافع من كبريائه ومن حماسة رجاله المتحفذين للقتال خاض معركة غير متكافئة، وعندما رجحت كفة جند دارفور ونوى التراجع خاطبه ابن عمه يعقوب يانجنجيرة (أي صاحب المعركة) قائلاً: إن من العار أن نتراجع عن المعركة قبل ان نرى الأعداء. وبينما كان أبو متردداً قام يعقوب بقرع طبول الحرب وامتطى حصاناً جامحاً وكر على قوات دارفور معلنا بأنه يفضل الموت على هذا التراجع المخزي. استسلم أبو للأمر الواقع لأن جميع قواده

حذوا حذو يعقوب.

كانت قوات دارفور تعسكر بالقرب من قوات ودّاي وكان جيش دارفور كبيراً جداً مقارنة بجيش ودّاي الصغير ويفوقهم عدة وعتاداً. كر الفور على هذه القوة البائسة وحاصروها وحصدوا جندها ولم ينج من الألف فارس الذين كانوا تحت قيادة أبو الاخمسة فقط تمكنوا من الفرار وكان من بينهم أبو واثنين من القادة.

حاول يعقوب استبدال حصانه بآخر وفي هذه الأثناء بُقرت بطن الحصان فترّجل واندفع مقاتلاً متقدماً الصفوف حتى قُتل. وعرفت هذه الموقعة بأسم أهبس. وفي هذه الأثناء خرج أبو أمة على رأس فرقة صغيرة للقيام بمحاولة بائسة لصد الأعداء بمعية القادة الثلاثة الذين نجوا من المعركة السابقة لكن هيهات. لقد سبق للفقيد آدم أن تلقى تحذيراً من السلطان المتوفى عبد العزيز الذي تنبأ بهجوم الفور ونصحه بألا يهاجم أعدائه بقوات صغيرة بل يجب عليه أن يدنو منهم بخطوات القائد الماهر وأن يأخذهم على حين غرة. تجاهل أبو أمه هذه النصيحة وهاجم خصومه مباشرة في «أمرتاء لأنه كان يرى أن من العار أخذ خصومه وهم على غفلة من أمرهم وهكذا تضعضعت قواته ولم ينج منهم إلا القليل. تقدمت قوات دارفور إلى «باتماء تصطحب معها الأمير محمد شريف، وبالرغم من أن الفصل لم يكن ملائماً لتحريك هذه الحملة إلا أن المجاعة التي اجتاحت ودّاي في آخر سنة لحكم عبد العزيز دفعت القبائل التي تسكن شرق البلاد للإغارة على بعض مقاطعات دارفور مما أجبر محمد الفضل لمعاقبتهم بهذه الحملة.

استمع محمد الفضل لنصيحة من عبده سعيد برتو الذي قال له: سيدي إذا أردت أن تكسب الحرب ضد ودّاي لا تذهب بنفسك لأن تاريخ الحروب بين الدولتين يثبت بألاً أحد من سلاطين دارفور كسب معركة ضد ودّاي وهو في الميدان، ولذا أرميهم بقائد من رجالك. ويجب ألا تقتصر المهمة على مكافحة النهب فقط لأن هذا سيؤلب عليك قبائل هذه الأمة المقدامة بل عليك أن ترسل مع الجيش أميراً من ودّاي الذي سرعان ما يرتفع شأنه في هذه البلاد التي تمزقها الحروب الداخلية والمجاعات ونصبه سلطاناً عليهم واجعله تابعاً لدارفور.

استوعب محمد الفضل مغزى هذه النصيحة واستدعى محمد شريف من جمعان حيث كان يعمل كتاجر متواضع وسط عائلته التي تتكون من زوجته وأبنائه محمد أحمد وسليمان.

أبدى محمد شريف - في البداية - شيئاً من التمنع لأنه لم يكن يرغب في اقحام نفسه في صراع عرش ودّاي إلا أن السلطان محمد الفضل أرغمه على ذلك ورفعا لشانه أهداه زوجة من التصر.

وآن لنا الآن أن نتقصى حول شخصية محمد شريف وسنرى أن كان هو محمد شريف الحقيقي بن صالح درت الذي فر لدافور إبان عهد صابون بمعية عز الدين بن تامبي بن جودة عقب مقتل ردمة، أو هو شخص منتحل لشخصيته فقط؟ واذا صح بأنه شخص منتحل

للشخصية فمن هو إذن؟

الثابت إن محمد شريف خاف من المصير الأسود الذي لاقاه أخوته الصغار وأقاربه من الذكور وعاهد نفسه بألا يتطلع لعرش ودّاي الذي قام على الجماجم والدماء ومن حينه تم تبادل للأسماء بينه وأخيه عز الدين الذي ينتمي لأم أجنبية مما يحرمه من إعتلاء عرش ودّاي وفقا للقوانين المعمول بها.

تسمى محمد شريف الحقيقي باسم عز الدين بيد أنه عدل من اسمه - فيما بعد - بحيث رمز إلى شيء منه وذلك بعد عودته من الحج وأصبح اسمه الجديد شريف الحاج، ثم ذهب إلى ديار برنو واقترن بطليقة تيراب وهي والدة حاج بشير وزير شيخ عمر واحد النافذين في بلاطه واستقر في إحدى جزر أرخبيل كاركا باسمه الجديد أي شريف الحاج.

ومن حينها انتحل عز الدين اسم محمد شريف بن صالح درت ابن الهبابة المنتمية لقبيلة الكلقنا وعاش في جمعان - من أعمال دارفور - نائياً بنفسه عن الصراع السياسي هو أيضاً حتى نجح محمد الفضل في دفعه لإعتلاء عرش ودّاي.

والراجح أن الرواية أعلاه هي الأقرب للصواب لأن محدثي رجل موثوق به وملم بتاريخ بلاده مما جعلني مطمئناً لقبول روايته والتي أيدها عمه كمكلك ديدان[1] الذي يعلم تماما من هو محمد شريف الحقيقي ومن هو المنتحل لشخصيته، وبدهي إن محمد شريف يستطيع أن يخرس الهبابة «ور» وأخاه عبد الجليل دون أي مشقة خصوصاً إذا وضعنا في الإعتبار مدى تفاهة النفس البشرية في بلاط وارا.

الكثير من العامة لا يعرفون سر هذا التبديل إلا أن البعض يعرفه حتماً. أما عن الجيش الغازي والسلطان المرشح الذي سنطلق عليه مجازاً اسم محمد شريف بن صالح درت، فمجرد أن أدركوا «باتوما» التي تقع بالقرب من وارا، أعلن محمد شريف الأهالي باللجوء للقصر السلطاني حتى لا يمسهم الأذى، عند اجتياحه للمدينة. حاول السلطان آدم واقاربه الهرب إلا أن القوات الغازية افلحت في أسرهم، وبذلك تمكن محمد شريف من اغتصاب العرش، واسم شريف - هنا - لا علاقة له بشرف الانتساب للرسول بل هو مجرد اسم. حكم محمد شريف للفترة من 1835 - 1858م وتميزت فترة حكمه بالاعتدال -تلك الصفة المفتقدة لدى المتأخرين من سلاطين ودّاي- إذ لم تطبق إلا القليل من أحكام الإعدام.

عاد جيش دارفور لبلاده مصطحباً السلطان المخلوع آدم، استقر الحكم لمحمد شريف لعام كامل، وفي السنة الثانية لحكمه جرد حملة ضد المنطقة التي تقع شرق بحيرة تشاد بما في ذلك جزر «كاركا» أو «كارقا» حيث لجأ القادة الذين جردوا البلاد من جندها في أواخر أيام عبدالعزيز، وهاهم - الآن - يحاولون إخراج محمد شريف الحاج من عزلته وحثه للمطالبة بعرش ودّاي، بادر محمد شريف بالهجوم وأعدم من وقع في يده منهم وعاد إلى وارا غانماً للكثير من المواشي. كان محمد شريف حاكما عادلا واستمرت سنوات حكمه دون حروب أو

1-ابن تهيض الملقب بأبو تهيض رضيع حفيد السلطان جودة.

اضطرابات باستثناء تلك الغارات الموسمية المخصصة لجلب الرقيق.

وفي السنة العاشرة هاجم محمد شريف تاما بسبب أن سلطانها تعامل بشيء من العجرفة معه، علما بأنه ملتزم بدفع الجزية له. وعند اشتداد القتال تمكن محمد النور سلطان تاما من الفرار إلى دارفور ونصب محمد شريف اسماعيل شقيق محمد النور بدلاً عنه وترك خمسة من قواده لحماية اسماعيل. عاد محمد النور فجأة وتمكن من استرداد العرش بعد ان هزم قادة وداي وفر اسماعيل في الوقت المناسب. وجه محمد شريف حملتين ضد تاما إلا أن محمد النور بمجرد اقتراب قوات وداي فر مجددا. أخيرا التجأ محمد شريف لأسلوب القمع لوضع حد لتلك القلاقل وعاد إلى وداي بعد ان تلقى وعداً بالطاعة وبعد أن نصب أخا آخر لمحمد النور وهو إبراهيم بنْ إسماعيل. إلا أن محمد النور الذي يحسن الكر والفر لم تلن له قناة وعاود الهجوم ثم فر للمرة الثالثة بمفرده دون قادته، ثم عاد مرة أخرى اعتماداً على قوة شخصيته ونفوذه وجرت مبارزة بينه وأخيه إبراهيم أمام القصر انتهت بقتله وهكذا أسدل الستار على تلك الأحداث.

بعد أشهر قليلة من هذه الوقائع الدامية أرسل شريف حملة ضد برنو وتظاهر في البداية بأنه سيهاجم باقرمة أو كانم وعدل عن مساره عند شواطئ بحيرة تشاد إلى كُسرى[1] ثم أرسل رسولاً لشيخ عمر وعرض عليه التسليم مُقابل جُعل معين. لم يكن الشيخ عمر مستعدا للقتال لانشغاله بالحرب مع سلطان زندر[2] إلا أن كبرياءه منعه من الاستجابة لتهديدات محمد شريف وأرسل قوة لمواجهته. إلتحم الجيشان لدى ملتقى شاري ولاقون وبالتواطؤ مع مواطني كُسرى تمكن جيش محمد شريف من العبور للضفة الأخرى بيد أن العبور كان مكلفا جداً. ودارت معركة حامية الوطيس انتهت بهزيمة شيخ عمر الذي انسحب على أمل أن تلتحق به القوات الموجودة في جبهة زندر. غير أن محمد شريف نفسه مني بخسائر فادحة أيضاً، ولما كان عليه عبور النهر مرة أخرى انتظاراً لجيش عبدالرحمن أخ الشيخ عمر المعروف بكثرة جنده، فضل أن يدخل في مفاوضات مع خصومه مستخدماً أحد الأسرى من كبار قادة الشيخ وهو إبراهيم الوداوي صديق الشيخ محمد الأمين الكانمي وصفيه. انتهت المفاوضات بأن عرض شيخ عمر مبلغ 8.000 دولار ماري تريزا قبلها محمد شريف وعاد إلى وداي بعد أن فقد عشر قواته بسبب الحرب والمرض.

بعد هذه الحملة استكان محمد شريف لأربع سنوات، إلا أنه نفَّر قلوب مواطنيه بسبب جشعه، كما قام بنقل العاصمة من وارا إلى أبشي. ثم – في تاريخ لاحق – فقد محمد شريف بصره مما دفع بالكثيرين للتفكير في خلعه خصوصاً وأن هناك عدد لايستهان به ممن يتطلعون للعرش. ومما يجدر ذكره إن القانون لا يمنع السلطان الأعمى من الاستمرار في الحكم إلا أنه لا جوز ترشيحه إبتداءً، ولكن في مثل هذه الظروف يمكن ان يتخذ مثل هذا الأمر كذريعة للتمرد

1- الموقع الذي مات فيه السلطان رابح فضل الله والكونت لامي في أوائل القرن العشرين.

2- النيجر.

والعصيان. ومن هنا بدأت سنوات الشقاق وعدم الاستقرار وكانت ضربة البداية من كدوي بالتحالف مع المراريت وأولاد جمعة. بناء على شرارة انطلقات من شيخ الحيران،الذي كان صديقاً حميماً للسلطان لا تحجبه عنه السُتُر ولا الأبواب المغلقة متى ما شاء ذلك. ويروي أن السلطان خاطبه مرة بما معناه إن بابه متى ما أوصد في وجهه فإن هذا يعني أنه –أي السلطان – مات. في ذلك اليوم خرج شيخ الحيران من القصر وكتب إلى كدوي يفيدهم بأن السلطان توفي وان الجالس على العرش هو العجوز أبو الهبابة كدني.

سرعان ما انتشر الخبر واندلع العنف لأن هذا الوضع يخالف أعراف البلاد ودستورها إذ يفترض فيمن يجلس على العرش أن يحمل الدماء الملكية. زحف الكدوي نحو وارا فعلم محمد شريف بذلك وتلقاهم في «دريا» وقاتلهم وقتل محمد قدزان، المطالب بالعرش مع أربعة آلاف وستمائة ثلاثة وخمسون قتيلاً من أتباعه، وبلغت حصيلة الفريقين – من القتلى – سبعة آلاف.

اكتشفت كدوي الخدعة واعتذروا فعفا عنهم محمد شريف، ولعدم احساسهم بالأمان فروا إلى تاما. طلب محمد شريف من إبراهيم سلطان تاما أن يسلم الفارين لكنه امتنع. قدر اللاجئون بأن من الأفضل لهم الانضمام لجيش مغامر جديد يسمى«ماكن بدكوم» وهو حفيد للسلطان جودة لكن محمد شريف تمكن من دحر الجيش ففر إلى دارفور.

وبعد سنتين من تلك الأحداث شهد محمد شريف تمرد ابنه تنتلك محمد وبحسب قوانين البلاد فانه لا يجوز لهذا الابن الجلوس على عرش ودّاي لإنتماء أمه لقبيلة الفلاتة. إلا أنه بدافع من غريزة حب الحياة وما سيلاقيه من مصير من قبل إخوته المؤهلين للحكم إذا ما توفي والدهم قام محمد باحتلال القصر في وارا دون أي قتال لأن والده كان قد انتقل إلى أبشي، ويُقال إن محمد شريف كان ينوي خلع ولاية العهد له باعتباره الابن البكر والأثير لديه، لكنه اصطدم بمنع القوانين لذلك مع رفض الراي العام لهذا التصرف.

أخيرا وجد محمد شريف نفسه في مواجهة مع ابنه المتمرد، وقبل أن يتخذ أي إجراء مشدد ضده أنذره وطلب إليه أن يستسلم وأن يفتح صفحة جديدة في علاقته معه. بيد أن محمد لم يستجب لنصح والده وترك الأحداث تتلاحق حتى وصلت لمرحلة القتال، ولما كانت الكفتان غير متعادلتين إنهزم محمد. كرر السلطان وعده له بالعفو لكن محمد لم يكن يثق في وعوده خصوصاً وان مثل هذه الوعود لا تحظى بالاحترام الكافي في ودّاي ولذا فر إلى السلطان إبراهيم سلطان تاما.

طلب محمد شريف من إبراهيم تسليم ابنه المتمرد لكن إبرايهم رفض باعتبار ان محمد ضيفه وقد استجار به إراديا ودون دعوة منه وسيبقى ويغادر بالطريقة التي يراها، وهو من جانبه يعرف كيف يحمي بلاده. غضب محمد شريف وقرر أن يخرج لملاقاة ابنه بنفسه. فجرد حملة ضد تاما وتقدم نحوها بفرقتين من الشمال والشرق واقام في جبل «ابله» على بعد مسيرة

يوم ونصف اليوم من نيري. أرسل إبراهيم ابنه إسحق لملاقاة محمد شريف إلا أن اسحق اضطر للفرار تحت ضربات جيش ودّاي فالحقه بكمكلك دندور الذي انهزم أيضاً.

اضطر إبراهيم لتولي القيادة بنفسه وتمكن من إلحاق الهزيمة بجيش محمد شريف على تلك المضايق الجبلية الوعرة المؤدية لعاصمته. وفي اليوم التالي عاد السلطان الأعمى إلى ودّاي مجرجراً أذيال الهزيمة وهو موقن بأنه سوف لن ينعم بالسلام.

أرغم سلطان تاما الأمير المتمرد بالاستسلام لوالده وقبل محمد ذلك بناء على وعود صادرة من القصر لكنه قبل بلوغ ودّاي فرّ هذه المرة إلى دارفور. وفي دارفور وجد الظروف السياسية قد تبدلت لأن السلطان إبراهيم أرغم آدم بن السلطان عبدالعزيز الذي أخذ أسيراً إلى دارفور -عقب غزوة محمد شريف- على المطالبة بالعرش مع وعد بالمؤازرة من كدوي والمراريت وأولاد جمعه. استجاب آدم لهذا العرض وقرر دخول هذا المستنقع مرة أخرى، وبناء على ذلك رتب أموره لمغادرة الفاشر التي كان يقيم فيها تحت حماية السلطان حسين ووصل لديار تاما وأقام في «ناري» حيث تمكن من جمع قوة صغيرة حوله إلا أن كل تلك الوعود ضاعت هباءً، مرة بسبب قواته ومرات بسبب تردده حتى انسحب أخيراً إلى قرية صغيرة في تاما انتظاراً لفرصة أفضل.

وفي هذه الأثناء عاد تنتلاك محمد إلى ودّاي متظاهراً بانه يرغب في مناصرة أبيه ضد آدم وأقام في البداية في «تنقنق» ثم أقام مسكنا آخر في «كفناك» على بعد مسيرة نصف يوم وأصبح يستقبل المناصرين الجدد بمن فيهم بعض أخوته. انزعج محمد شريف من تحركات ابنه فقبض عليه هو وحراسه وأودعه سجن أبشي لكنه تمكن من الهرب بعد فترة قصيرة. انقضت سنة من القلق والتوتر توفي بعدها محمد شريف فجأة وانطوت صفحة من تاريخ سلاطين ودّاي.

بعد وفاة محمد شريف أصبح «علي» الوريث الشرعي للعرش بإعتباره الابن الأكبر للهبابة مدينة من الماتلمبا وكان يقيم - قبلها - في «توشي» على بعد مسيرة يومين من أبشي.

حاولت الهبابة كدني مع قلة من المؤيدين أن تنصب ابنها سليمان على العرش إلا أن كمكلك أسد بالتعاون مع عقيد المحاميد نجحوا في أن يضعوا أيديهم على شارة السلطة ثم حملوا جثمان السلطان المتوفي إلى وارا. عقب الدفن تطورت الأحداث بسرعة شديدة، وبينما كان الأمير علي معسكراً في دلال بجبل بلول ابلغه الرسل بتطورات الإحداث وسلمت له شارة السلطة.

فر تنتلاك محمد وأتباعه إلى دارفور عبر سلا، وأودعت الهبابة «كدني» السجن، و بحسب الاعراف البربرية السائدة هناك سُملت عينا ابنيها سليمان وسيف النصر ولم ينجو من هذا المصير إلا القلة من الأمراء المؤهلين لاعتلاء العرش.

أصبح علي سلطاناً على البلاد ورضخت قبائل الماba القائلة لهذا العهد الجديد لأنه لا يُوجد - في نظرهم - من هو أحق من السلطان الحالي. ولما كان السلطان الجديد رجل يحظى بالقبول العام فقد حكم البلاد بالحكمة والعدل من 1858م حتى تاريخ وصولي لودّاي.

رأى السلطان علي أن يدعم سلطانه بتشجيع التجارة وإحياء طرق القوافل التي تربط بلاده بالبحر الأبيض بدلاً من إغراق البلاد في القتال والحروب، ثم سعى لنشر التعليم وحماية المتعلمين وافشاء العدل بين الناس مع الاحتفاظ بأفضل العلاقات مع الأقطار المجاورة. وفي السنة الثالثة لحكمه حاول تنتلاك محمد أن يقوم بثورة جديدة حيث إلتجأ لدارفور تمهيداً لتحقيق هذا الغرض إلا أن هذه الفتنة أخمدت في مهدها بعد أن حقق السلطان نصراً على دعاتها مما دفع تنتلك محمد للفرار لدافور حيث اختفى نهائياً. أما مؤامرات الهبابة كدني الرامية لتنصيب ابنها أحمد فقد باءت بالفشل، وبقدر ما كان علي لينا معها وعاملها باحسان بقدر ما ارتد على عقبيه وقلب لها ظهر المجن بعد أن أماط اللثام عن تحركاتها الرامية لإشعال الفتن، وانتهى بها المطاف إلى القتل وأخمدت دسائسها إلى الأبد. أما ابنها أحمد فقد لجأ لكيكوة وذلك في عام 1868م حيث أجاره الشيخ عمر وقابل وفادته بالتعاطف والترحاب. أما آدم الذي كان مؤهلاً لإعلاء العرش أكثر من علي باعتباره ابناً لعبد العزيز، فقد أعلن على رؤوس الأشهاد بأنه سوف لن يتسبب في أي مشكلات لعلي. وهكذا استقر له الأمر بفضل ذكائه وقوته التي مكنته من إخراس جماعات الشقاق من قبيلة كدوي ذوي الهيبة والنفوذ وذلك عن طريق بذل العطايا والامتيازات الخاصة، مع نجاحه في استمالة آدم وتقريبه منه. وبحسب نزعة التعالي والغطرسة المتأصلة في شعوب وداي، لم يتبق لهم سوى القدح في سماحة السلطان علي بسبب تكريمه للأجانب إذ كانوا يعتبرون هذا السلوك خرقاً للأعراف الراسخة في البلاد.

درج «السلطان علي» على إختيار موظفيه دون التقيد بانتماءاتهم القبلية أو العائلية - خلافاً لما جرى عليه العمل - وكان يعطي المنصب لمن يستحقه متى ما أنس في المرشح الكفاءة بصرف النظر عن نشأته ومكانته ويستوي الأمر ما إذا كان المرشح من أحرار المابا أو من الأرقاء، وتميز عهده بقوة السلطان والتطبيق الصارم لمبادئ العدالة والسلوك القويم وبذلك ذاع صيته وشهد له الكل بالسمعة الحسنة وأحسن إدارة البلاد ونجح في إزاحة الاحساس بالسخط والتذمر من أذهان الناس.

الرحلة إلى دارفور

11 يناير - 8 مارس 1874

كنت آمل في الوصول لدارفور في ربيع 1873م لكنني لم اتمكن من ذلك إلا في بداية يناير 1874م تاريخ مغادرتي لودّاي.

في الحادي والعشرين من يناير 1874م استأذنت السلطان علي - الحامي المخلص - في مغادرة ودّاي، فشملني بعطفه وعطاياه السخية ومنحني الكثير من الهدايا، وبجانب الفرس الذي أرسله برفقتي كهدية للسلطان -إبراهيم سلطان دارفور- أهداني مهرا صغيرة يُسمى «كاديرا» وخمسة أوعية من جلد الزراف مليئة بالعسل ومثلها من السلال الأسطوانية المصنوعة من السعف - «شبكات» - المليئة بالتمر كما التزم بتزويدي بالجمال اللازمة للرحلة.

وزعت العسل على أصدقائي لأنني لا أملك وسيلة لنقله، كما احتفظت لنفسي بسلة واحدة من التمر واهديت الباقي. تأكد لي إن المهر يصلح لرحلتي لدارفور وبالتالي امتنعت عن شراء حمار. الحمير المخصصة للحمل رخيصة الثمن أما حمير الركوب - المجلوبة من مصر - فباهظة التكاليف وتسمى بـ«الريفاوي» ويكلف الحمار الواحد عشرين إلى ثلاثين دولاراً من نوع «ماري بريزا» بما يتجاوز امكانياتي بكثير. وهذا النوع من الحمير مرغوب في ودّاي وينتشر في كردفان ومصدره مصر لكنه نادرا جداً هنا، ولذلك يتجاوز سعره - أحيانا- ثمن الحصان الجيد، ويفوق الممتاز منها خيول وجمال ودّاي سرعة باستثناء جمال الطوارق والتبدا والبديات والجمل البشاري الذي يفوقهم جميعاً. رأيت حماراً عجوزاً أنقذ صاحبه - وهو تاجر من النيل - من بطش محمد شريف في أواخر عهده حيث هرب هذا الجلابي من العاصمة أبشي معتمدا على سرعة حماره غير العادية ووصل إلى «تنت» في دارفور صبيحة اليوم التالي، وعند اكتشاف هروبه كان قد قطع حوالي الأربعين ميلاً بالقياس الألماني أي ما يعادل الثمانين ميلاً إنجليزياً.

في هذه البلاد تعترض القوافل الكثير من الصعاب عند بدء الرحلة، إذ أن السفر قد يتأخر أياماً وأسابيع عن الموعد المقرر أصلاً وبأعذار مختلفة، وذلك كأن يفشل أحد الرجال في إعداد زاده، أو ان بعض الجمال لم يتم تجهيزها، أو إن السلطان لم يصدر أمر المغادرة حتى الآن أو إن هداياه لبعض أفراد القافلة لم تصل بعد، ولمثل هذه الاسباب كانت الرحلة تؤجل يوماً بعد يوم مما يدخل اليأس والقنوط في نفوس أفراد القافلة المتعجلين للسفر.

أخيرا بدأنا الرحلة في السابع عشر من يناير، صديقي المخلص الأمير الداجاوي الصغير والذي سبق أن تلقيت على يديه بعض الدروس، كان يرغب في أن وداعي وذلك بمرافقتي حتى حدود ودّاي، لكنه أتى إليّ وهو حزين، وقال لي بأسى أن زوجته خبأت كل أغراضه وملابسه لدى أصدقائه وأقاربه خشية أن يهجرها ويرافقني إلى هذا العالم الفسيح دون عودة، الأمر الذي أعاقه من مرافقتي لهذه الرحلة. لم يكن صديقي حاج أحمد تنقاتنقا - الذي كان ينوي زيارة اهله في دنقلا والحج إلى مكة - قلقاً لما قد يعترض هذه الرحلة من عوائق وبالتالي

فالأجدر بنا ألا نغفل نحن أيضاً، علماً بأنه خطط لها منذ وقت طويل، وكان أحمد تنقا - وتعني أحمد «الصغير» - رجلاً معروفاً بقوة شخصيته وحماسه وكان له القدح المعلى في تمكين القافلة من السفر بالرغم من أعبائه المتعددة بوصفه رئيساً لأحرار التجار في وداي، وبفضله تمكنّا من التحرُك في تمام الساعة الثانية ظهراً وفي ذات التاريخ المحدد.

وفي اليوم الأول لمثل هذه الرحلة يُهدر الكثير من الزمن لأن القافلة عادة ما تحط الرحال بعد مسيرة قصيرة وذلك تمكيناً لمن نسي شيئا مثلاً ليتدارك الأمر.

تخلّف حاج أحمد مع السلطان لعدة أيام على أمل أن يلحق بنا في الحدود ولكنه أرسل معنا عماله ويرفقتهم أعداداً كبيرة من الجمال.

جميع التجار إضافة لشمس الدين مبعوث السلطان إبراهيم ينتمون لمناطق كردفان والخرطوم ودنقلا وأغلبهم سبق وتعرفت بهم خلال الأشهر التي قضيتها في أبشي.

هنالك ثلاثة طرق تؤدي لدارفور، اثنان منها يطرقهما الحجاج أحدهما يأخذ إنحناءة نحو الشمال الشرقي عبر إقليم تاما و الآخر يقع إلى الشمال الشرقي عبر سلا أما الثالث فهو طريق القوافل المتجة نحو الشرق مباشرة حتى دارفور.

عند بدء الرحلة انقسمت القافلة إلى قسمين، حيث سلك الذين يصحبون عبيداً غير قانونيين طريقاً مهجوراً حتى الحدود. وكما سبق ورأينا كيف إن السلطان على جلب - عند غزوة باقرما - عدداً من الأسرى يتراوح عددهم ما بين اثني عشر إلى خمسة عشر ألف نسمة وهم خليط من الأحرار والأرقاء، وفي ظل هذه الظروف يبقى رق الكثير من الأسرى مشوب بالشك والإلتباس، وهناك الكثيرون ممن يستطيعون إثبات حريتهم كانوا يباعون، وأمثال هؤلاء بالإضافة إلى المسروقين من العبيد تنخفض أسعارهم، ويُطلق على هذا النوع لفظ «الحامي» أي الساخن، والراغب في اقتناء عبد يبادر بالاستفسار عما إذا كان الرقيق حامي أم بارد، علماً بأن أغلب الرقيق المجلوب في قافلتنا من النوع الحامي لذا كان عبور الحدود يقتضي الحيطة والتخفي.

بعد مسيرة بضع ساعات عسكرنا في وداي قرميل وهو مجرى مطري ضحل ضعيف التيار ويمكن استنتاج ذلك من الآبار العديدة المحفورة في مجراه والخالية من المياه.

في اليوم التالي التزمنا المسير شرق جبال كلنقن التي تشكّل سلسلة متناثرة تمتد غرباً وتنتهي بقمة عالية في ذات الاتجاه، وقبيل الظلام بقليل وصلنا قرية « مُرّة » بعد عبور وادي الشق ووادي عدي، وتقع القرية على واد يحمل نفس الاسم يسميه سكان وداي «منجبوك» ويُعد أحد المصادر الرئيسة للبطحة ويتكون مجراه من الرمال المختلطة بالحصى وهو عار من الخضرة والاشجار. وتُعد مُرّة أحدى مستعمرات الباقرمة التي أنشأها السلطان علي وتحتوي على حوالي المائة كوخ وتقابلها على الضفة الأخرى قرية «أويلميوه التي تحوي حوالي الأربعمائة كوخ، وتتميز بالنظافة وجودة بناء أكواخها، مما يدل على أزدهارها اقتصادياً، الأمر الذي

يؤكد بُعد نظر السلطان علي ويبرز افتتانه بالباقرمة الذين يفوقون شعب بلاده في كل الأنشطة الاقتصادية من زراعة وأعمال حرفية وما شابه ذلك.

تسود هذا المركز التربة الرملية والحجرية وتتخلله أشجار السنط الفقيرة والهجليج. الأرض منحدرة وتقتصر الخصوبة والكثافة الشجرية على مجاري الوديان فقط.

غادرنا مونجبوك في التاسع عشر من يناير ومررنا بقرية «أويلمبو». ثم عبرنا واديا بنفس الاسم وهو فرع لمونجبوك، وظل خط سيرنا يتجه شرقاً. ثم عبرنا واديا آخر يسمى «بوي» وهو من روافد مونجبوك أيضاً، وعلى شفيره تقع قرية «حسكنيت». خيمنا عصراً على المجرى الرملي لوادي «كدوني» الذي يسمى في وداي «وادي لبود» وهو أحد روافد البطحة.

لا يختلف الغطاء النباتي عما شاهدناه بالأمس حيث تتكاثر أشجار السنط القصيرة على تلك التربة الفاتحة التي تخالطها السمرة وتتخللها - أحيانا - الطبقات الصخرية والقليل من الجبال المتدرجة. تقتصر المحاصيل هنا على الدخن والقطن فقط. تُوجد شمال خط سيرنا مجموعة تلال قبيلة تاما. أما على الضفة الشمالية الغربية لوادي لبود فهناك قريتان باسم «ماتيونو» كما تُوجد قرية ثالثة على الضفة الجنوبية الغربية للوادي تحمل اسم «لين».

لم نتحرك في اليوم الثالث إلا في التاسعة والنصف صباحاً وذلك حتى ينال شمس الدين الرئيس - المناوب للقافلة - قسطاً من الراحة. ما زال حاج أحمد بمعية السلطان ولم يكن من المتصور أن يمنحه الإذن بالمغادرة سريعاً إلا بعد دراسة كل الاحتمالات خصوصاً إذا وضعنا في الاعتبار أنه أخلص مستشارية.

شتان ما بين شمس الدين وحاج أحمد، فالفرق شاسع حيث يبلغ طول الأول حوالي ستة أقدام وبنفس العرض تقريباً ولذا يتميز بالبدانة الشديدة وهو أمر معتاد وسط الجلابة، وكانت ترهقه الحركة لثقل بدنه. في المساء قد لجأ إلى خيمته مبكراً ولم يكن في الإمكان أيقاظه لتفكيك المعسكر. أما حاج أحمد فأقل من الطول المعتاد، نحيف الجسم صغير البنية يتمتع بحيوية وطاقة جبارة، لا يلجأ للفراش إلا في وقت متأخر من الليل، وقد اعتدنا الجلوس للمسامرة بعد العشاء حول نار المعسكر وهو يحدثنا عن مغامراته وتجاربه الثرة لوقت متأخر من الليل، ثم يعود ويوقظنا للسير قبل طلوع الفجر.

في اليم التالي الموافق العشرين من يناير بدأنا سيرنا ملتزمين اتجاه الشمال الشرقي على شمال قرية «لين» وواصلنا سيرنا ومررنا بقرية صغيرة تتكون من حوالي الثلاثين كوخاً، وعند منتصف النهار وصلنا قرية «عد القرعة» وهي قرية عامرة تحوي حوالي المائة وخمسين كوخاً. طوال اليوم السابق كانت جبال تاما تبدو على الأفق البعيد نحو الشمال الشرقي ثم على بعد مسيرة ما يقارب اليوم رأينا جبال توران. كان الطريق يرتفع ارتفاعاً تدريجيا وبصفة مستمرة كما كان الوضع بالأمس، إلا أن نسبة الارتفاع تقل عن اليوم السابق.

كانت التربة تتبدل ما بين رملية وصخرية مع تغيير طفيف في نوعية الأشجار والتي تتكون -

بصفة خاصة – من النبق والكايا والعرد والطلح والجفجغ والهجليج. بعد عبورنا لعدة قرى بلغنا قرية «تويمات» عصراً وتتكون القرية من حوالي الثمانين كوخاً ثم تجاوزنا قرية «مستخيدة» إلى الجنوب وعسكرنا مساءً جوار قرية «فضيل» وتقع على مجرى نهر صغير ملئ بأشجار الأراك يسميه أهالي ودّاي «رميل» لكن المسافرين يسمونه «وادي كنو» وهو نفس الاسم الذي يُطلق على القرية الواقعة على ضفته الشرقية.

في اليوم التالي الموافق الحادي والعشرين من يناير وبعد مسيرة أربع ساعات عبرنا قرية «شركنه» والتي تتميز بكثرة آبارها وكثافة أشجار الحراز التي تغطيها وتحوي حوالي المائتي كوخ. اتجهنا شرقاً حتى قرية «بير طويل» المعروفة وهي عاصمة الاقليم الشرقي الحدودي ومقر الحاكم الإقليمي المسمى بعقيد الصباح[1]. تتكون بير طويل من قريتين: أولاهما القرية الأصلية وأخرى أنشأها عقيد الصباح حديثاً كمقر له ولأسرته. الجبال التي إلى الشمال الشرقي أصبحت الآن على شمالنا، أما جبل «توران» الذي كان قريبا منا أصبح الآن إلى الشمال الغربي. هناك سلسلة من الجبال تمتد لحوالي مسيرة يومين تابعة لأقليم المساليت وتمتد على كل من اتجاه الجنوب والجنوب الغربي. لا زال الطريق يتصاعد تدريجياً مثل الأمس إلا أننا هبطنا الآن للوادي المتأخم لوادي دلال والذي يبلغ عرضه حوالي المائة خطوة، ضفافه منخفضة وله قاع رملي عميق. ولما كانت هذه القرية الحدودية هي القرية الرئيسة، فقد تبوأت مكانتها وسط هذا الاقليم الصحراوي الاجرد حتى دارفور وأصبحت قبلة للأهالي الذين يتبعون لعقيد الصباح. وجدنا بعض الجلّابة الذين تحركوا قبلنا معسكرين على الوادي بعد أن شيدوا أكواخاً والحقوا بها سقائف وهذا يرجع – بالطبع – لباعهم الطويل في السفر والترحال. وكان بمعيتهم رجال حاج أحمد وشمس الدين ولفيف من الجلّابة الآخرين. أما أنا فكان يرافقني بعض الحجاج الفقراء الآتين من أقصى الغرب ممن يُطلق عليهم اسم «التكارين» أي الآتين من بلاد التكرور في النيجر، وتاجر من طرابلس كانت وجهته دارفور بغرض تسويق بعض البضائع التي لم يتمكن من تصريفها في ودّاي، فضلاً عن أحد الرحالة المصريين الذي كان يتجول في أقطار العالم الإسلامي كحاج ودرويش تارة وكراوية تارة أخرى. سورنا معسكرنا بشوك الكتر المنتشر هنا. وآن لنا أن ننتظر مجئ حاج أحمد ومن تخلّف معه في أبشي ممن يأملون في أن يجود عليهم السلطان بالجمال. أما نحن فقد كان علينا الاستعداد لتكملة ما تبقى من الرحلة.

سيحل عيد الأضحى بعد عشرة أيام ويبدو إن تحركنا سيتأخر حتى ذلك الموعد. تعد بير طويل أحد الأسواق المركزية القليلة في ودّاي بجانب أبشي ونمرو مدينة الجلّابة. السوق الذي أقيم يوم الجمعة جاء مخيباً للآمال وخالياً من السلع فيما عدا الدخن. والتجارة هنا في ايدي النساء كما هو الوضع في أبشي، وكُن يعرضن بجانب الدخن والدقيق وكسرة الدخن التي يستخدمها المسافرون كطعام مفضل وذلك بأن يضاف لها الماء فتصبح وجبة جاهزة. إضافة لذلك كان هناك القليل من الدجاج والأغنام والخراف وهي سلع نادرة هنا شأنها شأن الألبان

1- أي الشرق.

بالرغم من وجود بعض قرى عرب المحاميد في الجوار. استبدلت النساء سلعهن القليلة بمقاطع «الجاكا» وهي من المنسوجات المعروفة في بير طويل، ويبلغ عرضها حوالي الأربعين أو الخمسين سم وهذا النوع معروف بعدم متانة صنعه أما «التكية ديوبة» فهي الأجود والأكثر استخداماً في أبشي ونمرو بيد أنها لا تجد رواجاً في بير طويل.

يُوجد الكثير من أنواع الخرز الذي يستخدم في التبادل السلعي مثل الخرز الأبيض الذي يسمى - في أبشي - «سيني» وخمسة أرطال منه تكفي لشراء مقطع ترمبا أو قطعة من القماش القطني. كما يوجد خرز أحمر اللون يطلق عليه اسم «مرجان تودو» ثلاثة أرطال منه تساوي في أبشي مقطع تُرمبا. هناك خرز آخر أحمر اللون خزفي كبير الحجم مخطط بالأسود والأبيض يُطلق عليه «الخدور» وتستخدمه النساء في ودّاي كزينة للرأس. كما يُوجد نوع ثالث من الخرز الزجاجي الأخضر «يسمى شفيف» ويستخدم لنفس الغرض. هناك نوع آخر من الخرز الخزفي مخطط بالأبيض والأسود كتقليد للمرجان يُطلق عليه اسم مرجان كريب». وبجانب الخرز يُوجد القرنفل والقليل من الصندل والصفر. وكل هذه المواد تُستخدم في التبادل السلعي لكن في نطاق ضيق.

كنا في حاجة لعدة أيام لتجميع احتياجاتنا حيث يحتاج المرء ليوم كامل وشيء من المكر والمقدرة على المساومة. ومع ذلك يصعب جر صاحبة السلعة للدخول في معاملة يبلغ حجمها دولاراً مثلا وذلك لأن النساء التاجرات لا يتعاملن إلا في حدود حفنات يعرضنها في أطباق مصنوعة من السعف وحتى هذه الكمية البسيطة تحتاج لمساومة كما لو كان المرء يشتري مكيالاً.

يسكن بير طويل الأسنقور وبعض قبائل البرنو الذين جلبهم محمد شريف إبان إغارته على ديارهم.

نحن الآن في المقر الدائم لعقيد الصباح والمئات من فرسانه الذين يشكلون حرساً للحدود. التردد الدائم للعابرين من تجار النيل جعل من بير طويل منطقة مشهورة بصنع المريسة. إذ تقدم النساء جراراً مملؤة من هذا المشروب المحرّم في السوق دون خوف أو وجل. بعد إقامة قصيرة في بير طويل التحق بنا بعض أعضاء القافلة الذين انعطفوا جنوباً بسبب عدم مشروعية رقيقهم. ثم بعد ثلاثة أيام أخر وصل حاج أحمد. نحن الآن في أكثر أيام السنة برودة وظلت الرياح الشرقية تهب بانتظام. تنزل درجة الحرارة - في الصباح - حتى ستة أو سبعة درجات «سنتقريد». وبالتالي فإن الأغطية الهزيلة التي بحوزتنا لم تكن توفر لنا الدفء ليلاً وهكذا لم نكن ننعم بنوم مريح إلا في منتصف النهار حيث يصبح الطقس معتدلاً.

درجنا على تناول وجبتنا الرئيسة في حوالي الثامنة مساءً في جماعة كبيرة خارج أسوار الزريبة وهي فرصة للتلاقي مع بقية أفراد القافلة. يتكون الطعام من العصيدة الصلبة كالتي تصنع في طرابلس وخط الإستواء ومناطق الزنوج الأخرى، وعادة ما تكون من الدخن أو الذرة

ثم نتناول القهوة التي يقع عبء إعدادها على مجموعتنا. أما عن نفسي فلم اشارك في اعداد أي وجبة لأنني لا اصطحب جارية.

القهوة غير شائعة في برنو ويستعاض عنها بثمار القورو التي يتم استيرادها من مناطق الزنوج، والقورو سلعة مرغوبة جداً ولها تاثير مماثل لتأثير القهوة. ورغم أن القورو يستورد في ودّاي أيضاً إلا أن ترحيله يشكل عقبة كأداء نسبة لحساسيته وتأثره بتقلبات الطقس ولذلك السبب تجد القهوة رواجاً أكثر منه حيث يجلب تجار النيل البن الحبشي كما يجلب المجابرة - سكان واحة جالو - البن العربي الذي يسمى بالبن اليمني والذي يفوق البن الحبشي في السعر بحوالي الثلث. وعند الندرة يبلغ سعر الرطل دولاراً كاملاً. أما في الأحوال العادية فيكفي دولار واحد لشراء رطلين أو ثلاثة منه. عند عودة التجار الطرابلسيين لودّاي في 1873م جلبوا كميات من البن المستورد من أوروبا والذي يسمونه «أفرنجي» وهو يفوق البن الحبشي جودة لكن يصعب الحصول عليه.

درج حاج أحمد - بين حين وآخر - على دعوتنا لتناول الشاي وهو أمر لا يشق عليه لأن برفقته حوالي الثلاثين أو الأربعين عبداً وعشرين أمرأة ما بين زوجة وجارية وكان مولعاً بشرب الشاي. ويفضل الذين يتعاطون الشاي ما يُعرف بالشاي الأخضر إذ يفضلونه على الشاي الأسود المعتاد ويشربونه مركّزاً مضافاً إليه السكر. وبحوزة حاج أحمد عدداً من رؤوس السكر[1] ولذا كان يدعونا لمشاركته الاستمتاع بشرب الشاي، ثم بعد ذلك تُدار القهوة حتى ساعات متأخرة من الليل ونحن حول النار التي يحرص العبيد على ابقائها مشتعلة. كما كان الراوية المصري يرفه عنا بسرد قصص ألف ليلة وليلة وأمجاد الخليفة في بغداد والاحتفاء بفتح شمال أفريقيا في صدر الاسلام[2].

في الثلاثين من يناير حضر الفكي مختار أحد أفراد مجموعتنا الكبار وكان مكلفاً برئاسة الوفد الذي سيقدم الصدقة للسلطان إبراهيم في والده المتوفى. ولما كان إرسال مثل هذا العدد من المواشي إلى دارفور أمرا شاقاً، فضل السلطان التصدق بها في أبشي، وكان بمعية الفكي مختار قطيع من الجمال يبلغ حوالي المائة رأس مرسلة لهذا الغرض أيضاً.

سيحل العيد الكبير غداً الموافق الحادي والثلاثين من يناير. وفي صبيحة يوم العيد خرج أبرز أعضاء قافلتنا مثل أحمد وشمس الدين والخبير عبدالمجيد والفكي مختار وذهبوا إلى القرية مرتدين العباءات الملونة والطواقي الصغيرة وذلك لتأدية الصلاة مع حاكم الأقليم. اصطف الجميع في ساحة واسعة على مجرى نهر رملي يقع بين المعسكرين وأختير أحد الفقهاء ليصلي بالجماعة وكانت صلاتهم تتميز بالخشوع وهو أمر تتسم به صلوات المسلمين. وبعد فراغهم من تأدية الصلاة بدأوا في تبادل التهاني التي شاركتهم فيها.

---

1 - كان السكر الذي يجلب للسودان يأخذ شكل الكتل المخروطية المتحجرة ويسمى الوزن منها بالرأس. أما السكر الناعم ويسمونه البقينة لم يكن مرغوبا كسكر الرأس.

2 - غالباً ما يكون المتن هو السيرة الهلالية.

لقد تقرر دفع مستحقات الحاكم وتحدد ثالث أيام العيد كموعد للتحرُّك، وعندما ذهب حاج أحمد وشمس الدين للعقيد - وهو عبد - وجدوه واتباعه في حالة مزرية من السكر حتى قيل - على سبيل المبالغة - إن دجاج القرية كان ثملاً وقتها، مما اضطرهم لتاجيل مناقشة ترتيبات الرحلة معه، وهكذا تأجل السفر لأسباب لم تكن في الحسبان.

جاء رسول من سلطان ودّاي بتعليمات لحاج أحمد لينتظر ليوم آخر لأن هنالك رسولاً آخر سيأتي من أبشي، وبالفعل وصل هذا الرسول صبيحة اليوم التالي محملاً بنبأ وفاة عقيد البحر الذي يُعتبر مسئولاً رفيع المقام وخادم موالٍ لسيده. مراسم استلام الرسائل السلطانية واحدة حيث استقبل حاج أحمد الرسول وهو جالس على البساط، وقبل التحية تمنى الرسول الصحة والعافية للسلطان بقول«سيدنا بالعافية»، وفي الحال هب الحاج أحمد لأنه من غير المسموح به أن يجلس الشخص على حصير أو بساط عند ذكر السلطان، كما لا يمكنه استلام رسالة منه إلا وهو واقف على الثرى. بعد استلام الرسالة قرأ الجميع الفاتحة سائلين الله أن يوفق سلطانهم.

في اليوم التالي الموافق الثالث من فبراير بدأنا رحلتنا حيث توجهنا شرقاً واعتلينا ضفة النهر الصخرية وكانت مغطاة بغابات من أشجار السنط الصغيرة تتخللها بعض أشجار الجميز والتمر هندي الشامخة الظليلة، وكانت بداية التحرك في حوالي الساعة الثامنة صباحاً وعند الظهر وصلنا قرية «كلميدي» التي تحوي حوالي الثمانين كوخاً. هنا أصبحت الأشجار أكثر كثافة وبدأ يغلب على المنطقة الطابع الصخري، ثم بعد مسيرة نصف ساعة من السير الجاد وصلنا قرية «تيرلاند» آخر قرى ودّاي وبها حوالي المائة كوخ وتقع على الضفة الشمالية لنهر يبلغ عرضه حوالي العشرين إلى الخمسة وعشرين متراً، ومجراه من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي لنهر بير طويل وتنمو على ضفتيه أعداد من اشجار الجميز العملاقة. وضفافه عالية تتخللها الصخور الجرنيتية الوعرة أما القاع فرملي الطابع.

تحركنا في صبيحة اليوم التالي مبكرين لأن أمامنا الصحراء التي تفصل ودّاي عن دارفور وهي منطقة غير مأهولة وغير آمنة لوجود قبائل المساليت المتفلتين. كان الصعود حاداً، والجبال شبه المخروطي تسد الأفق أمامنا وجنوبنا علماً بأن طريقنا يخترق تلك السلسلة. بدأ تحركنا بطيئاً لوعورة الصخور ولاعتراض بعض المجاري الثانوية والتي تتميز بعمقها ويبدو أنها تغذي روافد البطيحة التي مررنا عليها بالأمس. وما أن بلغنا السلسلة المعروفة بـ «ترجي ودّاي» حتى سار الطريق محاطاً من جانبيه بالصخور الجرانيتية الضخمة التي صعبت من سيرنا لبقية اليوم حتى بلغنا نهايتها حوالي الحادية عشر قبيل الظهر. ورغم إن هنالك ارتفاعاً خفيفاً ناحية الشرق إلا أن المنطقة أصبحت مستوية وقلت الصخور كما أن الممرات المطروقة كانت محفوفة بالحشائش الصحراوية العالية وبعض أشجار السنط الفقيرة مع بعض الشجيرات الذابلة التي تتقارب من بعضها كأشجار اللبان وماشابهه. وعند منتصف النهار انخفضت درجة ارتفاع

الأرض مرة أخرى. وفي حوالي الثانية ظهراً مررنا بنهر صغير يسمى «تمتمايا» يجري من الشمال للجنوب حتى وادي أسونقا تتخلله العديد من البرك يبلغ عرضه حوالي العشرين خطوة. أصبحت المنطقة أكثر انفتاحاً مع تدن ملحوظ في عددية الأشجار لدرجة إن التلال التي ينحدر منها هذا النهر الصغير الواقع إلى شمالنا صارت واضحة للعيان. مررنا بجبل منعزل يقع جنوبنا ويمتد إلى الجنوب الشرقي عبر منطقة غير مأهولة من وادي أسونقا.

عند العصر خيمنا على مجرى هذا النهر، وهنا تغيرت طبيعة الأرض تماماً حيث أصبحت المنطقة تتميز بالأشجار اليانعة بألوانها الزاهية خصوصاً تلك الأشجار مخروطية الشكل التي تكسوها الأوراق مثل اشجار الصهباء والحراز والتمر هندي، وحتى الدليب الذي لا ينمو في الشمال تُوجد أعداد منه هنا علماً بأن موطن هذه الشجرة المعتاد هو الجنوب.

تغطي الوادي والمناطق المجاورة له حشائش خضراء يانعة. ينبع وادي أسونقا من جنوب شرق جبال تاما ويجري نحو الجنوب ويبلغ عرضه - عند معسكرنا - حوالي المائة خطوة.

يجني الأهالي ثمار الدليب المدفونة تحت التربة وتلك الثمرة مغزلية الشكل[1] يبلغ طولها حوالي الخمسة عشر إلى ثلاثين سم وتؤكل مشوية وطعمها مثل سائر النشويات وتعد من النباتات الجذرية التي تنتمي لفصيل البطاطا.

في الصباح، انضم لنا عقيد الصباح وهو على رأس فرقة من الفرسان يتراوح عددها ما بين المائة وخمسين إلى المائتين وذلك بقصد مرافقتنا حتى أول مركز في دارفور. كان مظهر الفرسان والخيول أفضل من المظهر المعتاد لدى قادة ودّاي الآخرين رغم أن الخيول محلية ومن السلالات صغيرة الحجم التي سبق وتناولناها بالوصف وهي لا تتميز بالجمال إلا أنها قوية عند الاقتحام.

تتميز براري وادي أسونقا بالخطورة على القوافل التي تبقى هناك أثناء ساعات الليل لأنها ستكون عرضة لقُطّاع الطرق من المساليت وهي قبيلة - كما سيرد فيما بعد - تعيش على حدود السلطنتين، وقبل عام فقط تعدوا على أحد رسل السلطان علي وقتلوه هو ومرافقيه.

قضينا الليلة دون أن نتعرض لهجوم هؤلاء اللصوص وفي صبيحة اليوم الرابع من فبراير صحونا مبكرين أكثر من ذي قبل وغادرنا وادي أسونقا واتجهنا شرقاً. وبعد قليل من السير صارت المنطقة أكثر انفتاحاً فيما عدا بعض المجموعات الجبلية الصغيرة التي تطل بين الأشجار من ناحية الشمال والشمال الشرقي، كما تزخر المنطقة بالعديد من المجاري المائية.

عند منتصف النهار وصلنا وادي «كلكل» الذي يجري من الشمال الشرقي للجنوب الغربي ثم ينعطف نحو وادي أسونقا ويشكل الحدود الرسمية بين السلطنتين. صارت التلال الواقعة إلى الشمال تعوق طريقنا لدرجة أنه أصبح لزاماً علينا التوغل بعيداً نحو الشمال الشرقي على مجرى الوادي الذي يشق طريقه عبر ممر ضيق وسط التلال. وبعد عبورنا لتلك التلال عادت المنطقة أكثر انفتاحاً مرة أخرى.

1- تعرف في غرب السودان باسم الهالوك.

هناك سلسلة عالية من الجبال أكثر انفتاحاً تغطي الأفق الشرقي مرة أخرى، ثم هناك سلسلة عالية من الجبال تغطي الأفق الشرقي وتأخذ شكل الخط المستقيم مع بعض التعرجات، وكان اتجاهنا إلى الشمال الشرقي أولا ثم إلى الشرق. عند العصر وصلنا قمة تسمى «ترجي دارفور» ومررنا عبر شعاب تتفرع من هذا المرتفع بالقرب من حافته الشمالية أما من الجانب الشرقي فتمتد هذه السلسلة الشاهقة بعيداً وتأخذ الشكل الحوضي وتحيط بها سلاسل جبلية أخرى من نواحي الشمال الغربي والشمال الشرقي والجنوب وهي معتدلة العلو تقريباً وتبرز أعلى الوادي، ثم على بعد مسيرة ربع الساعة من هذا الموقع نحو الشمال الشرقي هناك قرية جميلة ترعى مروجها التي تغطي تلك التلال قطعان من الماشية وتقع القرية على شفير نهر تنمو حوله أشجار الحراز الضخمة وتتوسط مجراه أعداد من الآبار الصغيرة التي تزود أهالي القرية بالماء.

غادرنا القرية متوجهين نحو الشمال حتى عبرنا النهر ثم صعدنا سلسلة جبلية تقع نحو الجنوب الشرقي نزلنا بعدها وادي نهر واسع يجري من الشمال للجنوب حيث خيمنا بجوار بئر يتراوح عمقها ما بين المتر ونصفه والمترين وكانت جافة تماماً. يلتقي هذان الواديان بعيداً من هنا حيث يكونان وادياً أكبر يسمى «بير دقيق» ومن المتوقع أن نعبره غداً وينحدر الوادي – الذي خيمنا بجواره – من سفح جبل منعزل صغير حيث توجد القرية التوأم للقرية التي عبرناها قبل قليل وكلتاهما تحمل اسم «جرولن».

بمجرد وصولنا أقبلت النساء لعرض بضاعتهن التي تتكون من الغلال والدقيق والكسرة والضرابة[1] والكول[2] وهي مواد نباتية تستخدم للأدام.

ينتمي الأهالي لقبيلة «الجرجاء» . وتتدرج ألوان النساء من الحمرة المائلة إلى اللون البني حتى السواد، ويصففن شعورهن بنفس طريقة نساء ودّاي بيد أنهن يبالغن في التزين بخرز العنبر والسكسك الأبيض الصغرسيني أبيض، والمرجان المقلد بالإضافة إلى الأقراط والأهلة الفضية. في اليوم التالي، وبعد مسيرة أربع ساعات نحو الجنوب الشرقي عبرنا ثلاثة أنهار صغيرة تغطيها غابات كثيفة من المخيط والنبق والحراز، وتجري من الشمال للجنوب لتصب في ودّاي بير دقيق. هناك العديد من حقول القمح والقطن وقطعان الماشية مما يدل على أننا بالقرب من قرية لكنها لا تبدو للعيان. توجد جبال منخفضة وأخرى بركانية مسطحة وامتدادات من السلسلات الجبلية التي أصبحت السمة الغالبة في كل الاتجاهات الأمر الذي يفسر وجود هذا المجرى الكبير – أي بير دقيق – الذي يبلغ عرضه حوالي الثلاثمائة خطوة رغم قصر مجراه.

تحيط بمجرى هذا الوادي أشجار الحراز الضخمة والتمر هندي، وعلى ضفته الشرقية قرية تحمل نفس الاسم وتقع إلى الجنوب منا. ينتمي سكان القريتين لقبيلة «الاتو» الذين يخالطون

1- البامية المجففة.

2- نبات بري تقشر أغصانه حتى يسود لونها في شكل أقراص ويتخذون من بدرة هذه الأقراص المجففة مادة لتتبيل الإدام.

القمر مثل الجرجاء الذين رأيناهم بالأمس، وهم على الأرجح فرع من القمر، ويبدو أن القمر أنفسهم على علاقة بالتاما.

تقع حدود تاما على بعد مسيرة يوم ونصف اليوم من وادي بير دقيق والذي يجري - بصفة عامة - من الشمال الغربي للجنوب الشرقي ويُعرف عادة باسم «وادي شيل». هنا أيضاً تصفف النساء شعورهن على النمط السابق ذكره وتتميز وجوههن بالاستدارة والقصر وتميل ألوانهن للحمرة المشرّبة بالسواد الداكن ونادراً ما يكون لون بشرتهن أسوداً ويختلفن اختلافاً بائناً عن نساء ودّاي اللائي يتميزن بالسواد والنحافة والوجوه البيضاوية المستطيلة.

في العصر وصل «ملك سيرتمو» على متن حمار مرتدياً سروالاً قطنياً أبيض اللون بخطوط حمراء وعلى رأسه طاقية، إمعاناً في إظهار الاحترام الذي يكنه لحاج أحمد وشمس الدين لما يتمتعان به من سمعة وعلو مكانة. وعموماً يُعد ركوب الحمير أمراً معتاداً في دارفور خلافاً للوضع في ودّاي.

يتبع هذا الإقليم لإدارة الشرتاي حنيفي مسئول «دار فياء» التي تمثل أحد مراكز المديرية الغربية. سرنا بمحاذاة وادي بير دقيق جنوباً حيث مررنا ببعض القرى الصغيرة والمجاري المائية الضيقة التي تنحدر من الغرب صوب الوادي الرئيسي. وبعد مسيرة ساعات وصلنا بعض قرى المساليت الصغيرة. وحوالي منتصف اليوم انحدر بنا الطريق إلى داخل وادي بير دقيق مرة أخرى وعسكرنا شمال قرية أم سبيحة حيث تُوجد على مقربة منا قرية يُقال إنها مقر «أرندلنق» أي الشرتاي حنيفي وكلمة أرندلنق تعني حارس البوابة الحدودية.

ترجع أصول أغلبية سكان القرية لقبيلة الفور، أما مركز بيور الواقع إلى الجنوب الغربي والذي تقطنه قبيلة الترجم فيبعد كثيراً. والترجم قبيلة من الرحّل تخلت عن حياة الترحال منذ زمن بعيد واحترف أفرادها - الآن - الزراعة وتربية الماشية وتعيش القبيلة في رفاهية وازدهار اقتصادي كبير.

تخلفنا بأم سبيحة لأيام قليلة بغرض جمع احتياجاتنا لبقية الرحلة وانتظاراً لقطعان الإبل القادمة من خلفنا والتي أرسلها سلطان ودّاي لجارة السلطان إبراهيم. انتقل السوق إلى داخل معسكرنا الذي أصبح يعج بنساء الفور والترجم، والأخيرات يلفتن النظر بغزارة الحلي التي تزين أعناقهن ورؤوسهن كما أن شعورهن مصففة في شكل ضفائر صغيرة بنفس النمط المعروف لدى قبائل ودّاي حيث تُوجد ضفيرة أو ضفيرتان تغطي الرأس في منتصفه، وتتميز تلك الضفائر بكبر الحجم، محاطتان من الجوانب بمنظومتين من الخرز وأطرافها محلاة بحبيبات مختلفة من الخرز المصنوع من المرجان المقلد «الشفيف» أي الخرز الزجاجي الأخضر السابق ذكره، مع القليل من خرز العنبر «كواديم» بالإضافة للسوميت والزيتون.

بجانب هذه الزينات تُوضع على جانبي الراس حلقتان كبيرتان من الفضة ولكل منهما فتحة محلاة بقطع صغيرة من المرجان مع ست أو سبع من الحلقات الصغيرة التي تتدلى

على مؤخرة الراس، ثم يحلي الأنف بحلقة فضية تُكمَّل بمنظومة من المرجان أو العنبر، ويُزين العنق بعقد تتوسطه خرزة كبيرة من العنبر في حجم بيضة الحمام. تتميز نساء الترجم بجمال الوجه والملامح الدقيقة والحمرة المائلة إلى السواد. أما نساء الفور فأصغر حجماً، يميل سواد بشرتهن للرمادي، قبيحات المنظر ويتحلين بالقليل من الحلي ويزيّن شعر الرأس بشيء من الخرز المصنوع من العنبر أو المرجان المقلد ويُحلّين الأنف بقطعة من العنبر.

الغلة الرئيسة في السوق هي الدخن والضرابة زائداً اللبن الرائب والمريسة وتتم مبادلة تلك السلع بالضفر المبشور أو بقطع الصندل الصغيرة أو الكمبا أو خرز العنبر أو السكسك الصغير، وكلها سلع مرغوبة أكثر من غيرها.

جلب الرجال شيء من الدجاج، والقليل من الحبال المصنوعة من لحاء الأشجار وتلك المصنوعة من الجلد، بغرض استبدالها بالفلفل وزينات السكاكين والرماح. كما كان هناك عدد من الجمّالة[1] الرُحّل من عرب المحاميد الذين يرعون في الجوار ويصحبتهم زوجاتهم واغلبهن يرتدين الملابس المصنوعة من الفراء لكنهن لا يضعن الزينات كنساء الترجم اللآئي يبالغن في التزيّن وارتداء الملابس القطنية البيضاء الدالة على ازدهار القبيلة.

وفي السوق قابلنا أحد شبان الرزيقات القادم للتو من جنوب شرق دارفور والذي أفادنا بأن الزبير باشا وأهله من البحارة هاجموا الرزيقات في شكا وألحقوا بهم أصابات بليغة بحيث أن واحدا فقط من زعماء الرزيقات نجا بجلده والتجأ للسلطان إبراهيم. وأضاف بأن الوزير أحد شطة خرج على رأس قوة لملاقاتهم. طرقت هذه المعلومة مسامعنا من قبل ولم يتمكن هذا الشاب من تزويدنا بأي معلومة إضافية.

كان شعر هذا الشاب مصففاً بشكل جيد بوجه يتناقض مع ملبسه الرث الذي يتكون من قميص لا يكاد يستر جسده، ولكن بالرغم من وضاعة مظهره تمكن – هذا الشاب– من شراء فرسة من حاج أحمد مُقابل عبدين أحدهما فتى دينكاوي أصم وفتاة صغيرة السن.

أربع ساعات من السير المتواصل نحو الجنوب الشرقي حتى صبيحة اليوم التالي نفذت بنا إلى وادي كجا «أبو ساناطه» الذي يحتل مجرى وادي أم زفة النابع من المنحدرات الجنوبية لجبل «فوله» والذي يمتد خط سيره من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي حتى يصب في وادي كجا عند مركز بيور، ويبلغ عرض مجراه حوالي المائة خطوة في حين أن عرض كجا – المجرى الرئيسي – لا يتجاوز نصف هذا العرض.

يعد وادي كجا أهم مجرى مائي هنا إذ يعج قاعه بالبرك الصغيرة الممتلئة بالمياه خلافاً لكل الوديان التي مررنا بها حتى الآن، ويبلغ عمق مجراه ما بين الأربعة أمتار إلى السبعة مما يدل على قوة تياره أثناء موسم الأمطار، ومجراه نحو جنوب الجنوب الغربي حيث يلتقي بوادي «أسونقا» في ديار المساليت. ويشكل هذا الوادي منطلقاً لمياه جبل مرة وبعض الروافد المنحدرة من الجبال المنتشرة في ديار الزغاوة، وتدل قوة تياره على مدى ارتفاع منابعه. وفي موسم

1- رعاة الجمال

الأمطار قد يعوق وادي أسونقا أو وادي بير دقيق وروافده المسافرين ليومين أو أكثر. أما وادي كجا أو أبو ساناط قد يؤخر المسافر لشهر كامل.

قررنا الاستجمام لمدة يوم واحد لتبديل الجمال مع الأعراب الذي يرعون في الجوار.

زارنا عدد كبير من محاميد ودّاي الذين هجروا ديارهم في «عردة» هرباً من إبتزاز شيخهم «حقار» وتوجهوا شرقاً حيث أنضموا لأبناء جلدتهم الذي يستوطنون شمال تاما في دارفور، ثم في اليوم التالي من انضمامهم للقبيلة شنوا هجوماً على بديات «شيكالي».

من وادي كجا توجهنا نحو الشرق، ثم بعد مسيرة يوم كامل على إقليم قليل الأشجار خال من السكان، وصلنا إقليم «بوقالا» حيث عبرنا مجرى صغيراً يسمى «خديجة» على شفيره قرية تحمل نفس الاسم، تلاها عبورنا لقرية أخرى لقبيلة الترجم تسمى «تميل» ومنها إلى «دار مرة». وتقع تلك القرية على مجرى نهر يماثل المجريين اللذين مررنا بهما أثناء النهار وعرض كل منها يتراوح ما بين العشرين والخمسين خطوة. أما البرك فلا تجود إلا بالقدر اليسير من الماء مما يضطرنا للتزود به من وادي «بيره» الذي يقع على بعد ساعة إلى الجنوب من دار مرة والذي يتخذ مجراه من الشرق للغرب حتى جبل «أم دخن» حيث تقع على سفوحه قرية «سلام».

يُعد «وادي بيره» من أهم المجاري المائية النابعة من خط تقسيم مياه جبل مرة ومصادره هي السفوح الغربية للجبل، ويجري - بوجه تقريبي - نحو الغرب حتى موقع إلتقائه بطريق سيرنا، بعدها يحول خط سيره نحو جنوب الجنوب الغربي ليصب في «وادي أزوم» النهر الرئيسي لسلسلة جبل مرة الذي يقع على بعد اثني عشر ميلاً ومن ثم يتجه إلى الجنوب الغربي حتى حدود إقليم الداجو في سلا ثم يلتقي مع وادي «كيا» الذي تكوّن أصلاً من التقاء واديي كجا وأسونقا، ثم يواصل سيره باسم «وادي سلا»، ثم باسم بحرسنقاري، ثم باسم بحر «السلامات» و «ام التيمان» وبحر «الطين» حتى ينتهي به المطاف إلى جنوب غرب ودّاي حيث يصب الجزء الأكبر منه في بحيرة «إيرو»، أما الجزء اليسير منه فيتفرع ويكون «نهر إيرو» الذي يصب في شاري.

بعد مسيرة عدة ساعات إلى الشرق وفي صبيحة اليوم التالي وصلنا «تنيت»، وكان علينا الانتظار لعدة أيام ولم يكن ذلك بسبب أن تنت هي مقر حاكم مديرية «فيا» بل لانتظار الجمال المهداة من السلطان علي لسلطان دارفور.

ينبع وادي تنيت من منطقة تجاور جبل «سيليا» غرباً وبالقرب من جبل «أم دخن» الذي مررنا به بالأمس ويقع منبعه على بعد مسيرة يوم كامل من مكان معسكرنا الحالي. يلتقي هذا الوادي بوادي «باري» الذي يفوقه عرضاً رغم قصر مجراه. يبلغ عرض وادي «باري» حوالي الثلاثمائة خطوة تقريباً وقاعه ملئ بالرمال ويجري من الشرق للغرب وعند معسكرنا يصب فيه واد صغير آخر ينحدر من الشمال وعلى ضفة – هذا الوادي – الجنوبية تقع قرية الشرتاي حنيفي.

وعلى شمال وادي هذا النهر تُوجد قرية تسمى «البويرة» تسكنها قبائل البرنو، ويُوجد شمالها مركز آخر تقطنه قبائل «الحواجنة» – من مربيي الماشية – يُطلق عليه اسم «فافا» يجاور إقليم القمر الذي يقع شماله، والمعنى هنا بقايا مملكة القمر السابقة.

يعيش المراريت جنوب دار القمر شرق وادي «ساناطه» كما يعيش الأوروه أو «الأوراء» على الضفة المقابلة، وشمالهم تمتد سلسلة جبل «مول». للمراريت والأورو سلطانهم الخاص علماً بأن تسمية سلطان تقتصر على حملة الطبول من الزعماء فقط. كل القبائل والمراكز السابق ذكرها تقع في دائرة دار فيا تحت إدارة الشرتاي حنيفي باستثناء القمر الذين يتبعون لدار «ميد» شمال دار فيا ويتبعون للشرتاي محمد توريندبيه «أي أذن الضبع». يعيش في مركز الشرتاي حنيفي إضافة للفور الأصليين الموجودين شرق المركز، بعض بطون المساليت الخاضعين لرؤساء من غير حملة النحاس، مع بعض «الترجم» و «الطالبا» من الأعراب رعاة الماشية و «الجرجا» السابق ذكرهم و«الشيل» الذين تتشابه سماتهم والمراريت ثم «الجور» إلى شمال الشيل.

القرية الرئيسة لمركز «ميد» هي قرية «بارجوز» والتي تبعد مسيرة يومين شمال غرب تنيت.

كان بقاؤنا بوادي تنيت ولعدة أيام أمراً مفهوماً حيث سبق لحاج أحمد أن عاش في هذا المكان لعدة سنوات بعد أن هاجرت عائلته من موطنه في دنقلا من عدة أجيال عقب تلقيه للعلم بالأزهر. ثم أحضر حاج أحمد وهو صبي صغير وتربى في بلاط السلطان حسين حتى استقر به المقام – أخيراً – في الأبيض عاصمة كردفان حيث كوّن عائلة هناك، وبحكم عمله في مجال التجارة ذهب إلى ودّاي في عهد السلطان محمد شريف لكنه لم يتوافق مع هذا الطاغية رغم متانة علاقته بابنه وولي عهده علي. وعندما إعتلى الأخير عرش البلاد أرسل في طلبه وخصص له مسكناً، ورغم وجود عائلته في كردفان كان له دار أخرى في «تنيت» ومارس حاج أحمد التجارة في السلع المنتجة في مصر بين دار فور وودّاي، ولما كانت تنيت تقع في الطريق الرئيسي الذي يربط عاصمتي البلدين أصبحت داره قبلة لمختلف القوافل الأمر الذي أدى به للإفلاس.

ذكر لي حاج أحمد بأن عدد ما يقدمه من أطباق للضيوف يصل أحياناً إلى خمسين أو ستين طبقاً مما اضطره أخيرا لبيع أحد عبيده للوفاء بالتزامات الضيوف. وحيال هذا الموقف قرر هجر هذا الموقع ووجد في استدعاء السلطان فرصة ذهبية للتخلص من هذا العبء.

كان حاج أحمد في البداية متوجساً من طبيعة شعب ودّاي وميلهم للتحرش بالغير، بيد أنه حسم أمره وقرر الاستجابة للدعوة واستقر في أبشي وكون عائلة من ستتين فقط.

لم يكن حاج أحمد معروفاً في تنيت ومحبوباً لصفاته الشخصية فحسب، بل يعود ذلك لرفعة مكانته بوصفه صديقاً لسلطان دارفور حيث نشأ معه سوياً، ثم باعتباره مستشاراً لسلطان ودّاي. قدم لي هذا الرجل خدمات جليلة لم أدركها إلا في الفاشر مؤخراً. فعلى سبيل

المثال عند وصولنا لتنيت كان الشرتاي حنيفي في الفاشر وأناب ابنه للإشراف على المركز. حاول هذا الابن منعي من السفر للعاصمة خوفاً من تحمل المسئولية لمشاعر الكراهية السائدة ضد المسيحيين والأتراك، وظل يتعلل بانتظار تعليمات من العاصمة لأنه بمجرد وصولنا أرسل رسولاً ليبلغ والده بدخول شخص مشبوه للبلاد من جهة الغرب وهو لا يعلم ما إذا كان تركياً أو مسيحياً أو حتى جاسوساً. ومجمل هذه الأفكار هي تداعيات لتدهور العلاقات مع الحكومة المصرية.

ذهب الشرتاي حنيفي ومستشاريه للسلطان في الحال وأوصوا بأن يرسل من يبعدني من البلاد. وبينما كنت آمناً مطمئناً في معسكرنا كانت تتهددني الظروف دون أن أدري، ولحسن حظي رفض السلطان الاستجابة للفكرة. أما صديقي المخلص، حاج أحمد فقد رفض تسليمي أو مجرد تقديمي لابن الشرتاي وأخبره بأنه إذا لم يسجل زيارة لمسكرنا فسوف لن يراني لأنني في عهدته من قبل سلطان ودّاي مع تعليمات بأن يقدمني لسلطان إبراهيم شخصياً، كما اعترض على حق الشرتاي في أن يحصل مني المكوس لأنني ضيف على السلطان ولا أزاول أي نشاط تجاري.

تلقينا في تنيت أنباء مؤكدة عن هزائم جيش دارفور الذي هاجم قوات الزبير، وكانت القوة قد سجلت - في البداية - نصراً حاسماً على النور[1] أحد جنرالات الزبير بيد أن أحمد شطة وعبد الباري سقطا في المعركة التي نشبت في اليوم التالي ونتيجة لذلك وردت الأنباء بأن السلطان إبراهيم نفسه سيقود الجيش.

يحظى مركز تنيت بجو صحي سواء للإنسان أو الحيوان حيث تتميز مواشيه بالاكتناز على وجه يخالف كل ما رأيته من مواش في مختلف نواحي البلاد. والعملة الرئيسة المقبولة كمقابل للحصول على الغلال و الذبائح هي خرز العقيق الذي يرغبه العرب، ويحظى الخرز الأبيض وعلى نطاق بلاد السودان بالتفضيل على غيره من الألوان.

لم يكن انتظارنا الطويل مملاً في صحبة هؤلاء الجلابة الذين خبروا السفر واكتسبوا الكثير من التجارب في كسر رتابته. إذ كانت مواضيع الحديث شيقة جداً بالإضافة للإلفة والمودة التي تجمع بينهم بحيث يصعب على المرء الابتعاد عنهم ولو لساعات قليلة من اليوم. يتناول الصفوة وجباتهم مع بعضهم البعض حيث تكثر الثرثرة وتبادل الحديث حتى ساعات متأخرة من الليل.

أخيراً وصلت جمال السلطان وانتهت المساومات بشأن الهدية المستحقة لابن الشرتاي وكانت عبارة عن عدد قليل من العبيد. وفي الثاني والعشرين من فبراير كنا على أهبة الاستعداد

1 - هو النور محمد بك عنقرة من زعماء البديرية الذين انضموا للقوات التركية المصرية، وفي بادئ أمره كان من أعوان الزبير باشا رحمة حيث عمل معه في جنوب السودان والتقل - أخيراً - إلى دارفور، وعندما اندلعت الثورة المهدية في كردفان كان النور مشرفاً على إدارة بارا ولكنه سلمها للأنصار وانحاز لقوات المهدية. اشترك في كثير من حملات المهدية ضد الأتراك والأحباش، وبعد سقوط المهدية استقر بأم درمان حيث توفي عام 1920م. ريتشارد هل 1970م، ص 297. راجع الحاشية في مذكرات يوسف ميخائيل تحقيق الدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك، ص 104.

لمواصلة الرحلة.

المسافة من تنيت لكبكابية توازي مسيرة ثلاثة أيام من السير الجاد. وتعد كبكابية أحد مراكز الجلابة أيضا ناحية الشرق والشمال الشرقي.

ظلت درجة ارتفاع الأرض عادية حتى حدود تنيت، بيد أن هناك ارتفاعاً ملحوظاً طرأ بعد ذلك. على بُعد مسيرة يوم، كانت تتراءى سلسلة تلال عالية مخروطية الشكل ناحية الشرق والشمال الشرقي.

مررنا على عدة مجاري أهمها «وادي همبول» والذي بلغناه بعد مسيرة ست ساعات من مغادرتنا لتنيت. يتمثل العنصر السكاني السائد في قبائل الفور. منظر القرى بهيج ومصدر البهجة تلك القطعان من الماشية والأغنام. بجانب أشجار النبق والهجليج والطندب المتناثرة. تأخذ المرتفعات المحاذية لوادي النهر شكل السهول الملأى بالوديان التي تعمر بأشجار الحراز الباسقة والتمر هندي إضافة لتلك الأشجار الشبيهة بالتين.

عند الخامسة مساء لاحت في الأفق سلسلة من التلال تتخللها قمم منعزلة تتوجها صفوف عمودية من الحجارة البيضاء ومن أعلى هذه القمم يتراءى للمرء واد واسع، ثم إلى الشمال تتراءى العديد من القمم الجبلية المنعزلة، وتكوّن تلك التلال أهم سلسلة جبلية هنا والتي سبق وأشرنا لها. ويفصل بيننا وتلك سلسلة «وادي برقو».

بعد أن عبرنا الوادي دخلنا غابة كثيفة جميلة عالية الأشجار تغطي منطقة ما بين الواديين. عسكرنا مساء على وادي باري، الذي يتميز – في بعض أجزائه – بالشطآن العالية التي تفوق عرضه أحيانا، ويبلغ عرض مجراه – في المتوسط– حوالي المائتي خطوة الأمر الذي يدل على أهميته. وفيما بين الواديين تسكن بعض القبائل العربية من النوايبة رعاة الأبل.

في المساء تلقينا زيارة من «شيخ النحاس» –أي المسئول عن طبول النحاس– ويحمل لقب سلطان، وبصحبته شاب من محاميد وداي وهم أقرب أقاربهم. أعلن الشيخ هجره لوداي والاستقرار في دارفور، ودار نقاش بين هذين الرجلين وحاج أحمد عن المزايا الممنوحة للعرب الرُحّل في البلدين. فأفاض حاج أحمد في توضيح التسهيلات الضريبية الممنوحة لهم وفرصهم في هجر حياة الترحال والاستقرار في شمال البلاد مما يحقق لهم الربح بفضل الغارات التي يشنونها على الدازا والبركو والبديات. وبالرغم من هذا الحديث المنطقي إلا أن شيخ النوايبة استطاع أن يدحضه بمقارنة وضع العرب في دارفور حيث يعاملون معاملة المواطنين خلافاً للوضع في وداي التي يعاملون فيها كمواطنين من الدرجة الثانية.

أما شيخ المحاميد الشاب – الذي لجأ حديثا لدارفور– فقد برر أسباب هجرته لوداي بأمثلة متعلقة بتجارته، وأضاف بأن عبيد السلطان كثيراً ما يتعدون عليه وعلى عماله رغم وصفه للسلطان نفسه بالاعتدال والاستقامة. وأضاف بأن ثالثة الأثافي هي واقعة اختطاف زوجته أم أطفاله.

كما استطاع شيخ التوايبة أن يبرهن على المعاملة الجيدة التي يجدها العربي في دارفور بينما يُحرم من أبسط الحقوق في ودّاي كمنعه من دخول العاصمة إلا حاسر الرأس، حافي القدمين لا ينتعل إلا الصندل مع إلزامه بإرتداء الملابس البسيطة المنسوجة من الأقمشة المحلية سيئة الصنع. في هذه الأثناء كان الشيخ مرتدياً لباساً حريرياً وتكية ملونة وحذاءً مصرياً أحمر اللون، بل سبق لي أن شاهدته في البلاط ملتحفاً شالاً كشميرياً غالي الثمن ويُعد من الملبوسات المتادة في دارفور.

عبرنا صبيحة اليوم التالي وادي كون الذي يستمد اسمه من المركز والقرية الرئيسة التي تحوي حوالي المائة كوخ. السلسلة الجبلية التي تقع جنوب خط سيرنا انقسمت إلى قمتين «فوقوجا» و «فوقورميل». وبعد تجاوزنا لمجرى النهر دخلنا غابة كثيفة من الأشجار القفيرة تسودها شجيرات الطلح. ثم عبرنا الكثير من الروافد الصغيرة التي تصب في وادي باري. وبعد مسيرة حوالي الأربع ساعات عسكرنا في قرية «مرشام» التي تقع على وادي يحمل نفس الاسم، وينبع من الجنوب وينعطف نحو وادي «جلداما»، ويعد من أكبر روافد وادي برقو.

في اليوم التالي عبرنا وادي جلداما متجهين نحو الشرق مع قليل من الانحراف نحو الشمال، وفي الصباح كانت الأجزاء الشمالية لجبل مرة واضحة للعيان، ويسمى هنا «جبل كيرا كيري»، والى الشمال الشرقي من سلسلة «جبل كاورا» المتفرع من سلسلة جبل مرة هناك مجموعة تلال ثانوية تسمى جبل «أبتو»، ومنها تلوح في الأفق بعض القمم المخروطية العالية التي تقع على بعد مسافة جنوب شرق جبل مرة ومن أهمها «جبل سي» و «ويارسميل».

أصبحت الأرض وعرة وعارية من النباتات، وكان خط السير موازياً لوادي جلداما لدرجة إنه يندمج فيه أحياناً وظلت تعترضنا بين الفينة والأخرى بعض المجاري المائية التي تصب فيه. مررنا بالعديد من القرى وخيمنا عصراً على مجرى النهر المذكور ولما كانت المنطقة تعج بالأسود فقد تم زرب المعسكر بالشوك.

استأنفنا الرحلة، وبعد عدة ساعات من السير الجاد على تلك الصخور الوعرة ظهرت لنا بعض الأشجار القرمزية المتشابكة، وفي صبيحة اليوم التالي دخلنا وادي ذلك النهر الأخاذ كبكابية[1] الذي يُعد نقطة إنطلاق وادي «برقو» ويبلغ متوسط عرض مجراه حوالي المائة وعشرين خطوة ويجري من الشرق للغرب، وتُوجد المياه الصافية على عمق 30 إلى 50 سم على طول قاعه الرملي. ويزخر مجراه بالعديد من الجزر الساحرة التي تنمو عليها أشجار النخيل، وتعلو ضفافه بعض التلال الصغيرة التي يستخلص من صخورها ملح الطعام عن طريق الترسيب وهو سلعة نادرة في دارفور.

تنتشر القرى على جانبي النهر، وأغلب سكانها من الجُلابة. وبمجرد وصولنا وفد إلينا الكثير من الأهالي لتحية أصدقائهم واقاربهم مع تبادل الأخبار عما يجري في مصر ودارفور

1- مدينة قديمة سميت بهذا الاسم تخليداً لحرب دارفور مع الوداي وتعني بلغة الفور « رموا الدروع » أي أن الوداي انهزموا ورموا دروعهم. وتقع على بعد 92 ميلاً غرب الفاشر. ووصفها التونسي بأنها تشبه أرياف مصر لكثرة الشجر. انظر الأذهان التونسي ص61.

وما في جعبتنا من أخبار الغرب. ولالحاحهم الشديد اضطررنا لقضاء الليلة في كبكابية.

يقع إقليم كبكابية على سفح جبل مرة، من هنا يبدأ الطريق في الارتفاع الحاد كلما توجهنا شرقاً، بعكس اتجاه الغرب حيث تبلغ المنخفضات - التي تقع خلف تنيت - حوالي السبعمائة وخمسين متراً ثم حوالي الخمسمائة متر لدى منطقة أبشي وهكذا حتى بحيرة تشاد التي ربما يبلغ انخفاضها حتى المائتي وخمسين متراً فوق مستوى سطح البحر. أما وادي برقو فيتجه نحو الشرق.

أصبحت كتلة جبل مرة تزداد وضوحاً بقممها المتخلله السلسلة والتي تبدو في شكل مجموعات جبلية متعزلة.

تمتد سلسلة جبال كاورا شمالاً ثم تنتهي جنوباً بسلسلة من الجبال غير المنتظمة التي تشبه القباب وتُعرف باسم «حجر قرضة». تغطي الأرض حجارة سوداء تبدو غيرمتماسكة أحياناً لدرجة أن الماء يتسرب من خلالها.

تتكاثر هنا الكتل الصخرية التي تجعل من السير أمراً شاقاً سواء بالنسبة للإنسان أو الدواب ويُطلق على هذا الجزء من الجبل اسم «كيراكيري» ويسمى هذا النوع من الصخور بـ «الكراكر». قاع وادي برقو صخري في هذا الموقع ويشق طريقه بصعوبة شديدة عبر تلك التلال الصلبة ويسمى هنا - أي في منبعه - «وادي النبق». تحتوي مياه هذا النهر على مادة النطرون ولهذا السبب يحرص العرب على سقي جمالهم فيه.

سرنا جنوبي سفوح جبل «أبو كتيف»، وسمي كذلك لأن قمته تعلو جانبين منخفضين يبدوان كما لو كانا كتفي آدمي. اعترضنا وادي النبق متعدد التعرجات المنحدر من جبل النبق الشاهق الواقع على الشمال والذي يشكل جزءاً من سلسلة كاورا. وبعد مسيرة ثمان ساعات أخرى بلغنا قمتين يُطلق عليهما اسم «بوقيا»، وبالرغم من عدم اهميتهما إلا أنهما أعلى قمتين في هذا الموقع إذ يبلغ ارتفاعهما حوالي الألف ومائة متر فوق مستوى سطح البحر. لا تزال الأشجار فقيرة والصخور وعرة مع الارتفاع الحاد، ومع ذلك فهناك كميات كبيرة من نبات العشر بالاضافة لأشجار المخيط. من هنا وحتى غرب دارفور يندر وجود الحيوانات الوحشية، وشتان ما بين هذا المكان وبلاد برنو التي تنتشر فيها قطعان الظباء حتى على تخوم القرى المأهولة بالسكان، ثم أن عددية الحيوانات الوحشية الموجودة هنا لا تُقارن حتى بأقل المناطق حظاً من تلك الثروة الطبيعية في وداي. وتقتصر الوحوش هنا على الضباع.

المجموعات الجبلية الموجودة لا يزيد ارتفاعها عن سطح الأرض أكثر من ثلاثمائة وثلاثين متراً.

استغرق عبورنا لمنطقة تتجمع فيها المياه - جوار جبال «بوقيا» - حوالي الساعة ثم عسكرنا بجوار بئر يبلغ عمقها حوالي الاثنين والعشرين متراً وتُعرف باسم «سانية المهاجرين».

أكملنا هبوطنا حتى السهل الممتد على الجانب الآخر الواقع نحو شرق الجنوب الشرقي، ثم

عبرنا «حجر قرضة» الذي يقع إلى الجنوب ويبلغ طوله حوالي المائتين وخمسين متراً، ثم سرنا على مجراه الصخري حيث عانينا ما عانينا من الصخور والأخاديد التي تتخلل مجراه، ومما زاد عذابنا ذلك العدد المهول من أشجار السنط الشائكة التي مزقت ملابسنا.

أخيراً قلت نسبة الصخور وبدلاً عن تلك الأخاديد والوديان الضيقة ظهر أمامنا واد واسع يأخذ الشكل الحوضي، وبعد مسيرة ثمان ساعات أخرى خيمنا على القاع الرملي لوادي «سنكيري» والذي يتحد مع وادي قرضة ليصبا في وادي كوبي شرقاً.

كان علينا بلوغ كوبي في اليوم التالي وهي مقر للتجار الجلابة الذين استقروا في دارفور وتعد أهم مدينة بعد الفاشر، واستعداداً لصبيحة الغد بدأ أفراد قافلتنا في إرتداء أفخر الثياب وتحضير الهدايا لأقاربهم وأصدقائهم. في اليوم التالي وبعد مسيرة ستة ساعات تجاه الشرق أصبحنا على مشارف كوبي، ورغم إن الطريق منحدر إلا أنه أصبح أكثر أنفتاحاً من ذي قبل وقلت الصخور التي تغطي الأرض تدريجياً بحيث أصبحت التربة رملية خالية من الأشجار، وفي الصباح الباكر بعد مسيرة حوالي الساعة ونصف الساعة رأينا سلسلة جبال «مالا» وكانت تقع جنوبنا، وتمتد من الشرق للغرب وتبعد بعد مسيرة ثلاثة ساعات تقريباً. وعند الشروق وصلنا منطقة سهلية يشطرها وادي «أبو دنقو» وقررنا أخذ القيلولة في مجراه لتلقي تحايا كبار جلابة كوبي.

تتميز مجاري الأنهار بالسطحية والاتساع لدرجة أن تخلو أحياناً من المعالم الواضحة، وتنساب مجاريها - بصفة عامة من الشمال الغربي للجنوب الشرقي صوب نهر «الكوع» الذي يتحدر متاخما لكوبي والفاشر. الأشجار فقيرة في هذا الإقليم الرملي وتتكوّن من الهجليج والطندب والنبق مع بعض المجموعات البائسة من أشجار السنط. لم يكن توقفنا انتظارا للاستقبال فقط بل تقتضي الأعراف بعدم دخول القرى ليلاً، ولذا يحافظ الجلابة على هذه الأعراف بصرامة أكثر من غيرهم من العرب.

لقد خابت توقعاتنا حيث لم يحضر أي من الوجهاء إلى كوبي بخلاف شقيق شمس الدين. ومع ذلك أرسلوا لنا مائة من الأطباق المليئة بأجود أنواع الأطعمة ترحيباً بمقدمنا، وكانت الأواني عبارة عن أقداح خشبية جميلة الصنع مغطاة بتلك الأغطية المصنوعة من سعف الدوم ذات الألوان الزاهية، بحيث يحق للفور الافتخار بتجويدهم لهذه الصنعة، وكم كنت معجبا بهذا الكم الهائل من تلك الأغطية التي تدل على الذوق الرفيع. ولتلوين تلك الأغطية يُستخدم الفحم الأرضي للحصول على اللون الأسود، كما يتم الحصول على اللون الأحمر من سيقان بعض أنواع الذرة، ثم تزين بأطر جميلة يستخدم فيها بعض أنواع الخرز الزجاجي الأزرق صغير الحجم. تباع هذه الأغطية - في اماكن صنعها - في حدود الأربعة أو الخمسة دولارات «ماري تريزا» للواحد.

كما تصنع الحصائر من نفس المواد وتتمركز هذه الصناعات في كوبي والفاشر ومنواشي

وهي أحدى مستعمرات البرنو وتقع على بعد مسيرة ثلاثة أيام جنوب الفاشر. وبمجرد وصولنا وفي دقائق معدودات أصبح معسكرنا الصغير يزخر بالليمون والفجل الذي يستهلك بكميات كبيرة نسبة لخلو بلاد السودان من الخضروات الأخرى. يتميز الفجل بكبر حجمه ونضرة أوراقه مع خفة حرافة مذاقه، وقد استمتعت بالتهامه لأنني لم أذق مثله منذ مغادري لساحل البحر الأبيض.

حضر القليل من الأهالي وبعض الأطفال الذين يظهرون الكثير من التهذيب عند تحيتهم للكبار حيث يخلعون أحذيتهم وما يضعونه على رؤوسهم وأبدانهم من ثياب، ثم يزحفون نحو من يودون تحيته وأيديهم على ركبهم مع الإنحناء الشديد، وبالمقابل يضع الطرف الآخر يده على كتف الصبي ويتمتم «عافية» أي عافاك الله. هذا السلوك لا ينسحب على الأطفال فقط بل هو فرض على كل من يلقى التحية على من يكبره سناً، حتى صديقي حاج أحمد بكل تميزه وسلطانه لا يستثنى من هذا التقليد عندما يلتقي بمن يكبره سناً من المعارف. أما الأسلوب العادي للتحية فيتم عن طريق المصافحة بالأيدي.

تحركنا في المساء نحو «حجر كوبي» الذي كان ظاهراً على الأفق ناحية الشمال الشرقي وإلى الشرق، بينما تقع مدينة كوبي - المركز الرئيسي - في الجزء الغربي منه. يتميز المركز والقرى المحيطة به بأنواع مختلفة من أشجار السنط التي تغطي المنطقة ويفوح عبق أزهارها وفروعها المعطرة التي تستخدم في السواك.

بلغنا وسط كوبي[1] عند حلول الظلام وخيمنا في زريبة جماعة شمس الدين حيث أُفرد لحاج أحمد منزلاً خاصاً كما خصني حاج كرار - شقيق شمس الدين - المكلف بإسكان الضيوف بمسكن بائس محاطاً بمنطقة قذرة لكنني أجد له العذر لأن عدد الضيوف كان لا يقل عن المائة.

رضيت بهذا المسكن الوضيع دون أي تذمر وتوليت نظافته في صبيحة اليوم التالي ثم نصبت خيمتي في الفناء لاسكان الخدم. كان طعامنا مميزاً مما يوجب على الإقرار بأريحية الجِّلابة وكرمهم الذي يفوق كرم جميع القبائل التي تقيم هنا، اذ لا يكتفي هؤلاء القوم بتقديم الوجبات الممتازة لضيوفهم وخدمتهم فقط، بل كان منزل شمس الدين غاصاً بالضيوف كما لو كان خاناً للمسافرين. وظل هو وحاج أحمد يتلقيان التحايا والزيارات على مدار اليوم بينما تولى حاج كرار مهمة العناية بالضيوف المعروفين وغيرهم على السواء وظل يمدهم بالطعام هم ودوابهم وكانت زوجاته وجواريهن يتولين إعداد الطعام. وبمجرد أن يحضر شخصان أو أكثر يتم استقبالهم وتُوضع أمامهم أطباق العصيدة أو الكسرة الطازجة مع أطباق اللحم والأدام، كما تقدم لحوم الضأن المشوية وكسرة القمح الشهية المتبّلة مضافاً لها العسل، وحتى أبسط الناس يُقدم له - على أقل تقدير - التمر المجلوب من دنقلا. ثم بعد ذلك تقدم القهوة للجميع لدرجة أن تبلغ أقداحها المئات خلال ساعات فقط، وتستمر الخدمة على هذا المنوال طوال

1- كانت من أكبر مدن دارفور على خط عرض ١١-١٤ وخط طول ٥-٢٥ وهي مركز تجاري هام

اليوم.

أما إذا تم نحر بعير فإن الضيوف الخصوصيون فقط هم الذين يستأثرون بأكل الكبد النيء المخلوط بالتوابل. وقد تذوقت هذه الوجبة هنا وعليّ أن اعترف بأنها أفضل الأكلات التي تناولتها في هذه البلدان إذ لا زالت تعلق بذاكرتي لطيب مذاقها. وعند موعد وجبة العشاء وضع حوالي الخمسين طبقاً من الأطباق كبيرة الحجم. وكان حاج كرار هو الذي يشرف على تقديمها للضيوف.

يقام السوق يومياً في كوبي ويعرض فيه حطب الحريق والغلال والفجل والحبال وغير ذلك من السلع. لكنه يعمر - بصفة خاصة - يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع. وأهم العملات المتداولة هي قطع التُرمبا. أما الدولار «ماري تريزا» فيستخدم عند تسوية فروقات الأسعار. كما يستخدم لنفس الغرض القماش المسمى بـ «الطرقة» والذي تساوي سبع عشرة منه مقطع تُرمبا. واحدى عشرة أو اثنتا عشرة منه تساوي دولاراً واحداً. والطرق قطع رفيعة داكنة اللون من القماش المصبوغ باللون الأزرق. خفيفة شفافة. رديئة الصنع. طول الواحدة منها حوالي المتر. وليس لها قيمة عملية لعدم متانتها ولا تُستخدم كملبس إلا في حدود ضيقة ويقتصر عرضها على المدن والقرى المتاخمة لكوبي حيث تباع بمقاطع التُرمبا أو الدولار «ماري تريزا». والداكن منها أغلى نسبياً من الأزرق الفاتح. أما التكية فهي مقطع قطني. تساوي أربع أو خمسة منها. أسعار الغلال هنا تزيد كثيراً عن ودّاي باستثناء القمح الذي توجد سوقه الرئيسة في كيكابية والمناطق المتاخمة لها حيث يزرع هناك أكثر من بقية الغلال خصوصاً في وديان جبل مرة. لا يُوجد رواج لخرز العنبر هنا بعكس الوضع في الغرب وينطبق هذا على الشطة أيضا.

للخيول قيمة كبيرة وتستبدل بالعبيد. ويبلغ سعر الحصان الجيد ما بين المائة والمائة وخمسين مقطعاً من التُرمبا أي ما يعادل مائة وخمسين دولار «ماري تريزا».

ودارفور ليست من مناطق تربية الخيول شأنها شأن جارتها ودّاي وبالتالي فإنهم يعتمدون كلياً على جلبها من المناطق المجاورة. والمثير للدهشة فإن سعر الجمال يبدو أرخص لدرجة إن عشرة أو خمسة عشر مقطعاً من التُرمبا أو خمسة عشر دولاراً إلى عشرين تكفي لشراء جملاً جيداً. علماً بأن بعض المواشي الجيدة التربية يكلف الراس منها عشرين إلى ثلاثين دولاراً. والأكثر إثارة للدهشة هو إن سعر حمار الركوب الممتاز يتراوح - بحسب الجودة - ما بين الثلاثين إلى الستين مقطعاً من التُرمبا أو خمسين إلى تسعين دولاراً. وذلك لأن الفور والزغاوة يفضلونها في تنقلاتهم على غيرهما.

بالرغم من أن كوبي أقرب لمصر من ودّاي إلا أن سعر بدرة البارود يفوق السعر الجاري في ودّاي بحيث يبلغ سعر الرطل منها دولاراً ونصف الدولار أو دولارين مُقابل دولاراً واحداً في أبشي. أما بالنسبة لحجم التعاملات التجارية فإن ريش النعام هنا ليس بالكثير كما في ودّاي لكن المعروض هنا أجود، ويجلب عادة من ديار الزغاوة ومراكز العرب موجودة في شمال

البلاد. ويمتاز الريش هنا بحجمه ولونه ويتطابق - من حيث الجودة - مع المستورد من سهول شمال كانم.

أما العاج فقد نضبت مصادره منذ أن قام البحارة باحتلال إقليم جنوب دارفور وبالتالي تقتصر مناطق إنتاجه - الآن - على ودّاي فقط.

المياه شحيحة في كوبي وتنحصر كل الآبار في مجرى النهر شرق المدينة وتفصل بينها وحجر كوبي سلسلة من الجبال وتمتد من الشمال للجنوب، وهي عميقة جداً ومع ذلك فهي أقل عمقاً من تلك التي شاهدناها في سانية المهاجرين وسانكيري. والطريق لتلك الآبار طويل جداً ويمنح صاحبها - كمقابل للماء - القليل من الغلة، وتُستخدم الجمال والحمير في عملية جلب الماء إلى الدور والمنازل.

سنحت لي الفرصة في اليوم التالي للتعرُّف على الأعيان والشخصيات المميزة في كوبي و أول من لفت نظري هو «الدرديري» وهو رجل ذو نفوذ واسع بالأخص إبان عهد السلطان الراحل حسين، بيد أن نفوذه قد تقلص أخيراً. وتعرفت كذلك على الخبير علي وهو صديق حميم لحاج أحمد، وينتشر اسم خبير في هذه الأصقاع ويُخلع على مرشدي القوافل حتى لو قام الشخص بهذه المهمة لمرة واحدة فقط، والقوافل المعنية هنا تلك التي تسافر لمدة أربعين يوماً عبر الصحراء الواقعة شمال البلاد على ذلك الطريق المسمى بدرب الأربعين حتى أسيوط على النيل. ويُعين مثل هذا المرشد من قبل الحكومة، ويسري الاسم على كل من سبق وحظي بالتعيين ولذا تجب التفرقة بين مثل هذا الخبير والخبير الذي برأس الجلّابة.

بحكم عملي كطبيب وحاجة المرضى لخدماتي، أتيحت لي فرصة زيارة المدينة دون أن أُظهر رغبتي استكشاف معالمها أو أنني ادون مذكراتي عنها. ورغم إنني أصبحت خالي الوفاض من الأدوية والعقاقير الطبية، مع ذلك كنت لا أفوت أي فرصة لتلبية طلبات المرضى بغية التعرف على المدينة وناسها ودون تعريض نفسي للشك والريب. المدهش إن ما أتعرّض له من مضايقات يقل كثيراً عما يتعرض له غيري من الأجانب، وربما يعود ذلك لالتصاقي بالجلابة وتشبهي بهم في الملبس والمسلك والحديث لدرجة إن القليلين من الأهالي هم الذين يعرفون هويتي كأوروبي مسيحي.

لم تكن المدينة مشيدة بطريقة هندسية منظمة ولم يسبق قيامها أي نوع من التخطيط، ويعزى الأمر لسببين أولهما: هو أن هجرة أولاد البحر - أي سكان النيل - جاءت بالتدريج، وثانيهما: أن المدينة نفسها نشأت على أساس قبلي، وواضح إن المدينة بدأت في شكل زرائب بحيث تختص كل قبيل بزريبة لوحدها ثم تبعاً للنمو الاقتصادي تستبدل الزريبة بأسيجة من القش، ويرأس الزريبة أكبر القوم ثروة ونفوذاً، وكلما إزدادت الثروة ازداد استقلال الأسر بالدور الخاصة بهم، مضافاً إليهم الضعفاء والفقراء وبعض أفراد القبائل الأخرى، وغالبا ما يكون أفراد الزريبة من المهاجرين من موطن واحد، وهكذا تنشأ القرية دون اعتبار للتخطيط ودون اهتمام

بشق الطرق. وبجانب المباني الطينية تُوجد أكواخ القش، ونسبة لأن الطين المستخدم في البناء يُؤخذ من داخل كوبي، تكونت نتيجة لذلك حفر كبيرة وسط القرية.

الأشجار المنتشرة هنا هي النبق والهجليج وما شابهها فإذا اضفنا لها منظر الحوائط الطينية فإنها تضفي منظراً من الكآبة والرتابة. ومع ذلك فإن لبعض المنازل منظراً جذاباً للغاية. لاحظت أن الكثير من المنازل مهدم ومهجور وبنظرة عامة يمكن للمرء أن يستنتج بأن المكان كان أكثر سكاناً لسنوات خلت، ويرجع انخفاض الكثافة السكانية خلال الخمسة عشر سنة الأخيرة لإبتزاز السلطان حسين المحب للمال رغم حسن خلقه. ونتيجة لضعفه ترك البلاد نهباً لعبيده. زودني شمس الدين وحاج أحمد بأسماء ثمانين عائلة معروفة تعرضت للظلم خلال تلك الحقبة.

انتشر الإبتزاز على نطاق البلاد وعانى ضحايا ظلم الحكومة الأمرين من جوع وإفلاس وموت ولجأت القلة الباقية للفاشر لتبقى بالقرب من السلطان تجنباً لابتزاز العبيد.

يصرف الناس في دارفور على لبسهم أكثر مما يصرفه الأهالي في ودّاي اذ يلبس الجلّابة هنا الملابس القطنية البيضاء الممتازة أو الملابس المصبوغة ذات اللون الأزرق الفاتح المستوردة من أوروبا. ويحافظون على نظافة ملابسهم أكثر من رصفائهم في الغرب ويتزينون بالشال الكشميري الممتاز الذي يوضع على الكتفين أو يلف على الرأس بإتقان. ويفضل الأهالي الملابس الحريرية والجوارب ذات الألوان المختلفة.

في مساء اليوم التالي لوصولنا أي في الثاني من مارس ذهب شمس الدين للفاشر لإبلاغ السلطان بنتائج بعثته لودّاي أما أنا وحاج أحمد فقد لحقنا به في السادس من مارس.

تقع الفاشر على رهد تندلتي وهي على بعد مسيرة يوم جنوب شرق كوبي وكان تحركنا – نحوها – في المساء حتى لا نضطر للتزود بكميات كبيرة من الماء الذي يخلو منه طريقنا تقريباً. ترك حاج أحمد بضاعته التي ينوي إرسالها لمصر بكوبي واكتفى بأخذ الخيول والعبيد الذين ينوي استبدالهم بالنقود في دارفور.

ألبست الجواري وكذلك العبيد ملابس جديدة وضفرت شعورهن على النمط المتبع في دارفور وتم تصفيف الشعر على هيئة ضفائر قصيرة مجموعة على جانبي الرأس فوق الأذنين كالتي في مؤخرة الرأس بحيث يشكل الشعر مجموعة من الخصل المدهونة بعناية بنوع من التراب الأحمر والزبد والقرنفل وما شابههم من العطور وحُمل كل عبدين على محمل واحد.

عبرنا وادي كوبي الذي يبلغ عرضه حوالي الثمانين خطوة ثم اتجهنا شرقاً حتى سفوح السلسلة الجبلية التي تقع في الاتجاه المضاد والتي تُعبر من نفس الاتجاه عبر ممر يخترق تلك السلسلة الواقعة إلى الجنوب منا.

أصبحت السلسلة تنخفض تدريجيا كلما اتجهنا شرقاً. ثم على شمال طريقنا تُوجد سلسلة أخرى لكنها غير ذات أهمية. يقع جبل «بوسا» جنوبنا مباشرة على بعد مسافة.

عبرنا قرى مركز نقيور الصغيرة بعد مسيرة جادة لعدة ساعات على أرض جرداء تخلو إلا من بعض أشجار السنط المتفرقة. خيمنا على وادي «بريوجا» أو «وادي قولو» الذي يصب في وادي كوبي.

صبيحة السابع من مارس تابعنا رحلتنا بنفس الجد حتى أُنهكت جمالي، أما حصاني الذي أحضرته من ودّاي، لم يعد في مقدوره الحفاظ على المسافة بينه والآخرين. كان اتجاهنا – في البداية – نحو الشمال الشرقي وظلت تعترض طريقنا مجموعة جبال «وناء» الممتدة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي حتى بلغنا حدودها الجنوبية الشرقية بعد عدة ساعات من السير المتواصل.

أصبحت مضطراً لاستبدال حصاني بآخر أبيض اللون يخص حاج أحمد، ومع كونه أكثر ضموراً وضعفاً من حصاني إلا أن عدوه أسرع مما مكنني من مسايرة مرافقي ولعدة ساعات.

بدأت التربة الجرداء في الاختفاء التدريجي وحلت محلها الطبيعة الجبلية التي تتخللها الرمال وهكذا حتى وصلنا مركز «جيرن» ثم مركز «قوز جديد» الذي بلغناه عند منتصف النهار. عانينا الأمرّين من حرارة تلك التلال الرملية حتى لاحت لنا عاصمة دارفور فجأة وهي على ارتفاع ستمائة وخمسين متراً فوق مستوى سطح البحر وتبدو في شكل امتداد طويل على وادٍ سطحي تكسوه الخضرة الداكنة.

كل المنطقة جرداء بشكل لافت للنظر وينتشر فيها نبات العشر بوجه لم اشاهده حتى في كيكوة. أما واديها فغني بأشجاره اليانعة وخضرته الخلابة خلافاً للمناطق المجاورة. عبرنا الوادي متجهين لأقصى شرق المدينة علماً بأن الطريق الذي يؤدي إلى وسطها – حيث مقر السلطان – يقع على الجنوب. كان طريقنا في عمق وادي الفاشر الذي ينساب من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي حتى وادي «الكوع» الذي ينساب بدوره نحو الجنوب ثم إلى الغرب.

أخذنا نصعد تدريجياً حتى تلة ترابية عالية حيث لاح لنا الجزء الشرقي للمدينة الذي يتكوّن من حقول وزرائب تحوي أغلبها حوالي الخمسة إلى العشرة أكواخ ثم بعض المباني الدائرية المشيدة من الطين مع القليل من الأشجار.

وبنظرة عميقة للظروف المحيطة بي والمستقبل المجهول الذي ينتظرني كنت أحس بعدم الأمان وكان لهذا الشعور ما يبرره لأنني لاحظت قلق حاج أحمد الشديد عليّ إذ لم يركن للإستجمام بل أمتطي حصانه في نفس الليلة وقام بزيارة الخبير محمد صهر السلطان وزعيم الجلابة الذي يقع مسكنه أقصى الجنوب الغربي للمدينة وعند أوبته أخبرني بأن شمس الدين الذي عجّل بمقابلة السلطان أخفى واقعة وصولي عنه.

وفي الليلة التالية ذهب حاج أحمد لتحية السلطان وهو يتوجس خيفة على مصيري، وقد تم استقباله لمكانته وعلاقته بالسلطان، ثم بدا في شرح مهمتي وكيف أنني أتيت من برنو وحللت

ضيفاً على السلطان علي الذي رحب بي كثيراً وواصل سرده حتى قاطعه السلطان قائلاً بأنه ليس هناك موجب لهذه المقدمة الطويلة لأن أنباء وصولي بلغته ليس عن طريق الشرتاي حنيفي فحسب بل عن طريق الحكومة المصرية أيضا. والتي كانت تلح وتستعجل مغادرتي لدارفور بصفة عاجلة وملحة. وأضاف السلطان - والحديث لحاج أحمد - بأنه يستقبلني بضمير صاف وسيسهل سفري لمصر بأسرع فرصة ممكنة.

حضر لي حاج أحمد مسروراً برغم تأخر الليل ليوقظني من ثباتي ويبلغني بهذه الأنباء السارة مما يدل على مشاعره النبيلة نحوي. صار لزاما عليّ مقابلة السلطان في الصباح.

الإقامة في الفاشر

9 مارس 1874م

في الجزء الشرقي للحي الذي أقمنا فيه يُوجد الحد الشمالي الشرقي لمجرى واد متدرج الشطآن، تزخر تربته الطينية السوداء في فصل الخريف بالمياه وتنتشر فيه الآبار التي تمدُّ الفاشر بالمياه في موسم الجفاف. يبلغ عمق الطبقة الطينية التي تغطي مجرى النهر حوالي المتر تتلوها تربة رملية. ويُطلق عليه اسم رهد أو نهر تندلتي[1] ومنه تستمد العاصمة اسمها، ومما تجدر ملاحظته هو إن اسم الفاشر يقتصر على الجزء المأهول من المدينة. ولبلوغ السوق الواقع في الجزء الشمالي- خلال موسم الأمطار – يتعين على المرء الدوران حول البحيرة سواء من ناحيتها الشمالية الشرقية أو الجنوبية الغربية. ويقدر عرض هذا الوادي بحوالي الكيلومتر ويبلغ طوله حوالي الأربعة كليومترات وعلى شفيره بعض القرقان المنتشرة خصوصاً في ضفته الشرقية والتي يتجاوز ارتفاعها الستة عشر متراً. وتنتشر على ضفافه بعض الحقول المزروعة بالبصل والفجل وشئ من القمح.

تم نقل العاصمة إلى هذا الموقع في زمن السلطان عبد الرحمن المشهور بعبد الرحمن الرشيد[2]، الذي أقام مقر سكنه على الضفة الشمالية. أما السلاطين الذين سبقوه فقد أقاموا بجبل مرة. شيد أغلب السكان بيوتهم في هذا الجانب من البحيرة أما الضفة الجنوبية فلم تحظ بالسكن إلا مؤخراً.

أقمنا بحي الجلابة الذي يسمى (لوقوليا أو سقوليا) [3] ويقع بالقرب من الحدود الشمالية الشرقية للمدينة. وتُوجد على بعد ربع الساعة تقريباً شمال مسكننا تُوجد قرية تسكنها قبائل البرنو والكنكو، أما المسجد الجامع فيقع على بعد نفس المسافة تقريباً إلى الشمال الشرقي منا.

تتمركز الكثافة السكانية حول القصر السلطاني كما هو الحال في تلك الأصقاع، ويقوم التخطيط على إحاطة القصر بزارئب أرباب الدولة، يتلوهم من هم دونهم وهكذا دواليك.

شيد السلطان حسين قصراً آخر على الضفة الجنوبية للبحيرة ويقع جنوب سكن عائلته القديم مباشرة بيد أنه يبعد قليلاً عن البحيرة.

يُوجد وادي الفاشر شمال المدينة وينساب نحو الشمال الغربي ثم يغير اتجاهه عند الحدود الغربية لبحيرة تندلتي ليتجه صوب الجنوب لكنه يظل مرتبطاً بها، وهو أحد الروافد التي تغذيها بالمياه في موسم الأمطار حتى يبلغ مصبه في وادي الكوع جنوب غرب الفاشر.

اختار السلطان السابق «حسين» الإقامة في القصر الجنوبي الذي شيده بنفسه وأسماه «تمباسي»[4]. أما السلطان إبراهيم فيقيم الآن – بصفة موقتة- في قصر العائلة العتيق وفقاً للتقاليد التي تلزمه بأن يبقى هنالك لبعض الوقت عقب احتفال الطبول والذي أقيم قبل وقت

1- الاسم الحقيقي للمدينة أما الفاشر فتعني مجلس السلطان أو العاصمة.

2- كانت العاصمة في طرة ويُحكى أنه أخذ هذا المنطقة من قبيلة الأشرة ودفع لهم مقابلها سبعين جملاً لينقلوا بها حاجتهم من المياه.

3- الصحيح سوقلنا وهي في الغالب تصغير لسلوقنا التي تعني بلغة الفور (العربي).

4- أصبح هذا الاسم يُطلق على الحي الذي يجاور هذا المبنى حتى اليوم.

وجيز من قدومنا للفاشر.

وفي اليوم المخصص لمقابلة السلطان خرجنا عصراً ونحن على صهوات الجياد وعبرنا البحيرة التي كانت وقتها خالية من المياه حتى وصلنا الضفة المقابلة التي تعد أكثر مناطق المدينة إكتظاظاً بالسكان، وتفادياً للإزعاج دخلنا القصر من باب النساء الذي يسمى «أورباية» خلافاً للوضع الصحيح والذي يقتضي دخولنا بباب الرجال المسمى بـ «أوردي». تخلو الناحية الشرقية للبحيرة إلا من بعض الزرائب المتناثرة هنا وهناك، لكننا عندما اقتربنا من مقر السلطان أصبحت المنازل متقاربة لبعضها البعض بما يعطي شكل القرية المتكاملة. أغلب المساكن مشيدة من القش وتبدو أقل متانة من ناحية فن البناء، وتتخللها القليل من المباني الطينية المتفرقة.

سررت لرؤية ساحة دائرية الشكل تحوي مساكن مشيدة من الطين مسقوفة بغطاء كثيف من القش، وغالباً ما يحوي المسكن غرفة واحدة من النوع الذي يتميز بالحفاظ على البرودة وهو أمر معهود في المباني الطينية عند اشتداد الحرارة في فصل الصيف، وفضلاً عن ذلك فإن مثل هذه المباني تقي قاطنيها من تسرب مياه الأمطار في فصل الخريف وذلك لأن سقف المساكن العادية الطيني المنبسط لا يكفي لمنع المياه من أن تتقاطر للداخل.

لا يستخدم القش المضفور[1] في عمل الزرائب إلا نادراً بل يستخدم لهذا الغرض حزم كثيفة من القصب ترص على طول الحوش في وضع رأسي، وتشد إلى بعضها البعض بمستويات مختلفة حرصاً على المتانة والكثافة، وفي سبيل إضفاء التنوع على تصميم السياج يُقص القش على ارتفاعات متباينة.

تخترق المنطقة عدد من الدروب الصغيرة المتعرجة مبعثرة وسط الزرائب بوجه لا يمكن تخيله، وتتقاطع مع بعضها البعض بحيث يصعب تمييزها أو التعرف عليها الأمر الذي يقتضي معرفة لصيقة بالمكان.

المقر السلطاني القديم مسوّر بالقش تليه طبقة من الشوك الكثيف العالي، ويأخذ المبنى شكلاً بيضاوياً بمحورين يمتدان من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ويحتاج المرء لحوالي ربع الساعة للإلتفاف حوله.

عندما بلغنا القصر ترجلنا من على ظهور الجياد وخلعنا أحذيتنا عند المدخل، أما بالنسبة لي فكنت إحتفظ بحذاء من جلد الأغنام مستورد من ساحل شمال أفريقيا، وهذا النوع لا يُعد من قبيل الأحذية عندما يقتضي الحال خلعها لحظة دخول الغرف أو أثناء الصلاة مثلاً، ولذلك احتفظت بواحد منها منذ أن عرفت هذا التقليد في برنو.

عبرنا دهليزاً ضيقاً نفذنا منه إلى آخر أضيق ثم دخلنا دهليزاً ثالثاً، وصلنا بعده منزل أحمد بخيت الذي تقتضي التقاليد أن نقابله أولاً، وهو ابن لأحمد طربوش الذي سيرد ذكره عند تطرقنا لتاريخ دارفور، وجدنا شاباً صغيراً مهذباً ذو لحية وشارب خفيفين وهدوءه الظاهري لا

1- يسميه العرب «شرقانية» كما يسميه البرنو «سقيدي»

يكشف عن حقيقة قوته التي مكنته من ترتيب الأمور التي أدت لإرتقاء السلطان إبراهيم لسدة الحكم عقب وفاة السلطان حسين، بيد أن عينيه لا تبثان الثقة والإطمئنان في النفس. ولما كان على وشك الترقي لدرجة الوزير، قدمت له قطعة حريرية كهدية وتبادلت معه الحديث عن والده. وكم إمتلأ دهشة وخيلاء عندما اكتشف إلمامي بالدور الكبير الذي لعبه في سبيل تنصيب السلطان إبراهيم.

ثم فيما بعد حضر الخبير محمد الذي سبق وذكرناه وهو رجل أكمل العقد الخامس من العمر ولا يشغل منصباً رسمياً في البلاد سوى رئاسته للتجار، لكن بحكم مصاهرته للسلطان في شقيته الإياباسي ظل يتمتع بالكثير من النفوذ وذلك لأنه يستطيع أن يتصل به دون أية عوائق. وبسبب سفره المتكرر لمصر أصبح ملماً بالأعراف التي تحكم العلاقات مع الخارج، فضلاً عن تعرفه إلى الكثير من الأوربيين. وقد تبادلت معه حديثاً شيقاً عن رحلاتي وما لاقيته من مشاق، كما تحدثنا عن بلاده. ثم تطرقنا لأحاديث شتى إلى أن تم إبلاغ السلطان بمقدمنا وأذن لنا بالدخول.

ولجنا قاعة أصغر من سابقتها مشيدة من الطين تتوسطها منصة. عندها طلب إليّ – المشرفين على المراسم – أن أخلع حذائي، وامتثلت للأمر وخلعت الحذاء وبقيت بالجوارب فقط والتي كانت آخر جوز من تلك المعالم التي تذكّر الإنسان بالعالم المتحضّر. نفذنا إلى قاعة رابعة وفي مؤخرة هذه القاعة جلس السلطان على بساط وهو على بعد حوالي عشرين خطوة منّا وعلى جانبي المدخل إصطف العبيد وبأيديهم القطبان والرايات الحمراء، وعلى بُعد قليل منه – أي بجوار المدخل – كان هناك عدد من الغلمان والخدم الجاثين على ركبهم وقد تقوست ظهورهم وهم يمسحون الأرض براحات الأيدي كما تقتضي التقاليد. كان السلطان ملثماً – كما يفعل كل ملوك السودان – يغطي لثامه النصف الأدنى من الوجه تماماً ملتحفاً بشال حول العنق يُطلق عليه اسم «ملفحة أو فردة».

وبمجرد أن وطأت أقدامنا مدخل القاعة خررنا جميعنا إلى الأرض وفقّ لما تقتضي الأعراف وتمتمنا بالتحية مصحوبة بتمنياتنا له بطول العمر والعيش في سلام. رد السلطان تحياتنا بعبارات غير مسموعة إلا أن العبيد سارعوا بالترجمة مرددين «أري دونقا – أري دونقا» وكانت تلك هي مجمل العبارات التي رد بها على تحيتنا. عقب هذا الرد بدأ الجميع في مسح الأرض براحات أيديهم باستثنائي أنا. ثم قام الخبير محمد بتسليم الهدايا التي قدمها الحاضرون مع إعلان اسم مقدم كل هدية على حدة لحظة تسليمها. بدأت بتسليم الفرس الذي أرسله معي سلطان ودّاي كهدية، ثم قمت بتقديم صندوق الألعاب الموسيقية كهدية شخصيّة مني له. شكر السلطان الحاضرين على هداياهم بعبارة «تبارك الله». ورغم سماعنا لرده بوضوح إلا أن الخبير بادر بالتفسير وخاطب الجميع بأن السلطان قال «بارك الله». عقب ذلك زحف صديقي حاج أحمد على ركبتيه ويديه واقترب من السلطان بعد أن أشار لي بأن أتبعه. تبعت حاج أحمد

فعلاً لكنني لم أحذو حذوه لأنني تقدمت ماشياً وعندما اقتربت من السطان جلست القرفصاء وأنا أردد التحية والتمنيات. استجاب السلطان لتحيتي وتقبلها بروح ودية، ثم تحرى عن جهة قدومي وأكد التزامه بحمايتي مع الوعد بأن يعاونني في رحلتي القادمة إلى مصر. ثم نصحني بأن أسرع بقدر الإمكان لأن السلطات في مصر تستعجل حضوري، وهي نفس الرسالة التي سبق لحاج أحمد أن نقلها لي من قبل. وهذا يعني أنه بات لزاماً عليّ أن أتخلى عن أي فكرة للتجول داخل البلاد بغرض إجراء دراستي عن المنطقة وشعبها. أجبت بأنني حضرت بمعية حاج أحمد وهو صديق حميم وإنني أنوي تكملة الرحلة برفقته عبر دنقلا حتى مصر إذا كان لا ينوي أن يتأخر في دارفور.

قابل السلطان قولي هذا باستحسان شديد وأذن لنا بالقيام تشيعنا عباراته التي تدعوا لنا بالتمنيات والتوفيق.

كان السلطان إبراهيم في حوالي الأربعين من العمر بشرته حالكه السواد، قوي طويل القامة، مستدير الوجه، تُعبر قسماته عن الحنو والعطف.

قمت في اليوم التالي بزيارة الخبير محمد وأخاه حاج حمزة[1] وأخطرني الأخير بأنه كُلف بأن يحمل لي أمانات من مصر وهي عبارة عن رسائل ونقود. يُعتبر الخبير رجل مهم جداً وليس ذلك بسبب مصاهرته للسلطان فحسب، بل بسبب ثروته الطائلة التي قيل إنها تفوق بكثير ثروات التجار المسلمين في مصر وحتى في جدة. يقع بيته أقصى الجنوب الغربي لمدنية الفاشر التي تبعد عن قريتنا مسيرة نصف ساعة بالحصان. ونظراً لرفعة مكانة زوجته فإن من المتعذر مقابلته ما لم يكن هناك موعداً محدداً سلفاً، وحتى السلطان نفسه – عندما يرغب في مقابلة الإياباسي – لا يقتحم داره دون استئذان.

قُدمت لنا الأطباق المعتادة من الحلوى والمشويات وكبد الإبل النيء وكسرة القمح المشبعة بالعسل، بعدها قُدمت لنا القهوة في أقداح من الصيني،بعد ذلك سارع حاج حمزة وسلمني مبلغ الخمسمائة دولار «ماري تريزا» مع رسالة من حاكم عام السودان بالخرطوم[2]، وكم أبهجتني تلك الرسالة من هرفون جامستد الذي كان يشغل منصب القنصل العام في مصر. أنظر كيف يتجلى الفرق في التعامل بين حاج حمزة وذلك الطرابلسي الجشع محمد زوميت في أبشي إذ لم يُكلف حاج حمزة السوداني نفسه مشقة الحصول على إيصال يفيد باستلامي المبلغ، بينما ألح ذلك الطرابلس – الذي خبر التعامل مع الأوروبيين- على ذلك، وعلى أية حال فالكثيرين من عرب شمال أفريقيا وخصوصاً سكان طرابلس يُعدون دون تجار النيل طباعاً وحميد خصال.

1- كلاهما ناصر المصريين عندما نشب النزاع بعد مغادرة المؤلف لدارفور وعين غردون محمد حاكماً لغرب دارفور في 1879م إلا أنه سرعان ما أقيل من منصبه ثم انضم للمهدية حيثمات في معسكر المهدي في 1883م. أما حاج حمزة فقد عين رئيساً لمحكمة الاستئناف في الخرطوم ونال درجة باشا.

2- اسماعيل باشا أيوب.

انتهزت هذه السانحة وطلبت من الخبير محمد أن يتوسط لي لدى السلطان حتى يحقق لي رغبتي في السماح بالتجوال والسعي داخل البلاد، لكنه اعتذر لي متعللاً بأن موقعه لا يمكنه من التأثير على السلطان خصوصاً في مثل هذا الأمر لأن المواطنين سيلصقون به تهمة الخيانة لا محالة خاصة وقد علموا بأن اخاه أحضر لي رسالة ونقوداً وهكذا سيدمغونه بالعمالة للأتراك وخيانة البلاد وغير ذلك من التهم، لكنه وعدني بأنه إذا سؤل رأيه سيؤازرني وسيؤكد براءة مقصدي وسيوضح بأنه ليس هناك ضرر البتة من تجوالي داخل البلاد. ثم تطرق الحديث بيننا لإمكانية استقدام حرفيين من أوروبا للاستفادة منهم في تعليم المواطنين، لكنني أقنعته بأن هذا شئ غير عملي وغير معقول لأسباب أوضحتها له، ثم بعد إنتهاء الزيارة عدت أدراجي لمسكني.

وفي اليوم التالي فكرت في أن أتقدم بطلبي للسلطان مباشرة إلا أن مسعاي باء بالفشل لأنني ظللت أقضي أربع أو خمس ساعات كل يوم في غرفة الأمين بخيت – بالقصر – على أمل أن أقابل السلطان لكن دائماً يطرأ ما يمنع السلطان عن استقبالي، بيد أن تلك الساعات لم تضع هدراً لأن هناك الكثيرين ممن يترددون على القصر إنتظاراً للمقابلة وكنت استفيد من بعض المعلومات التي أستقيها منهم، ومع ذلك لم يكن جُلهم من الأشخاص المريحين بسبب إزعاجهم وفضولهم وتطفلهم الذي مارسوه معي كثيراً. كنت أصطحب خرائط تهرمان وهاستنس المبينة لدارفور والتي جُهزت للبعثة الألمانية المكرسة للبحث عن فوقيل، والغرض من إصطحابي لتلك الخرط ليس المراجعة والإطلاع بل كنت أرمي لإحاطة نفسي بهالة كسباً لثقة الأهالي وإزاحة الشك والريب من أذهانهم، وإمعاناً في إظهار إلمامي التام ببلادهم، أخبرتهم – في حضرة الأمين بخيت وكبار رجالات الدولة – بأننا نملك منذ زمن بعيد معلومات وافية عن جميع الأنهار والجبال والقرى الموجودة في دارفور إلا أننا لا نستخدم هذه المعلومات بوجه يضر البلاد. لم يستطع الجميع إخفاء دهشتهم وسرورهم لهذه المعلومات التي تميط اللثام عن كثير من الأسئلة المحيرة التي كانت تجول بأذهانهم، بيد أن هذا المكان – الذي يجاور قاعة السلطان – لم يكن الموقع المناسب لمناقشة مثل هذه الأمور وبالتالي كان عليّ توخي الحيطة والحذر. حرص الكل من مسئولي القرى وأصحاب الحواكير على رؤية قراهم على الخرائط وظلوا يحملقون فيها بدهشة ويطل من أعينهم فرح طفولي، مع قناعة تامة بالموقع الذي أحدده لهم في الرسومات. لقد سعدت جداً بانفعالات «تيما المسبعاوي» وتجاوبه مع الخرائط خصوصاً عندما شرحت له أسس تصميمها، ولاحظت أنه كان مقتنعاً تماماً بكل ما بينته له من معلومات، علماً بأن تلك المعلومات لم تخل من بعض النقائص والأخطاء.

أخيراً وفي الثاني والعشرين من مارس نجحت في عرض طلبي على السلطان وكان ذلك بعد العرض العسكري– أي «العرضة» كما يسمونها والتي سنتعرض لها لاحقاً – الذي تم في الثالث عشر من الشهر. انتقل السلطان للقصر الجديد الواقع على الجانب الجنوبي للبحيرة، بينما يقع قصر تومباسي – بيضاوي الشكل أيضاً – على بعد دقائق قليلة من رهد تندلتي، ويمتد

القطاع الطولي لذلك القصر من الشمال الغربي للجنوب الشرقي، ويقل محيطه عن القصر القديم وشيدت جدرانه من الطين، ومدخل «الأوردي» يواجه البحيرة مباشرة.

لاحظت أن الأبواب الخارجية للقصر لم تكن مغلقة بإحكام وكان أسلوب إغلاقها بدائي خلافاً للوضع في أقطار السودان الغربي المجاورة حيث تُصنع المصاريع من الأخشاب رغم أن صناعها هناك تُعتبر غير متقنة أيضاً. اما هنا يستخدم الأهالي فروع الأشجار كأبواب ونوافذ[1]، وذلك بعد نسجها، حيث يتم تثبيتها على الجدران بحبال متينة مصنوعة من الألياف وغلقها من الداخل بالسلاسل.

في الدهليز الخارجي للقصر يقيم حُراس الأبواب من التابعين والعبيد. عند المدخل ينتصب مدفع صغير صُنع محلياً، مثبت على قاعدة هرمية الشكل بعجلتين خشبيتين، ولعدم وجود الطرق المعبدة فإن هناك مشقة حقيقية عند أي محاولة لتحريكه من موقعه.

يعيش في الدهليز الثاني بعض الحراس من ذوي الرتب الأعلى، ثم في الجزء الثالث يُوجد كوخ كبير مشيد من القش ومبطن بالأقمشة الملونة ومخصص لإجتماع السلطان بمستشارية. أما القسم الرابع فهو المقر الرسمي للأمين بخيت، وكان لحظتها قد دخل للسلطان بعد أن تلقى أمراً بالمثول أمامه.

يتفرَّع القسم الخامس من سابقه، وهناك جلس السلطان خلف ستارة تسمى «بويا». خلعت أحذيتي وزحفت تحت الستارة حتى وصلت مكان جلوس السلطان وألقيت عليه بالتحية. والمعلوم هنا أن أي تصرف تحكمه أعراف عقيمة بما في ذلك تحية الأدنى للأعلى، وتنطوي هذه الأعراف على الإجلال والتوقير. رد السطلان علي تحيتي بقوله «عافية هم هم» وظل يرددها لحوالي ستة مرات وتبعها بالعبارة المعهودة «أزي دونقا» وفي الحال ضرب الحاضرون الأرض براحات أيديهم بقوة وهمة عاليتين. نهضت من مكاني وتوجهت نحو السلطان ثم جلست مرة أخرى مع ترديدي لعبارات التحية ثم بدأت في تقديم التماسي. أوضحت له بأنني عاطل الآن لا أؤدي أي عمل وليس لي أنشطة تجارية أو خلافه سوى بعض المهام الثانوية، فضلاً عن ذلك أصبحت محدود الحركة بسبب بغض الأهالي وعداؤهم لي لدرجة أنهم يتتبعون خطواتي كلما بارحت مكان إقامتي، ولا يكتفون بهذا السلوك فقط بل يسبونني ويتوعدونني، لذا طلبت منه السماح لي بالقيام في رحلة للجنوب حتى نبع «رتوتوك» ذي المياه الساخنة والذي بلغني أنه يقع في أقصى جنوب جبل مرة، ثم أضفت بأن مهارتي كطبيب ستمكنني من الكشف عن بعض المزايا العلاجية لمياه النبع مما سيعود عليه بالنفع بحسبانه حاكم البلاد.

كنت أحسب أن تستري بالمهمة الطبية سيزيح عن ذهنه الشكوك والريب واعتقدت إن تلك الحجة أفضل من أن أفصح عن رغبتي في إجراء دراسات حول طبيعة الأرض،لكن خاب فألي، إذ أفادني السلطان بصراحة شديدة بأن القيام بمثل هذه الرحلة وفي هذه الظروف يُعد من رابع المستحيلات، وذلك لأن مبعث كراهية الأهالي لشخصي هو ذلك النزاع القائم مع الحكومة

1 -تسمى محلياً السدادة.

المصرية وكان علي أن أدرك ذلك من مُجمل تصرفات الشرتاي حنيفي وسلوك أهالي الفاشر نحوي، وعزز السلطان أسبابه بالرفض بأنه لم يتول الحكم لفترة كافية، وللظروف العصيبة التي تكتنف البلاد فإنه سوف لن يضمن حياتي خارج نطاق العاصمة.

ثم أضاف بأن الأمر يتطلب شيئاً من التروي والتفكير، وانه – أي السلطان- إذا ما أطلق العنان لجاسوس تركي – حسب إعتقاد الأهالي – يتجوّل في البلاد سيرمونه بالخيانة حتماً . أما إذا كنت في حاجة لمعلومات عن المنطقة وشعبها فإن من دواعي سروره أن يساعدني وهذا هو أقصى ما يستطيع تقديمه لي.

لم أجرؤ على التعليق أو الإلحاح، ولذلك إكتفيت بأن التمست منه المساعدة وذلك بأن يرشح لي ثلاثة أشخاص على أن تكون لأحدهم الدراية بأرض دارفور وآخر يعرف تاريخها وثالث يكون ملماً بالعربية واللهجة المحلية. لم يتردد السلطان بل أبدى استعداده لتحقيق هذه الرغبة.

لحسن حظي فإن السلطان فهم حديثي رغم أنني كنت أتحدث بلهجة تونسية تارة وفزانية تارة أخرى بعكس الأهالي الذين وجدوا صعوبة في فهم حديثي في البداية، علماً بأنهم جميعاً يتحدثون العربية بجانب لغة الفور.

عند تلك المقابلة كان السلطان يرتدي ثوباً بسيطاً أزرق اللون ونعلاً مخملياً مطرزاً باللون الفضي، وبدا متبسطاً في الحديث لدرجة أنه سألني عن طبيعة الحصان الذي أحضرته كهدية من سلطان وداي وهل هو حصان «فالح» أي حسن الطباع، فأجبته بأنه كان عليّ أن أجربه ولكن ما منعني من ذلك هو أنه هدية للسطان وبالتالي لم أجرؤ على إمتطائه إذ إن هذا لا يليق.

بعد أن غادرت مجلس السلطان عرجت على غرفة الأمين بخيت كي أقابله واستعلم عن الخبراء الذين وعدني بهم السلطان، وكم كنت محظوظاً لأن الظروف هيأت لي لقاءاً مع رجل له إلمام تام بأرض أجداده يُدعى عبدالعزيز فتجاذبت معه الحديث عن المساليت في غرب البلاد، وخصلة النهب لدى فرع الترجي، وعن أكلي لحوم البشر من مساليت «أم بوس» الذين لم يصدهم إعتناقهم للإسلام عن ممارسة هذا الفعل المفزع، وأفادني بأنهم حتى الآن يتخذون من الجلود البشرية قرباً للمياه ويصدرونها لداخل دارفور أحياناً.

ومن المعلومات الغزيرة التي زودني بها هذا الرجل، تعرفت على الأنهار المختلفة التي تنحدر من مرتفعات جبل مرة وعرفت الكثير عن الوديان التي تنبع من سفوحه الغربية وتصب مباشرة في وادي «أزوم» والذي يحتل في بدايته مجرى وادي «باري» ثم يعرج نحو الجنوب الغربي حيث يستوعب مياه وأدبي أسونقا و «أبوسانانطه- المقترنان قبل الإلتقاء به- ثم يندفع نحو الجنوب حتى ديار الداجو ليتحول إلى بحر السلامات. وهنا سمعت لأول مرة عن مقاطعة «فور التموكة»[1] التي تقع جنوب غرب جبل مرة، ومنها ينساب وادي «إبرة» نحو الجنوب ليلتقي بواديي «جندي» و«كُبل» المنحدر من المرتفعات الجنوبية لجبل مرة، ثم يخترق ديار الرزيقات حيث يسمى – هناك – وادي «التايا» أي بحر العرب التابع لمجموعة نهر النيل. وأضاف محدثي

1- شعبة من الفور يعيشون جنوب غرب دار أبودماء. انظر : مكمايل، ص٨١.

بأن مياه الأمطار التي تتدفع من جبل مرة نحو الشرق تتجمع في مجرى واحد يعرف فيما بعد باسم وادي «الكوب أو «الكوع»، إلا أن مجرى هذا الوادي لا يصل النيل بل تتقطع مياهه إلى برك ومستنقعات ضحلة بجنوب دارفور.

لم يكتف محدثي بذلك بل زودني بمعلومات دقيقة عن السكان وأقسامهم المختلفة وذكر لي بأن الأهالي يمدونهم على أصابع اليد الواحدة وفق حروف أبجدية عربية تقرأ كالآتي « دال، تاء، فاء، زاي، نون، وترمز لتلك الحروف – على التوالي – لقبائل داجو، تُنجر، فور، زغاوة، نوابية، وسنعود لطرق هذا الموضوع عند تناولنا للقبائل. ووفقاً للمعلومات التي تلقيتها من هذا الرجل فإن هناك مدونات تاريخية لا زالت باقية وأوعدني بالبحث عنها واطلاعي عليها.

الآن أصبح شُغلي الشاغل هو الوصول للخبراء الذين وعدني بهم السلطان، وقد لاقيت الأمرين في سبيل الإهتداء إليهم. فالأشخاص الذين رشحهم لي أصدقائي وأغريتهم بالمكافآت ووعدوا خيراً، إرتدوا على عقبيهم ونكصوا عن عهودهم مخافة أن يُتهموا بالخيانة، وحتى هؤلاء الذي يُنعتون بأنهم أصدقاء حميمون لحاج أحمد والذين بذلت لهم مكافآت سخية لم يكونوا أحسن من سابقيهم بل آثروا الإنسحاب في اللحظة الأخيرة. ومن الجانب الآخر فقد حاصرتني المشاق المتمثلة في النوايا الشريرة للأهالي وسبابهم المتواصل لي، ولعل هذا السلوك ينسجم تماماً مع كبريائهم وعجرفتهم وسمة التعصب الديني المتأصلة فيهم، ومما زاد الأمر تعقيداً تلك الظروف السياسية التي تشهدها المنطقة المتمثلة في الضغوط المصرية على البلاد. وهكذا صرت أتعرّض للسخرية والسباب أينما حللت ولا يختلف الأمر ما إذا كنت أبحث عن أحد الخبراء أو كنت في مهمة لمعاودة شخص مريض. ظلت الإهانات تلاحقني وكنت أسمع أقزع الألفاظ حتى وأنا في القصر السلطاني، وإذا صادف أن ذهبت إلى هناك دون ان أكون بصحبة أحد الشخصيات المهمة فإنهم يبقونني مصلوباً خارج الأبواب حيث أظل منتظراً لساعات على أمل أن أحصل على الإذن بالدخول، ثم يخبرونني – في النهاية – بألا سبيل لمقابلة السلطان، وفي هذه الأثناء لم أكنْ مجبراً على إبتلاع إهانات المارة والمتسكعين ببصقهم على وجهي بل يتملكني في بعض الأحيان إحساس بالخوف من أستدراجي لمعركة – دفاعاً عن نفسي – وهو أمر ستكون نتيجة الحتمية الأذى أو الموت الزؤام.

وكُنت أتعرّض للكثير من المضايقات سواء في غرفة الإنتظار بالقصر أو في الطرقات العامة كما كنت أتعرّض لكثير من الأسئلة التي لا معنى لها، مثل استفسارهم لي – بوصفي مسيحي – إن كنت أستطيع ترديد عبارة لا إله إلا الله « استدراجاً لي حتى أكمل عبارة « محمد رسول الله» التي تمثل الشهادة الإسلامية.

وفي أحدى المرات بينما كانت قاعة الإنتظار – بالقصر – مكتظة بالحاضرين دخلت إحدى الجواري من قبيلة البندة ولدهشتي فقد كانت فتاة فاتحة البشرة وكان بياض لونها يتجلى وسط هذا الرهط من ذوي السحن السوداء بما يتجاوز صفاءه الحقيقي، وللحظة إعتقدت إنها

أوروبية ضلت طريقها إلى هنا. ألجمت الدهشة لساني عندما استدرجوها لتقف أمامي وهم منهمكون في سخريتهم مقترحين عليّ أن أتزوجها.

إضطررت لأن أنقل للسلطان بأنه بات لزاماً عليّ أن اكف عن الحضور لمقابلته ما دمت لا أجد الحماية منه صوناً لكرامتي وسط العامة، إذ لا تقتصر الإهانات على شخصي فحسب، بل امتدت لتشمل بعض متعلقاتي حيث اعتاد بعضهم تشييعي بالسباب واللعنات كلما شاهدوا السرج التركي الذي كنت أستخدمه لحصاني مما أجبرني لاستبداله بسرج عربي باهظ التكاليف وذلك حتى أجنّب نفسي وخدمي الإهانات التي كانوا يتعرضون لها متى ما رآهم الأهالي وهم يقودون الفرس.

يتعرض الخدم والعبيد الذين يستخدمهم شخص مسيحي - في مثل هذه الأصقاع- للكثير من الأهوال نظير إخلاصهم وولائهم لسيدهم، إذ ينظر لهم الجميع نظرة إزدراء واحتقار، وهذه النظرة هي صدى لفتاوى الكثير من فقهائهم المتعصبين الذين يرون أن خدمة النصراني سبة وخطيئة، وهكذا يتعرّض الخدم للمضايقة من قبل السُوقة والدهماء الذين يصورون لهم قتامة الحياة في أوروبا وما سيلاقونه من متاعب جمة سيتحملون ويلاتها فيما بعد. الأمر الذي يقتضي أن يكون الخدم على درجة من المسئولية والولاء كما يتعين أن يكون سيدهم على درجة من اليقظة والحذر مع وجوب أن يحتفظ بشئ من العلاقات الإنسانية الطيبة معهم.

خلال تعاملي الطويل مع الزنوج عرفت كيف أتعامل معهم بشكل صحيح وقد نجحت في التغلب على الروح العدائية الكامنة في نفوسهم.

إنتشرت الأنباء عن الحرب ضد البحارة وتحركات القوات المصرية، وذاعت الأنباء عن الوقائع المتلاحقة معركة تلو الأخرى مما حضني على التفكير في مغادرة البلاد في أول سانحة يمكن أن تلوح لي.

تمكنت أخيراً من الإهتداء لثلاثة أشخاص قدموا لي الكثير من المعلومات التي كنت في حاجة إليها وذلك بغرض إثراء معلوماتي عن تلك البلاد وشعبها.

الفكي عبدالعزيز، الذي سبق وتقابلت وإياه في القصر السلطاني والذيّ زودني بالكثير من المعلومات المهمة، هاجر أسلافه من باقرمة إلى دارفور في أوائل عهد السلطان أحمد بكر (1682-1722) وكان على علم بكل ظاهرة وخابئة عن الكثير من المديريات مثل مديرية الجنوب (دار أبودما)، والمديرية الغربية (دار كرني)، ودار فيا، ودار ميد، إضافة لمديريتي جبل مرة وروكرو بقراهم وأنهارهم وجبالهم والعنصر البشري السائد فيهم.

وقد طاف مخبري بهذه المناطق لأنه بُعث عدة مرات للعديد من الشراتي وغيرهم من المسئولين عن تلك القرى، كما سبق وكُلف بجميع ضرائبها عدة مرات. أما شقيقه الفكي محمد فقد كان رجلاً متعلماً، ووفقاً لمعاييرهم المحلية يُعتبر عالماً، وبجانب ذلك فهو يجيد لغة الفور بدرجة مدهشة، فضلاً عن ذلك فهو خبير ذو علم ومعرفة وافية بتاريخ البلاد بالوجه الذي

سيلبي حاجتي في الإلمام بالكثير مما تتوق النفس لمعرفته. ومن صفات هذا الرجل أنه شغوف بالعلم والمعرفة لدرجة إن تساؤلاته العديدة استهلكت الكثير من زمني ولعدة أيام وأسابيع. من جانبي بذلت الكثير من الجهد لإعطائه فكرة عن علم الجغرافية والتي كان شغوفاً بمعرفتها. لم أضن عليه بالعون والمساعدة في تلقينه المبادئ العامة لكيفية رسم الخرائط. كما ترجمت شيئاً من التوراة والإنجيل له ولبعض المتعلمين الذي قدمهم لي. المتعلمون من المسلمين يكنون احتراماً عميقاً لكلمة الرب رغم إصرارهم على أن المسيحية مشوبة بالكثير من التحريف الذي ألحق بها في القرون الأولى لظهورها، وإن الكتاب المقدس الصحيح إنطوى على نبوءة بظهور محمد النبي في آخر الزمان وقد طمست هذه النبوءة. لقد إفتتن هؤلاء الرجال إفتتاناً شديداً بالمزامير وبيسوع المسيح الذي يكنون له احتراماً شديداً ويعتبرونه التالي لنبيهم الأعظم محمد، ويطلقون على يسوع «روح الله». ولاحظت أنهم نالوا قسطاً وافراً من المعرفة عن حياة المسيح وآلامه ومعجزاته واستوعبوها بإيمان عميق.

الكم الهائل من أسفار الإنجيل التي أخذتها معي بناء على نصيحة السيد أرتنقتون أوف ليدز المهتم أصلاً بالبعثات التبشيرية والمهام الإنسانية، كانت ذات فائدة كبرى بالنسبة لي بيد أنني ندمت على إهدائها كلها لشيخ عمر في كيكوة وكان عليّ أن آخذ جزءاً منها لوداي ودارفور لأنها كانت ستصلح حتماً في التمهيد لعلاقات أوسع مع قطاعات المتعلمين في تلك الأصقاع.

سبق للسلطان إبراهيم أن عرّفني بالباسي طاهر الذي توسمت فيه العلم والإدراك العميق لتاريخ البلاد، وكانت زريبته لا تبعد كثير شيء عن حي الجلابة «لقلوماء» – مقر إقامتي – وهكذا كنت أتصل به دون أن أعرّض نفسي لسباب الأهالي وإهاناتهم. لكنه للأسف كان شخصاً يصعب الاستفادة من علمه لأنه رجل مرتاب بطبيعته خصوصاً عندما علم بطبيعة المواضيع التي كنت أرغب في التقصي عنها. ولم يكن مستعداً لاستقبالي لولا الأمر الذي تلقاه من السلطان، وافق على تزويدي ببعض المعلومات العامة وهو مكره. ومن كبريات مشاكلي كانت معضلة اختيار الوقت المناسب للجلوس معه. فإذا حضرت له في الثامنة أو التاسعة صباحاً يتذرع بإرتباك أفكاره بسبب تعاطيه المريسة التي كان مولعاً بإحتسائها طول الوقت. وإذا أتيته عند شروق الشمس يعتذر ويدعي بأن أفكاره غير مرتبة لعدم تناوله للمنبهات المعتادة، ويتكرر هذا التسويف في العصر أيضاً. أما عند القيلولة فالغالب أن يكون مخموراً حتى الثمالة للدرجة التي يفتقد فيها السيطرة على نفسه، لاحتسائه – وقتها – كميات كبيرة من المريسة. لم يكن أمامي من مفر سوى الصبر وأنا أرى وقتي يذهب هدراً بسبب مطله وتسويفه.

جلست معه مرة في الصباح الباكر وشاركته إحتساء المريسة حتى حلول المساء، وبفضل هذه المشاركة أزحت عن ذهنه الكثير من الشك والتردد وبدأ يحس بشيء من الثقة حيالي وهكذا استطعت أن استدرجه على مهل لأنتزع منه بعض المعلومات وكان عليّ أن أنشط ذاكرته – بين الفينة والأخرى – بتقديم بعض الهدايا والهبات.

أن أسلوب حياة هذا الرجل تختلف عن بقية من عرفتهم من المسئولين من ذوي الدخول الثابتة، وكم كنت مندهشاً لمقدار الوقت الذي يهدره هؤلاء القوم في تعاطي المشروبات الكحولية وإسرافهم في تناولها وفي نفس الوقت تجدهم محتفظين بحيويتهم ونشاطهم. والمعروف أن الذين يتعاطون مثل هذا النوع من المشروبات يقللون تدريجياً من تناول النشويات الأخرى، مثل عصيدة الدخن المصحوبة بالإدام – الوجبة المعتادة – والتي يُفترض في المرء ان يتناولها مرتين يومياً، لكنهم كثيراً ما يعرضون عن أكلها ويستعيضون عنها بلحوم الإبل والخراف المشوية وكبد الإبل الطازج المتبل بالملح والشطة الحمراء – كما هو الحال في وداي – وذلك لإشباع حاجتهم في الغذاء.

سأقوم بتدوين ما عرفته من تاريخ دارفور ونظام الحكم وتوزيع السكان إعتماداً على ما تلقيته من مخبري الرسميين وما استقيته من غيرهم من ثقاة الرواة بالإضافة لاستنتاجاتي الخاصة.

تاريخ دارفور

يبدو أنه لا يُوجد ما يمكن الاعتماد عليه كمصدر حقيقي لتفاصيل تاريخ دافور سوى تلك الوثائق التاريخية الشحيحة، لم أطلع على أي مدونات في هذا الصدد بخلاف ما دونه بعض المهتمين من أحداث، وما يعيب هذا التدوين أنه يقتصر على السرد المبتسر لذكرى حكام البلاد دون إسنادها لتواريخ محددة، ودون تدعيمها بأية مذكرات والتي نرى أنها غاية في الضرورة لتوثيق تلك القوائم المطروحة في تلك المدونات. ونجد أن الأمر يزداد صعوبة وتعقيداً متى ما علمنا إن تلك القوائم متضاربة ومتناقضة في كثير من الأمور الجوهرية وبالتالي فإن الروايات المتداولة متناقضة في مجمل تفاصيلها هي الأخرى.

لقد دققت بكل صبر وأناة وأنا أطالع بعض المدونات التي وقعت في يدي. فقائمة الحكام التي أطلعني عليها الباسي[1] أحمد طاهر ذلك الرجل الذي وجهني إليه السلطان باعتباره خبيراً في تاريخ البلاد، وجدت فيها ثلاثة عشر اسماً لسلاطين أسرة (الكيرا) ليس فيها أي ذكر للسلاطين المتأخرين كالسلطان إبراهيم بن محمد الحسين الذي حكم لفترة تقل عن العام.

هناك قائمة أخرى تحوي خمسة أسماء فقط من سلاطين (الداجو) إضافة لخمسة وعشرين من سلاطين (التنجر) و(الكيرا) إلا أن هناك أخطاء جوهرية ومتناقضات في تلك المذكرات المرفقة بالوثيقة بالأخص فيما يتعلق بالحقب الزمنية والتسلسل الموضوعي التاريخي، وذلك كأن تجعل تلك المذكرات من النبي صالح معاصراً لـ (جنار) أول سلاطين (الداجو) والذي يُزعم بأنه عاش بجبل مرة، أو ما ورد بشأن الحقب الوثنية بالنسبة لسكان الجبال في دارفور ودّ اي، أو تلك الوقائع المنسوبة لحقب تاريخية معروفة، كل هذه الوقائع تجعل من هذه المدونات مصدراً لا يمكن الاعتماد عليه. هناك قائمة أخرى بحوزة ابن السلطان محمد الفضل مخطوطة باليد لكنها مجرد شجرة نسب أعدت كحجة لإثبات أحقية الأسرة المالكة الحالية في العرش. إضافة لذلك أرسل لي السلطان إبراهيم بعض المخطوطات التي ترجع لمهدي محمد الفضل وعبد الرحمن لكنها ليست أكثر من مستندات حكومية تتعلق بشئون الديوان والضرائب والصادرات وبالتالي فهي لا قيمة لها. وحسب علمي هناك مخطوطين عتيقين أحدهما بطرف باسي أحمد الطاهر والآخر مخطوط سلطاني يُعرف بكتاب دالي في حيازة الأبو شيخ (دالي)، وأثناء زيارتي كان من المفترض أن يُودع هذان المخطوطان خزانة القصر لأن السلطان حسين – والد السلطان إبراهيم – طلبهما من والد باسي أحمد وكان أحد شاغلي منصب الأبو شيخ إلا أن تلك المخطوطات لم تُسلم لشاغل المنصب الحالي. والجدير بالذكر أن هاتين الوثيقتين لا تشتملان على تسلسل الحكام أو تواريخ حكمهم أو حتى تواريخ نشوء تلك الممالك. ويحتوي كتاب دالي على المبادئ الأساسية للإدارة والنظام القضائي فقط، ووفقاً للنظم التي إبتكرها المؤسس الأول لسلطنة الكيرا أي السلطان (دليل) أو (دالي). أما الوثائق التي في حوزة باسي

1- معناها بلغة الفور طويل أو عظيم وربما كانت تحريف لذي باس.

أحمد فهي عبارة عن أوراق رسمية لتواريخ مضى عليها الدهر.

بينما كنت أتفحص هذه المستندات جالت بذهني كل هذه الروايات المتداولة وكنت أقارنها بالمدونات لأتبين ما يمكن قبوله مع استبعاد ما هو غير مؤكد المصدر. وكما أسلفت ظل الباسي طاهر يعاونني بناء على توجيهات السلطان ورغم أنه كان أكثر خبرة من غيره في هذا الأمر لكن أمانته في السرد كانت دون قناعتي لأن رواياته كثيراً ما تكون مشوبة بالفهم الخاطئ لمعنى الوطنية لدرجة أنه كان يتعمد إخفاء أي واقعة لا تتضمن إطراءً للسطان أو تنطوي على ذم له، ثم يعود ويعترف عندما يكتشف وقوفي على الحقيقة من غيره. وعليّ أن أقرر بأنني اكتشفت ما شاب حديثه من عدم الصدق والدقة في كثير من الأحيان.

عاش سلاطين الداجو في جبل مرة منذ عهد بعيد إلا أن سلطتهم لم تكن مطلقة بل اقتصر نفوذهم على الفور وغيرهم من القبائل الأخرى على تحصيل الضرائب فقط، وساعدت الطبيعة الجبلية تلك القبائل على الاحتفاظ باستقلاليتها بحيث لم يتجاوز نفوذ الداجو جبل مرة – قلب السلطنة – إلا نادراً. لم يذكر التاريخ سلاطين هذه القبيلة فيما عدا سلطانهم الأول (كوسبر) الذي عاش في «دُباء على السفح الشرقي للجبل ودفن هناك. القائمة التي استلمتها من أحد أمراء الداجو الذي فرّ من سلا لودّاي، تحوي واحد وعشرين اسماً من السلاطين الوثنين، ويسود الاعتقاد – بينهم – بأن ستة منهم مازالوا يعيشون في جبل مرة.

يدّعي الداجو أنهم قدموا من الشرق، وتجدر الملاحظة بأن أغلب حكامهم يحملون الأسماء العربية، إلا أن التاريخ ينفي انتمائهم للعرب، بل على العكس من ذلك هم قوم بدائيون ولم يتأثروا بالعادات العربية إلا مؤخراً ويُعزى انتقال السلطة منهم للتنجر بسبب جهلهم وتدني ثقافتهم مقارنة بثقافة التنجر.

يدعي التنجر بأن جذورهم تعود للجزيرة العربية وأن أصولهم الحديثة تعود لتونس و «أبوزيد الهلالي»، وهو شخصية مشهورة في الأدب الشعبي لدى العرب. وكما سبق وذكرت فقد وجدت في كانم – حيث تعيش مجموعة منهم- مكان اسمه «تونس» يُقال أن التنجر هم الذي أسسوه تخليداً لموطنهم الأم. تشير كل المراجع إلى أن جد التنجر هو «أحمد المعقور» ويبدو أن تفوقهم الذهني ومدنيتهم، فضلاً عن حضارتهم وكرمهم الفياض أدى لسحب بساط السلطة من الداجو دون قتال أو عنف رغم أن التنجر أنفسهم ما زالوا على الوثنية أو – على الأقل- أن إسلامهم لم يكن حسناً بالوجه الكافي للتأثير على البلدان التي تجاورهم أو لمحو الردة والوثنية عن غيرهم، ومع ذلك ظل التنجر وبقي الصلة بشعوب الجبال الأخرى التي تعيش في عزلة عن بعضها البعض. إضافة للتنجر فإن عائلة كيرا – الحكام الحاليون- ينتسبون لأحمد المعقور أيضاً مما يرجح الصلة بينهما. لا تحدثنا الرويات عن كيفية دخول التنجر لدارفور لكن الثابت إنهم من أدخلوا اللغة والثقافة العربية لدارفور، وقد اقتصر سلطانهم على القبائل الجبلية فقط مع إلزام البقية الباقية – مثل الداجو – بدفع الضرائب. ولا تقتصر الدلائل على الصلة

الوثقى بين أسرة الفور المالكة والتنجر على إدعاءات الطرفين بالإنتماء لأحمد المعقور فحسب بل إن الشواهد التاريخية التي تتعلق بانتقال السلطة من التنجر إلى أسرة الكيرا تثبت ذلك.

عندما دخل أحمد المعقور دارفور حظي بمكانة سامية لدى «كورما» السلطان الذي لم يرد اسمه في القوائم المختلفة لحكام دارفور، وتذهب الرواية إلى إن كورما تزوج من «فورا» ابنة زعيم الكيرا والتي انجبت له ابناً أسماه شو أو سو ثم طلقها وزوجها – فيما بعد – لأحمد المعقور فأنجبت له ولده دالي. هذه الرواية تختلف عن بعض الرويات المتداولة حتى الآن والتي تقول بأن «رفاعي» بن أحمد المعقور هو الذي تزوج ابنة زعيم كيرا وانجبت له شاو ودالي، بيد أن الثابت هو أنهما ليسا شقيقين لأنهما لا ينتميان لأم واحدة، وتؤكد كل القوائم والروايات المتواترة واقعة أن (شو) هو آخر حكام التنجر وأن أخاه غير الشقيق دالي أو دليل بحر هو المؤسس الأول لحكم عائلة كيرا. وبحسب القوائم والرويات المتوفرة يمكن وضع قائمة حكام دارفور كالآتي:-

1) حكم الداجو دارفور لعدة قرون من جبل مرة ثم انتقلت السلطنة منهم إلى التنجر دون قتال.

2) تصاهر التنجر والكيرا – "من قبيلة الفور" – وبمرور الزمن تكوّنت أسرة كيرا الحاكمة نتيجة لهذا التمازج ثم انتزعت حكم دارفور من التنجر بالقوة.

3) دخل الإسلام دارفور أبان حكم الكيرا وتحديداً في عهد السلطان سليمان صولون[1] حوالي عام 1600م.

لاشك إن لأحمد المعقور دور محوري في تاريخ دارفور رغم افتقار تلك الحقبة للتواريخ والتفاصيل الدقيقة عن كيفية انتقال العرش لعائلة كيرا، ومع ذلك هناك خط واضح يفصل ما بين تلك الحقبة وما سبقها من عصور مظلمة اكتنفت تاريخ دارفور، فإذا كان شو أو سو شقيق لدالي فليس هناك من مبرر لوصفه بأنه آخر سلاطين التنجر وإن دالي هو أول سلاطين الكيرا كما تتواتر الروايات. والواضح أن أسرة الكيرا تستمد اسمها من الأم فقط وإن شو أخ غير شقيق لدالي والذي ينتمي لقبيلة الكيرا بأمه فقط.

مقر السلطان شو المعتاد في جبل "سي" أحد سلسلة جبال كاورا شمالي هضبة جبل مرة، بينما يقع المقر الرئيسي للكيرا في "جبل نامي" على سطح جبل مرة. وإن دالي أو دليل بحر عاش بين هاتين المنطقتين. يمثل "الدقونقا" الفرع المتميز في قبيلة الفور أما الكنجارة فهم الأكثر عدداً بينما يمتاز الكيرا بالأهمية السياسية لأن ابنة أحد منسوبيهم هي جدة الأسرة التي تجلس على سدة الحكم.

يحمل السلطان شو لقب "دورشيد" أو "دورسيد" وتعني "سيدنا" وترمز هذه التسمية لوحشيته وقسوة سنين حكمه ويُقال إنه عامل مواطنية ومرؤسيه بالكثير من الشدة والإذلال ولم يقتصر ظلمه على الدفع بهم للمعارك المتعددة وتحت أحلك الظروف فقط، بل أجبرهم على

1- الأصل سليمان سلونقا وتعني بلغة الفور «العربي».

حفر الآبار في المناطق الجبلية، ولم يكتف بهذا بل ألزمهم بتسوية قمة جبل ميلو الجرداء لأنه كان يريد نقل مقر إقامته إلى هناك، جرت هذه الأحداث في إقليم "روكرو"[1] على السفوح الغربية لجبل مرة وما زالت هذه المنطقة تحمل اسم « ميلو فقو جرتوه أي جبل ميلو المحفور. ونسبة للبطء الذي لازم تسوية الجبل وتعبيده فقد صُرف النظر عن المشروع إلا أن شو. بهذه التصرفات . بذر الكره في نفوس الناس. انتهز كبار رجالات الدولة فرصة غيابه في واحدة من حملاته ضد إحدى القرى المتمردة في جبل سي وطلبوا من دليل أو دالي (أخوه غير الشقيق) أن ينتزع العرش، ويبرروا وجهة نظرهم بتفشي الظلم والقهر. بمجرد أن علم شو بالمخطط عاد مسرعاً وعسكر بقواته ليلاً في «توري» – مقر إقامته الثاني الكائن بسلسلة كاورا– ومن هناك تقدم نحو «سيّ دلنقا» التي لا تبعد كثيراً عن جبل نامي. دارت معركة حامية ليلاً في «باراء وتمكن دالي من هزيمته بعد فرار أغلب من يعتمد عليهم من الرجال. وإثر هذه النكسة لم يكن أمامه سوى الفرار إلى «ترجي» وهناك قام بتسريح الخلص من اتباعه ونصحهم بالانضمام لدالي بمن فيهم زوجاته وأولاده. أمر دالي بمطاردته حتى «توري» إلا أنه لم يقف له على أثر، وتشير الروايات المتواترة إلى أنه فر بفرس أبيض واختفى تماماً. وهكذا إعتلى دالي دست الحكم وكان أول حكام أسرة كيرا، وأسمه الحقيقي دليل بحر، وهو بلا شك أهم حكام الأسرة وأذكاهم وباستثناء سليمان صولون وأحمد بكر – الذين سيرد ذكرهما – يُعد الموحد للسلطنة وذلك ليس بسبب انتصاره على شو فقط بل لقدرته على فرض النظام والأمن، كما قام بسن القوانين التي ما زالت تستمد اسمها منه. عاش دالي في جبل نامي وطرة أرض أجداده لأمه والتي تقع على السفح الشرقي للجبل وتُعد القلب النابض للسلطنة . وعلى بُعد ثلاث ساعات شرق طرة كانت تنمو شجرة سدر تعرف باسم «نُمان فُدا» أي ذات النبق الفضي، قيل أن السلطان فقد عندها خاتماً فضياً فاعتبرها نقطة البداية لتقسيم البلاد لمديريات، فسمى المديرية الشرقية «دار دالي» والجنوبية «دار أما» والجنوبية الغربية «دار دما» والشمالية «دار الريح» أو «دار تكنياوي» ودار الغرب » . ثم شرّع الأسس التي تحقق الموارد لتلك المديريات عن طريق آليات إدارية محددة، ثم وضع القانون الجنائي المعروف بكتاب دالي وهو قانون وضعي لم يسترشد في وضعه بالمبادئ الإسلامية بل كان الغرض منه استنباط الوسائل لتحقيق الموارد للبلاد. لم يتضمن القانون أية عقوبات استئصالية كالإعدام أو بدنية، بل كان يكفل قدراً كبيراً من الحريات الشخصية واقتصرت عقوباته على الغرامات التي كانت تحصل في شكل مواشي أو تكاكي وتختلف الغرامة تبعاً لجسامة الجُرم ولا يزال هذا القانون سارياً حتى الآن. يتضمن القانون بعض الجوانب الحسنة كما تشوبه بعض الشوائب، ولم يُدخل خلفاء دالي أي تعديلات جوهرية عليه. ويُقال إن دالي حكم لفترة طويلة اتسمت بالاستقرار والإزدهار ويبدو أن عهده كان في منتصف القرن الخامس عشر رغم عدم توفر المعلومات القاطعة في هذا الصدد.

خلف دالي عشرة من السلاطين الذين لم نقف على تواريخ حكمهم لما يكتنف تلك الفترة

1- أي الوادي الأخضر، وهو أحد مراكز جبل مرة غرب طرة.

من الإبهام والغموض بيد أنها فيما يبدو كانت فترة مليئة بالكفاح والنضال لما اكتنفها من تغييرات سياسية متلاحقة. كان لدالي ثلاثة أبناء هم صابون وسيكر وبحر وكان لصابون أبناء أيضاً وهم باهيت ودارسود وادريس جالي، أما بحر فابناؤه أورو وتنسام وياتوم وترنديم أما ابن إدريس جالي فهو كورو وابن أورو هو ترسلام، ثم ورد اسم السلطان سليوت بن محمد والسلطان شريف بن عمر والسلطان صلاح بن سلام ثم الخمسة عشر سلطاناً الذين يجهل التاريخ سنين حكمهم ومناطق نفوذهم. هناك قائمة أخرى تحوي أسماء دم شام ونصر وسم تيرم وسيكر سم. ومن التسعة عشر اسماً الوارد ذكرها فإن الذين حكموا هم صابون وادريس جالي ودياتوم ودارموت وتنسام وترنديم وسوليت وساريف وصلاح أما سيكر بحر وباهيت فهناك شك حول حكمهما للبلاد. وفيما يتعلق بأورو وترسلام وروم وشام ونصر وسميتريم وسيكر سيم وكورو فالراجح هو عدم وصولهم لسدة الحكم. بعض الأسماء الواردة قد لا تكون لسلاطين حكموا دارفور بل ربما تكون لبعض زعماء المسبعات لأن الأسرة الحاكمة انقسمت في هذه الفترة لفريقين يدّعي كل منهما أحقيته في اعتلاء العرش.

أما كورو الذي تكرر في قوائم الأسرة كأب للسلطان صولون[1] ، فالراجح أنه لم يعتل العرش، ويبدو أن تنسام أو تونسام بن بحر – جد المسبعات – كان هو المنتصر على كورو إبان صراعهما حول السلطة، والغريب إن أغلب الروايات توردهما كشقيقين رغم أن قائمة السلطان تيراب تظهر تنسام كحفيد أما إدريس جالي وسابول كورو فتظهرهم كأبناء لأحفاد السلطان دالي. وبصرف النظر عن علاقة القرابة فلا يزال سبب النزاع بينهما موثقاً في قصيدة مشهورة. واندلع ذلك النزاع في قرية «مورنقا» في دارفيا – أي المديرية الغربية – التي أصر كل من الأميرين إدعائها لنفسه. استولى كورو على القرية الأمر الذي أدى إلى نزاع طويل الأمد عانى منه كورو الأمرين، ومما يؤكد هذه الحقيقة واقعة إخفاء سليمان صولون عن تنسام وأخذه وهو في المهد لمأمن بعيد لدى مساليت الزربان في ودّاي - عشيرته لأمه – الذين يوصفون بذوي البشرة الحمراء ويُقال إن المساليت ينحدرون من أصول عربية. ولا يزال هذا الفرع من المساليت يستمتع بامتيازات بسبب حمايتهم لسليمان. نشأ الصبي في ودّاي وعاد لاستلام العرش وهو في شرخ الشباب، و يُعرف طبله حتى الآن باسم «جنسي» كما كان لدرعه المسمى «شيريم» مفعول السحر على الأهالي. كان تنسام يقيم في جبل مرة ونجح في خلع عمه أو والد عمه بفضل مقدرته على القتال. وما فتئ صوت الطبل يردد: «تنسام في مضيق الوادي المنحدر وهو خلفه، وانهال عليه. تنسام في مضيق الوادي المنحدر » وكان التحدي المتبادل نوعاً من قواعد الفروسية آنذاك . لا تبيّن الروايات – بعد ذلك – كيف خلع سليمان صولون تنسام

1- الصحيح سليمان سلونقا أي العربي. وذكر نعوم شقير بأنه أول السلاطين وحكم في منتصف القرن السابع عشر الميلادي ويحيط بنسبه الغموض فثم رواية تقول أنه عربي من بني هلال وأنه اتصل بالفور عن طريق المصاهرة . ورواية أخرى تقول إنه ابن أحمد المعقور من بني هلال أيضاً ورواية ثالثة تقول أنه سبق حكم سليمان أربعة عشر سلطاناً يحملون أسماء عربية. انظر تاريخ السودان لنعوم شقير، ج2، الصفحات 114-115

أو كيف أجلاه عن موطن أجداده في الجبل. ولم يكشف التاريخ كم استغرق هذا الأمر ولا في أي معركة تم ذلك.

لكن الثابت أن سليمان العربي – ويبدو أن التسمية ترجع لحمرة لونه – وطد سلطانه في جبل مرة ثم استولى على حكم دارفور ثم مدد نفوذه إلى ما يقارب حجم دارفور الحالي. أما تنسام فهبط مع أهله شرقاً إلى سهل « ماسباوي»[1] وتعني الشخص الذي اتجه شرقاً حيث كوّن مؤيدوه قبيلة المسبعات التي تقطعت صلتها بقبيلة الفور.

أعطى سليمان صولون روحاً جديدة للسلطنة بفضل قوته العسكرية كما أدخل الإسلام فيها. ولما كان الأهالي يخجلون من ماضي أجدادهم الوثني فإن هناك ميل لنسيان أسلافهم وتجاهلهم باستثناء دالي الذي يعود له الفضل في تنظيم الدولة مما أبقى ذكراه حية في نفوس الناس. يُعد سليمان أحد أشهر حكام البلاد. وبجانب نشره للإسلام بين أهله ورعيته وجعله الدين الرسمي للبلاد، نجح في بسط سلطانه داخلياً وخارجياً. وجعل محل إقامته – بالتبادل – في أريمبا وكوبي وسلو وأم حراز ومجالا أو نوبو وكان يجهز حملاته العسكرية من تلك المقار. ورُوي بأنه أعد العديد من الحملات العسكرية الناجحة وقاد ثلاثة وثلاثين منها بنفسه. ويُقال إن سليمان عندما يهز درقته الصغيرة المستديرة – «سيربم» – وينبعث صليل أجراسها يكون النصر – دون أدنى شك- حليف له وهي موجودة ضمن تحف العائلة. لم يستطع سليمان إخضاع كل ديار المساليت لكنه أخضع جزءاً منها بالإضافة لبلاد الأورو والبرقد والزغاوة والمراريت والبيقو والتنجر الذين ما زال الميل للتمرد يعتمل في نفوسهم، ثم وسع سلطانه شرقاً حتى نهر عطبرة في عمق النيل وشمالاً حتى إقليم البديات، كما احتل ديار البرتي الذين كانوا تحت إمرة السلطان «نامدو».

حقق الأهالي في عهد السلطان شيئاً من الرقي وصاروا يكتسون بفراء الأغنام أما السلطان فكان يرتدي كسوة الشرف وهي عبارة عن رداء جلدي أحمر اللون. ومن النوادر التي تروى أن خلفه موسى عندما أهدى له بساط مجلوب من مصر احتار في كيفية الانتفاع به ثم لفه أخيرا حول جسده كالأزار.

حكم سليمان لمدة إحدى وأربعين سنة امتدت من 1596م حتى 1637م ودُفن في طرة – قلب السلطنة – على بعد مسيرة يوم ونصف اليوم من مقابر الأسرة الحالية. كما تقع مقبرة نامين بحر – أبو تنسام – بالقرب من منبع وادي باري أما قبر تنسام فمجهول المكان.

خلف سليمان صولون، ابنه موسى وحكم خمسة وأربعين سنة (1637- 1682) ورغم طول فترة حكمه إلا أن عهده كان أقل مجداً وازدهاراً من عهد أبيه. رغم إنه رجل سلم بيد إلا أنه أجبر لخوض حرب ضد القمر الذين لم يفلح في أخضاعهم، ثم خاض حروباً ضد المسبعات تحت قيادة سلطانهم جنقول رفضاً منهم للخضوع للفرع الأصغر من الأسرة ودارت بينهم عدة

1 - يظهر أن سر تسمية المسبعات يرجع لكلمة مصبح أي المتجه شرقاً بحسب لهجة أهل الغرب ثم تحرفت لسبع وما زال أهل الغرب يطلقون على اتجاه الشرق لفظ «الصباح».

معارك في طين وكُلْقي على سفوح جبل مرة. دُفن موسى بجوار آبائه في طرة.

خلف موسى أحمد بكر وكان أحد أبرز السلاطين بعد دالي وسليمان صولون، وامتدت فترة حكمه لأربعين سنة (1682-1722) ظلّ خلالها محترماً في الداخل مهاباً في الخارج وهو أصغر أبناء موسى الثمانية، وأكبرهم جيجيري الذي كان مولعاً بالسلطة ولإصابته بالصرع فقد تم استبداله بأحمد بكر في يوم تتويجه. أخذ أحمد بكر عهداً على نفسه بأن يحول البلاد لدولة إسلامية ولذا استقدم الفقهاء وشيد المساجد والمدارس وحث الأهالي على مراعاة الفرائض الإسلامية وخص منها الختان والصوم وأداء الصلوات الخمس، ولإدراكه لمدى تدني ثقافة مواطنيه وتخلفهم استقدم الأجانب الأكثر تمدناً وضمن لهم سلامتهم وحرمة ممتلكاتهم وأعفاهم من الضرائب سعياً لرفعة بلاده.

وفي عهده تدفقت الهجرة من بلاد برنو وباقرمة وتقاطر على البلاد الفلاتة والعرب والبلالة وسكان النيل من الجلّابة. وبسبب كرمه وحسه العدلي صارت دارفور أرضاً جاذبة للأجانب.

عاش أحمد بكر في «قري» بدار كرني في البداية ثم استقر أخيراً في أبوأسيل «بجبل مرة».

قاد أحمد بكر الكثير من الحملات العسكرية الناجحة فهزم القمر وأجلى الودّاي عن بلاده، وكان جبل «نوكات» هو مكمن قوة قبيلة القمر ومنه بسطوا سلطانهم على الزغاوة وسكان جبل «مول» وغيرهم من القبائل، ويُقال إن حرب القمر انتهت بعد سبع سنوات وسبعة أشهر وسبعة أيام، احتل بعدها أحمد بكر جبل نوكات عن طريق الحيلة إذ أغرى زوجة ملك القمر بالذهب والمجوهرات فدلت قواته – التي كانت تحت قيادة ابنه الأكبر أحمد دورة – لمدخل الجبل الحصين حيث أرسلت بعض جواريها لهذا المدخل وهنّ يتظاهرن بجمع الحطب في يوم متفق عليه سلفاً. حملة إخضاع القمر التي أبلى فيها محمد دورة أو محمد هرون بلاءً حسناً منحت أحمد بكر دفعة معنوية قوية حيث دانت له كل مناطق شمالي البلاد وشمالها الغربي، و أدى المدفع الذي جُلب للبلاد خدمات جليلة في تلك المعارك وظل موجوداً في «مُرة» – أحد مقار أحمد بكر – حتى سنوات خلت.

عاصر أحمد بكر عهد عروس سلطان ودّاي التي درجت على إهداء فتاة ذات دماء ملكية سنوياً لحريم سلطان دارفور منذ عهد السلطان موسى، غير إن عروس رفض دفع هذه الضريبة بناءً على ضغوط شعبه ولم يكتف بذلك بل غزا دارفور بقواته ووصل حتى كبكابية على السفح الغربي لحدود جبل مرة الشمالية. لم يكن أحمد بكر مستعداً للمجابهة وقتها فترك مقرة في الغرب ولجأ لأبو أسيل بالقرب من طرة في جبل مرة وهناك بدأ يستعد للحرب بعزم وجدية وفي نفس الوقت أرسل لجلب الأسلحة النارية من مصر ثم أرسل إلى باقرما يدعوها للتحالف معه، وبعد أن شعر بأنه مستعد للمجابهة ومتفوق على اعدائه نزل من جبل أبو أسيل وهاجم عدوه بالقرب من كبكابية وانتصر في تلك المعركة التي ألقى فيها الودّاي الدروع كما يُستدل على ذلك من اسم كبكابية الذي يعني «ألقوا الدروع»، ثم حاصر عدوه بجبل شوناك - بلغة الفور«قفه

ـ علي وادي باري، بعدها ساد السلام، ولمّا كان السلطان قد تقدمت به السن وأصبح ضعيفاً واهناً وثقل سمعه، كان هذا سبباً كافياً لعدم استتباب الأمور وقيل أن أخاه جيجبري استطاع أن يسترد السلطة في ذلك الوقت مما أجبر أحمد بكر للإنسحاب نحو جنوب غرب السلطنة إلى كلي[1] ناحية مديرية «أباديما» حيث تمكن عبيده من إعداد عدتهم للحرب. وفي فصل الخريف وبينما كان الجميع منهمكون في أعمال الفلاحة زحف أحمد بكر إلى طرة وانتزع أبو أسيل وقتل أخاه جيجبري استعاد السلطة. بعدها قرر أن يحمل علي المسبعات في كردفان وعبرهم حتى النيل لمحاربة الفونج. لكن وافته المنية في (تيكا) حيث تُوجد قبته التي أطلق عليها اسم «المندو». وقبل أن يتوجه أحمد بكر شرقاً خلف ابنه محمد دورة أو محمد هرون وكان مقاتلاً شجاعاً لكنه كان بربرياً قاسي القلب وكان السلطان على علم بذلك ولذا كان قلقاً على مصير أبنائه البالغ عددهم مائتين وعلى مصير البلاد بعد موته. ولما اشتد عليه الداء وأحس بدنو أجله استدعى خليفته محمد دورة وأوصاه وصيته الأخيرة وسلمه الخاتم السلطاني الأمر الذي لم يكن مألوفاً ولا متعارفاً عليه لدى سلاطين دارفور الأوائل وذلك لأن أحمد بكر هو أول من استعان بالكتابة وفرض تدريسها عن طريق المعلمين الأجانب. وعندما كان السلطان يسلم الخاتم حذر دورة مراراً من سفك الدماء أو التنكيل بأخوته ولما كان السلطان متعلقاً بابنه الملقب بدليب، حذره بألا يصيبه بأذى وإلا كان مصيره الخزي والدمار. ثم أضاف السلطان – الذي كان في النزع الأخير – بأنه يخاف أن تنتهي بلاده لمصير سيء إذا لم تُراعي وصيته بدقة. وبالرغم من هذه المحاذير أسند له السلطة باعتباره الابن الأكبر وهكذا انتهت حياته التي اتسمت بالجد والمثابرة.

اشتهر محمد دورة بالقوة منذ أن كان خليفة لوالده، وبسط سلطانه – دون منازع – رغم عدم ذيوع صيته بين كبار رجالات الدولة، وليقطع الصلة بينهم وبقية أفراد عائلته قرر التخلص من إخوته فقتل سبعين منهم لحظة تنصيبه و لم يعتق صغار السن منهم مما دفع بعض البالغين للفرار من بطشه وفيهم طاهر جد محدثي وعبد الرحمن ويوسف دليب وآخرون حيث تسللوا متخفين في ثياب نسائية وهكذا نجوا من المذبحة . ثم بعد أن إستتب له الأمر وهدأت نفسه قرر الكف عن أذى الآخرين . لم يقتصر أذى محمد علي إخوانه فقط بل شمل بطشه ابنه الأكبر موسى عنقريب الذي اختاره في البداية كخليفة له، بيد أن أم ابنه الثاني المدعو عمر وبطانتها أوعزوا له بأن موسى يخطط لانتزاع السلطة لنفسه ولما كان محمد دورة رجلاً مرتاباً وشريراً بطبيعته فقد قلب ظهر المجن لموسى وبدأ يقرب عمر. علم موسى بهذه المؤامرة فقرر العصيان، وعندما استدعى للمثول أمام والده امتنع. عندها جرد والده حملة ضده. قاوم موسى بضراوة وانتصر على جند أبيه في «غباشاته» – بين حلوف وجديد السيل – مما دفع والده للجوء للحيلة والخداع. أرسل السلطان (جد إساغة) – الذي عُين قاضياً فيما بعد – وجد الفقيه سلامة ورفقتهم فقيه مشهور في كاتشينا برسالة لابنه تتضمن عفوه عنه ودعوته للمثول

1 - ما تزال المنطقة معروفة بدار كلي وتقع جنوب غرب زالنجي وعاصمتها أرولا

أمامه. وكان هؤلاء الفقهاء قد أخذوا عهداً مشفوعاً بالقسم على السلطان بألا يؤذي ابنه. استجاب موسى للدعوة وعاد برفقة الفقهاء الثلاثة. استقبله أبوه متظاهراً بالحب والترحاب وبينما كان يتظاهر بتقليده كسوة الشرف وبمجرد أن أدخل موسى رأسه في الجلباب شده على وجهه وقيد حركته ثم تناول البندقية وحطم بمؤخرتها رأسه. كما قتل محمد دورة أخاه يوسف دليب رغم تحذيرات والده وذلك بعد أن حبسه في كهوف السجناء السياسيين في جبل مرة.

أصيب محمد دورة بالجزام الذي أتلف أطرافه وأدى إلى قطع لسانه ثم توفى بعد أن حكم لعشر سنوات (1722- 1732م).

خلف محمد دورة ابنه عمر ليل – أي عمر الحمار[1] – للفترة من 1732- 1739م وبسبب روحه المتعطشة للقتال جر البلاد لكارثة. عاش عمر – في البداية – في «موجالاء» مثل والده ثم انتقل إلى «قوقرماء» بالمديرية الغربية على وادي جلداما. وكان لشقيقه المناهض أبو القاسم أتباع كثر من الشخصيات المرموقة وذلك بسبب تواضعه وشهامته ولأن عمر يخشى جانبه أمر بحبسه في جبل مرة مع دليب وأبيض أبناء أحمد بكر اللذان فرا – فيما بعد – وانضما لعيساوي ابن جنقول حاكم المسبعات في كردفان. خشي عيساوي من انتقام عمر ليل فقرر اللجوء للحيلة لتفادي هذا الموقف الحرج فقام بتحريض الأميرين على التمرد ونصحهما بالتسلل عبر إقليم الرزيقات ليأخذا السلطان على حين غرة مستعينين بعرب الجنوب وبرر موقفه هذا بأنه يرغب في تجنب غضب السلطان وعقابه. ثم أرسل رسالة للسطان يعزيه في موت والده ويطلب منه أن يزوجه والدته إذا ما قرر تزويج أرامل والده، لأنه يعتبره مثل ابنه، وإذا وجد الطلب قبولاً فإنه سيأتي لأخذها بنفسه. غضب عمر وقاد حملة ضد كردفان إلا أن عيساوي فرّ والتجأ لتونجي ملك سنار، ومن هناك أرسل رسالة أخرى لعمر يفيده بعدم جدوى حملته لأنه لن يقاوم وإنه فرّ لإحساسه بالضعف أما إذا كانت حملته لتعقب شقيقي والده فليعلم أنهما تسللا لدارفور عبر إقليم الرزيقات ليخلعاه من العرش. بمجرد استلام الرسالة أسرع عمر في العودة لدارفور. وبالرغم من أن قواده يخشون بطشه إلا أنهم جأروا بالشكوى لما أصابهم من الرهق والإعياء، وبدلاً من أن يستجيب لشكواهم أدخل يده ما بين جسده وسرج الحصان وأخرجها وهي ملطخة بالدماء، ليبرهن لهم على معاناته مثلهم تماماً. ثم قاد عمر هجوماً ضد الأميرين المتمردين في دار البرقد وهزمهما في كالميوا.[2].

الجدير بالذكر، هنالك روايات أخرى تثبت إن الأميرين لم يفرا لعيساوي زعيم المسبعات بل فرا لملك سنار الذي يُقال إنه أعجب بروح أبيض القتالية وكان ينوي الاستعانة به في حملة ضد جيرانه الوثنيين ولكن لخوفه على حكمه دفع بالخطاب سالف الذكر وبه استدرج عمر للاتجاه شرقاً وولى الأدبار بينما كان أبيض يسعى لدخول دارفور من الجنوب.

1- يلقبه أبناء الفور هذا الاسم كدلالة على الصبر والتحمل. وامتد حكمه من 1732 حتى 1779. وتذكر المراجع بأنه ليس ابن السلطان أحمد بكر بل حفيده وأنه خلف أباه السلطان محمد دورة ابن السلطان أحمد بكر ويُقال أنه من أعدل سلاطين الفور وأكثرهم تديناً.

2- تقع في الطريق بين الفاشر ونيالا.

كان عمر محباً للقتال ولذا قاد الكثير من الحملات الصغيرة الموجهة سنوياً لداخل البلاد وخارجها وكان مهاباً يخشاه الجميع وترتعد فرائصهم في حضرته، لأنه في استعداد دائم للقتال وتلاحقت حملاته مما أدخل الضجر في نفوس رعاياه.

جهز عمر حلة ضد ودّاي بقيادة «دوقاباتي» وتعني «الحملة الطائرة». كلفته تلك الحملة عرشه وأفقدته حريته. وقبل تلك الحملة ترجّاه «كوني» -أحد أبناء جده أحمد بكر ممن يحظون بمودته – بأن يفك آسار أبي القاسم قبل التوجه لودّاي وألح كوني في طلبه . ذكّره عمر بأنه سيقوم بحملة ضد برقو وإنه يعرف مشاعر شعبه نحوه ولذا فهو يفضل أن يموت بأرض المعركة كرجل، بيد أنه – أي كوني – سيكون أول من يمسهم أذى أبي القاسم إذا ما خلفه على العرش. ورغم هذه النبوءة أطلق سراحه وزحف نحو ودّاي. وبعد معركة حامية الوطيس وقع في الأسر إلى أن مات.

وكما تنبأ عمر فقد انتقلت السلطة لأبي القاسم[1] دون حداد أو حتى دمعة حزن على عمر، وبقدر ما كان أبو القاسم رجلاً شهماً ولا يخشى منافسيه كان – بنفس القدر– متهوراً ويستمع للوشاة. حكم أبو القاسم لثلاثة عشر عاماً من 1739 حتى 1752م. وبتعاقب الأيام ساءت علاقة تدريجاً بشعبه كما ساءت مع ابن أخيه وخليفته. أبعد أبو القاسم أحرار الرجال من حوله وقرب العبيد الذين حقق عن طريقهم الثروة والجاه.

وانتقاماً للهزيمة من ودّاي جهز جيشاً وفرض له الضرائب الباهظة المقدرة برأس من الماشية عن كل منزل. وكان قوام هذا الجيش اثنى عشر ألف فارس مدججين بالسلاح والدروع ومُدعماً بأعداد هائلة من المشاة الذين انضموا من المديريات الأخرى بما لا يُحصى ولا يُعد. وفي الجانب الآخر كان الودّاي في حالة تأهب منذ وفاة عمر ليل متوقعين لردة الفعل مستعينين على جند دارفور بالدعاء وتلاوة القرآن وسورة يس على وجه الخصوص. عندما علم أبو القاسم بهذا الأمر ضحك ساخراً وأعلن بأنه لا يأبه لسورة يس ولا لغيرها لأنه يملك الرجال والعتاد والخيل وإنه سيستولى على عرش ودّاي بالقوة لا بتلاوة القرآن ونصح مخبريه بأن ينبهوا الأهالي على طريق ودّاي بأن يوفروا العسل واللحوم لإمداد جيشه بالغذاء الجيد لتكملة مهمته بغزو ودّاي.

كان بحر الزغاوي وزير السلطان الأثير على رأس الجيش بيما أصطف أحرار الرجال في الخطوط الخلفية يغمرهم الإحساس بالمهانة والشعور بالإقصاء ولذا لم يكونوا جادين في نصرته ولم يترددوا في التخلي عنه عندما حمى الوطيس وانكسرت شوكة العبيد إذ علا نداؤهم حينها قائلين: « يا أبناء الفور فروا فالفرار سبيلكم الوحيد للنجاة، أتركوا أبا القاسم، تذكروا الأبقار التي سلبها منكم، أتركوا الزغاوي بحر ليذب عنه »وولوا الأدبار ولم يعودوا للقتال إلا عندما استولى الودّاي على طبل « المنصورة» العتيق، وبمجرد استرداده تراجعوا على عقبيهم، وهكذا تجرع أبو القاسم كأس الهزيمة لتعاليه وعجرفته، وكان الاعتقاد إنه قد قُتل أو أسر حيث

1- حكم من 1793 حتى 1752 بعد حكم أخيه عمر ليل.

جرح في هذه المعركة أخواه تيراب وعبدالرحمن وأُسر الوزير بحر. وبالرغم من الهزيمة عاد الفور فرحين لخلاصهم من أبي القاسم وعلى الفور توجوا تيراب بدلاً عنه[1] .أما أبو القاسم فقد عثر عليه أحد إعراب المحاميد وهو جريح فأخذه لمضارب القبيلة وعالجه دون أن يعرف من هو. عاد أبو القاسم مرة أخرى للبلاد وسرعان ما أبدى تيراب رغبته في أن يتنازل له عن العرش، إلا أن كبار رجالات الدولة عارضوا ذلك التوجُه وذكروا لتيراب بأن أبا القاسم إذا ما استرد السلطة ولو لساعة واحدة ستكون حياة الكل في خطر، وأضافوا بأنهم لم يصدقوا أن الهزيمة قد خلصتهم منه وبالتالي لا يحق لتيراب أن يحرم الكل من الأمن والسلام الذي أظلهم لتوهم. وأبدوا الاستعداد لمقاومة هذا الأمر بالقوة. رضخ تيراب للأمر على ألا يؤذي أبا القاسم لكن هناك شخص يُدعي «ور» بادر وعجل بشنق أبي القاسم بالتكية ومن ذلك الوقت آلت وظيفة تنفيذ حكم الإعدام له ولأحفاده من بعده، وبالرغم من إن الرجل يشغل درجة كبيرة تحت هذا المسمى إلا أنه لا ينفذ الأحكام بنفسه.

الإياباسي زمزم شقيقة أبي القاسم الملقبة بـ «سندي ستراء أي العذراء لكونها غير متزوجة. حضرت لحظة إعدام شقيقها فانفجرت في الندب والنواح مما استدعى تيراب لإرسالها للشناق، ثم أسند منصب الإياباسي لشقيقته «كرنفو». عاش أبو القاسم في «قرلي» على وادي باري في المديرية الغربية، وبعد إعدامه دفن في طرة بجوار أحمد بكر ومحمد دورة.

اشتهر محمد تيراب بأنه حاكم متفرد فرض هيبته في الداخل والخارج وكان يرغب في وضع نهاية للفساد. ولعدم تجاوب الناس معه إضطر لتقريب الزغاوة - أهل والدته - وعين هاروت من زغاوة كوبي سلطانا على الإقليم وأعطاه النحاس كما عين عمر بن هروت في وظيفة «أرندلنق» أي مدير المقر السلطاني ونال الابن الآخر حسيب الأقرن وظيفة «أبو ألنقا» وهي درجة عالية تجمع ما جملته تسعة عشر اختصاصاً رفيعاً، مما أتاح للزغاوة نزع البساط السلطاني من سلطان القمر. كما امتد سلطانهم حتى ديار البرتي والبيقو والبرقد. حكم تيراب ثلاثة وثلاثين سنة (1752-1785) وكانت إقامته في قرلي[2] وقوقرما وشويا «مقره المفضل». وفي عهده تمرد البرقد واتهموه ببيع بناتهم كجوارٍ للجلابة، علماً بأن القبيلة كانت ملتزمة بتقديم عدد معين من الفتيات لتزويجهن لأرباب الدولة أو ليعملن كخادمات في القصر. لإخماد هذا التمرد نقل تيراب مقر أقامته لـ «ريل» في الجنوب وخلف ابن أساغة[3] لإدارة شمال غرب السلطنة. ومما يروى من طرائف حول هذا الاختيار هو أن للسطان ابن آخر في عمر إساغة وكانت أم هذا الصبي هي الزوجة الأثيرة لتيراب وكانت تتوق لرؤية ولدها في منصب الخليفة. لم يرد السلطان على طلبها وأرسل في طلب ابنها. وكان عند المدخل الخارجي أسد رابض فخاف الصبي ودخل من الباب الخلفي، وعند مثوله أمره السلطان بأن يحضر بعض الحرير من

1- أي بادر وسلب تيراب أرض الشام لخصوبتها
2- تقع شرق كبكابية.
3- أي إسحاق وهو أكبر أبنائه وملقب بالخليفة

الحائك فخرج الصبي ثم عاد ليسأل عن كمية الحرير ثم خرج وعاد ليسأل عن لون الحرير ثم عاد مرة أخرى ليسأل إن كان الحرير خاماً أم مغزولاً مما استدعى إنهاء تكليفه. أرسل السلطان في طلب إساغة الذي حضر ودفع الباب بجرأة وتخطى الأسد الرابض غير آبه به، وعندما كلفه والده بإحضار الحرير سأل عن نوعيته وكميته. صرف السلطان ابنه وهو راضٍ عن حصافته وشجاعته. لم تغضب زوجته بنت شفه لأنها رأت بعينها الفارق الكبير بين ابنها وأخاه وهكذا تأكد اختيار إساغة لخلافة والده.

نجح تيراب في إخضاع البرقد ورجع من حملته ضدهم محملاً بتذكار تعبر عنه فرشاة من شعر الأغنام تُحمل في الاحتفالات أمام السلطان على أسنة الرماح. وكان زعيم البرقد قد تلقى هزيمة نكراء، وقُطعت لحيته وضمت للتحف السلطانية التي يعود أغلبها لعهد سليمان صولون. ثم استبدلت اللحية الحقيقية بهذه الفرشاة المصنوعة من شعر الماعز.

أخيراً استقر تيراب في «ريل» تمهيداً لغزو الرزيقات الذين درجوا على الفرار جنوباً والاحتماء ببلاد الجانقي – أي الدينكا– مخلفين وراءهم الحقول والأكواخ الخاوية . تواترت الأنباء بأن «المور» ملك التنجر يجهز جيشاً في جبل «كاكاس» سرعان ما تصدى تيراب وقتل المور مع أقرب أقربائه، وفقد التنجر الكثير من الرجال . بعده قاد المسبعات تمرداً [1] آخر وزحفوا حتى حدود دارفور وعندما هزمهم تيراب بالقرب من ريل، انسحبوا إلى كانوا في كردفان لكن تيراب طاردهم ودحرهم للمرة الثانية . توفي تيراب في كردفان وهو في طريقه لمقابلة ملك الفونج والذي يفتخر بأنه ينتسب لأم سليمان التي يُقال بأنها تزوجت برجل من الفونج وهي في طريقها إلى مكة.

يُقال إن تيراب كرس عشر سنوات من سنين حكمه لتلقي علوم الدين، وكان كاتباً، ومن أكثر سلاطين الفور علماً وله مكتبة جُلبت من مصر وتونس. ثم كرّس عشر سنوات أخرى لمعاقرة الخمر واللهو مع النساء [2]. وكان له منزلاً في شوبا يبلغ طوله خمسة وخمسين متراً وعرضه عشرين ويبلغ ارتفاعه سبعة وعشرين متراً ويحوي ثلاثة وثلاثين غرفة لثلاث وثلاثين من زوجاته الأثيرات، ويحتفظ – داخل المنزل– بثلاثمائة وخمسين كبشاً ويعتكف لعام كامل يعتزل فيه الكل عدا الوزير الذي يعاوده يومياً ويتلقى توجيهاته.

لاحت الفرصة لإساغة لاعتلاء العرش بحكم أنه رجل قوي ويحظى بالتأييد، ولكن كبار القادة العسكريين وكذلك المواطنين كانوا قد ملوا الحروب والحملات. خيّب إساغة آمالهم بإتباعه لخطى أسلافه وخط والده العسكري. كان للوزير علي وليد جامع أكيد الرغبة في أن يتسلم إساغة السلطة بيد أن القائد العسكري حسب الله جران كان يخطط لانتقال العرش لحبيب بن زوجة تيراب الأثيرة الملقبة بـ «كنانة» وكان لهذا القائد مناصرية أيضاً. هكذا اختلف

1- قاد هذا التمرد السلطان هاشم المسبعاوي للاستقلال بكردفان ن وفي كردفان تعرض لمحاولة إغتيال بتباده صهره على ود برقو وأجهض المحاولة وقتل مدبرها.

2- ذكر التونسي بأنه كان يحب الخلاعة والإنبساط حتى كان الشباب يلاعبون البنات أمامه. انظر ص 76 من تشحيذ الأذهان.

الرأي، فالجيش الذي كان في حاجة ملحة لقائد يضم بين جناحية اثنين من أخوة تيراب هما طاهر جد مخبري وعبدالرحمن[1]، ويبدو أن الفور كانوا يفضلون عبدالرحمن لأنه رجل في الظل وعائلته صغيرة، بينما يخشى الأقطاعيون السلاطين من ذوي الأسر الكبيرة ضناً بأراضي الحواكير التي ينتفعون بريعها من جهة، واتقاءً للشقاق وما يترتب عليه من شرور عندما يحتدم الخلاف على العرش من الجهة الأخرى[2]، كما أن عبد الرحمن الذي لم يلتحق بالجيش إلا في حرب الرزيقات، كان رجلاً قنوعاً غير ميال للقتال، مستقيم دمث الاخلاق نقي السريرة، قارئ جيد، وكاتب ماهر يتمتع بحس مرهف.

اجتمع القادة العسكريون عقب وفاة السلطان للتشاور، فقام طاهر بن بكر بتزكية عبد الرحمن مبرزاً ترشيحه له للأسباب السابق ذكرها، وفي الجانب الآخر كان لإساغة الكثير من المناصرين أيضاً بيد أنهم آثروا الصمت على أساس أن إساغة يستطيع ترتيب أموره بنفسه. ويبدو إن عبد الرحمن كان يخطط لهذا الأمر منذ أمد بعيد وذلك لأن تيراب عندما كان يستعد لحملة كردفان كان ينوي تركه بمعية ابنه إساغة ليتخلص منه بناء على نصيحة مسبقة . إلا أن شيخاً حكيماً نصح عبدالرحمن – الذي كان يعيش كفقيه في العاصمة- بألا يدع السلطان وأن يظل لصيقاً به عسى أن تعود عليه الحملة بثروة كبيرة. بناء على هذه النصيحة ألح عبد الرحمن على السلطان بالسماح له بالخروج، فأذن له أخيراً. لم يكن في حوزة عبد الرحمن إلا الفرس الذي يمتطيه بينما كانت زوجته «أم بوسة» أو «أم بوزة» – التي كانت حاملاً بالسلطان محمد الفضل – تسير راجلة وتحمل على رأسها أمتعتها المنزلية بما في ذلك حجر الطحين. وتقول الرواية إن عبد الرحمن كان مقرباً لكنانة زوجة تيراب الأثيرة وبتحريضه إياها اطمأنت له وفضلته على ابنها حبيب الذي كان له رجاله أيضاً. تزايد مناصرو عبدالرحمن وعلى رأسهم الوزير علي وليد جامع وهكذا تم إعلانه سلطاناً. اقتصر سلطان عبد الرحمن على شرق البلاد فقط لأن الشمال والغرب كانا بيد إساغة الذي كان يحتفظ بقوة لا يستهان بها. وبمجرد أن بلغته أنباء تتويج عمه تحرك بسرعة ليعالج الموقف. توجه عبد الرحمن غرباً عبر إقليم الرزيقات واصطدم بكتيبة إسحق بالقرب من بلدة «تبلدي سدره»[3] التي كانت تحت قيادة حاج مفلح[4] وهزمه. ثم قاد إساغة هجوماً آخر بقيادة أبو جباي بحر في رهد «تلضوا»[5] أو «ريل» لكنه أجبر على التراجع. لم يكن انتصار عبد الرحمن حاسماً حتى يطارد فلول قوات إساغة لمعرفته بجسارة خصمه وقوته رغم إطمئنانه على النصر. فكر عبد الرحمن في استمالة بعض قادة إساغة، ونجح فعلاً في استمالة أبو جباي بحر أقرب المقربين لخصمه. انطلقت شائعة بأن

1- هو المؤسس لمدينة الفاشر وكان يلقب بالرشيد وكان صالحاً تقياً

2- في هذا الاجتماع رفض الفور بأسي ربزا الشدة بأسة وحدته ورفضوا بأسي طاهر لكثرة عيالة وارتضوا بعبد الرحمن لقلة عيالة، انظر تشحيذ الأذهان للتونسي ص98

3- الصحيح تبلدية ولعل المقصود جبل تبلدية جنوب شرق نيالا.

4- الصحيح الحاج مفتاح دادة. راجع تشحيذ الأذهان ص104

5- جبل يقع شمال شرق مدينة نيالا

إساغة – بسبب الشك – صادر ممتلكات القواد الذين ناصروا والده في كردفان[1] مما دفعهم للانضمام لعبد الرحمن، وكان لهذه الشائعة مفعول السحر لانفضاض قواد إساغة من حوله، ومما زاد الطين بله عنف إساغة الزائد الذي أسقطه في الفخ دون قصد منه.

أرسل عبد الرحمن رسالة أبوية لإساغة، عارضاً عليه تقاسم السلطة لأن البلاد واسعة، وخيّره ما بين الشرق والغرب لكن إساغة الذي كان حريصاً على عرش والده رفض هذا العرض مستهجناً سلوك عمه وتصرفاته.

أرسل عبد الرحمن إلى «أبو تكنياوي تمساح» للنهوض ضد ابن أخيه الذي يقيم في «توماء بالقرب من «كفوت» بشمال البلاد. حاول أحد الفقهاء المشاهير في كوبي تدارك الموقف والتوسط بين المتقاتلين لكن إساغة رفض هذه الوساطة. ونشبت معركة في «راوا» - شمال غرب البلاد – بينه والأبوتكيناوي انتهت بانهزام الأخير وقتله في المعركة التي كان إساغة يستخدم فيها اثني عشر فرساً بنفس اللون والعتاد كنوع من التمويه أثناء القتال. بعد هذا النصر الذي حققه إساغة أقام قيادته في كبكابية وسط السلطنة. لم يتحرك عبد الرحمن ضد إساغة بنفسه بل أرسل أخاه «باسي ريفا» الذي كان يتوجس منه خيفة ويتمنى – في قرارة نفسه- أن يلقى مصير «أبو تكنياوي» ليتخلص منه هو الآخر. اصطدم ريفا بإساغة في «دليبه» – من أعمال مركز أوكاش أحد مواطن عرب بني حسين- فانسحب إساغة إنسحاباً تكتيكياً وحل محله أحمد جراب الفول الباقرماوي تحت منشة ريش النعام السلطانية. اندفع ريفا مخترقاً الصفوف ليمسك بإساغة فواجهه أحمد جراب الفول والذي كان يتمتع بقوة خارقة فصرعه أرضاً مما تسبب في إثارة سحابة من الغبار يُقال إنها حجبت ضوء الشمس حتى ظهرت النجوم[2] .وعندما انقشع الغبار كان ريفا في عداد الأموات.

رغم هذا النصر آثر إساغة ألا يهاجم عمه وانسحب إلى ديار تاما في شمال غرب البلاد وطلب مدداً عسكرياً من صالح درت سلطان وداي، استجاب صالح درت للطلب وحرك قوة كبيرة نحو دارفور فخاف إساغة من هذه القوات الصديقة وقام بردهم متعللاً بأنه أجّل الحرب حتى الخريف القادم، ويُروى أنه رأى أخيراً بوجوب انحصار النزاع بينه وعمه فقط دون حاجة للاستنجاد بعدوهم التاريخي، وقال في هذا الصدد: «إذا هُزِمت وبقي عبد الرحمن فهو عمي وابن أحمد بكر وإذا انتصرت فأنا أيضاً ابن تيراب وحفيد أحمد بكر». في هذه الأثناء تحرك عبد الرحمن غرباً نحو «جوجوه على وادي جلداما ودرات معركة حامية الوطيس كان فيها النصر حليفاً لإساغة الذي قاتل بجسارة ضد الوزير دوكومي بن علي وليد جامع واخترق الصفوف حتى مقر أبو جباي عبد الحميد مكان إقامة عبد الرحمن، كانت كل الدلائل تنبئ بالنصر لإساغة حتى خذله جباي بحر الخائن وانضم لعبد الرحمن، كما نجح رجل يُدعى

1- كان الخليفة يفرع الناس قسرا ويصادر اموالهم.

2- حكى أحد المحشور التونسي بأنه رأى النجوم في السماء وقت الالتحام ورأى التونسي موقع المعركة وكان مجدباً في الربيع لما سأل من السماء . انظر تشحيذ الأذهان، ص107

صباح[1] من حاشية عبد الرحمن في إصابة إساغة بطلق ناري سبب له جرحاً خطيراً. على إثره إنسحب إساغة إلى شجرة حراز أطلق عليها منذ ذلك الوقت – اسم «أتوفال» مفترشاً الثرى حتى أسلم الروح. هكذا وضعت الحرب أوزارها واستقرعرش دارفور لعبد الرحمن دون منازع. ذهب عبد الرحمن لأبن أخيه أثناء احتضاره وصالحه ووعده بأن يرعى أطفاله وأعدام صباح. عاد الزغاوة المؤيدين لإساغة لكوبي- أقصى شمال غرب البلاد على تخوم الصحراء- بينما انضم الكثيرون من أتباعه لعبد الرحمن على أمل أن ينالوا رضاه. أصدر عبد الرحمن عفواً عاماً «أمان» شمل حتى أحمد جراب الفول أحد غلاة المناصرين لإساغة.

بعد سنوات القتال الثلاث عاش عبد الرحمن في سلام متخذاً من شويا مقراً له. ثم «تني» بعدها عاش لحوالي عشر سنوات متخذاً من الفاشر – أي «تندلتي»- جوار البحيرة أي «الرهد» كعاصمة له وكانت مقراً للأبو تكنياوي حاكم المديرية الشمالية. تغطي الغابات الكثيفة مجرى هذا النهر – آنذاك- وتنتشر فيه أشجار السنط والهشاب ولما كانت البحيرة تجف في الصيف وتخلو من المنابع، درج الأهالي على جلب مياه الشرب للعاصمة الوليدة من «الجديد» التي أنشأها عمر ليل، ثم مؤخراً من «حلوف» المجاورة. بعد أن ساد السلام تفرغ عبد الرحمن لدراساته الدينية كما استقدم العديد من المتعلمين. ظل عبد الرجمن – في نظر الكثيرين- هبة من السماء للأرض لحكمته وورعه وحسه العدلي.

وبالرغم من الخصال الحميدة التي يتحلى بها عبد الرحمن إلا أنه لم يكن يخلو من النقائص أيضاً، وبقدر ما كان عادلاً كان سريع الغضب، وانتقامي المزاج، لا يسامح من يتعرضه ويحتفظ برده للوقت المناسب. أمر عبد الرحمن بقتل «أم بوسا» شقيقه إساغة وقتلت لأنها المحرضة الأساسية ضد فكرة تقسيم البلاد. وبالرغم من العفو الذي أصدره فكر في الإنتقام من أحمد جراب الفول الذي يكن الضغائن للفكي «ديو هقباوي» من كرجو، ولوالد الفكي «ساليماء» الذي نال شهرة في دار فور، لدورهما في الوساطة إبان الصراع على السلطة. كما فكر في التخلص من جاموس وهو رجل من متواشي كان مقترناً بعيرم «فتيسه» ابنة تيراب إذ ظل عبد الرحمن يشك في أنه يعمل لمصلحة من تبقى من أبناء تيراب الذين قتل اثنين منهم. ومع ذلك لم تكشف الروايات عن مصير حبيب ابن كنانة وزبير وما آلا إليه.

أرسل عبد الرحمن رسالتين إحداهما لجاموس تتضمن وعداً بتعيينه في منصب رفيع رشحه له وأفاد بأن التفاصيل عند الشرتاي «كبرو» – من قبيلة البرقد – وأخرى لكبرو نفسه تتضمن أمراً بالإطاحة برأس جاموس. تبدل الخطابان عن طريق الخطأ مما دفع جاموس للإلحاح في أخذ المواثيق المشفوعة بالقسم من السلطان بالحفاظ على حياته.

لم يخرج عبد الرحمن لأي معركة بنفسه، بل كان يُرسل المدعو دالدن ملك الكريات لمحاربة الرزيقات الذين كانوا يشكلون هاجساً دائماً لسلاطين دارفور، وقد استطاع الأخير أن يشيع التظلم التام بينهم.

1- ورد في تشحيذ الأذهان أن اسمه زيادي وهو من فلاحي مصر يجيد التنشين بالبندقية. انظر ص110

انتوى عبد الرحمن إبقاء على وليد جامع كوزير، ذلك المنصب الذي ظلّ يشغله منذ عهد تيراب بيد أنه لاحظ - في أحد الأيام - تردد الوزير على مقبرة السلطان الراحل التي كانت مظللة بخيمة، و ثم يوافيه بعدها في خيمته الأمر الذي دفعه لاستفساره عن سر هذا المسلك الغريب وعدم تركه للسلطان الراحل ليرقد في سلام، مذكراً إياه بأن الأجدر به الوفاء للسلطان الحي خصوصاً وأنه - أي عبدالرحمن - شقيق لتيراب ووريثه. أجاب على وليد جامع وبصراحة بأنه لا يستطيع إبداء مشاعر غير حقيقية لعبد الرحمن وأنه بلغ عمراً عتياً في خدمة تيراب، وتيراب لم يكن مليكه فحسب بل كان صديقاً وفياً له. وأنه الآن في عمر لا يمكنه من إتخاذ صديق جديد، وعليه إذا كان عبد الرحمن لا يستطيع استخدامه والاستفادة منه كوزير فعليه أن يدعه ليموت بسلام. وترك له الخيار في أن ينتقي أي من أبنائه ليجعله خادماً مخلصاً له وصديقاً حميماً.

بعد ثلاثة أيام من هذا الحوار توفى الوزير العجوز. وتردد بأنه مات مسموماً، وخلفه ابنه دوكومي.

وأخيراً، هناك شخصية أخرى لعبت دوراً حاسماً في مصير دارفور يفوق ذلك الدور الذي لعبه دوكومي. ألا وهو كبير الخصيان، وحاكم الإقليم الشرقي (أبو شيخ كُرا) [1] الذي ترجع أصوله للتنجر. فقد عُهد له تأمين المدخل الشرقي، فاستطاع إخضاع المسبعات المشاغبين في كردفان بعد سلسلة من المعارك والمقاومة المنيفة، وسحقهم في أم جنيحات وجعل من بارا مقراً له. وهناك تمكن من توطيد سلطانه وأعطى لنفسه وللإقليم استقلالية أكثر من القدر الذي يسمح به عبد الرحمن، متجاهلاً استدعاءاته المتكررة . كما قاد الأبو شيخ عدة حملات عسكرية في جهات شتى بمبادرة شخصية منه لكنه لم يتوجه لدارفور ولم يعرها اهتماماً إليها حتى الآن. وأخيراً أقام لنفسه مقراً دائماً على الضفة الشرقية للنيل حيث تمكن من جمع ثروة طائلة محفوظة بيد عبده «أشام».

بدأت الشكوك تساور السلطان حيال عامله، مما اضطره لإرسال الفكي طاهر لسلطان الفونج بسنار محرضاً له ضد كُرا مع أطلاق يده عليه. فما كان من سلطان سنار إلا أن قام بمهاجمة قلعة كُرا الحصينة وسلبه أمواله. لم يستسلم كُرا ولم يتراجع لأنه وطد أقدامه في كردفان، ومع ذلك ظلّ ملتزماً بالضريبة المفروضة عليه لعبد الرحمن مع تماديه في عدم إطاعة أوامره.

أخيراً قرر عبد الرحمن حسم الأمر وسعى للحصول على أدق المعلومات عن قوة كُرا العسكرية ولتحقيق هذا الغرض لجأ للخداع، حيث أمر عامله بأن يقود حملة ضد عرب الكواهلة وأذن له بالإنفراد بالغنيمة وألا يدفع للسلطان إلا رأساً واحداً من الماشية عن كل فارس.

1- منصب الأبو شيخ من أهم المناصب في سلطنة دارفور بعد السلطان، فهو الوزير الأعظم، أي رئيس الوزراء، وقائد الجيش ويتولى أحدى الولايات الأربعة. ويتولى المنصب عادة عبد تكن محمد كُرا حُر وكان مشرفاً على مصالح تيراب ومربياً لأولاده وقد اتصفت به خيانة سيده فأنقص نفسه وناصر تيراب ومحمد الفضل الذي قتل في عهده. انظر الحاشية (1) من تشحيذ الأذهان، ص62.

امتثل كُرا للأمر وهاجم الكواهلة وعند فراغه من الحملة أرسل سبعمائة وألفين رأس من الماشية إلى الفاشر وبناء على تلك المعلومات الدقيقة التي توفرت لعبد الرحمن قام بحشد أربعة آلاف وخمسمائة فارس. ومهمة تجميع هذه القوات كان – بلا شك - أمراً مكلفاً للغاية مما استدعى جباية ضرائب العام المقبل مقدماً التي حُصّلت في شكل خيول.

قاد الوزير دوكومي هذه القوة إلى كردفان وهو محمل بالهدايا لقادة كُرا، وتعليمات السلطان هي اقتياد الأبو شيخ للفاشر حياً كان أم ميتاً. امتنع محمد كُرا عن الامتثال للأمر وصمم على المقاومة والصدام لكنه عند طرحه لهذا الرأي في مجلس حربه وأظهر عناده وتصلبه كحاكم لكردفان، خذله القادة الذين سبق واستميلوا بالهدايا والوعود. ترك هؤلاء القادة كُرا وحيداً في مهب الريح لا حول له ولا قوة، وجاهروه بقولهم: «نحن نخدمكم بإخلاص لكن ليس لنا الجرأة على محاربة سيدنا السلطان، إذ أن رغباته تعد أمراً مقدساً بالنسبة لنا».

عندما قيم كُرا الموقف رأي أن يستسلم وأن يعود لدارفور. وعند العودة استبقي في منطقة «أرقد» عند الحدود انتظاراً لأوامر لاحقه من السلطان. ولكي يظهر عبد الرحمن جبروته وعلو مقامه وسطوته، استدعى قادة «جيشه» وأمراء الإقطاع للفاشر في مشهد مروع مستعرضاً لقوة فرسانه الذين كانوا على صهوات الجياد. بعدها أمر السلطان كُرا بالتقدم. لم يكن الاستقبال ودياً بل وجه له السلطان أغلظ عبارات اللوم والتقريع أمام الحشود المجتمعه وفيهم أرباب الدولة والقادة العسكريين، ونعته بالعبد الحقير وهدده بأنه يعرف تماماً كيف يلجمه، ثم انتزع العمامة – شارة الأبو شيخ – من رأسه. ثم صرفه ومن معه من أتباع إلى دورهم. عُرف محمد كُرا بأنه رجل معتز بنفسه، طموح، داهية، وذو شكيمة وعناد، لذلك رغم سخط السلطان عليه وعدم رضاه عنه، ظل محتفظاً بقوته وتأثيره على العديد من الشخصيات ممن احتكوا به أيام مجده وسلطانه رغم سخط مليكه وعدم رضاه.

رأي عبد الرحمن بأنه ليس من الحكمة في شيء استفزازه مرة أخرى خصوصاً وأنه أوذي بعنف، وأنتزعت عمامته أمام الجميع، مع إلمامه التام بقدرات عامله السابق محمد كُرا.

ولما كان السلطان قد تقدمت به السن وأولاده في سن الطفولة، شعر بأنه في حاجة لنصير يتصف بالقوة والإقدام مؤتمن على الحكم من بعده، ولهذه الأسباب استدعى كُرا مرة أخرى وانفرد به وبادره قائلاً « ماذا لديك في كردفان؟ أليست دارفور أرحب منها؟ ها أنت تراني أصبحت رجلاً عجوزاً وأهناً وسأترك مصير البلاد ومستقبل ابنائي في يديك.» ويمثل هذا الحديث استرضى كُرا ورد اعتباره على الملأ وأعاد له درجته ومكانته مما رفع من شأنه لدى كبار رجالات الدولة وفقهاءها.

بعد ثلاث سنوات من هذه الواقعة قرر السلطان – الذي نُصّب وهو ابن ستين – إختيار محمد الفضل لخلافته كما عين كُرا وصياً على العرش حتى يشب السلطان الصغير عن الطوق، وإذا لم يقبل الناس بمحمد الفضل أوصاه بأن يقدم بخاري وإذا رفضه الناس فعليه أن يختار

أحد أبناء إساغة أو أبو القاسم لأنهم جميعاً أحفاد أحمد بكر . لم يجرؤ عبد الرحمن – وقتها – على ترشيح أي من أبناء تيراب لخوفه من تعريض حياة الناس للخطر.

بعد أن وضع عبد الرحمن مستقبل دارفور في يد الأبو شيخ، أعطى زوجته الأثيرة «حواء سلم» رسالة لتسلمها لخليفته المنتظر محمد الفضل على أن يتم التسليم بعد ثلاث سنوات من تتويجه. تضمنت الرسالة توجيهاً له بأن يكون حريصاً وحاسماً في كبح جماح الأبو شيخ ما أمكن ذلك. ولبيث السلطان الثقة في نفس الأبو شيخ استدعى الوزير دوكومي الذي خلف كرا في كردفان وحبسه في جبل مرة وبقي خلف القضبان لثلاثين سنة. توفى عبد الرحمن بعد عهد سعيد دام أربعة عشر عاماً (1785-1799م) وكان أفضل سلاطين دارفور لجمعه بين القوة ورجاحة العقل والوجدان السليم.

وبما إن خلافة عرش دارفور لا يحكمها قانون محدد ولا أعراف مستقرة، لذا كان النزاع متوقعاً بعد موت عبد الرحمن، وكان له من الأبناء أربعة فقط هم بخاري ومحمد الفضل وحسب الكريم وأبو مدين. بخاري أكبرهم لكنه محدود القدرات ولهذا كان خارج دائرة المنافسة. أما محمد الفضل – ولي العهد – فما زال صبياً في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، وهكذا فإن عدداً كبيراً من الأمراء –أبناء وأحفاد أحمد بكر – كانوا يعدون أنفسهم للمنافسة على العرش. ظل عبد الرحمن مستشعراً لهذا الخطر الداهم ولذا وجد ضالته في كُرا ذلك المخصي الشجاع المشهور بالثبات والإخلاص وحسن تقدير الأمور.

وبمجرد وفاة السلطان جمع كُرا الأمراء – أبناء عبد الرحمن – وكبار رجالات الدولة وقادة الجيش وكل ذوي الشأن وأعلنهم بنبأ وفاته وسألهم عما يجب فعله. علماً بأنه سبق واتصل بالأمراء المرشحين وأخطرهم بأنه سيتوج من ينال تأييد الأغلبية مع إصراره عليهم بالرضوخ لما يراه من ترتيبات. اتفق الجميع على ترك الأمر للأبوشيخ وفي الحال أعلن محمد الفضل سلطاناً للبلاد بناء على وصية والده المتوفي . ساد الوجوم وجوه المجتمعين بيد أنهم وافقوا في النهاية ما عدا كنقاوي وليد رمد[1] الذي جاهر بمعارضته لاختيار الصبي لأنه كان يشتم فيه رائحة الدماء، و من رأيه إن دارفور قد أغرقت في حمامات الدم بما فيه الكفاية وعلى الأبوشيخ أن يتوخى الحيطة والحذر لأنه هو نفسه سيكون عرضة للخطر بعد حين. لم يأبه الأبو شيخ للأمر لأنه استمال العديد من الأمراء، وكبار رجالات الدولة بعضهم بالهدايا، والبعض الآخر بعشرة من الحواكير وخمسمائة دولار وعشرين حصاناً بفرسانهم وعدتهم وعتادهم وهكذا إستتب الأمر لمحمد الفضل.

عاد أغلب الأمراء المخدوعين لقراهم وهم يجرون أذيال الخيبة مشحونين بمشاعر العداء ليتدبروا ما يمكن أن يفعلوه. تركهم محمد كُرا طليقين حتى يعرف مناصريهم ثم أرسل دلدن الملقب بـ «مانيو سيد» أي الجاموس الأسود ليقضي عليهم. أنجز الرجل ما كلف به وقبض[2]

1- هو الملك إبراهيم ود رماد.

2- ابن عمة السلطان محمد الفضل.

عليهم فيما عدا أربعة من أبناء تيراب الذين اختفوا نهائياً. قام كُرا بإعدام ستين منهم في ميدان يقع في الجزء الجنوبي للفاشر يُعرف حتى الآن باسم قوز الستين كما حبس الباقين في جبل مرة.

إتسم عهد كُرا – كسلطان فعلي لثلاث سنوات – بالقسوة والكبت والإرهاب وظلَّ مهاباً يُحظى باحترام الجميع، وأنزاح الأهالي عن طريقه وتفرغوا لأعمالهم وهم يمسحون الأرض براحات أيديهم ولُقب «بجبر الداره» أي عضد الدولة، لصرامته واعتداده بنفسه ومبدأه بألا تسلط للأغنياء على الفقراء، وألا ظلم ولا فساد – الداء الذي يعم بلاد السودان – ثم أطلق سراح الأمراء تدريجياً إلا أن الكثيرين مهم آثروا الابتعاد عن محمد الفضل وشهوة الدماء المتأصلة فيه.

بعد ثلاث سنوات من تنصيب محمد الفضل أخذت الأمور تأخذ منحى آخر لأنه شب عن الطوق وسلمته حواء سلم رسالة والده السابق ذكرها، والتي وقعت في يد الأبو شيخ وأطلع على حكم الإعدام المبيت له لكنه سمح بتسليمها للسلطان الصغير متظاهراً بعدم وقوفه عليها. ومنذ ذلك الوقت أصبح يراقب السلطان مراقبة لصيقة وكان يرى أنه لو قدّر له الموت على يد مليكه فعلى الأقل إلا يُقتل مسموماً، ولذلك صار لا يتناول أي طعام إلا إذا تذوقه – قبله – آدمي أو كلب، وكلما كبر محمد الفضل إزداد كُرا شكاً.

كان كُرا على قناعة بأن هناك كارثة وشيكة الحدوث وإن هناك الكثيرين ممن نالتهم قسوته وجبروته ينصبون له الفخاخ بدافع من الغل والحسد وصاروا يؤلبون السلطان الصغير ضده ويبذرون الريبة في نفسه حتى استفحل الأمر وسيطر عليه الشك وأصبحت الشقة تبعد بينه ووصيه الشرعي يوماً بعد يوم الأمر الذي لم يُعد خافياً على أحد. أخيراً استجاب السلطان لضغوط أعداء الأبو شيخ الذين اقترحوا عليه أن يمنعه من استخدام الآبار الموجودة في بحيرة تندلتي، فإذا كانت نواياه حسنة سيأتي ليسأل عن سبب حرمانه من الماء، أما إذا كان سيء النوايا فسيجاهر بالعداء. حدث ما توقعه أعداء كُرا حيث تولى بنفسه قتل من أبلغه بالقرار، ثم جمع قواته وأعلن العصيان. إندلع القتال على ضفتي البحيرة والتي كانت – وقتها – خالية من المياه وبالقرب من المقر السلطاني. سارت المعركة – في يومها الأول – لمصلحة الأبو شيخ حتى اضطر كنفاوي إبراهيم وليد رمد من تهريب السلطان إلى مأمن في الجزء الجنوبي الغربي للعاصمة. ثم استغل كنفاوي فترة ظلام الليل وتحرك بهمة ونشاط ليرشي بعض أنصار كُرا ويجذبهم لصف السلطان. وعندما دوت الطبول ليلاً يتقدمها دوي الطبل المسمى المنصورة[1] والتي قيل إنها هدرت من تلقاء نفسها، غير الكثيرون موقفهم . وعندما بدا القتال في الصباح كان جل أنصار الشيخ في صف السلطان. إنجلى الموقف عن مقتل كُرا على يد أحمد جراب الفيل الذي كان ضمن من استمالهم وليد رمد بالرشوة[2].

1- هي طبل عظيم ظفر به تيراب من العبدلاب عند المدرمان عند حملته على كردفان ويتم تطليده سنوياً في عيد الكندا مع الطبول الأخرى.
2- كان المعركة في شهر رجب 1219هـ اكتوبر، نوفمبر 1804م، وكان أعداء الأبو شيخ قد سمموا بالنميمة للسلطان وأبلغوه أنه ينوي

وهكذا أصبح محمد الفضل الحاكم الأوحد، والوحيد المؤثر عليه هو إبراهيم وليد رمد الذي تجرع - بدوره - كأس المنون بعد فترة قصيرة من هذه الأحداث. وسر نجاح إبراهيم في التقرب للسلطان كان بفضل عون المقدوم سعيد والوزير حامد وعبد الله وليد النوح وهو رجل من دنقلا لا يشغل منصباً رسمياً. كانت للسلطان علائق طيبة بأخيه الأكبر بخاري نديمه في معاقرة الخمر ومجالسة الحسان، ولكن بعد أن اشتد عليه السخط وسخط العامة لتفضيله قبيلة والدته - وضيعة الأصل - على بقية القبائل واتهامه باختصاصها بالوظائف العامة، بدا الناس يلتفون حول بخاري مما حض السلطان على قبضه وهو برفقة بعض أصحابه في دار المقدوم سعيد وهم يعاقرون الخمر، وحبسه في زنزانة بجل مرة، وحتى ذاك الوقت كانت كردفان ما تزال جزءاً من دارفور تحت إدارة الحاكم مُسلم [1] الذي صاحب دوكومي إلى كردفان وحل محله عند استدعاء الأخير لدارفور. حاول مُسلم أن يستقل عن محمد الفضل متبعاً خطى سلفه وتحقيقاً لهذا الغرض أبرم اتفاقاً سرياً مع بخاري عند بداية عهد محمد الفضل واحتلال المصريين لكردفان. كان محمد الفضل فتى غريرا عابثاً يحب اللهو والمجون، عامل مواطنيه بالقسوة والشدة، ورغم أنه لم يكن يخلو من الشهامة إلا أنه أصبح - فيما بعد - ظالماً باطشاً، سام القبائل العربية سوء العذاب وأوسعهم ذبحاً ونهباً وتقتيلاً. غضب على قبائل بني هلبة لنزعتهم الاستقلالية وثروتهم الطائلة فأقام لهم مذبحة شهيرة، ثم حمل على العريقات على الحدود الشمالية الغربية للبلاد والذين أثاروا غضبه بسخريتهم منه ومن حكومته لأنه - في نظرهم - عياً غريراً. وجه حملة ضدهم بقيادة باسي عمر الذي أخذ خُمس جمالهم، وعندما لم يُوت الأمر أكله رماهم - بعد سبع سنوات - بحملة أخرى بقيادة أبو شيخ حنيفي وباسي دونقو بيد أن هؤلاء القادة هزموا وماتوا في المعركة التي أبلى فيها العريقات بلاءً حسناً ولعدة أيام، لكنهم هُزموا في النهاية. وتم أسر سبعة من قادتهم وأحضروا مكبلين للفاشر حيث أعدموا في السوق ومنذ ذلك التاريخ انتهى الكيان القبلي للعريقات وتشتت بهم السبل والتحقوا بقبائل أخرى في مقدمتها قبيلة المحاميد في تاماً.

ثالثة القبائل التي تعرضت للنهب هي قبيلة الرزيقات ولعدة مرات، ومع ذلك ظلت هذه القبيلة صعبة المراس، ولا يمكن السيطرة عليها لأن محاربيها يحتمون بأراضي المستنقعات جنوب البلاد. وتتميز قبيلة الرزيقات بأنها القبيلة الأكثر قوة بين كل قبائل دارفور.

نجح المقدوم سعيد - شاغل منصب الـ «سيمون دقولا» - أي حارس الطبول في خداعهم وذلك بأن استدرج شيوخهم وأكرمهم لسبعة أيام بذل لهم - خلالها - الهدايا في «تليدونا» جنوب البلاد، ثم في أحد الأيام تظاهر بأنه استدعي للفاشر فاستبقى ضيوفه في داره وكان وقتها قد تحالف مع بعض القبائل المجاورة وكانت قواته محتشدة جنوب شرقي البلاد. وفي الحال قاد غارة ضد عرب الرزيقات المجردين من قياداتهم وهزمهم ونهب ممتلكاتهم، وقبل

تسبب أخيه باسي عوض الله وحل محله الشيخ عبد الله دكما

1- هو المقدوم مسلم الذي كان والياً على كردفان.

إنه كرر هذه الحيل على الرزيقات مراراً.

حسب الكريم وأبو مدين - إخوة السلطان الأصغر - كبرا في السن وصارت لهما صداقات واسعة لكن محمد الفضل - المرتاب دائماً- حذرهما وذكرهما بمصير أخيهما بخاري وظل يكرر هذا القول ولما كان الأميران يدركان فحوى هذا التحذير قررا الهرب. وتنفيذاً لهذا المخطط ذهبا إلى أملاك لهما تبعد حوالي مسيرة يوم شرق الفاشر وبقيا هناك لعدة سنوات وعندما تأكدا من أن السلطان قد غفل عنهما فرا قاصدين كردفان، ولسوء حظهما فإن صاحب الجمال التي استأجرها الشقيقان خانهما ثم طاردهما ونجح في القبض على حسب الكريم عندما كان يصلي. أما أبو مدين [1] فقد نجح في الفرار لمصر. حكم السلطان على حسب الكريم بالإعدام بإجماع العلماء بيد أنه استبدل العقوبة بالسجن معلناً عدم رغبته في سفك الدماء، وهكذا أرسل حسب الكريم للسجن تحت عهدة كبير الخصيان «أبوجودة»، ثم قُتل حسب الكريم - فيما بعد - خفية كما قُتل قاتله أيضاً.

تبقى ابن واحد لبخاري اسمه «تيراب»، حاول الأميران الهاربان إغراؤه على الهرب برفقتهما - آنذاك - إلا أنه إكتفى بالرفض دون أن يفشي سرهما، ولذلك حبسه محمد الفضل في زنزانة «أبو أمه» بجبل مرة حتى حرره محمد الحسين ابن محمد الفضل وخليفته.

صار محمد الفضل - بتعاقب الأيام - يزداد عنفاً وأصبح انفعالياً سريع الغضب ترتعد فرائص الرجال عند ملاقته، لا يجرؤ أحد على التفرس في وجهه وكل من يقترب من قاعة انتظار القصر عليه أن يتأكد من لون ملابس السلطان فإذا تطابقت مع لون ثيابه عليه أن يستبدلها قبل المثول أمامه. ومما يروى أنه أمر - في أحدى المرات- بقتل رجل ينتمي لقبيلة الميدوب لمجرد أنه لم يستحسن منظره، وفي أواخر سني حكمه صار يتطيَّر من أيام بعينها، وإذا لبس العباءة السوداء يتوجس الكل خيفة لأنه سيسفك الدماء حتماً في هذا اليوم.

حُظي أبو مندنيقا وعبد الباري زعيم التعايشة والرئيس الدائم وملك الكريات وعبد الفتاح والمقدوم سعيد (سيمون دقولا) والوزير بتقدير السلطان.

وللسطان محمد الفضل أبناء عديدين أكبرهم عبد الرحمن الذي راح ضحية لحادث مفجع، وكان أبوه يعده لولاية العهد بيد أن من يستأنس برايهم نصحوه بألا يفعل لأن عبد الرحمن مُحب للسلطة ومتغطرس وعنيف، إضافة لذلك أكتشف عدة مرات وهو في أوضاع مريبة بالقصر توحي بأنه ينوي التآمر على والده. ثم نفيه للجبل، لكنه تمادي في ممارسة تصرفاته الشريرة ضد شاغلي الدرجات العليا وناصب المواطنين العداء . رفعت ضده الشكاوي والتظلمات حتى أودع السجن مع سبعة من رفاقه بجبل مرة تحت حراسة الملك «زام» قام عبد الرحمن بقتل الملك لكنه شرب من نفس الكأس على أيدي رجال الملك. عفا السلطان عن القتلة ولم يسمح بإقامة مأتم لإبنة حتى في بيته الخاص.

1 - فر إلى مصر وأخذ يهون على محمد علي فتح دارفور فأرسله محمد علي إلى كردفان السمي مع مديرها في ذلك فبقي في الأبيض إلى أن توفي. انظر نعوم شقير جغرافية وتاريخ السودان 264.

في أواخر سني حكم محمد الفضل خاض حرباً ضد ودّاي مستغلاً تلك السنوات العجاف التي أحاطت بالبلاد إبان حكم عبد العزيز والتي إقترنت بالمجاعة والحروب الأهلية. وكان يرمي من تلك الحملة تنصيب ابنه حسين كسلطان على وادي، بيد أن الفائدة عادت – في النهاية – لشعب ودّاي ومحمد شريف الذي كان يقيم في «جمعان» بجنوب دارفور. أراد السلطان أن يستخدم محمد شريف كستار لهذه الغزوة التي كانت تحت قيادة الوزير عبد السيد وعبد الفتاح ملك الكريات بالتحالف مع محمد الحسين ثاني أكبر أبناء السلطان فضلاً عن محمد شريف نفسه. و الخطة المعلنة هي أن يتولى محمد شريف السلطة أما الخطة الحقيقية هي أن يتوّج محمد الحسين ملكاً على ودّاي. لم يتم التخطيط لهذا الأمر جيداً، وعند ما تكشفت لعبد السيد أبعاد المؤامرة – عقب نجاح الحملة – سلم السلطة لمحمد شريف أمير ودّاي، وخوفاً من انتقام السلطان إنتحر عبد السيد بالسم في طريق العودة بقرية «بركاوية» حيث قُبر هناك. لكن هناك رواية أخرى تقول بأن السلطان قتله لأنه لم يترجّل عن حصانه من مسافة معقولة عند مقابلته له. حل محله عبد الباري مع أن آدم الملقب بطربوش كان هو المُقرّب للسلطان ومصدر ثقته. كان عبد الباري رجلاً طموحا ذو نظرة مستقبلية وكان يتوقع موت السلطان لأنه يعاني من مرض الجزام لذا عقد النية على الزواج من أم الأميرين شمس الدين ويوسف على أمل أن يغدو أحدهما سلطاناً للبلاد. حاول أن يُوجد مكانه ورفعه لنفسه ولذا سعى لاستمالة كبار رجالات الدولة ببذل الهدايا والمنح. ومن أكثر المقربين له الدادنقاوي إسحق كُرتي والأرندلنق أحمد الدابي وأحمد ونقا وأبو جباي ترتور والباسنقا بن نوح ومحمد بن تيراب والملوك محمد مقدم ومقدوم عبد الفتاح. دبّر عبد الباري مؤامرة بمعية محبوبته أم نعيم كوسا أم الأميرين المذكورين بيد أن آدم طربوش خانهم ونقل تفاصيل المؤامرة للسلطان، وبناء على ذلك عجل السلطان بتحديد إقامة عبد الباري في داره وبينما كان المتآمرون ينتظرون مصيرهم توفى محمد الفضل بعد يومين فقط، بعد أن أوصى بأن يخلفه ابنه الحسين لأنه كان يخشى نزعة العنف لدى ابنه الأكبر أبو بكر. سبق لآدم طربوش أن أقسم لأبي بكر بأن يوليه الحكم لكنه التزم بوصية سيده ونصب محمد الحسين سلطاناً للبلاد. سبق ونوهنا بأن أبناء السلطان وأخوته هم الذين يحق لهم التنافس على العرش، وجرت العادة بأن يقوم أقرب المخلصين للسلطان بترتيب أمر الخلافة بالاتفاق مع أبناء السلطان وأخوته وهذا هو عين ما انتهج الآن. وعندما كان السلطان في فراش الموت ظل هذا الأمر في طي الكتمان، وحتى موته لم يعلن فوراً. طلب آدم من أبي بكر الحضور مساءً لكنه امتنع لأنه وأخوته كانوا يخشون من تآمر عبد السلطان، وفي صبيحة اليوم التالي جمع أبو بكر إخوانه حسين وحسن وفور ونورين وعرّاس وأحمد بكر ومحمد عقيل وإبراهيم وأبو كندي والعقيد عثمان وعبد الغني وأحمد عمر وعبد الحميد وطلب إليهم الانضمام له في هجوم عسكري على القصر لمنع آدم طربوش من تنصيب حسب الله أو أي من أخويه بوش وشرف الدين. كانت فرصة حسب الله ضعيفة جداً تحت

كل الظروف رغم كونه أكبر الأمراء ويتمتع بالنشاط واليقظة. لم يكن آدم طربوش ممانعاً في تنصيبه في البداية. إلا أن هناك مستجدات – بجانب وصية سيده – منعته من ذلك إذ حذره الفكي «ملك الكركوا» – أي رئيس الغلمان – من إنتقام حسب الله، مذكراً إياه بأنه سبق ونوى قتل باسي رمضان – مقدوم دار الصعيد – عم حسب الله بسبب إبتزازه لحسن أبو كبير الميدوبي الذي كان في خدمة أبو أرنقا حبيب الإباباسي زموم، وذكره كيف كان يضغط على مواطنه لاختيار أحد أبناء كتوما الثلاثة بكر أو حسن أو نورين ليتوج كسلطان للبلاد . بناء على هذه النصيحة أرسل آدم طربوش الفكي سلامة للأمير حسين ليلاً وهو متنكر ووجد بمعيته أخية نورين وكان حسين مرتبطاً بقسم مع بقية إخوته مؤداه بألا يتوانى من يستدعى منهم في تبليغ الآخرين. أرسل حسين أخاه نورين ليبلغ أبا بكر بهذا الاستدعاء، لكن نورين تقاعس في إبلاغ أبي بكر، أما حسين فقد رافق الفكي سلامة للقصر حيث تم تنصيبه سلطاناً على البلاد، ثم انتدب الباسي عمر وحسن أبو بكر لإيقاظ كبار القادة وإبلاغهم بالأمر مع تحليفهم قسم الولاء على المصحف. وفي الصباح الباكر دوت الطبول وأطلقت الرصاصات في الهواء وتم ابتعاث الشريف إبراهيم مع الملك أحمد ابن دردوق لإبلاغ أبي بكر بتنصيب حسين. لم يصدق أبو بكر في البداية رغم أن حسين نفسه أرسل من يبلغه بذلك، بيد أنه تيقن أخيراً من صحة الخبر بعد، أكدته له أمه كتوما وأخته زمزم. في الحال عاد غاضباً إلى دياره مصطحباً قواته مكتفياً بوصم أخيه بالخيانة دون أن يُظهر عداءً واضحاً.

كان هناك الكثيرون ممن لا يوافقون على تنصيب حسين، منهم عبد الفتاح الذي جاء إلى آدم طربوش وهو يتساءل : «من توجت»؟ رد آدم طربوش «سيدنا حسين» صرخ عبد الفتاح قائلاً: «أيها الميدوبي أتنصب خمسة سلاطين بدلاً عن واحد؟ وكان يقصد أن حسين يخضع لتأثير والدته وإخوته. كان السلطان يستمع لهذا الحوار من خلف ستارة لكنه لم يكترث واكتفى بتحليف عبد الفتاح قسم الولاء. لم يعد عبد الفتاح مطمئناً لحسين ولذا استأذنه في الإغارة على بلاد الوثنيين في الجنوب لجلب الرقيق فأذن له. سافر عبد الفتاح إلى هناك ثم عاد للفاشر بعد أن أمضى عدة أشهر في رحلته هذه وكان ينوي معاودة الكرة بيد أن مجمل هذه التصرفات جعلت حسين ينظر له بعين الشك والريبة ولذا كلف أحد رؤساء الزرائب بالتخلص منه، ويُقال إنه لقى حتفه في إحدى زياراته للفاشر. ولما كنت أقيم في الحي الذي كان يقطنه عبد الفتاح عرفت من نفذ هذه المهمة.

أما بعد الباري، فلم يفصح عن طموحاته حتى الآن وكان مستمراً في الإلتقاء بالدادنقاوي إسحق كوكمي وأخيه إبراهيم دودقي وأحمد وتقا وأبو جباي توتور عبد الكريم . وفي يوم من الأيام أتاهم سعيد وليد قامزوت فقالوا له: «نحن نلازم البيت الكبير ونجالس الطبول والسلطان يجلس في تُمباسي – أي القصر الجديد – مع آدم طربوش فلماذا لا نقيم حاكماً في هذا القصر؟ . نقل العبد هذا الحوار لسيده الذي شتت شملهم بالقتل والحبس . وكان عبد

الباري الذي أقيل من وظيفته أول الضحايا إذ حُكم عليه بالقتل لكن نورين تشفع له وضمنه، وافق السلطان وعهد به إليه حيث تحفّظ عليه في منزله. رغم هذه الظروف لم يستطع عبد الباري التخلص من خيلائه وحبه للتفاخر، حتى وبخه نورين في يوم من الأيام ونعته بالعبد العاطل لأنه امتنع عن مد يد المساعدة لأبنائه أثناء تشييدهم لمنزله فحزّ هذا الأمر في نفسه فانتحر بالسم وتحققت فيه نبوءة محمد الفضل الذي توقع له نهاية مأساوية نتيجة لتفاخرة وزهوه بنفسه.

خلف آدم طربوش عبد الباري في منصب الوزير، ويجدر بنا هنا أن نوضح الظروف التي أسبغت عليه هذا الاسم. ففي إحدى المرات أهدى أحد تجار النيل طربوشاً لمحمد الفضل وأمر السلطان «الفكي حامد» المشرف على غلمان القصر أن يرسل غلاماً لهذا التاجر رداً لجميله ولأن الفكي حامد كان لا يحب آدم طربوش تلقف السانحة ودفع به كهدية لهذا التاجر. بعد أيام سأل السلطان عن آدم فصارحه المشرف بما جرى وكان التاجر – وقتها – قد غادر الفاشر. في الحال أرسل السلطان الرسل في طلبه، فأعيد آدم من الطريق ومنذ ذلك الوقت لقب بطربوش، وأغلب الظن أن هذا اللقب كان مشيناً بالنسبة له خصوصاً بعد ما شغل أرفع المناصب.

اتسم عهد حسين بالاستقرار والسلام بيد أنه لم يكن محبوباً من رعيته. وما فتئت أمه تحرضه ضد كبار رجالات الدولة وضد أخوته وبالأخص أبي بكر وحسب الله، وظلّ الناس يحتقرونه لأنه كان شخصاً خيالياً شحيحاً كما تبينوا ضعفه وروحه الإنهزامية. كان أبوه أول المنتقدين له إذ قال فيه: إنكم إذا توجتم حسين فإنكم تتوجون تاجراً لا سلطاناً. وعرف عنه إرتباطه بعلاقات تجارية مع كردفان، ويُروى بأنه – في أحدى المرات – زرف الدموع حزناً على بعض الأقمشة التي إحترقت في أحد أكواخه. عرف حسين كيف يتخلّص من كبار رجالاته وذلك بإرسالهم واحداً تلو الآخر لحرب الرزيقات[1] والذين حرصوا في كثير من الأحايين على ألا يتيحوا لهم فرصة العودة أحياء، فاقتصرت حروبه على هؤلاء المتفلتين من القبائل العربية في جنوب البلاد. في السنة الخامسة والثلاثين لحكمه أرسل ثمانين حملة ضد الهبانية والمعاليا حلفاء الرزيقات لكن أغلب هذه الحملات رُدت على أعقابها.

هاجم «سيمون دقولة» عبد العزيز الرزيقات بسبب حصان سرق منه رغم إنهم عرضوا عليه عشرين حصاناً عوضاً عنه، وذلك لأن باسي نيوميو وبقية القادة الآخرين حرضوه على رفض هذا العرض ورأوا أن الحملة أفيد لهم، فقاموا بالهجوم على الرزيقات وغنموا كما هائلاً من المواشي في البداية لكن الرزيقات تحصنوا بمنطقة المستنقعات في الجنوب وعندما قفل خصومهم راجعين إلى ديارهم وبصحبتهم الغنائم انشقت الأرض ليلاً عن فرسان الرزيقات الذين أخذوا خصومهم على حين غرة وأوسعوهم ضرباً وتقتيلاً وأبادوا كل القادة ما عدا عبد العزيز الذي نجا بفضل سرعة جواده واستردوا مواشيهم فرحين بالنصر والفلاح.

1- من أكبر قبائل البقارة في دارفور ثروة وأشدها قوة ومواطنهم بأقصى جنوب شرق دارفور وهم رعاة ماشية وينقسمون إلى ثلاث شعب الهبرية والمحاميد والنوايبة. مكمايكل، ص290 -90

غضب الملك حسين عندما بلغته تلك الأنباء السيئة وأمر الملك خليل بأن يأتيه بعبد العزيز -الذي تخلّف بدارا[1] سجيناً. نفذ خليل الأمر بيد أن عبد العزيز لم يأت غافلاً إذ كان يعرف طباع حسين جيداً، فاحتفظ بمائتي قرط من الذهب الخالص مخبأة في ملابسه. وبمجرد وقوفه أمام السلطان بدأ في توبيخه بشدة ثم حكم عليه بالموت. رد عبد العزيز بأنه يتقبّل هذا الحكم لأنه حكم عادل وما هو إلا عبد عليه أن يقبل ما يأمره به سيده، لكنه يلتمس من السلطان أن يتيح له الفرصة ليعوّض ما فاته من كسب وليبرهن له بأنه لم يكن مشغولاً إلا بسيده. وكما قدر عبد العزيز، فقد انبهر السلطان الجشع لمنظر الذهب وغير رأيه في الحال وألغى عقوبة الإعدام وأرسله إلى الجنوب مرة أخرى تحت ستار جلب الغلال من جمعان. ثم ألحقه بالعمامة والرماح السلطانية «كوري دورم» زائداً الكرسي السلطاني «الككر» والمصحف والبساط وتلك الأشياء مجتمعه تمثل شارة الجنوب والتي تعطيه صفة الممثل الشخصي للسلطان ولم تكن تنقصه إلا الطبول السلطانية. تحظى هذه الوظيفة بالتجلة والتقدير وسط الأهالي ويُعتبر شاغلها كما لو كان السلطان نفسه وهكذا صار مقدوماً للجنوب. عاش عبد العزيز بدارا لمدة ثلاث سنوات وأدار الإقليم بكفاءة واقتدار. كان قاسياً لكنه لا يرتضي الظلم لرعاياه وخصوصاً من عماله، ويتشدد في معاقبة المجرمين واللصوص. وفي السنة الرابعة هاجم الرزيقات مرة أخرى في سانيت حيث توجد بحيرة مستنقعية في الفلاة الواقعة بين ديار الهبانية والفور وقام بالاستيلاء على ألف ومائتي رأس من الماشية تخص الرزيقات والهبانية. وفي السنة التالية أغار عليهم أثناء موسم الأمطار بقوة كبيرة لكنه لم يحقق النجاح المنشود وعرفت هذه الحملة باسم «فيو» أو «نهات الفيو» لأن جنوده اضطروا لأن يقتاتوا بنبات الفيو بعد أن جفف الرزيقات الإقليم من الغلال مما دفع السلطان لنعته بالجبن . ثم في السنة السادسة قاد هجوماً آخر ضد الرزيقات بقوة كبيرة عبر ديار الهبانية الذين يُشتبه في إيوائهم للرزيقات. أنكر الهبانية التهمة، فقام عبد العزيز بإجراء استعراض عسكري كبير «عرضة» وحشد الهبانية عدداً كبيراً من الخيول، وقيل إن الفرسان الذين على ظهورها كانوا من الرزيقات . أحاط عبد العزيز بالهبانية وطلب تسليمه هؤلاء الفرسان، رفض الهبانية الغدر بمن استجار بهم فبادرهم عبد العزيز بالهجوم . حاول الهبانية والرزيقات كسر الحصار ففقدوا ألف رجل في الحال. تلت هذه المعركة عدة معارك أخر فقدوا فيها ما فقدوا من الرجال والغنائم التي قُدّرت بأربعة آلاف رأس من الماشية.

أمر السلطان بمعاودة الهجوم على الرزيقات مباشرة وامتثالاً لهذا الأمر خرج عبد العزيز في موسم الحصاد، في الخامس عشر من شعبان، وكان على رأس خمسة عشر ألف فارس كما زوده السلطان بفرمان «تفويض» خُتم بالأحمر بدلاً عن الختم الأسود- المعمول به – وكساه بُرنساً أسود اللون بدلاً عن البرنس الأحمر المتعارف عليه، فكان فالاً سيئاً لأن الرزيقات أفلحوا في أسر مؤخرة الجيش بكامل عدتها وعتادها.

1 -موقع مدينة نيالا أو قريباً منها.

أرسل عبد العزيز الجند لمختلف الاتجاهات لمطاردة قطاع الطرق من المسيرية والمساليت والزغاوة في الجنوب وضد البرقد والبني هلبة في الجنوب الشرقي. وأسفرت هذه الحملة عن الكثير من الغنائم. بيد أن الرزيقات هاجموها في اليوم التالي من مختلف الجهات متحصنين بالدروع المصنوعة من جلود الجواميس والتماسيح والكركدن وكانت جل أسلحتهم من الرماح الكبيرة والتي يُقال أن طول نصلها يبلغ حوالي الثلاثة أشبار وعرضها شبراً[1] كاملاً. استمرت المعركة حتى الرابعة من عصر يوم الأربعاء، ثم استؤنفت صبيحة الخميس ولم تنته إلا عصراً، ثم تجدد القتال فجر الجمعة حتى منتصف النهار. في هذه الأثناء غنم الرزيقات الجمال المخبأة في الجوار وسبوا النساء. حاول عبد العزيز استرداد الغنائم وتحرير النساء لكنه فشل في ذلك.

أخيراً إنجلى الموقف عن انتصار الرزيقات وتفرّق شمل الجند وولى عبد العزي الأدبار ركضاً بفرسه دون توقف حتى فجر اليوم التالي حتى غاص حصانه في أحد المستنقعات، بعدها أنقذه بعض عبيد الرزيقات الذين لم يتعرفوا عليه لحظتها، ثم بغطرسته المعهودة كشف عن شخصيته فقتله الرزيقات. كانت حصيلة الرزيقات من الخيول والغنائم الأخرى تفوق حد الوصف.

في أول يوم لشهر الصيام طارت أخبار هذه الخسائر إلى العاصمة. وفي أول أيام عيد الفطر حل خليل بن عبد السيد «ملك كركوا» – أي حملة الحراب- محل عبد العزيز كمقدوم للجنوب كما عُين حسن أبو كبير مقدوماً لدار تكنياوي، وأبو شيخ رحمة مقدوماً للمديرية الشرقية . قاد الثلاثة حملة أخرى ضد الرزيقات. وفي أحد الأيام وبينما عربان المعاليا في مؤخرة الجيش إنشقت الأرض فجأة عن جحافل من جنود الرزيقات الذين هاجموا مؤخرة الجيش وقتلوا الكثيرين وأسروا النساء وغنموا المؤن، ثم أعادوا الكرة ضد كتيبة حسن أبو كبير وقتلوا ابنه زعيم الزيادية. ولما كان الرزيقات يتوقعون هجوماً مضاداً من جيش الفور أخفوا مؤنهم وأطفالهم في الجنوب بدار «الجانقي»[2] الحصينة بالمستنقعات، والتي يصعب الوصول إليها. ومن أبرز قادة الرزيقات – في ذلك الوقت – جمعة الهارو – من الهبانية – وفكي أبو بكر من المحاميد.

فشلت كل الحملات الموجهة ضد الرزيقات لأن ممتلكاتهم وأطفالهم في أماكن حصينة كما أنهم يجيدون الجمع والانتشار حيث درجوا على التجوال في منطقة واسعة الأمر الذي يصعّب على الخصوم حصرهم أو متابعة تحركاتهم كما أنهم يستخدمون سلاح التجويع ضد أعدائهم ببراعة واقتدار.

لقد غم السلطان غماً شديداً عندما عاد المقدوم خليل خائباً فنحاه وولى أدم طربوش – بطلب منه – ليتولى تأديب الرزيقات.

1- تسمى الشلالية

2- الدينكا

نجح الوزير في الحصول على كميات هائلة من الغنائم لكنه لم ينجح في اخضاع الرزيقات، فالملك عطية البرتاوي الذي هاجم المعاليا وأشياعهم من الرزيقات هُزم شر هزيمة، كما استدرج الشيخ راشد - زعيم الهبانية الذي يشايع الزبير باشا- آدم طربوش إلى منطقة مستنقعات سنيت بزعم أنها مرتع لمواشي الرزيقات وكان الرزيقات قد تلقوا تحذيراً في الوقت المناسب عن طريق عيونهم المنتشرة في المنطقة. فقاموا - إثر ذلك - بإخفاء مواشيهم في مناطق آمنة مما أدى لفشل الحملة.

وفي السنة التالية قاد آدم طربوش حملة أخرى قوامها اثنا عشر ألف فارس واصطدم بالرزيقات في مستنقع «شيلوك» وبعد خمسة أيام من العراك أصاب الرهق الجميع فتراجع آدم طربوش بضغط من قواده مما عرضه لتوبيخ السلطان.

عاد آدم طربوش في السنة التالية بقوة كبيرة مستهدفاً الرزيقات وبمعيته باسي عبد الرحمن وآدم تو «رئيس الأسطبلات»، وقاتلوا الرزيقات لأربعة أيام متواصلة وفي اليوم الخامس طالبه رجاله بالتراجع لما أصابهم من رهق وإجهاد خصوصاً وإن جند الرزيقات كانوا في تزايد مستمر والنصر بعيد المنال.

رفض آدم طربوش تعريض نفسه لهذا الموقف المحرج مرة أخرى وحاول سحب قواته إلى «شكا»- وهي بقعة رملية على مرمى حجر منه - إلا أن دونها بعض المستنقعات. تدخل الرزيقات ليعيقوا هذا الإنسحاب فاحتدم القتال حتى العصر، وانجلى الموقف عن انتصار الرزيقات بعد أن سقط آدم طربوش وخمسون من قواده.

بعد تلك الحملة الفاشلة أسندت إدارة الجنوب لأحمد شطة بن عبد العزيز (المقدوم المتقدم ذكره) وكان ملك «السرنجا». لم يبادر أحمد شطة بالقتال بل عمد لتقوية الجيش بالتدريب ودعمه بالأسلحة النارية لمدة خمسة عشر عاماً كاملة. ثم قاد حملة ضد الهبانية لكن كانت حصيلتها أربعمائة رأس من الماشية فقط الأمر الذي لم يُرض طموح السلطان، طمأنه أحمد شطة ووعده بالمزيد بفضل قواته وما تملكه من عتاد. في هذه الأثناء، توفي خليل وقيل إن موته كان نتيجة للتجاهل الذي وجده من السلطان وعُين أحمد شطة في منصب الوزير. حيَّد أحمد شطة قبيلة المعاليا التي تعيق الطريق المؤدي لديار الرزيقات، ثم هاجم الرزيقات إلا أنه لم يحقق سوى نجاحاً محدوداً - كسلفه - بعد أن خسر تسعمائة من الخيل وعدد من الرجال بسبب العطش والإرهاق المتواصل وعاد يجرجر أذيال الخيبة.

وفي الخريف التالي كلفه السلطان بحملة ثانية ضد الرزيقات قوامها الجند المسلحون بالأسلحة النارية تحت قيادة آدم سيف وإبراهيم كسكساني وسعد النور وعبد الله دنقا وبدأت المناوشات في كُلكلة وقُتل إبراهيم كسكساني وابد فضل الملقب بـ «أرنب» مع نفر من الرجال وغنم الرزيقات خمسة عشر حصاناً. قام جيش الفور - في اليوم التالي - بنهب القرى المجاورة، لكن في هجوم مضاد للرزيقات فقد أحمد شطة خمسمائة من رجاله. وعند حلول

الظلام بدا الفور في ترديد الأغاني المتضمنة لمعاني الزراية والسخرية من الخصوم مع التهديد والوعيد بما سيحل بهم غداً. وفي هذه المعركة تم استخدام الأسلحة النارية ونجح المدفع الذي كان مع الفور في الحد من اندفاع الرزيقات إثر إطلاق ثلاث طلقات منه. وفي صبيحة اليوم التالي – الجمعة – استؤنفت المعركة على مستنقعات ممقس – حيث قُتل آدم طربوش – ودارت الدوائر على الفور وحوصروا حصاراً شديداً ولم يتمكنوا من الإنسحاب إلى شكا إلا بشق الأنفس تحت ضربات أعدائهم وهجماتهم المتكررة. وهكذا عادوا مرة أخرى يجرجون ذيول الخيبة والخسران. لم ييأس السلطان حسين بل عاود الهجوم على الرزيقات في السنة التالية وتوغلت قواته حتى أماتورك، واحتدم القتال ليومين متتاليين أفلحت قواته – هذه المرة- في كسر شوكة الرزيقات الذين عرضوا الاستسلام مع دفع ستين حصاناً كضريبة. لم يقتنع القائد المرافق لأبو شطة بهذا العرض ونصحه بان يقبض على شيوخ الرزيقات. رفض أحمد شطة النصح ولم يكتف بذلك بل وعد الرزيقات بإطلاق سراح أسراهم ورد ممتلكاتهم مع تأكيد حقهم في قتل من يتعرضهم في أنفسهم وأموالهم. لم يرض قواده بهذا الاعتدال وتخلوا عنه عائدين لديارهم. وبعد أن لاحت بشائر السلام حنث الرزيقات بالقسم وهاجموا أحمد شطة مجدداً. حاول شيخ الرزيقات بريمو وليد البونياتي أن يخفف من وقع هذا الحادث ووصفه بأنه لا يعدو أن يكون تصرفاً لصبية متهورين، ثم أرسل حصانين لأحمد شطة كنوع من التعويض وطلب منه مغادرة ديار الرزيقات لأنه لا سلام تحت فوهات البنادق، وهكذا لم يجد أحمد شطة بدا من أن يعود أدراجه.

كانت هناك أحداث أخرى عاصرت عهد السلطان حسين إذ ظهر شيخ عربي من مصر يُطلق عليه اسم «الشيخ المصري» يأتمر على مجموعة من قبائل الداذا هاجم بهم ديار البديات في الشمال ونهب الأهالي. تصدى له المهرية لكنه سرعان ما أعاد الكرة، وبالرغم من كثرة القبائل العربية بشمال دارفور إلا أنهم فشلوا في رده، وبفئة قليلة من حملة البنادق نجح في تهديد الحكومة. وفي إحدى هجماته ضد المحاميد – سكان السهول الواقعة شمال غرب البلاد – توغّل حتى قلب السلطنة مقتحماً منطقة الزغاوة «أنقاء حتى «بارجويس» على المديرية الشرقية. أرسل السلطان حملة بقيادة عبد الله رُنقا الذي ورد اسمه في حروب الرزيقات مدعوماً بقوات الغرب لصد هذا المعتدي، وأدركوه في «رهد ماغون » أو «جرجيرة» جنوبي كوبي على ديار المحاميد – بيد إن جيش عبد الله تجرّع الهزيمة وفقد كل مؤخرته . شجع هذا النصر شيخ العرب فنهب قبيلة الزيادية التي تعيش على الشمال بالقرب من الفاشر. أبلغ الزيادية السلطان بخطر هذا الشيخ ونواياه فجهز السلطان جيشاً كبيراً بقيادة خليل لمجابهته فانسحب واختفى نهائياً. لكن هذه الأحداث برهنت على أن جيشاً صغيراً منظماً يمكنه هزيمة أكبر الجيوش متى ما كان الجيش الكبير مفتقراً للتدرُّب والنظام.

كان القدر يخبئ للسلطان بعض الاختبارات العسيرة رغم أنه كان محاطاً بالنوابغ

والموهوبين. صحيح إن حسين نجح في نشر العلم على هدى رسالة الإسلام التي لم تكن منتشرة آنذاك وحافظ على السلام مع جارتيه مصر ووداي – العدو التقليدي – وذلك بفضل إعتداله وحنكته لكنه لم ينل التقدير الكافي – داخلياً – عن تلك الأعوام الثلاثين التي حكم فيها البلاد بالقدر الذي يوازي ما وجده من تقدير خارج بلاده والذي امتد من غرب القارة حتى الأراضي المقدسة في الحجاز وذلك لسخائه مع طلاب العلم والعابرين من الحجاج. أما مواطنيه فكانوا يتفقون في الرأي مع أخوته حسب الله وأبا بكر ويرون أن لين عريكته يحط من قدر دارفور ويغري أعدائه. وإن اعتداله وتواضعه أضعف الهيبة في النفوس. نجح حسين بعد عناء في الاحتفاظ بعلائق حسنة مع إخوته أبناء محمد الفضل الأربعين وذلك بفضل تريثه وصبره. رغم تعرضه للاستفزاز من أبي بكر وحسب الله أكثر من مرة وعلى الملأ منذ اعتلائه العرش. وكان يضطر لأن يبرر لمجلس العائلة بأنه لم يتسلم مقاليد الأمور إلا بناء على وصية والدهم، وأنه مستعد للتخلي عن كرسيه إذا ما قُدر لخصومتهم أن تعرِّض البلاد للفتن. أما أبوبكر فكان يتحداه علناً، وفي عيد «الكُنداء» – الذي سنشرحه لاحقاً – سل أبو بكر ونظف حنجرته في حضرة السلطان، ويُعد هذا الفعل من قبيل الجرائم المعاقب عليها بالإعدام في دارفور، تظاهر السلطان بأنه لم يسمعه. ثم في مناسبة أخرى اندفع أبو بكر برمحه صوب السلطان أثناء صلاة الجمعة وعندما إرتمى القوم على السطان لحمايته انسحب وهو يقهقه ساخراً، مُصوراً الأمر كما لو كان مزاحاً . وكثيراً ما تهجم على القصر وهو مدجج بالسلاح غير إن السلطان كان يعفو عنه. مقت أبي بكر للسلطان وآدم طربوش – الذي كان يعتقد أنه قد حرمه من العرش بالمكر والدهاء – جلب للسلطان الكثير من المتاعب والأحزان. جرت الكثير من المواقف المحرجة والأحداث العنيفة بين هذا الأمير وآدم طربوش – ساعد السلطان الأيمن – الذي لا غنى له عنه بفضل ذكائه واخلاصه وهيبته وسط الرعية . فكر السلطان في أن يعوض أبا بكر بالكثير من الأراضي والعقارات ونجح في إلهائه بهذه الثروة حتى توفى مما جنبه الكثير من المشاكل.

أما العلاقات مع وداي فقد كانت حسنة جداً وذلك للدور الذي قام به السلطان حسين في تمكين محمد شريف من عرش وداي ولذا لم يكن السلطان علي – ابن محمد شريف – يخاطب السلطان حسين إلا بعبارة «أبي» كدلالة على تقديره له. كما نجح السلطان حسين في الحفاظ على السلام مع مصر لإدراكه لمدى قوتها وتنامى نفوذها وسلطانها. تلافياً لما قد ينجم من أخطار . تحصل حسين على فرمانين من عبد المجيد (1839-1861) وعبد العزيز (1861-1876) – سلاطين القسطنطينية – ضمنا بموجبهما استقلال دارفور تحت حماية الباب العالي. ورغم كل هذه الضمانات فقد قُدّر لحسين أن يرى بعينيه غزو بلاده واحتلالها بواسطة المصريين.

وفي أواخر سني حكمه فقد السطان حسين بصره نتيجة لإصابته بالجلكوما. فاستقدم الحكماء من مختلف البلدان لتطبيبه، وكان ضمن من استقدموا. جراحو الجلوكوما من

مراكش وحكماء الفلاته من مالي، كما استدعى الأشراف من أقصى الغرب ومن الحجاز، كما استدعى الحكماء من برنو، والأطباء المشهورون من شتى المدن التي على ساحل شمال أفريقيا والذين كانوا يعاودون الحضور سنوياً. كان السلطان يدفع بسخاء إلا أن كل هذا الجهد لن يأت بأي فائدة مما دفعه للاستسلام لقضاء الله. وهكذا أصبحت قبضته تتراخى في الأحكام على شئون البلاد. وفي سبيل الحفاظ على الرباط الأسري وتقريب وجهاء البلاد وقادتها قام بتوزيع أخصب الأراضي السلطانية على أخوته وأبناء عمومته والمقربين من عبيده.

استغلت أخته أباباسي زمزم مركزها المرموق وأساءت استخدام السلطة اعتماداً على صلتها بالسطان وجابت البلاد على رأس قواتها نهباً للغلال واغتصابا للأراضي والحواكير، وهكذا نشرت الخوف والفزع الكره ثم ماتت أخيراً عقب موت السلطان مما أراح الأهالي من شرورها وآثامها. وقيل أنها اكتأبت لموت السلطان وامتنعت عن تناول الطعام حتى ماتت، وذلك بعد أربعين يوماً من موته . بدأت الخلافات مع مصر في أواخر عهد حسين وكان بذرتها أحد الفقهاء الذي عاش طويلاً في دارفور وينتمي لفتري – إحدى بقايا امبراطورية أبو سمين – وكان يقدم نفسه بأنه من البلالة رغم أنه في حقيقة أمره من أبو سمين الذين حكموا تلك الامبراطورية قبل البلالة الذين ينحدرون من الأصول العربية والذين غزوا تلك المنطقة مؤخراً وحكموها. وهم الآن – أي أبو سمين – يشكلون كياناً قبلياً هزيلاً ويعيشون مشتتين على قرى فترى والجزر المنتشرة في مستنقعاتها، ويعاملهم البلالة والكوكا بتعالٍ وازدراء. عاش محمد البلالاوي كطالب علم في بلاط السلطان حسين – شأنه شأن العلماء الذين وفدوا من شتى البقاع- ومنحه السلطان أرضاً ليتعيش منها، لكن الوزير المتسلط أحمد شطة إدعاها لنفسه واشتجر مع أبني الفقيه مما أدى لقتل أحدهما.

رفع الفقيه الأمر للسلطان لكنه لم يحسم الأمر واستمر النزاع بين الوزير والابن الثاني – والأخير للفقيه – بيد أنه قُتل هو الآخر على يدي الوزير وذلك على مرأى ومسمع من السلطان الذي إتسم سلوكه بالضعف في مواجهة هذا النزاع الدامي . حيال هذه الأحداث المتلاحقة طلب الأب الجريح إذناً من السلطان للذهاب للحج لأنه أصبح وحيداً ويملأ الأسى جوانحه وهو يرى قاتل ابنيه حراً طليقاً دون سؤال أو عقاب . ولما كان السلطان يخشى خروجه واستعداء الأمم عليه حاول ثني عزمه وزاد على ذلك بأن كلف ابنه عبد الرحمن – الذي كان على صله بالفقيه – بمراقبته حتى لا يغادر البلاد سراً. أدرك الفقيه سر منعه من السفر ولذلك ذهب للسلطان وخاطبه قائلاً: « ياسيدي إن سعادتي كانت في أبنائي الذين انتزعوا مني أمام ناظريك، والقاتل طليق لم يمسه عقاب ولا أذى لأنه رجل ذو نفوذ كبير في البلاط وإن قلبي لحزين وسوف لن أنعم بالراحة هنا واحتاج للطمأنينة وشفاء النفس ولن أجد هذا إلا في بيت الله وأنا مستعد أن اقسم على المصحف بألا افشى ما حدث سواء في مصر أو لدى الشريف الكبير في مكة». ثم شفع قوله بالقسم على المصحف.

لم يجد السلطان مفراً وسمح له بالسفر، لكن البلالاوي توجه من توه للعاصمة المصرية وتحدث إلى نائب الملك وأقنعه بأنه سليل أسرة حاكمة وهو بهذه الصفة يمكن أن يحكم دارفور ووداي حتى فتري، بالإضافة إلى ذلك يمكنه مساعدة الحكومة المصرية في احتلال دارفور لما يتمتع به من مكانة وسمعة طيبة في تلك البلاد . ردته الحكومة المصرية للخرطوم حيث التقى بالحاكم العام للتحري من حجاج الغرب عن مدى صحة روايته . نجح الفقيه – عن طريق الشهود – في إثبات ما ادعاه وبالتالي سمحت له الحكومة المصرية بتكوين فرقة عسكرية ودعمته بالأسلحة والمؤن وسمحت له بالتوجه لحدود دارفور الجنوبية – أي مناطق الوثنيين – التي ما تزال على علاقة واهية بالسلطنة. ومن هناك بدا محمد البلالاوي من لحظتها في مناوشة دارفور وبينما كان يتباهى بإحتلاله لأقليم شرق بلاد السودان وامتدادها حتى بحيرة تشاد، ظهر له مغامر آخر وهو الزبير[1] الذي ينتمي لقبيلة الجعليين في شندي . إلتحق الزبير بخدمة الحكومة في الخرطوم ككاتب، ثم عمل أخيراً في تجارة العاج والرقيق على مقاطعات جنوب السودان بعد أن أصبحت هذه التجارة تدر أرباحاً طائلة . عمل في البداية في خدمة تاجر مصري يدعى علي أبو عموري[2] ممن جذبتهم هذه التجارة – شأنه شأن الكثيرين من سكان جنوب مصر – حتى استقل بنفسه – فيما بعد – ووطد أقدامه في تلك المناطق وكان يستبدل العاج والرقيق بالسلاح والمؤن ويجند الرجال حتى أصبح ذو قوة لا يستهان بها.

بعد ذلك كسدت تجارة العاج والرقيق في جنوب دارفور مما ضيق على هؤلاء المغامرين . نشأ نزاع بين الزبير والبلالاوي واندلع قتال عنيف أسفر عن مقتل الأخير. ثم استطاع الزبير – بفضل ذكائه وحنكته – من أن يضم قوات البلالاوي بعد أن ألقى باللائمة عليه، وأحسن معاملتهم ووعدهم بالغنائم والربح الوفير، ثم خاطب الخرطوم والقاهرة ووصف البلالاوي – رجلهم السابق – بأنه شخص متهور وليس لديه القوة ولا التخطيط الذي يضاهي تخطيطه وقوته، وعدد للحكومة المصرية ما يمكن أن تجنيه من مكاسب بفضل إعتداله وحنكته، ودعم حديثة بالمواثيق كما قام بتعويض الحكومة عما أنفقته في تسليح البلالاوي.

لم تكن الخرطوم راضية عن الزبير لشقه عصا الطاعة ولكن لبعده عن المركز ولنجاحه في ضم قوات البلالاوي وبذله الأموال للحكومة المصرية نجح في استرضاء الكل وبذلك استطاع أن يبسط سلطانه على إقليم إداري واسع يشمل مقاطعات بحر الغزال.

أثناء هذه الفترة كان الزبير يراسل السلطان حسين ويؤكد له بأنه لا ينوي تسبيب الأضرابات لدارفور وإنما يقتصر نشاطه على مناطق الوثنيين في الجنوب والتي لا تتبع لأحد.

رد السلطان حسين على رسائله بأنه لا يخشاه وانه لا يسمح لتجار الخيول بالتدخل في شئون الحكم الذي هو من اختصاص أبناء السلاطين فقط.

1- هو رجل من الجعليين جميعابي ويسكن أهله في الشيخ الطيب، ولد بجزيرة واوسي في 8 يوليو 1831 . انظر نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، ص 57.

2- رجل مصري من نجع حمادي بصعيد مصر، انظر نعوم شقير، نفس المرجع، ص571

تواترت الأحداث بعد ذلك واستطاع الزبير إخضاع كل مقاطعات جنوب دارفور حيث بسط سيطرته ونفوذه على المناجم في حفرة النحاس وأخضع القبائل العربية الكبيرة من تعايشة وهبانية بالإضافة للوثنيين في المقاطعات الجنوبية في دلكوانة وكتوواكا وفرض عليهم الضرائب، كما تعاهد مع الرزيقات – أقوى عرب دارفور – بمعاهدة صداقة.

أقلق توغل هؤلاء المغامرين من البحارة[1] وتنامي قوتهم جميع البلدان حتى ديار برقو، وحاول علي – سلطان وداي – أن يحث جاره – سلطان دارفور – للقيام بفعل حاسم لدرء هذا الخطر المحدق مع استعداده للمشاركة بنفسه وبقواته لرد العدوان عن دارفور لأنه يرى أن أمن دارفور من أمن بلاده خصوصاً وإن هناك معاهدة عسكرية بين البلدين . آثر السلطان حسين التريث واضعاً في اعتباره أن التخلص من البحارة بالقوة لا ينهي الأزمة لأن الحكومة المصرية ستتخذ من الأمر ذريعة لاحتلال دارفور.

في ربيع عام 1874م أي في السنة الخامسة والثلاثين لحكم حسين تدهورت صحته وأصبح موته وشيكاً. بادر الفكي درديري – وهو رجل من كردفان يعمل مستشاراً للسلطان – باستدعاء الوزير النائب أحمد شطة واتفقوا على اختيار أبو البشر ابن السلطان الأكبر كخليفة له على العرش، وكان الأخير قد دخل العاصمة قبل يومين من وفاة والده بألف من الجُند المدججين بالأسلحة النارية. إلا أن هناك فريق آخر كان يفضل إبراهيم – الابن الأصغر للسلطان – ليخلفه على العرش الأمر الذي جاء متسقاً مع وصية السلطان المحتضر.

لم يكن خافياً على حسين تفضيل أحمد شطة والفكي درديري لأنه الأكبر، لذا أرسل خادمه الأمين «خير قريب» لأمين بخيت إبن آدم طربوش للتحرك سراً وبسرعة، وكلفه بأن يحشد الناس في القصر وأن يعلنوا إبراهيم الصغير كسلطان على البلاد بمجرد وفاته. وفي الحال اجتمع الأمين مع «ملك الكركوا» – أحد اتباعه الخُلّص – ونفذ ما أملى عليه من تعليمات وعندما اقترب أحمد شطة من الفاشر كان الفكي درديري يرسف في الأغلال ومُنع هو من دخول القصر.

كان هناك تخوف من أن تعم الاضطرابات البلاد نتيجة لهذا الاختيار ولم يكن مصدر هذا التخوف هو أبو البشر وعبد الرحمن أخوا إبراهيم بل كان مصدر الخطر هم أخوة حسين خصوصاً حسب الله الذي يماثل أبا بكر – المتوفى – في سلوكه، وكان له الكثير من الأتباع ممن كانوا يرون في حسين تاجراً أكثر من كونه سلطان للبلاد. كان حسب الله عجوزاً في حوالي السبعين من عمره ولذا استقر الرأي بأنه سوف لن يقاوم إذا أجمع أبناء حسين على أخيهم الأصغر، والدليل على قبول الجميع لإبراهيم هو عدم اعتراضهم عندما أجلس بواسطة كبار رجالات الدولة على بساط أحمد بكر – كما تقضي التقاليد – فضلاً عن قسم الولاء الذي أداه أخوة السلطان وأقاربه من أرباب الدولة.

وفي صبيحة اليوم التالي قُرعت الطبول إيذاناً بالعهد الجديد دون أي مقاومة أو اعتراض.

1- لفظ يُطلق في السودان على سكان المناطق الواقعة على النيل.

كان إبراهيم أو «براهيم» رجلاً في الأربعين من عمره يتصف بالكثير من خصال أبيه المتوفى. كان معتدلاً وذكياً، كيساً وحاسماً لكنه أقل ثقافة وعلماً، وعموماً فإن قدراته على إدارة دفة البلاد كانت دون التركة الثقيلة التي خلفها له والده إذ ظل الخناق يضيق يوماً بعد يوم.

وفي هذه الأثناء عُين الزبير مديراً لمديرية بحر الغزال ولذا كان متعجلاً لاغتنام هذه الظروف لتحقيق أغراضه. أما قبيلة الرزيقات التي حاربها السلطان حسين وحاول تطويعها – دون جدوى – عاد ليغريها بمهاجمة البحارة. وفي تاريخ متزامن لوفاته هاجموا قوات الزبير العابرة لبلادهم ونهبوها وقتلوا من قتلوا من رجاله . وكرد فعل لهذا التصرف هاجم الزبير الرزيقات وهزمهم وأقام في «شكا» إحدى قرى الرزيقات الشهيرة . وهكذا أصبحت مديرية بحر الغزال تُعرف باسم مديرية شُكا[1] وأصبح الزبير بيه مديراً عليها، وبهذه الخطوة يكون الزبير قد توغل في أراضي دارفور.

وبالرغم من إن تبعية الرزيقات لدارفور كانت بالاسم فقط إلا أنهم أُخضعوا لسيادتها في أواخر سنوات حكم السلطان حسين بفضل دهاء الوزير أحمد شطة وذكائه وصاروا يدفعون ضرائبهم بانتظام.

كان الفور – لفرط ثقتهم في مقدراتهم – في غفلة عما يحيط ببلادهم ولم يقدروا القوة الحقيقية لمصر مقارنة بقوتهم، بل كانوا يتذمرون من مرونة حسين وميله لكسب الوقت، وهاهم الآن يجبرون إبراهيم ليتخذ إجراءً حاسماً ولم يتركوا له أي خيار سوى خيار القوة . لم يكن في مقدور إبراهيم النكوص عن تحقيق رغباتهم حتى لا يتيح الفرصة لحسب الله ومناصريه لنعته بعدم الكفاءة والخذلان. وتحقيقاً لهذا الغرض جهز حملة ضد البحارة بقيادة أحمد شطة وهكذا خطا أول خطوة في درب السقوط.

وفي نهاية عام 1873م هاجم أحمد شطة الثور – أحد قادة الزبير – في إقليم الرزيقات وهزمه هزيمة نكراء ونسبة لكبر القوة التي يملكها الزبير خاطبه أحمد شطة عارضاً الصلح شريطة أن تعود قواته إلى ما وراء الحدود على أن يعقب ذلك تطبيع العلاقات بينهما. حمل الرسل تلك الرسالة للزبير وكانت قوات دارفور – المفتقدة للانضباط – قد انقسمت لقسمين، قسم اكتفى بما ناله من غنائم في الحملة الماضية وانصرف لتأمينها وبقى آخرون مع الوزير طمعاً في الحصول على ما فاتهم من مغانم. بدا قواد جيش الفور في التذمر والميل للتمرد استنكاراً لتراخي الوزير في إعطاء إشارة الهجوم مما دفعه للاستجابة لرغباتهم. هاجم أحمد شطة قوات الزبير وكانت معلوماته عن هذه القوات وتحركها وأماكن تمركزها خاطئة. كان هجوم الفور أمراً غير متوقع لأن الزبير كان قد استلم الرسالة في التو وقام بالرد عليها موافقاً على مبدأ الصلح ومعلناً احترامه لحدود دارفور . اندلع القتال وانتصر الزبير نصراً مؤزراً وقُتل أحمد شطة مع ثمانية من أبرز القادة.

1- في هذه المعركة أسر الزبير الخليفة عبد الله التعايشي – الذي حكم السودان فيما بعد – وهم بقتله ثم غير رأيه بناء على نصيحة مستشاريه

شكّلت هذه الأحداث نقطة البداية للعداء العلني بين مصر ودارفور . زود المصريون الزبير بمدفع ودعموه بالمزيد من الجنود كما تلقى إسماعيل باشا أيوب –الحاكم العام للسودان المصري المقيم بالخرطوم – أمراً بالتقدم صوب دارفور، كما قامت قوات الزبير – المتمركزة في الشمال الغربي لإقليم الرزيقات – بمهاجمة ديار الهبانية، وهكذا أصبحت عاصمة دارفور لا يكاد يمر يومها إلا وتتقاطر عليها الأنباء المحبطة.

أما الأهالي فما زالوا يعيشون في الأوهام وخداع النفس غير مدركين لما حاق بقواتهم من دمار لأن سقوط بلادهم العظيمة في يد الترك – أي المصريين – بات وشيكاً بيد أنهم سدوا آذانهم عن الأنباء السيئة التي تترى من الجنوب ولم يدركوا ما هية خضوع الأهالي لسلطان الزبير والتزامهم بدفع الضرائب له، ولم يستوعبوا معنى أن يتعرض مسئولو دارفور للتصفية . لم يصدق الناس هذه الأنباء، وصموا آذانهم عن حقيقة هذا الفتح.

كان السلطان إبراهيم نافذ البصيرة أكثر ممن هم حوله ولم يُغرق نفسه في الأوهام وخداع النفس.

باتت مغادرتي لدارفور ملحة وصار لزاماً عليّ الإسراع بقدر استطاعتي وذلك نتيجة للأنباء المزعجة التي كانت تتواتر من مختلف الاتجاهات، ولأن حياتي كانت مهددة إذ كنت مدركاً لمشاعر العداء التي تعتمل في نفوس الأهالي. تحدث معي السلطان بصراحة شديدة عن مستقبله حيث كان يعتمد على الفرمان الصادر من الباب العالي الذي ضمن استقلال بلاده، بيد أن مهاجمته لقوات الزبير كانت الغلطة القاتلة التي كلفته ملكه وسلطانه.

لم يكن السلطان مهتماً – في أيامه الأخيرة- إلا بالحفاظ على حدود بلاده وكان ينوي أن يبعث رسولاً لنائب الملك المصري محملاً بالهدايا والأموال حتى ينقذ ما يمكن إنقاذه، أما إذا كان الهدف هو غزو بلاده فقد عاهد نفسه بأن يكون على رأس شعبه وأن يقاتل كرجل حتى الموت وشاءت الإرادة الإلهية أن يتحقق له ما أراد.

تحرك حاكم السودان المصري من كردفان قاصداً شكا وتوغل في أراضي دارفور بالتنسيق مع قوات الزبير. والمعروف أنه بحلول شهر أغسطس تتحول أراضي جنوب دارفور لبرك ومستنقعات بفضل مياه الخريف مما يجعل عبورها ضرباً من المحال، لذا غير إسماعيل باشا رأيه وسلك طريق الفاشر مستهدفاً وسط السلطنة حيث يتميز هذا الطريق بالقصر وبتربته الرملية التي تجعل سير الجمال ميسوراً حتى أثناء موسم الأمطار.

بعد ثلاثة أيام من تلك الأحداث تحرك الزبير نحو الفاشر أما إسماعيل باشا فدخل المدينة بعده مع بواكير خريف عام 1874م.

انسحب الأمير حسب الله [1] – عم السلطان الراحل- لجبل مرة وعزم على قيادة المقاومة

1- بعد موت إبراهيم في موقعة منواشي ولوا عمه حسب الله سلطاناً عليهم وذهبوا إلى جبل مرة وتحصنوا فيه، وبعد الزحف على جبل مرة استسلم بلا قتال وكان مع بعض أولاد السلطان إبراهيم وعمتهم الميرم عرفة وغيرهم من أولاد السلاطين ونحو 1200 رجل من كبار رجالات الدولة وقد تم نفي حسب الله والأمير محمد الفضل خليفة السلطان إبراهيم وكثيرين غيرهما من أولاد السلاطين لمصر، انظر

من هناك. تعهد إسماعيل باشا بحفظ الأمن في السهول الواقعة في الشرق والجنوب الشرقي في موجهة هؤلاء الذين يعتقدون بأنه لا يمكن اقتحام حصونهم. أقام إسماعيل باشا قيادته في طرة، وقبل دخول عام 1875م استسلم حسب الله.

إذا كان هناك من يعيب على إسماعيل باشا – القائد العام – عدم تحليه بالروح القتالية، فمما يُحسب له هو تصرفاته الإنسانية ورغبته الحقيقية في إزالة آثار هذا الغزو وذلك بمصالحة هؤلاء الأجلاف المتغطرسين حيث لم تطال إجراءاته سوى الأمير العنيد حسب الله وابن صغير للسلطان المتوفى حيث نفاهم للقاهرة – كأسرى حرب – تجنباً لما قد يثيرونه من متاعب للحكومة المصرية، وعندما وصلوا هناك – في ربيع 1875م – تم استقبالهم بواسطة الخديوي الذي صفح عنهم ورد اعتبارهم.

نعوم شقير، المرجع السابق، ص 594.

النظم الإدارية لدارفور[1]

لإدارة البلاد التي تم فتحها حديثاً بواسطة نائب سلطان مصر إسماعيل باشا 1863، – 1879، نهج إسماعيل نهجاً متشدداً وقسم البلاد إلى خمس مديريات وهي المديرية الشمالية (دار تكنياوي)[2] والجنوبية (دار أمه) والجنوبية الغربية (دار دما)[3] والشرقية (دار دالي) والغربية (دار الغرب)، ولكل من هذه المديريات – عدا دار الغرب – حاكم يُدعى «أبو»[4] مضافاً لاسم المديرية مثل أبو تكنياوي مثلاً.

ووفقاً للأعراف القديمة يتم اختيار أبو تكنياوي من الكنيونقا وهم فرع من فروع الفور، وينتمي أبو أمه للبدانقا أو فرع السومنقا، ويتم اختيار الأبو دما من المرنقا. أما مديرية دالي ففي الغالب يتم اختيار حاكمها من العبيد وغالباً ما يُسند هذا المنصب لكبير الخصيان الذي يُطلق عليه لقب «أبو شيخ دالي»، وهو الوصي على أولاد السلطان المتوفى إذا كانوا قُصّراً بحيث تؤول له كافة الصلاحيات.

كل مديرية من المديريات التي أشرنا إليها أعلاه تنقسم إلى اثني عشر مركزاً، إلا أن هذا التقسيم استبقى في المديرية الشمالية والجنوبية الغربية فقط، ويرأس كل مركز «شرتاي»[5] أو «والي». أما المديرية الشرقية فقد قُسمت إلى خمسة مراكز. ليس للمديرية الغربية حاكم حيث قُسمت ابتداء إلى ثلاثة مراكز كبيرة وهي «دار فيا» و «دار كرني» ثم أصغر هذه المراكز المعروف «بدار كيرا». الشراتي الذين يديرون هذه المراكز أعلى درجة من غيرهم ويتمتعون باستقلالية أكبر، كل بحسب حجم مركزه ويُعد مسئولاً لدى السلطان مباشرة.

تنقسم المناطق التي يديرها الشراتي إلى إدارات أصغر على رأس كل إدارة مسئول يسمى «دملج» كما تُوجد وظيفة وسيطة بين الشرتاي والدملج ويسمى شاغلها «زامبي»[6] وتعني بلغة الفور «الرمح» وهو نوع من الرماح يستخدم في صيد الأسماك وترمز التسمية إلى أن الشرتاي أصاب دملجه بالرمح. اقتضت الضرورة أن تُقسم كل من المديرية الشمالية والمديرية الجنوبية الغربية إلى اثني عشر مركزاً ويرأس كل مركز مسئول إداري يسمى «شرتاي».

يُشرف الزامبي على الدمالج والذين يُطلق عليهم اسم الفقهاء أي مديرو مدارس وخلاوي القرى المختلفة وهم الذين يتولون كتابة الرسائل لمن هم دونهم، وإذا كانت هناك تعليمات

1- اختلط العرب بالفور فأسسوا مملكة في دارفور امتدت من بئر النطرون في الصحراء الكبرى إلى بحر الغزال شمالاً وجنوباً ومن النيل الأبيض إلى ترجة برقو شرقاً وغرباً. نعوم شقير، المرجع السابق.

2- معناه الجناح الأيسر للسلطان ويحكم اثنا عشر ملكاً أيضاً وهو حكم الزغاوة وما يليها لجهة الشرق. انظر التونسي، المرجع السابق، ص142

3- دار أبا دما معناه جناح السلطان الأيمن ويحكم دار تمووركة وتمتد لوادي أزوم. ويعرف هذا الإقليم باسم دمنقا ويسمى حاكمه الدمنقاوي وتتبع الآن في زالنجي

4- لفظ سلطوي يدل على أبوة الرئيس لأتباعه ويستخدم اللفظ للشرتاي حتى اليوم في دارفور.

5- حاكم الإقليم

6- ربما تعني زامي بابا وهو اسم لإقليم يتبع لزالنجي.

جديدة يقوم الزامبي بجمعهم وإبلاغهم بها ويقوم هؤلاء الفقهاء بنقل هذه التعليمات لوكلائهم المسئولين عن القرى الصغيرة أي من يسمون «بأصحاب الزرائب» وتتكون تلك القرى من مجموعة مساكن مسورة يُطلق عليها بلغة الفور اسم «تقنقانق».

شاغلو الوظائف التي أشرنا إليها هم المسئولون عن إدارة قبائل الفور، لكن هنالك الكثير من القبائل المهاجرة بعضها مستقر والبعض الآخر رُحّل وبالتالي فإن هنالك الكثير من شاغلي الوظائف الذين يرأسون هذه القبائل المهاجرة . يُوجد عدة سلاطين[1] يتبعون للشراتي الذين يحكمون المراكز، فقبائل المسبعات والبرقد والبيقو والمساليت والمراريت الذين يعيشون في المناطق الداخلية للبلاد بالإضافة لزغاوة كولي يتبعون لسلاطين يتولون شؤونهم. أما القبائل العربية المعروفة بقوتها وأهميتها التاريخية فتتعامل مع الحكومة عن طريق شيوخها وشيوخ النحاس «أي شيوخ الطبول الكبيرة» والذين يعدون في مرتبة السلاطين. وأخيراً فإن قبائل التاما والأورو وبعض فروع المساليت في غرب البلاد تُدار شؤونهم عن طريق شيوخ يُطلق عليهم «الفرشة» – أي البساط – وهم أقل درجة من السلاطين والشيوخ.

الأبو شيخ[2] أو الأبو دالي، فبجانب مسئولياته الإدارية يتميَّز عن بقية حكام المديريات الأربع الأخرى بكونه أحد أعضاء البلاط السلطاني علماً بأن أقرانه الآخرين يلتزمون البقاء في مناطقهم ولا يحضرون للعاصمة إلا بناءً على استدعاء من السلطان. ولضمان حُسن أدائهم يبعث السلطان من وقت لآخر بممثل شخصي يسمى «المقدوم» ليتولى مراقبتهم. يُزود هؤلاء المقاديم بشارات خاصة باعتبارهم يشغلون وظائف ذات سلطات عليا.

الأجزاء الرئيسة من جبل مرة مستثناة من النُظم الإدارية التي تعرضنا لها وتدار عن طريق شرتاي دار طرة الذي يتبع للسلطان مباشرة. أما السفوح الغربية المسماة بروكرو «أي بئر السلطان» وهي أكثر مناطق البلاد خصوبة فتقع تحت إشراف السلطان مباشرة إذ يعود ريعها له ولأفراد عائلته.

بالإضافة للمسئولين الإداريين فإن لسلاطين الفور القدماء نُظماً صارمة تحكم شؤون البلاط السلطاني، إذ يلي السلطان الذي يُطلق عليه «أبا كُري» أو «أري» الملكة الأم، وهي تحمل أعلى درجة بعد السلطان كما تحمل لقب «أبو» وتعني باللغة العربية "الجدة". ورغم أن منصبها لا يخوِّلها سلطات حقيقية إلا نادراً . مع لك فبحكم هذا المنصب ترأس السبعة الذين يُطلق عليهم اسم «أبونقاء» – أي جمع أبو – وهم الأرامل والعجزة من أقارب العائلة المالكة الذين تُعفى أراضيهم من الضرائب والرسوم.

يأتي بعد ذلك «الكامني»[3] أي عنق «السلطان» وهم يحظون بوضعية تقارب درجة الملكة الأم

1- يستخدم الفور لفظ «سلطان» لبعض الدرجات الدنيا ولكن يسهل التمييز بينه وسلطان البلاد.

2- أعلى منصب في الدولة بعد السلطان وله اقطاعيات ويقال بقيو إلان. انظر التونسي، المرجع السابق، ص182

3- جمعهم كامنة وهو أعظم الأرندالتو ويكنى عنه برقبة السلطان ويسمى بلغى الفور «أبا فوري» أي أبو الفور وصاحب هذا المنصب اقطاع جليل ووظيفته أن يمشي خلف جيش أرندالتو. التونسي، المرجع السابق، ص181.

ويُطلق عليهم لفظ «ظلّ السلطان» . وقديماً كان الكامين يُقتلون بمجرد موت السلطان ويبدو أن هذا الوضع كان متبعاً حتى عهد السلطان أحمد بكر وحينها كانوا يُعينون من الفور فرع الكتوانقا. ويروى إن أحد الكامين ارتكب خطأً ضد بعض الأهالي في ذلك العهد وردهم له السلطان بصحبة «تولكتياوي» – أي رسول السلطان – مع توجيهه بأن يعامل الناس بالعدل. شعر الكامين بأن كرامته قد جُرحت وأخذته العزة بالإثم فقام بجلد الرسول السلطاني، فعزله السلطان في الحال وعين بدلاً عنه رجلاً من قبيلة «أولاد مانا» يدعى «رمضان» ومنذ ذلك الزمان اقتصرت الوظيفة على أفراد هذه القبيلة التي ترجع أصولها إلى مزيج من قبائل الفور والعرب ويبد و أن أم السلطان أحمد بكر كانت تنتمي لها.

عند زيارتي لدارفور كان يشغل منصب الكامين رجل يدعى «محمد دُمبا» – أي «الذئب الأسود الصغير» وينتمي لقبيلة أولاد مانا. تُعد درجة الكامين أدنى من درجة الملكة الأم بحيث يتوجب عليه – في حضرتها – أن يمسح الأرض براحته وهي تحية الأدنى للأعلى وفقاً للأعراف المتبعة.

ومع ذلك يحظى الكامين باحترام العامة كما لو كان السلطان نفسه، فإذا قابله شخص وهو يمتطي فرسه مثلاً ، عليه أن يترجّل من على بعد مسافة منه ثم يجثو على الأرض وينزع الشال الذي درج أفراد قبيلة الفور على التوشح به، ثم يمسح الأرض براحته مع الدعاء له بالسلامة وطول العمر. ورداً على هذه التحية تدمدم حاشية الكامين بترديد عبارة «أبي دُنقا» – أي دنقا- كما يجري في مجلس السلطان – وتعني «أتمنى لك الصحة والعافية».

يتردد الكامين على القصر السلطاني من وقت لآخر لتحية السلطان لكنه لا يدخل مباشرة بل يُنصب له حاجز من القماش – «تكية» – ثم يُخطر السلطان عن طريق أحد غلمان البلاط، ويظل منتظراً حتى يؤذن له بالدخول . كل من يدخل القصر عليه أن يترجل ويكمل المسافة بين الفاصل والقصر سيراً على الأقدام ويستثنى من هذا الأمر الأبو شيخ والأباباسي والأرندلنق[1] الذين يحق لهم دخول الساحة التي يبلغها الكامين وهم على صهوات الجياد ثم يترجلون بعدها. يمنح الكامين إقطاعيات سلطانية تسمى «الحواكير» لينفق على نفسه من ريعها لأنه لا يمنح راتبا محددا، فهو يملك النذر القليل من الخدم والخيول ويمارس سلطانه على من هم دونه لدرجة إزهاق النفس، العقوبة التي تُعد من الاختصاصات الأصيلة لسلطان البلاد. أخطاء الكامين يتم التجاوز عنه في كثير من الأحادين حفاظاً على هيبة السلطة التي يمثلها . يضع الكامين عمامة الشيخ ويتلثم مثل السلطان بحيث لا تظهر إلا عينيه لكنه ينزع اللثام في حضرة السلطان. ويجوز له أن يرتدي الشال في داخل القصر بالطريقة التي يسمونها «القرد» أي بسحل الشال حول الوسط بدلاً من طيه. وفي احتفال الطبول يأكل الكامين منفرداً ويخدمه «السومنكو»

1- منصب عظيم الفور صاحبه يكنى برأس السلطان، ولهذا المنصب إقطاع عظيمة وبلاد، وصاحبة لا يسلم إلا بـ «مونجرابي مونجا» وترفع السجادة أمامه كالسلطان، وصاحب هذا المنصب إذا كان السلطان مسافراً أو قاتماً، وظيفته أن يمشي بعساكره أمام الجيش كله ولا يسبقه أحد . انظر التونسي، المرجع السابق، ص180

الذين يتزيون بأزياء تقليدية، ثم يصبون له الماء ليغسل يديه. ورغم الدرجة الرفيعة التي يحُظى بها الكامين إلا أنه يأتي الثالث في الرتبة بعد الأبو شيخ ويسميه الظرفاء «فرج البقرة» لانعدام التناسب بين مكانته وسلطاته الحقيقية. ووجه المقارنة هو إن فرج البقرة لا هو بالجلد ليُستفاد منه ولا هو باللحم فيؤكل مما يتفق مع مثلنا الأماني «لا سمك ولا طير».

لعلنا لاحظنا عند تعرضنا لتاريخ دارفور أن سلطة الأبو شيخ دالي تشكل خطراً على السلطان نفسه ويبدو أن أول حامل لهذا اللقب في عهد السلطان دليل أو دالي كان خليفته ولذلك كان يحمل اسم دالي أيضاً. وللأبو شيخ اليد العليا في سن القوانين التي شُرعت في عهد السلطان دليل المؤسس الحقيقي للسلطنة الحالية. يُعتبر الأبو شيخ كبير للخصيان وهو نفسه مخصي ويرأسهم جميعهم كما يرأس خدم القصر، لكن لا شأن له بالنساء . وبجانب المهام المسندة للأبو شيخ فهو يحكم المديرية الشرقية وعند وفاة السلطان تؤول السلطة له ويضع يده على كل الشارات ومفاتيح الخزائن ويحبس زوجات السلطان إلى أن يُعلن السلطان الجديد. ومنذ أن أصبح الأبو شيخ كُرا مصدراً للخطر على السلطة تم تقليص نفوذ هذا المنصب.

الفاشر هي مقر الأبو شيخ ومسموح له بأن يلبس العمامة في الاحتفالات العامة أو في طريقه للمسجد وهو واضع اللثام، ومن مهامه الحفاظ على النار المقدسة في داره والتي لا يُسمح بخروجها إلا عند وفاة السلطان، وبهذا الوصف فهو يُجسد سلطات السلطان نفسه أو – على أقل تقدير – سلطات الخليفة.

ظلّ هذا الوضع سائداً من عهد السلطان موسى مع الأبو شيخ كيون ثم الأبو شيخ أولنو في عهد السلطان أحمد بكر والأبو شيخ مقرام في عهد السلطان تيراب ثم الأبو شيخ جودة في عهد السلطان أبي القاسم. وعندما هاجم الأبو شيخ جودة المسبعات لكي يسخر منهم جعل الناس يتغنون ويقولون: «عيون أطفال الفاشر خائفة، خائفة، هي عين جودة التي ترقب المسبعات».

كانت سلطة الأبو شيخ كُرا في عهدي عبد الرحمن ومحمد الفضل حيث كان هو السلطان الفعلي إلى ان تخلص منه محمد الفضل ووضع حداً لسلطته. خلف كُرا على هذا المنصب كل من دقيسة[1] ويوسف وتانيا ثم رحمة وتوكون وعبد الغفار وشيبة وعبد الرازق في عهد السلطان حسين. وظل عبد الرازق شاغلاً لهذا المنصب حتى وصولي للفاشر . يُشترط في الأبو أن يكون عبداً مخصياً إلا أن الكثيرين من الوارد ذكرهم كانوا أحراراً مثل كُرا ويوسف وتانيا وشيبة لكن لا يُعرف أي سبب لكونهم خصيان وما إذا كان هذا بسبب جرائم ارتكبوها وعوقبوا عليها أم لأسباب مرضية أم أنهم فعلوها إرادياً بسبب الطموح والرغبة في الحصول على المنصب. للأبو شيخ امتيازات مثل الكامين إذ لا يمسح الأرض براحته إلا في حضرة السلطان أو الملكة الأم.

تلي تلك الرتب «الإياباسي» وتعني المرأة العظيمة وهي عادة ما تكون أخت السلطان، ودرجتها لا تقل عن وظيفة الكامين أو الأبو شيخ بكثير، وحدث أن تجاوزت سلطاتها – في بعض

1- الصحيح دُكسا.

الأحيان – سلطة الملكة الأم. تُعتبر الإياباسي شاغلة لرتبة رسمية ولها قواتها الخاصة وتظهر في الاحتفالات وهي تمتطي جوادها لكن يمكن لأي شخص التحدث إليها ويُقال بأنها كانت سهلة المنال أيضاً ويستخدمها الكثير من رجالات الدولة كهمزة وصل للسلطان. لعبت أياباسي زمزم دوراً حاسماً في تاريخ دارفور إبان عهد السلطان حسين إذ كانت وقتها أقوى شخصية لدرجة أن السلطان نفسه كان يخشى بطشها ولا يجرؤ على مراجعتها. وعند زيارتي لدارفور كانت الميرم عرفة[1] شقيقة السلطان إبراهيم وزوجة الخبير محمد هي شاغلة المنصب.

تُحظى اثنتان من زوجات السلطان بمكانة رفيعة إلا أنهن لا يرقين للدرجة التي يحظى بها شاغلو الدرجات العليا في الدولة، وتحمل أحداهن لقب «الأياكُري» وتعني زوجة السلطان وحاملة هذا اللقب – إبان زيارتي – هي كلتومة [2] زوجة السلطان إبراهيم والتي كانت تلقب «بأم كتركوا» أيضاً، وهي المسئولة عن إدارة المسكن السلطاني لكنها لا تتدخل في شؤون الحكم ومع ذلك فهي لا تخلو من بعض التأثير على السلطان، وهناك تنافس شديد بينها والأياباسي. وتتلوها في الرتبة «أم سومنق دقولا» وهي المختصة بوضع العمامة واللثام على رأس السلطان كما تطلع بمهمة الإشراف على حراس الطبول أي «السومنق دقولا»وتستمد اسمها منهم.

يتلو الأرندلنق الإياباسي في الرتبة ويتم اختياره من قبيلة الفور إلاّ أن الوظيفة أسندت أخيراً لقبائل البيقو والزغاوة، وعند زيارتي لدارفور كان يشغلها رجل من الداجو، ويتكون الاسم من مقطعين «أور» وتعني الباب و«دلنق» وتعني المنصة الخشبية المخصصة للعبيد الذين يتولون حراسة الباب وهكذا فإن التسمية تعني «حارس الباب» . والأرندلنق هو مدير مدينة الفاشر وعمدتها ورئيس الدرك وممثل السلطان في المديرية الغربية.

يجتمع طالبو المقابلة من علية القوم في الكوخ المخصص للانتظار الذي يقع قبالة الباب الخارجي «أور» وذلك في الصباح الباكر ثم ينهمكون في الثرثرة وتبادل الحديث حتى يأتي « الأمناء» وهم الثقاة من عبيد السلطان، فيقوم الأرندلنق بانتداب أحدهم ليبلغ السلطان بطلب المقابلة، فإذا كان السلطان راغباً في ذلك يستدعي الأرندلنق في الحال، أما إذا لم يكن راغباً في المقابلة يقوم الأمين بإبلاغ الأرندلنق بذلك ويتولى الأخير عملية صرف الحاضرين دون أن يشعرهم بأن التعليمات صادرة من السلطان منعاً للحرج.

سادسة الرتب هي «الفورنق أبا» ويُعين من الفور فرع الفورنقا أو البندانقا وهو خبير القوانين والأعراف والقيم والقاضي الذي يفصل في المنازعات. ورغم اعتناق البلاد للإسلام إلا أن قوانين دالي هي السائدة. وحتى عهد قريب جداً فإن للفرد – في منازعات معينة – الحق في الاختيار ما بين الشريعة الإسلامية والعرف للفصل في النزاع المطروح أمام القضاء. وفي الاحتفالات العامة أو عند الذهاب للصلاة في المسجد يلبس الفورنق أبا العمامة لكنه لا يستخدم اللثام، وبحكم منصبه يحوز على عدد مُعتبر من الحواكير كما يتزعم قطاعاً كبيراً

1- كانت ضمن الأسرى عند دخول اسماعيل باشا أيوب .

2- أي كلثوم.

من قبائل الفور ويتلقى دخله من خراجهم.

تأتي الجدات السبع في الدرجة السابعة ويُطلق عليهن «أبونقا»، وهن بجانب المهام السابق ذكرها يلعبن دوراً هاماً في احتفالات الطبول وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

يلي هؤلاء «الأبو أرلنقو» و « الأبو أرنقا» ويحتفظون بالترتيب السابع منذ عهد السلطان سليمان صولون وآخرهم في عهد السلطان موسى كان يحمل درجة الوزير، وقد أسبغ هذا المنصب على عبد لأول مرة في عهد السلطان أحمد بكر. تتطابق مسميات هذه الرتب وأسماء بعض فروع قبيلة الفور. يتولى الأبو أرلنقو – في حفل التتويج – وضع العمامة على رأس السلطان وتبعاً لذلك يُمنح فرساً مجهزاً وجارية وكسوة شرف، وبحكم منصبه تخضع له قبائل الميما والحمر والودوا والتنجر كما يخضع له «ملك الجنكاتي» بدار الغرب أي المكلف بجمع ضريبة العسل. أما الأبو أرنقا فتخضع له جميع قبائل الزغاوة كما يخضع له جميع المسئولين بالمديرية الشمالية الذين يقلون عنه في الدرجة فضلاً عن قبائل الكاجا في شرق البلاد.

يلي هذه الرتب أربعة ممن يتمتعون بنفس الدرجة في البلاط وهم «أبو رقونقا» و«أبو كنجارة» و «أبو جباي» و«أبو حداد». الاثنان الأوائل يتزعمان قبيلتين من قبائل الفور التي تحمل نفس أسمائهم، وسنتعرض لذكرهما فيما بعد. أما أبو جبَّاي فهو كبير جباة الضرائب وقد استقر العرف بأن يتم اختياره من فرع «كرونقا» ويختص بجمع ضرائب الغلال والأقطان ويشرف على سوق غلال السلطان، ولجسامة مسئولياته يستعين بعدد من الموظفين الذين يحملون ألقاباً تتطابق والألقاب المستخدمة في البلاط ويحتفظ بعدد من الدور مماثلة لدور السلطان، وينتشر عماله الملقبون «بالتكنياوي» و«دما» والشراتي والملوك على طول البلاد وعرضها تبعاً للاختصاصات التي تمتد على نطاق السلطنة. تُخزن الغلال المتحصلة من الضرائب في مخازن يُطلق عيها اسم «المطامير»[1] وتبقى في موقعها تحت عهدة مسئولي المديريات والمشرفين على أراضي التاج ويكتفي السلطان بالإطلاع على إحصائياتها فقط.

يتم اختيار «الأبو حداد» أو بلغة الفور «فيورنق سيال»- إبان وجودي في دارفور – من قبيلة الوهينية وهم فرع من فروع قبائل الجلابة وهو – بحكم المنصب – رئيس للحدادين ويتولى تحصيل ضرائبهم المتمثلة في الرماح وآلات الرماية والمدى والفؤوس .. الخ، ويحصل على معاشه من تلك الجلابة.

يأتي بعده في الترتيب «الباسنقا» ويتولون مراقبة الرجال ممن يحملون الدماء الملكية أو هؤلاء المتحدرون من سلالات السلاطين السابقين . اثنان منهما يستويان في الدرجة إلا أن احدهما يتميز على الآخر ببعض الشارات التي خُلعت على أسلافه منذ عهد السلطان موسى وتتكون من عقود من العنبر مع ميداليات فضية وطوق مماثل على الساعد، وحامل هذه الشارات – إبان زيارتي – هو باسي دلدوم، وكان يحق له – بحكم منصبه – أن يعتمر العمامة وهو في طريقه الى المسجد الا أن درجته لا تخوله وضع اللثام، وهذا الامتياز الاستثنائي ينطبق على باسي

1- حفر في الأرض تفرش بنفايات الذرة وتُخزن فيها الغلال وتدفن.

أحمد الطاهر أيضاً. كل أسلاف الباسنقا يحملون هذا اللقب رغم إن اثنين منهم فقط هم الذين شغلوا المنصب فعلاً.

كان طاهر وصياً على أبناء وأحفاد السلاطين السابقين من أحمد بكر . يرافق الباسنقا السلطان في الاحتفالات ويقف ستة منهم على يمينه وستة على يساره. ويُقتطع للباسنقا عدد مُعتبر من الحواكير ويحصلون على دخولهم من ريعها. الدرجات التي بيناها هي الدرجات العليا ويشغلها عادة أحرار الرجال باستثناء الأبو شيخ.

أما الأبوتكنياوي والأبودما والأبو أمه فلا يُعدون من شاغلي الرتب العليا لأن لا شأن لوظائفهم بالبلاط غير أنهم لا يمسحون الأرض براحاتهم إلا في حضرة السلطان والملكة الأم والكامين مثلهم مثل المقاديم الثلاثة الذين يتساوون في الدرجة باستثناء مقدوم المديرية الشمالية الذي يعلوهم قليلاً . جميع شاغلي الوظائف المتقدم ذكرها يبسطون الشال على الوسط دون طيه ويتركونه متدلياً خلفهم أما من هم أدنى درجة فيكتفون بالائتزار به فقط. وباستثناء الحاكم فلكل من شاغلي الوظائف السابق ذكرها مكانته في البلاط. ومع ذلك فهم موظفو دولة أكثر من كونهم موظفين في القصر. أما الموظفون الملحقون بخدمة المقر السلطاني فينقسمون إلى مجموعتين تبعاً لتقسيم القصر. ومما تجدر ملاحظته هو ان تخصيص درب للرجال وآخر للنساء لا يقتصر على القصور الملكية في ودّاي ودارفور فقط بل هو أمر شائع في كل بلاد السودان، ويُسمى باب الرجال – في دارفور – «أوردي» أما باب النساء فيسمى «أوربايا» . وفي بلاد أخرى – ودّاي مثلاً – فإن الدخول من باب الحريم يُعد مؤشراً لمدى ثقة السلطان في الزائر أما في دارفور فإنهم يحرصون على أن يكون الدخول من طريق الأوردي.

يُطلق على القصر السلطاني في دارفور اسم «بيت الجباية» أي البيت الذي يلتزم الكل بسداد الضريبة له. وكما سبق وأشرنا فإن بالفاشر قصرين، القصر القديم «البيت القديم»وقد قام بتشييده السلطان عبد الرحمن شمال غرب بحيرة تندلتي أما القصر الجديد المسمى تُمباسي فقد شيده السلطان حسين على الضفة الغربية للبحيرة ولكل من هذه القصور «الأوردي» و «الأوربايا» الخاص به.

يُشرف على القصر القديم الأبو كوتنقا أي الوزير والأبو دادنقا ولتطابق اختصاصاتهما أُطلق عليهما اسم التوائم حيث يقفان جنباً إلى جنب على بُعد مسافة محددة من السلطان عند استقباله لأي زائر في الديوان، وبمرور الأيام واختلاف الحقب أصبح الوزير يتمتع بأهمية أعظم بيد أنه لم يتخط صاحبة كثيراً، وذلك لأن درجة الوزير التي قد يشغلها عبد أو حر أصبح لها تأثيراً ملحوظاً منذ أن انتزعها أحمد بكر من «أبو أرنقا» وهو رجل حر المولد وينتمي لعائلة فوراوية عريقة وأسندها لـ «أمين». وهو من المنسوبين للسلطان، ومنذ ذلك العهد صار الوزير يُعين من الملوك المنتمين «للكركوا سرهار» أي مراقبي حملة الرماح، وهم غالباً ما ينتمون لطبقة العبيد. صحيح أن بعض من شغل هذا المنصب كانو من أحرار الرجال إلا أن هذا الأمر لا يحدث

إلا نادراً وكمثال لذلك فإن الوزير بحر في عهد السلطان أبي القاسم كان حراً من قبيلة الزغاوة وهو الرجل الذي يحمّله التاريخ مسئولية الهزيمة في الحرب ضد ودّاي. كذلك فإن الوزير علي وليد جامع - في عهد السلطان تيراب- وابنه دوكومي في عهد السلطان عبد الرحمن كانا من الأحرار، أما في عهد السلطان محمد الفضل فإن الوزراء حامدين سميد وابن كوني وابن بكر لم يكونوا من الأحرار فحسب بل كانت تجرى في عروقهم الدماء الملكية، لكن عبد السيد الذي شغل هذا المنصب فيما بعد وفي نفس العهد، كان عبداً وخليفته عبد الباري والذي ينتمي لقبيلة البيقو لم يكن حراً خالصاً شأنه شأن الميدوبي آدم طربوش.

أما في عهد محمد الحسين فقد شغل هذا المنصب كل من حليب بن عبد السيد وأحمد شطة وكلاهما كان عبداً، وأخيراً فإن بخيت بن آدم طربوش الذي شغل هذا المنصب في عهد السلطان إبراهيم كان نصف عبد. لعب العبيد من الوزراء في دارفور نفس الدور والأهمية مثل أقرانهم في شتى ممالك السودان، إذ يحرص الملوك بألاّ يقرّبوا الأحرار المبرزين تجنباً لعداءاتهم فيما بعد نسبة لما يكتنف شئون الحكم من مؤامرات وفتن، وبدلاً عن ذلك فإنهم يولون ثقتهم للعبيد الذي يخضعون لهم خضوعاً تاماً واضعين نصب أعينهم المتاعب التي سيلاقونها إذا ما مات سيدهم واحتمالات عودتهم لحياة الذل والعبودية. هكذا نجد أن كبير الخصيان في عرش دارفور الذي يُعد أعظم المسئولين سلطة ونفوذا كان عبداً وكذلك المقاديم ذوي الصلة المباشرة بالسلطان والذين قد يحجبون عنه حكام المديريات ويهمشونهم أحياناً وقد يكونوا عبيداً هم الآخرين، وأبرز هؤلاء المسئولين علي وليد جمعة وحمد بن ساقيد وآدم طربوش وجميعهم يعدون ممن تركوا بصمات واضحة في تاريخ دارفور.

لا شك إن آدم طربوش يفوق شطة فضلا وسمعة لتميزه بولائه الشديد لمليكه مع الاستقامة في تعامله مع الفير، أما أحمد شطة فإن محاباة السلطان له وسعت من نفوذه وطغيانه مما أساء لسمعته وسط الأهالي، أما البيقاوي عبد الباري - في عهد محمد الفضل - كان متعجرفاً ومن فرط غروره وخيلائه كان لا يسقي حصانه إلا الماء الممزوج بالسكر ولذلك فهو لا يخلو من الغرور والخيلاء ومما يؤسف له أيضاً إهماله الشديد لإدارة الشئون العامة.

لقد أزداد نفوذ الوزير تبعاً لتقليص نفوذ الأبو شيخ. وصار له عدة حواكير تدر له دخلاً محترماً ويختص بعدة قبائل تلتزم بدفع الضريبة له، و بحكم منصبه يرأس الجلابة ويتقاضى منهم دخلاً محترماً. أما توأمه «الأبو دادنقا» أو الدادنقاوي فهو أدنى نفوذاً، وهو حر ينتمي لقبيلة تاما، وعبارة دادنقا لا تشير لقبيلة معينة من فروع الفور ولا تقابل عبارة «داد» العربية التي تستخدم في الحجاز بمعنى «معلم أطفال السلطان» كما يحاول أن يثبت البعض، ومع ذلك فإن دادنقا تعني معلم أطفال السلطان، وإذا لم يكن هذا المعنى صائباً فالأرجح أن معناها هو- شخص بلا عضد – أي بلا عشيرة ولذلك فهو يشرف على كل من لا قبائل أو عوائل لهم. ويُقال أن السر في إسناد هذه الوظيفة له هو أن السلطان عمر ليل لاحظ أثناء زحفه لغزو ودّاي

إن هناك ناراً تُوقد بمعزل عن المعسكر.

- استفسر السلطان عن الأمر وعلم إنها لشخص يدعى «ونا» من ذوي الدماء الملكية يخيم بعيداً عن المعسكر، أحب السلطان هذا الرجل ولكي ينال تأييده وولاءه أسند له سلطة الرقابة على المواطنين الذي لا عشائر لهم ومنحه الحق في تحصيل مكوس السوق كمصدر لدخله، ويتبع له عدد كبير من الموظفين يتولون جمع هذه المكوس. تولى هذا المنصب - في عهد السلطان عمر ليل - شخص آخر يدعى «ور» وهو الآخر من قبيلة تاما ومن وقتها ظلّ المنصب في يد هذه الأسرة حتى الآن، ولما كان حكم الإعدام ينفذ في السوق فهو يشغل وظيفة كبير الجلادين أيضاً.

وبجانب الدخلْ الكبير يتمتع الأبودادنقا بنفوذ واسع وذلك لتعدد عماله وتابعيه خصوصاً إذا وضعنا في الاعتبار كثرة المواطنين الذين لا عشائر لهم. يستطيع الأبو دادنقا أن يدفع بعدد كبير من الرجال إلى ميدان المعركة أكثر من الذين يفوقونه درجة ونفوذاً.

يتلوه في الترتيب «السومنق كو» أو «السومنق دقولا»([1]) و «ملوك الفلاقنة الثلاثة» وهم متساوون في الدرجة، وتتكون عبارة «سومنق كو» من مقطعين، «سو» وتعني مكان الاجتماع أي المكان الذي يجتمع فيه الناس لتبادل الحديث وتناول الطعام، أما «كو» فتعني الصبي أو الخادم أو الرسول الذي يتعامل مع من يرغبون في مقابلة السلطان، ولذلك فهو يعتبر السيد الحقيقي لمدخل الأوردي، ويُطلق على أبتاعه لفظ «السومنق دقولا» إلا أن اللفظ الأخير طغى على الاسم الحقيقي للوظيفة.

تسند وظيفة «السومنق دقولا» للأحرار والعبيد على السواء، ويدخل في اختصاصه الإشراف على الطبول السلطانية، وعند زيارتي كان يشغل هذه الدرجة ابن «السومنق كو» المدعو سعد النور والذي قتله البحارة، أما الغلمان الأكبر سناً والذين يخدمون في القصر ويسمون الفلاقتة «أو كركوا» فهم تحت إمرة ملك يسمى «ملك الفلاقتة»، ويشغل هذا المنصب حالياً الملك عبد المولى وهو عجوز بدين ارتبطت معه بنوع من الصداقة. وهو يفوق السومنق كو نفوذاً رغم أنه أقل منه درجة.

يلي هؤلاء، مراقبو الغلمان أي «الكركوا سرهار» الستة ولهم ترتيب وأسبقية فيما بينهم وأعلاهم رتبة يسمى «أبو»، وهو يفرد شاله بنظام «الفر » المتقدم ذكره، وكان يشغل هذا المنصب - إبان زيارتي - الملك رحمة والذي أقيل فيما بعد وحل محله الأمين بخيت بن آدم طربوش والذي كان الخامس في الترتيب، ثم عين وزيراً بعد ذلك. وكما سبق وذكرنا فإن «الكركوا سرهار» هم الصبية حملة الرماح الذين يرافقون السلطان في الاحتفالات. هذا فضلا عن أنهم يطلعون بمهمة تسليم الرسائل وخلاف ذلك من الخدمات الشخصية التي يحتاجها السلطان.

يلي رؤساء الغلمان، السياس ويتم تجديدهم عند بداية أي عهد جديد، أما أبرز ملوك «الكربات» هو «الأبو جنشنقا» والجنشنقا هم عمال الصوف والشعر الذين أصبحوا بمرور

1-صاحبه عظيم القدر، ذو أبهة عظيمة واقطاع واموال وافرة، أنظر المرجع السابق، ص: 193 تشحيذ الاذهان. المرجع السابق.

الزمن فرعاً خاصاً من فروع قبيلة الفور. حاليا تستورد اللبد التي تستخدم كبطانة لسروج الخيل من مصر وطرابلس، بيد أنهم في السابق – كانوا يستخدمون للخيل سروجاً تشبه سروج الحمير المستخدمة الآن والتي تبطن بطبقة سميكة من صوف الأغنام ويسمونها «يديا» وهو ذات الاسم الذي يُطلق على سروج الحمير الآن، وقد اكتسب منصب الأبو جنشنقا أهمية كبيرة تبعاً للاستهلاك الكبير للصوف.

يلي «الأبو جنشنقا»- من موظفي الأسطبل - أهمية، «الأبو أري» الذي يفرد شاله مثل الأبو جنشنقا على نظام «الفر»، و تعني كلمة أري «السلطان» ويستمد هذا الاسم من احتفال معين يمثل فيه شخصية السلطان في شكل مسرحية هزلية. وفي أحد العروض العسكرية التي تلت أعياد الطبول جلس «الأبو أري» تحت مظلة السلطان في ساحة الاحتفالات تظلله منشات ريش النعام وحوله التحف والشارات السلطانية بينما كان السلطان يقف وسط الحاشية.

و«الأبو أري» حفيد لمسيحي يسمى «جوكي» يُقال أنه هاجر إلى دارفور واعتنق الإسلام ويؤيد هذه الرواية بشرته البيضاء.

بعد الأبو أري يأتي الأبو مدونقا وهو مراقب أعمال دباغة الجلود ثم الملك «كرقا» مراقب شكائم الخيول ثم «ملك التولي» أي حامل ركائب السلطان «وقرقر الكريات» الذي يسند السلطان عند امتطائه لفرسه، ثم أبو الكريات وأبو السياس الذين يحظون بنفس الدرجة. وبالإضافة للمتقدم ذكرهم هناك «ملك الزنام» الذي يلجم فرس السلطان، ثم الملك مورنقا» المكلف بهش الذباب والهوام من على فرس السلطان، ثم ملك الحزام وهو حارس الحصان ثم آخرين غيرهم إلا أنهم لا يصرِّفون أعمالهم بأنفسهم بل عن طريق عمالهم.

يأتي بعد ذلك «الأبو دوقوار» خازن السمن المخصص لاحتفالات الطبول ثم «الملك كرنقا» مراقب صناع الخيام السلطانية والمشرف على عمال دباغة الجلود وصناع السروج ويتبع للأبو أرنقا، والمعروف إن الأرنقا هم فرع عظيم من قبيلة الفور يحترفون الكثير من الأعمال بخلاف المشغولات الجلدية فضلا عن مهاراتهم في صناعة بطانة السروج.

يهتم الفرسان بطلاء أسلحتهم وصقل الزينات المعدنية التي على صدورهم وتلك التي تُزَيِّن بها الخيول، ويستخدمون الأقمشة الأوروبية رديئة الصنع لهذا الغرض بعد تبطينها بالقطن أو الزغب، وتغطي هذه الزينات عنق الفرس وتكسو جسده حتى ركبه، كما يرتدي الفارس كساءً سميكاً مبطناً. أما المسئول الثالث في الرتبة هو من يسمى «بخشم الكلام» أي مترجم السلطان، ويشغل هذا المنصب في بلاد السودان - عادة - رجل عربي، وإبان زيارتي كان شاغله رجل –من بلاد برنو– يدعى لقمان وكان يتولى الترجمة للسلطان.

هناك ثلاثة وعشرون مراقباً «لياكوا» مسئولون عن المحافظة على التحف السلطانية الموجودة في القصر وتتمثل في الرماح السبعة التي تحمل أمام السلطان ويشرف عليها «الكو درمنق ساقال» ثم منشات ريش النعام الأربعة وتسمى «ريش» ويشرف عليها «سموكوا سقال»

ثم الكرسي الأثري السلطاني «ككر» وله رئيس مراقبين.

أما حملة الأسلحة كالحراب مثلاً فقد درجوا على أداء استعراضات المبارزة أمام السلطان في الاحتفالات العامة تحت قيادة «سملينق ساقال». أما درقة السلطان سليمان صولون «قورنق دُرْجُو» فهي معلقة في الجدار تحفها الأجراس وتعرض في الاحتفالات العامة ويتولى حراستها «السرمنق ساقال» وللبندقية السلطانية القديمة حارس خاص يسمى «بندقنق ساقال» وكانت أول سلاح ناري يدخل البلاد. وهناك حارس خاص للجرة الأثرية يسمى كير كوسنق ساقال» ويُوجد مراقب خاص لكل طبل من الطبول.

يعين ملك خاص لحصان السلطان الذي يمتطيه في الاحتفالات العامة تحت إشراف إحدى زوجاته ويشترط في هذا الحصان أن يكون أبيض اللون ولا يطعم بالطريقة التي تطعم بها بقية الخيول، وعلى سبيل المثال لا يطعم العشب الأخضر إلا في يوم معين عند قرب نهاية موسم الأمطار ويحتفل الحراس والسياس بهذا اليوم.

جميع موظفي القصر الموجودين بطريق الأوردي يخصصون لرقابة زوجات السلطان ويلتزمون مع جواريهن بإطعامهم، أما الوزير وأخوه التوأم والدادنقاوي فأمهم زوجة السلطان الأولى أي «الكتروكوا»، فهي التي تحضر ملابس الوزير عند تعيينه وهي التي تنصبه في مكتبه، أما السومنق دقولا فأمه «الاياكري» ويطلق عليها «أم سومنق دقولا» وكما سبق الذكر فهي التي تُلبس السلطان العمامة واللثام عند خروجه.

أما «الأربايا» أي باب النساء، وفيه «الأبوجود» وهو مخصي شأنه شان أغلب العاملين في قسم النساء، ويتولى مسئولية مراقبة نساء القصر وتحت إمرته أربعة عشر موظفاً، كما يُوجد كبير الخصيان «أبو شيخ دالي»، ثم «الكتركوا» المسئول عن حماية زوجات السلطان وهو مخصي ويطلق عليه لقب وزير السلطان. المسئول الثالث في هذا القسم هو رئيس حراس الأبواب وهو مخصي أيضاً مثله مثل «الفتوكوا» الذي يليه في الرتبة، أما مراقب المباني المسمى «عقيد» فله درجة «الكمل كوا»، وهو غير مخصي وكذلك حارس الأبواب الثاني « الملك سارنقا» و «المرافق كوا» الذي يراقب الأواني النسائية.

يُوجد في القصر الآخر رتب تماثل الرتب التي بيناها، وفضلاً عن ذلك يُوجد مراقب للمخازن تحت مرة «الملك خميس» وهو مخصي، ثم «الملك بارجويس » والملك «توم قال» و «الملك بييتر» و «ملك التكاكي» و «ملك العسل» وهم المسئولون عن حفظ المنسوجات القطنية والعسل والسمن والقمح وغيرها من المواد. وتظهر أهمية شاغلي هذه الدرجات في الأعياد والاحتفالات الوطنية العظيمة كاحتفالات الربيع، وبالرغم من إن التقويم الإسلامي -أي الهجري- يبين بداية العام، مع ذلك ففي دارفور يعتبرون عيد الطبول مع عيد «الكندا» الذي يقام في شهر رجب كبداية للعام. وبمجرد اقتراب موعد هذا العيد يرسل المسئولون المواشي للعاصمة التي توسم على الأذن باعتبارها صدقة وأضاحي تذكارية لسلاطين رحلوا للعالم الآخر، وعندما يكتمل العدد

تذهب الهبابات السبع برفقة الملك المشرف عليهن إلى طرة حيث مدافن السلاطين منذ عهد سليمان صولون ولكل سلطان قبر منفرد فيما عدا عبد الرحمن وابنه محمد الفضل وحسين بن محمد الفضل الذين تضمهم مقبرة واحدة. يتولى حراسة هذه المقابر أكثر من مائة عبد. وقبل ذبح هذه الصدقات يذهب «ملك الضبان» - أي الذباب - إلى جبل نامي ويذبح كبشاً ويتناول القليل من لحمه ثم يترك الباقي للذباب منعاً لإزعاجه عند ذبح مواشي الصدقة.

يتولى أي من عبيد السلطان المتوفى ذبح عدد معين من الخراف تخليداً لذكرى أسيادهم، ويتم توزيع اللحم على الأهالي. ثم يتلو الفقهاء القرآن طلباً للراحة والطمأنينة لروح المتوفين من السلاطين، وبعد الفراغ من هذه الطقوس تكشف الهبابة عن إناء كبير مملوءاً بالمريسة ظل مطموراً منذ احتفالات العام الماضي، ويعتقدون بأن المشروب المحفوظ فيه لا يبدأ في التخمَّر إلا عند ظهور الهبابة في الاحتفالات. لا تشمل هذه الصدقات السلطان أبا القاسم لفراره من ميدان المعركة إبان حملته ضد ودّاي.

بعد تقسيم الصدقات يأخذ «الملك كسنقادورا» بقية المواشي وهو معتمر عمامة ومتوشحاً لثاماً أسوداً ويذهب بها إلى قمة «كاورا» في جبل مرة لبدء طقوس مماثلة. تُوجد مدافن للوثنيين من سلاطين دارفور السابقين وتذبح الذبائح تخليداً لذكراهم دون قراءة القرآن.

يتوجه السلطان وأفراد حاشيته صوب حقل «سيما أونا» المملوك للدولة - قبل احتفال الطبول بيوم - ويقع على بعد مسيرة ساعتين من القصر السلطاني. يأتي بعدها ملك الهبابات بصندل يسمى «ردمنقة» وكساءً أبيض اللون توضع عليه التحف الأثرية، عندها يهتف «ملك مكاوي»(1) أي مراقب الجمهور، تمجيداً للسلطان ثم يقوم بمعية الآخرين باجتثاث أشجار الحقل عدا شجرة واحدة، ثم يسلم سلطان الحدادين الفأس للسلطان ليقطع بها الشجرة المتبقية، ثم تُحزم بعدها مخلفات الشجرة والأعشاب المنزوعة في حزم عديدة.

أما مراقب البندقية، وهو حفيد لرجل أوروبي أدخل أول بندقية لدارفور، فيتولى عملية تعبئة بندقية السلطان بالبارود. وفي نهاية الاحتفال يحضر ملك الحدادين جاروفاً - يُسمى «تر»- يحفر به السلطان سبع حفر ويرمي في كل حفرة بذرة من الدخن تتولى الهبابة دفنها.

بعد هذه الزراعة الرمزية تنتهي الاحتفالات لتستأنف مرة أخرى في العاصمة في حوالي الساعة الثانية ظهراً.

وأثناء رحلة العودة يقومون بصيد بعض الأرانب والغزلان الحية التي تقوم بحملها الهبابات، وعملية صيد هذه الحيوانات يُرتَّب لها مسبقاً، ثم في العصر تحضر بقرتان بيضاوتان وعجل أبيض أيضاً، المحضَّرين منذ وقت كاف وإذا لم يعثر على اللون الأبيض يكون البديل اللون الكريمي، ثم تقدم للسلطان عصا معقوفة وخنجر يماثل الخناجر التي يحملها العرب رعاة الإبل في الشرق، بعدها يتوجه نحو البقرة التي سيستخدم جلدها في تجليد الطبول، أما العصا فتدون عليها تواريخ هذه الوقائع.

1- الصحيح موقاي.

في صبيحة اليوم التالي يذبح السلطان البقرات الثلاث بنفسه ثم يتولى سلطان الحدادين والأرندلنق والأبو جباي والأبوكنجارة والأبو دقونقا سلخ جلد البقرة المختارة ودبغه، وفي العصر يقوم سلطان الحدادين بتجليد الطبول بمساعدة أفراد الحاشية مع إنشاد الأغاني التراثية على إيقاع الآلات الموسيقية.

يُعطي السلطان أحد أضلع البقرة بعد تنظيفه من الأغشية ليهشمه إلى قطع على الطبل المسمى بالمنصورة، وعدم إتمام هذه العملية بنجاح يعد فألا سيئاً، وتجنبا لهذا الموقف يتم التحوط للأمر مبكراً.

في اليوم الثالث للاحتفال يذبح السلطان كبشاً لعيد الكندا ويشترط في الكبش أن يكون ملوناً تحيط بعينيه هالة من السواد، ومن لحظة اختياره – أي الكبش- يحتفظ به مستيقظاً تحت رقابة ملك معين. وبعد ذبح الكبش تُخمر أمعاؤه حتى تتعفن ويقسم اللحم على المسئولين ولكل منهم قطعة معروفة لا يتنازل عنها وله حق المطالبة بها وعادة ما تكون هناك رابطة بين قطعة اللحم ومستحقها، فرئيس الجّلابة مثلا له الحق في أرجل الكبش باعتبارهم أناس اعتادوا حياة السفر والترحال.

وقبل تجليد الطبلين «المنصورة وولدها»[1] يجتمع الأمراء والأميرات ويستخلص من باطنها كمية من السمن محفوظة بداخلها منذ احتفالات العام الماضي وتقسم محتوياتها الفاسدة نتيجة لتفاعلها مع النحاس على أرباب الدولة، ويُقال أن هذه المحتويات علاج ناجع لأمراض العيون، ثم هناك وعاء آخر ملئ بالزبد مدفون من العام الماضي أيضاً يستخرج من جوف الأرض وتُفرغ محتوياته في الطبل المجلد حديثاً حتى العام القادم.

بعد ثلاثة أيام من ذبح الكبش يجتمع الأمراء تحت قيادة الباسي طاهر والأميرات بزعامة الإياباسي للاحتفال بعيد الكندا، وخلاله تضاف إلى أمعاء الكبشين المتعفنة الكبد والكلى والطوحال وتقطع ويضاف لها شيء من محتويات الوعاء المحفوظة من العام الماضي مع تتبيلها بالشطة، ويبادر – بعدها- قائد الأمراء بالتهام عين الكبش، وتلتهم الإياباسي العين الأخرى، ثم يجتمع الأمراء على طبق الكندا يحيط بهم الجند المدججون بالسلاح حتى لا يتهرب أي منهم من أن ينال نصيبه والويل لمن يصاب بالغثيان أو الاختناق أو السعال لأن الحراس مزودون بالأوامر التي تقضي بقتل كل من تنم تصرفاته عن التذمر أو عدم الرضا عن السلطان. وفي العهد الوثني وحتى عهد سليمان صولون كانت ذبيحة عيد الكندا هي أحدى العذارى حديثة البلوغ [2] إذ تؤكل أحشاؤها على ذات المنوال ويُقال إن هذا التقليد ظلّ متبعاً حتى هذا القرن.

تلى ذلك إلغاء التقليد الذي يقضي بالقتل أثناء تناول الكندا. ورغم ان تنظيف الحلق أو

1- اي الطبل الصغير الملحق بها.

2- ذكر التونسي بانه يوتي بغلام وصبية لم يبلغا الحنث ويذبحان سرا ويقطع لحمهما ويجعل في القدور مع لحم الحيونات المذبوحة وذكر ان بعض الناس يقولون أن اسم الصبي يجب أن يكون محمد واسم البنت فاطمة، انظر التونسي المرجع السابق، ص: 175.

الشراقة يعد أمراً غير مقبول في حضرة السلطان إلا أن أبابكر شقيق السلطان حسين فعل ذلك في عيد الطبول تحدياً له لكن حسين لم يستجب للأمر.

يتبع عيد الكندا سبع عروض عسكرية يُطلق عليها «العرضة» بحيث يكلف خمسة وعشرين من موظفي الأوردي بتشييد بعض أكواخ القش داخل سياج القصر السلطاني، كما يفعل العمال التابعين للأورباب نفس الشيء، بعدها يعسكر المسئولون وزعماء العشائر تحت مظلاتهم المنصوبة في فناء القصر لمدة سبعة أيام. وفي اليوم السابع يخرج السلطان لطريق الأوردي حيث يستقبله كبار رجالات الدولة لتهنئته وتحيته ثم يقدمون له السلام أي الهدايا ثم ينتقل لطريق الأورباب وتتكرر نفس المراسم – بعدها- تبدأ العرضة التقليدية.

إبان وجودي في الفاشر فإن خمسة من العرضات السبعة التي تتلو احتفالات الطبول قد تم انجازها، وكانت الأخيرة أكبرها أما السادسة فالمفترض أن تُجرى في الثالث عشر من مارس، ولا يتوقع أن تكون بأهمية سابقاتها لأن الفرض هو أن يكون أغلب المسئولين قد رجعوا لحواكيرهم نسبة لارتفاع أسعار الذرة في هذا الوقت من السنة.

عبرنا بحيرة تندلتي في الثامنة صباحاً من ناحيتها الشمالية الشرقية ونحن على صهوات الجياد وكانت خالية من المياه. سرنا حتى الساحة العامة الواقعة شمال القصر حيث تجمع عدد كبير من الأهالي انتظاراً للسلطان الذي لم يحضر بعد.

أخذنا مواقعنا بالقرب من الخيالة من حيث سيدخل السلطان. وحتى في هذا التجمع الكبير عاملني الأهالي بالكثير من عدم الترحاب. ألقينا التحية على الخبير محمد صهر السلطان ورئيس التجار الأجانب وكان يرتدي جلباباً حريريا ملوناً ودرعاً مخملياً تتدلى منه شرائح نحاسية وعلى رأسه خوذة مبطنة بالمخمل. خرج الأبو شيخ دالي من داخل القصر وكان رجلا بديناً يرتدي زياً عسكرياً ويعتمر العمامة ملتفحاً اللثام مع خوذة فضية مخروطية الشكل وهو محاط بالفرسان وحملة الرماح ونافخي الأبواق وقارعي الطبول. تلاه الأمين بخيت بن أحمد طربوش وهو عبد مقرب من السلطان وكان يرتدي فوق ملابسه درعاً مزيناً بشرائح معدنية تتدلى على الكتفين و على وجهه قناع معدني متصل بياقة بيضاء مشدودة إلى عنقه بإحكام لحمايته حتى منطقة حزام الوسط، مثبتة بشال أحمر مطعم بالذهب ومبسوط على الكتفين. كان يمتطي فرساً أسوداً ومن خلفه حصان أبيض بكامل عدته يقوده الخدم. وما يلفت النظر، إن جهاز الخيل يفوق عدة الفرسان مظهراً وجمالاً، إذ تتركز الزينات على نواصيها وأعناقها وصدورها. فالحلي الفضية والزينات المجدولة وقطع النحاس تغطي رأس الفرس بالكامل حتى الأنف. وعند العينين تأخذ تلك أعلى شكل المثلث المنفرج، ثم يُزين العنق بحلية تمتد حتى عرف الحصان تتكون من جدائل مختلفة الأشكال منظومة على قطعة من القماش أو المخمل، وكل الزينات التي على العنق مشدودة بحزام عريض مشغول من الفضة، وخلف هذه الحلية الفضية تُوجد نتوءات ترتبط بالسرج والفقم والحزام، كما جرت العادة أن يستخدم حزامان للسرج

أحدهما يشد على جسم الفرس والآخر يتدلى حتى ساقيه وكلا الحزامين مطعم بالذهب والفضة ومزين بجدائل الحرير وأجراس صغيرة الحجم.

صحب أمين بخيت عدداً من قارعي الطبول وحملة الأبواق المأخوذة من القرون، كما كان يتبعه رجل مصري يحمل له الملابس وهو – أي المصري- يتغنى بأفضال سيده بحماسة وصوت شجي كما ظل يرتجل أبياتا من الشعر أمام السلطان وحاشيته.

أخيراً حضر السلطان وحدث هرج ومرج لأن الجميع كان يرغب في دفع فرسه للأمام اختياراً لأفضل المواقع، وفي لحظة دوت الآلات الموسيقية من طبول ومزامير وأعلن «المكاوي»([1]) أي مرافقي السلطان عن قرب وصوله وذلك بالتهليل والمدح مع التلويح بالأجراس والقصع المحشوة بالحصي والضرب على الدفوف، ومما لا ينسى أبداً منظر الأسلحة وهي مقرونة فوق الرؤوس.

وباختصار شديد فإن كل ما في الساحة كان مصدراً للجلبة والضوضاء التي تصم الآذان وذلك إمعانا في إبداء التجلة والاحترام للسلطان الذي جاء وعلى رأس موكبه مائتي فارس مدججين بالبنادق دون أن يتزيوا بزي عسكري موحد ودون أن ينتظموا في صفوف عسكرية منضبطة شأنهم شأن حملة النبابيت، وهناك طبّال يؤدي بعض الاستعراضات العسكرية على النمط الأوروبي رغم محدودية إجادته لهذا الفن الذي تعلمه في مصر.

اصطف الناس أمامنا وما هي إلا دقائق معدودة حتى اقترب السلطان من الجمع وهو مصحوباً بخمسة جمال محمَّلة بطبول مشدودة على جانبي السنام وخلفها الطبالون قابعون في المؤخرة وهم يقرعونها بشدة. ونالت رؤوس الجمال كامل زينتها من الصوف الأحمر فاقع اللون والحرير المحفوف بريش النعام، ويزفها الزمارون وبعض الطبَّالين الشعبيين الذين يرافقون التحف السلطانية وفي مقدمتها «الككر» وهو كرسي خشبي مثلث ذو أربعة أرجل قصيرة، سطحه ذو شكل حوضي ومغطى بطبقة قطنية.

وبجانب ما ذكر، تحوي التحف حراب ورماح مختلفة الأحجام مكسوة بقماش أحمر فضلاً عن مصحف ملفوف بقطعة من القماش.

كان السلطان يمتطي حصاناً أسوداً ويكتسي بدرع فوق ملابسه الحريرية الموشاة من جانبيها بالذهب ويضع لثاماً فوق العمامة البيضاء يغطي وجهه تماماً ويضع خوذة مخروطية الشكل ذات رؤوس ناتئة يزينها الخرز والمرجان، ويتقلد سيفاً ذا مقبض ذهبي معلق على يساره تحت غطاء السرج المطعم بالذهب، وكان حصانه مزيناً على ذات النهج الذي سبق وأشرنا له مع تزيّد في الزينات لدرجة لم يعد يظهر منه إلا الرأس والصدر.

وكان حملة الريش([2]) الأربعة يقفون بجانب السلطان ومعهم حملة الرايات وهم يلوحون

1-الصحيح الموقاي وهو كالمهرج في السيرك له الزينات يرتبها في الاحتفالات كالطرطور والخلاخل ويظهر أمام السلطان بغرض الاضحاك ويحاكي نباح الكلاب والقطط وغني ويرقص. أنظر التونسي . المرجع السابق، ص 189.

2- المنشآت

ويتلاعبون بها مع مواصلة الرقص بذات الأساليب المتبعة في باقرمة. وعلى يسار السلطان أصطف حملة المظلة وكانت كبيرة أخاذة ذات لون أحمر وموشاة بالذهب، بجانبهم حوالي الثلاثين جارية متوشحات بخُمُر حمراء خلف حصان السلطان، يزّين شعورهن العنبر والمرجان، يليهن ثلاثون من حملة السيوف ذات المقابض الذهبية والفضية ويتبعهم عدد مماثل من حملة البنادق ثم حملة الرماح و كل منهم يحمل مجموعة منها في جراب، فضي ثم يختم الموكب ثمانية من خيول السلطان الأصيلة.

لاحظت إن الحاشية المرافقة للسلطان والتحف المعروضة تقل عن تلك التي رأيتها في برنو. وعندما بدأ الموكب السلطاني في التحُرك، اقترب الجميع لرؤية السلطان وتحيته، واحتذاءً بالآخرين لوحت ببندقيتي تحية للسلطان ورد على تحيتنا بسيفه الذي رفعه وخفضه بهدوء ووقار شديدين ثم أخذ كل من المسئولين موقعه المخصص له.

عملية إنفاذ القدم في الركاب العربي لا تخلو من مخاطر لمن اعتاد استخدام الركاب الأوروبي - مثلي - وذلك لأن حوافه الحادة وثناياه الرفيعة تسبب قروحا في أرجلي.

نحن الآن نقف بجوار الأمين بخيت الذي أخذ موقعه خلف السلطان مباشرة لأن قرار تعيينه كوزير لم يعلن بعد، وإلا كان سيقف بمحاذاة سيده. كان الأمين بخيت شخصاً ودوداً في تعامله معي ودعاني للوقوف بجانبه مما أتاح لي مشاهدة مريحة، لكنني لم استمتع بالعرض كثيراً وذلك لقلة معرفتي بأرباب الدولة نتيجة لحداثة عهدي بالمدينة مع تحاشي الإكثار من الأسئلة والاستفسارات.

تحرك موكب أعمام السلطان وأخوته في البداية وبأيديهم الرايات والطبول والأبواق ومن خلفهم أتباعهم الذين يتسلحون بالرماح، وعند محاذاتهم للسلطان توقفوا وحيوه ثم التزموا أماكنهم حتى نهاية العرض.

اتخذت الإياباسي مكانها بالقرب منا وهي كالفارس على صهوة الجواد مرتدية ثوباً حريرياً وتلتحف غطاءاً يكسو جسدها من الرأس حتى أخمص قدميها، وظلت ملتزمة موقعها حتى نهاية العرض. كان الفرسان منتشرين في كل مكان يتبادلون التحايا مع كبار رجالات الدولة وهم على صهوات الجياد تملأ جوانحهم السعادة والخيلاء مع تباين ملابسهم ومعداتهم، وجلهم يحملون الرماح إلا القليلين من حملة البنادق، بجانب أعداد من حملة الفؤوس المعدنية المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة مع نفر من حملة العصي العادية والمعقوفة والهراوات ذات الرؤوس المعدنية المثقلة بالرصاص، بجانب الكثير من الأسلحة التي تزدان مقابضها بالذهب والفضة المصنوعة محلياً تقليداً لبعض النماذج الأجنبية.

ومما يلزمنا الحديث عنه هو تلك القبعات العسكرية التي يعتمرها من سبق وتعرضنا لهم من القادة. فمن حيث المادة الخام فقد صنعت تلك القبعات من المعادن وتحكم أطرافها بالمخمل الأحمر أو خلافه من الألوان، ويبلغ ارتفاع هذا الإحكام المخملي حوالي الثلاثين سم

مع فتحة أمامية أعلى الجبين. ثم هناك قبعة أخرى تحمل خلف المسئول لا تختلف في شكلها عن أغطية الأطباق السعفية التي تشتهر بها بلاد الفور.

عندما جاء الدور على أمين بخيت، رافقناه تحركاً ووقوفاً أمام السلطان وألقينا عليه التحية ثم عدنا لأماكننا، وعندما بدا السلطان الاستعراض الأخير انضممنا للحاشية السلطانية وظلّ ممتطياً جواده وهو يصول هنا وهناك ثم يعود لنقطة البداية و أخيراً قام بجولة صغيرة حول الساحة بعد استعراض الموكب ثم دخل القصر. وبقينا لفترة قصيرة نتبادل التهاني ثم أنفض الجمع.

استغرقت عملية الاحتفال حوالي الساعتين ونصف الساعة إلا أن عدد الخيول التي حشدت للعرض أقل من عدد الخيول التي تحشد لمثل هذه الاحتفالات في برنو، كما لم تكن خيول أصيلة باستثناء الأعداد القليلة من تلك النوعية التي تجلب من دنقلا.

السكان والمنتجات في دارفور

ينقسم سكان دارفور إلى عرب وزنوج، وفيهم السكان الأصليين والوافدين. وعند تعرضنا لتاريخ دارفور لاحظنا الأثر العربي على القبائل المحلية حتى وأن العائلة المالكة نفسها ما هي إلا مزيج من العرب والتنجر والفور أي حكام البلاد الأصليين. ونسبة لقلة أعداد التنجر فقد ذابوا في القبائل الزنجية حتى إنهم فقدوا هويتهم العربية وأصبحوا يصنفون منهم.

وكما أسلفت فإن القبائل الأصلية في دارفور تعرف بالحروف الأبجدية وتستخدم لذلك حروف «الدال» والتاء» «والفاء» و«الزاي» و«النون» وترمز هذه الأحرف لأسماء قبائل الداجو والتنجر والفور الزغاوة والنوايبة.

الداجو[1] معروفون في هذه البلاد منذ أزمان ضاربة في القدم ويدعون - كبقية الشعوب المسلمة - بأن أجدادهم أتوا من الشرق وربما كان هذا الإدعاء صحيحاً لكن الثابت أنهم عاشوا منذ قرون في أواسط دارفور على سلسلة جبل مرة ولهم وجود معتبر في المديرية الشمالية «دار أبو أما» وكذلك في حدود المديرية الغربية «دار سلا» حيث يتمركزون في حوالي مائة قرية ترتبط بكل من دارفور ووداي رغم احتفاظهم باستقلالهم الإداري. والداجو قوم محتقرون في دارفور ويسمون «ناس فرعون» أي الشريرين ويتسمون بالعنف. ولكونهم وثنيين حتى القرن الماضي، ظلّ ربطهم الضريبي يتمثل في دفع أفراد منهم وذلك قبل دخول الإسلام أي قبل هجرة التنجر، وبالرغم من النظرة المتعالية نحوهم إلا أنهم ينظرون لدارفور كمواطن لأجدادهم ومع ذلك كانوا - بسبب الخوف - يدفعون الضرائب لسلطان ودّاي. وللداجو لغة تختلف عن لغة الفور تماماً، ويبدو عليها أوجه الشبه بلهجات سكان النيل الأبيض.

أما التنجر[2] فبسبب تمدنهم تمكنوا من إخضاع الداجو إرادياً ويبدو أن دخولهم لدارفور كان قبل قرون وينسبون أنفسهم لبني هلال ويدعون بأنهم عاشوا في الجزيرة العربية في زمن الرسول محمد (ص) وقد تعرضنا لهذا الأمر عند تناولنا لتاريخ دارفور.

وبالرغم من أن بعض فروع هذه القبيلة يعيشون في برنو وودّاي ودارفور لكن ينعدم الاتحاد بينهم. ففي برنو يعيشون في شكل مجموعات صغيرة على امتداد الجزء الجنوبي الشرقي لـ «كانم» وعلى وجه الخصوص في إقليم «مندو» الذي يتبع حالياً لودّاي، ولهم فيه قرية تسمى «تونس» كذكرى لمواطنهم الأم.

أما في ودّاي فيعيشون شمال البلاد بإقليم «دار زيود» كما توغل بعضهم نحو الجنوب الغربي

1- من اقدم عناصر السكان بدافور، مواطنيهم شرق وجنوب جبل مرة، وتعيش جماعات من الداجو في دار صليح «ودّاي» وجماعات أخرى في دارمسيرية جنوب غرب كردفان، والمتواتر أن الداجو أول من أسس دولة في منطقة دارفور ثم أزاحهم التنجر عن وسط دارفور فاستقروا في مواطنهم الحالية، تشحيذ الاذهان المرجع السابق حاشية رقم (1) ص 138

2- قوم من النوبيين وبني هلال هاجروا من بلاد النوبة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد واستقروا هناك باسم التنجر وأسسوا دولة في شمال دارفور وعاصروا دولة الداجو في جنوب جبل مرة، ثم بسط التنجر سلطانهم على ودّاي غربي دارفور مما ادى لأضعاف سلطانهم في دارفور خاصة لذا انتزعته منهم عائلة كيرا، وهم موزعين بين دارفور وودّاي وكانم وبرنو، انظر تشحيذ الاذهان، ص137.

لودّاي حتى جبال أبو تلفان» وعاشوا مع القبائل الوثنية الموجودة هناك محافظين على عاداتهم وتقاليدهم المستمدة من وطنهم الأم «تونس».

أما الجزء الأكبر منهم فيوجد في دارفور حيث حققوا أعظم انجازاتهم التاريخية بجانب تأسيسهم لسلطنة في ودّاي أيضاً. ويُعد انتماؤهم لتونس أمراً لا يقبل الجدل، وتأكيداً لذلك يروي إن السلطان محمد حسين سأل أحد أصدقائي مرة- وهو شريف من القيروان بتونس- عمّا حل بسلالة أسلافه هناك. يُوجد مخطوط عن التنجر الذين حكموا دارفور بيد السلطان محمد الفضل مبين فيه انتمائهم لقريش، مُفصّلاً لحكامهم حتى أحمد المعقور، ويقرأ كالآتي: (محمد الفضل بن عبد الرحمن بن بكر بم موسى بن سليمان صولون بن كورو بن إدريس بن حاج إبراهيم بن رفاعة بن أحمد المعقور) .

ومما يؤكد انتساب التنجر للعرب هو حفاظهم على اللسان العربي رغم أنهم لهم يخالطوا أي قبيلة عربية طوال هذه القرون سواء في برنو أو ودّاي أو دارفور، كما أن رؤساءهم ما زالوا يحملون لقب «سلطان» وهو لقب عربي. ورغم إن سلطانهم لا يطلع بسلطات هامة، مع ذلك مأذون له بأن يتلثم وهو أمر ممنوع على بقية الأهالي.

ومن تاريخ خضوعهم للكيرا أصبح لثامهم أسود اللون. عاش التنجر كأقلية في برنو بيد أنهم لم يختلطوا بالأهالي إلا نادراً وظلوا محافظين على تراث أجدادهم هناك، أما في دارفور فقد تزاوجوا مع الأهالي وصاروا لا يتميزون عنهم. وكما سبق وذكرت فإن كروما أو رفاعة تزوج من أسرة كيرا الحاكمة وهم أهم فرع من قبيلة الفور، وانتزع ابنهم السلطان دليل السلطة من أخيه سو أو شو دورشيت الذي هو من أصل تنجراوي نقي، ومنذ ذلك الوقت فقد التنجر دورهم السياسي وحل محلهم سلاطين أسرة كيرا الذين استمدوا الاسم من ناحية الأم فقط.

ومنذ ذلك التاريخ تمركز التنجر في السفوح الشرقية لجبل مرة «مديرية دالي»، ويعد جبل خريس المركز الرئيسي للقبيلة، كما تعيش مجموعة منهم متفرقة على نطاق أواسط البلاد.

أما الفور فهم العنصر الرئيسي لسكان البلاد ومواطنهم الرئيسة في جبل مرة والجزء الأكبر من «داراما» و «دار دما» ويشكلون نصف السكان في «دارفيا» «ودار كرني» و «دار ميد»، وحسب معرفتي فهم حوالي أربعين فرعاً تقريباً.

يُعتبر الدقونقا أنبل فروع القبيلة أما أقواهم فهم فرع الكنجارة لدرجة إن بعض الشعوب المجاورة تطلق على دارفور اسم «كنجارة» لأن لغتهم هي السائدة، وقد ارتقى الكنجارة سياسياً بسبب أن الأسرة الحاكمة - الكيرا - تنتمي إليهم من ناحية الأم.

والفور الذين يسكنون «جبل كونيا» - جنوب غرب جبل مرة من أعمال «دار أبو دما»- هم أكثر الفور محافظة على نقائهم العنصري ويطلق عليهم «فور تموركة» وتختلف لهجتهم عن بقية الفور.

يتميز الفور بالبشرة الداكنة المائلة للسواد أو السوداء المائلة للرمادي، متوسطي الطول، دون

ملامح مميزة، مع حدة في الطبع، وميل للانتقام. وفيهم قابلية الشجار والتصرف العنيف مع افتقارهم للشجاعة الحقه، فضلاً عن إنهم قوم قليلو المهارة في الصناعات والحرف - كشعب ودّاي - ولهم عاداتهم وأعرافهم التي يتبعونها بدقة مثل كل سكان الجبال لدرجة أن الإسلام الذي يدين به سكان القرى الكبيرة لم يقو على اجتثاث شأفة الوثنية من نفوس الأهالي قاطني المناطق النائية بصفة خاصة.

أما الزغاوة[1] الذين يُقال بإن لهم دور كبير تجاوز حدود دارفور في قرون سابقة، ليسو فرعاً من فروع التبو - كما افترض بارث وغيره - بل هم وأهالي أنيدي» و «البديات» وقبيلة «وانية» الصغيرة التي تقيم على طريق بنغازي - ودّاي في إقليم «وانيانقا»- يشكلون مجموعة عرقية واحدة ويعيشون في قلب الصحراء أو على تخومها، وهم قوم رحل أو شبه رحل ويملكون قطعاناً كبيرة من الجمال ويعيش بعضهم في أنحاء متفرقة شمال ودّاي. يمكن للمرء أن يميز الفروع الرئيسة للزغاوة في دارفور على النحو الآتي: زغاوة كوبي: ولهم سلطان منفصل ويقطنون الإقليم الواسع المسمى «كوبي» وهو جزء من مديرية «أبو تكنياوي» على الحدود الشمالية الشرقية لتاما، ثم الزغاوة «دور» و «كيتقنا» و «كالبو»: ويُقال أن أصولهم ترجع للبديات، وزغاوة «أنكا» ويعيشون في مديرية أبو تكنياوي مثل إخوتهم كوبي، وأخيراً الزغاوة «أم كملت» وهي قبيلة تولدت عن التمازج مع القبائل العربية ويحمل أفرادها الملامح والسمات العربية.

أما النوايبة، فهم آخر المجموعات القبلية الأصلية في دارفور و من أوائل العرب المهاجرين لدارفور وأقرب الأقربين للمحاميد والمهرية.

سنتعرض الآن للقبائل العربية بدارفور سواء الرُحّل أو الذين آثروا حياة الاستقرار، ويمكن للقبيلة الواحدة أن تنقسم لعدة فروع ويمكن التحقق من ارتباط هذه القبائل ببعضها البعض أينما حلوا. سنبدأ بمجموعة الفزارة الذين يتباهون بالانتساب لحمد الأفرز، وينتمي لهذه المجموعة «الزيادية» وفروعهم من الكرمسيا والكسرينا وتقع مراعيهم في المديرية الشمالية «أبو تكنياوي» بأواسط البلاد تقريباً.

ثم المعاليا وعشائر أولاد عبدون وأقاربهم من المعاقلة ويعيشون في المديرية الشرقية «أبو دالي» بين الحُمر والرزيقات. وتُصنّف القبيلتان - أي الزيادية والمعاليا - ضمن الرُحّل من رعاة الإبل وللزيادية - فضلا عن ذلك - عدد معتبر من الخيول ويمكنهم الدفع بألفي فارس عند النوائب. والمعاليا أيضاً قوم أقوياء برجالهم وثروتهم من الإبل ويمكنهم أن يحشدوا ثلاثمائة أو أربعمائة من الخيل.

كما ينتمي لفزارة عربان الهبابين والجليدات والمجانين وأولاد عقدي وبني عمران وبني جرار ويقطنون شرق دارفور ويملكون ثروات عظيمة من الجمال ويعيش أكثرهم حياة الاستقرار.

1- هم خليط من الزنوج والتبو والليبيين، وورد في كتب المؤلفين العرب مثل المسعودي وابن سعيد والإدريسي وابن خلدون أن اوطان الزغاوة كانت تمتد غرباً إلى إقليم التنجر، غير أنهم يعيشون في الوقت الحاضر شمال غرب دارفور ولهم شعبة تسكن كجمر في كردفان ويتكلم معظم الزغاوة اللغة العربية إلى جانب لغتهم الأصلية وهي لغة التنبو، تشحيذ الاذهان / ج5، 54.

للزيادية عشرة شيوخ يضاهون حملة الطبول وللمعاليا سبعة شيوخ وأربعة لكل من الجليدات وبني عمران.

لعبد الله الجعانس ولد يدعى حمد الأفزر وآخر يدعى حمد الأجزم جد مجموعة «الجزم» ولحمد الأجزم ابن يدعى جنيد وأبناء جنيد هم راشد وحيماد، أجداد أولاد راشد والحيماد. توغل أولاد راشد غرباً ولهم وجود قبلي كبير في ودَّاي فضلاً عن مجموعات صغيرة منهم في برنو، ومن الحيماد تفرع التعايشة والهبانية([1]) وهما قبيلتان كبيرتان ترعيان الماشية في الجنوب والجنوب الغربي لدارفور أقصى حدودها الجنوبية.

تستوطن قبيلة الهبانية منطقة وسط دارفور وجنوباً حتى حفرة النحاس» - منطقة مناجم النحاس المشهورة - ولهم حوالي ستمائة فارس - أما ديار التعايشة فتمتد غرباً حتى تحاذي قبائل الرُّحَّل بجنوب ودَّاي، ويمكنهم جمع ألف فارس.

أما الابن الثالث لمحمد الأجزم - راكال - ويدعى العريقات الانتساب له، والعريقات قبيلة كبيرة تقيم في أقصى شمال غرب البلاد غير أن بعدهم عن العاصمة وثروتهم الكبيرة أكسبتهم شيء من الاستقلالية عن السلطنة، وفي بداية عهد محمد الفضل عندما كان الحكم تحت وصاية «أبو شيخ كُرا» حاولوا اغتنام الفرصة للاستقلال إلا أنهم تعرضوا لعدة حملات، وأخيراً نجح محمد الفصل - بعد أن شب عن الطوق - في استدراج شيوخهم بالحيلة والهدايا، وعندما أتوا لاستلام كساوي الشرف بوغتوا وحشروا في جلود الأبقار المحكمة إلا من ثقوب الأنف والعينين وأحضروا للفاشر حيث نُفذ فيهم حكم الإعدام، وهكذا صارت القبيلة دون قادة مما سهَّل إخضاعهم لسلطة الدولة بعد ان نكل بهم محمد الفضل وشتت شملهم ولم يتبق منهم إلا القليلين الذين حافظوا على كيانهم القبلي في ديار تاما وتفرَّق الباقون بين الزيادية والمحاميد.

أما عطية فهو ابن راكال ووالد«مسير» و «رزيق». ينتمي المسيرية لمسير والرزيقات لرزيق، أما التعالبة فهم بطن من المسيرية من ابنه «تعالب». يعيش المسيرية بقرب الحدود الجنوبية لجبل مرة وهم رعاة ماشية مثل التعالبة ويُقال أن لهم حوالي خمسمائة فارس. أما شاكر فهو الابن الثاني لعبد الله الجعانس وله بن يدعى دهمش بن بدر - جد لقبيلة البديرية - الذين يقطنون مديرية أبو دالي» ويملكون القليل من الإبل ويربون الماشية ويعيشون حياة الاستقرار.

الفزارة «الجزم» والبديرية يُطلق عليهم «جهينة» أيضاً نسبة لجدهم عبد الله الجعانس بن محمد الخوري وهم أقرب الأقربين للكبابيش من رعاة الإبل الذي يسكنون البادية الممتدة من كردفان حتى دنقلا ولم أقف على المعلومات الحقيقية التي توضح العلاقة بينهم.

كان للأخوين حمد الأفزر وحمد الأجزم أخت أنشأت علاقة مع رجل من الزنوج - بعد وفاة والدهم - وتلك قبيلة من العامة ويتسم لون بشرتهم بالمعقولية. وهكذا أصبحت هذه الأخت

1-عرب بقارة وكانوا رعاة إبل ولهم شعبتان في دارفور ومواطنهم بين الرزيقات في الشرق والتعايشة في الغرب والمساليت والدينكا في الجنوب و تعيش الشعبة الأخرى في كردفان جنوب بلدة الرهد، أنظر تشحيذ الأذهان ج(1) ص:142

جدة لقبائل الحمر - الاسم المشتق من «الأحمر» - وهي قبيلة متعددة الفروع تقطن الحدود الغربية لكردفان ويعيش بعضهم في شرق دارفور ويملكون الكثير من الإبل ويمكنهم ان يدفعوا بألف فارس.

وكما نوهنا فإن لعطية ابنان هما مسير وزريق، ولرزيق هذا ثلاثة أبناء- مهر ومحمود ونايب - وهم أجداد المهرية والمحاميد والنوايبة وجميعهم رعاة للإبل وتعيش كل مجموعة مستقلة عن الأخرى في دارفور ووداي، أما في جنوب دارفور فكلهم تحت مسمى واحد ويطلق عليهم «الرزيقات»، يستطيع المحاميد حشد ثلاثمائة فارس والمهرية في حدود ألف وخمسمائة فارس أما الرزيقات فهم أكثر القبائل العربية عدداً في دارفور ويرعون الماشية ويقدر فرسانهم بعشرة آلاف. وقد يكون هذا الرقم مبالغ فيه ولكن فشل سلاطين الفور المتكرر في إخضاعهم يدل على أن لهم قوة لا يستهان بها.

ينتسب أولاد يسن ليسن بن بارك بن محمد بن رزيق أما جيرانهم المحاميد فقيل أنه بعد وفاة جدهم الأكبر محمود قام ابنه الأكبر شايق بتزويج أمه لعبد قصداً ولهذا العبد ينسب أولاد يسن.

أما كنانة والخزام فهم من البطون العربية الصغيرة وقد ارتبطوا ببعضهم ارتباطاً وثيقاً ويدعون إن جذورهم من الجزيرة العربية، ويبدو أن هناك قبيلتان بهذين الأسمين كانتا بالجزيرة العربية عند ظهور الإسلام ويُقال ان شجرة نسبهم كالآتي:- ابن خزام بن مدركة بن الياس بن مضر بن نصر بن معد بن مدركة بن عدنان أما من دون هؤلاء يعتبر أهالي دارفور أن نسلهم مُدنَّس. يعيش الكنانة والخزام في مجموعات صغيرة في الإقليم الشرقي حيث هجروا حياة الترحال.

أما الكروبات فيزعمون بأن أصولهم من «سبأ» في اليمن وأنهم سلالة قحطان وبالتالي فهم سبأيون وليسو إسماعليين وقد أخضعهم الفور أثناء حربهم مع القمر، وتمتد ديارهم بين إقليمي التاما والزغاوة على تخوم جبل نوكات. وتقع مناطق انتشارهم شمال السلطنة.

ينتشر الحوطية في المنطقة الغربية - دار فيا ودار ميد - وهم ليسو عرباً خُلَّصاً ويُقال إن فيهم دماء لعبد من عبيد مسير بن عطية ويشكلون مجموعة صغيرة.

تعيش قبائل بني حسين في دار ميد - جبل عطية - وفي أمكانهم حشد ستمائة إلى سبعمائة فارس ويدعون بأن أصولهم تعود لليمن، وبفرض إن هذا الإدعاء غير صحيح فهم ليسوا فزارة ولا من الأصول السودانية.

أما الترجم والبني هلبة ([1]) ، فلا زال الغموض يحيط بأصولهم ، الأوائل – أي الترجم - على علاقة بعيدة بالرزيقات بيد أن دماءهم لا تخلو من دماء العبيد. يعيش أغلبهم في «دار فيا» بين الزيادية والبني هلبة والرزيقات. والترجم رعاة ماشية يعيش أغلبهم حياة الاستقرار وهم على

1-كانوا قبيلة كبيرة وطنها عد الغنم إلى الجنوب الغربي جبل مرة، وتعيش جماعة منهم شرق جبل حريز، وأخرى فيما وراء حدود دار وداي، مكمايكل، ص 293.

درجة من الثراء ويقال بأنهم يمكن أن يحشدوا ألف وخمسمائة من الخيل. أما البنو هلبة فلا زال عددهم كبيراً جداً ويعيشون غرب البلاد في إقليم روكرو وما جاوره، يقدر عدد فرسانهم بثلاثة ألف فارس، يعتاشون على تربية المواشي، وهم قوم ذوو قوة كبرى وثروة خصوصاً قبيل المأساة التي حلت بهم أثناء حكم محمد الفضل التي وصفت بمذبحة البني هلبة.

أما عن العرب الذين يعيشون في المناطق الأقل سكاناً لا يزالون على نقائهم العرقي خصوصاً هؤلاء الذين استقروا في الشمال والشرق أي على المناطق غير المكتظة بالسكان ويتضح هذا من لون بشرتهم وملامحهم، أما الذين استقروا في المناطق الباطنة مثل الترجم والنبي هلبة - على وجه الخصوص - فقد افتقدوا نقاءهم العرقي ويتجلى هذا في ألوانهم التي هي مرآة حقيقية لتزاوجهم مع الزنوج.

أما الجلّابة فهم مجموعة مؤثرة، واستقر بعضهم في دارفور من عدة قرون مواطنهم الأصلية في شتى بقاع النيل من سنار وحتى النوبة العليا ويعيشون متضامنين وهم أقرب للعرب وأهم مراكزهم في دارفور، كوبي وما جاورها التي لهم فيها حوالي المائتي مسكن، ثم كبكابية على بعد مسيرة ثلاثة أيام غرب كوبي، و يماثل عددهم هناك قاطني كوبي، ثم في كورس ودلاجو إلى الجنوب الغربي منها ولهم فيها حوالي الثلاث قرى وهي «نمرو» - شمال غرب كوبي - «وتيتل» و «كفوت» و«مليط» في الشمال. فإذا أضفنا لسكان تلك القرى جلابة الفاشر الذي لهم حوالي الخمسمائة مسكن يكون جملة ما يحتلونه حوالي الألف وخمسمائة إلى ألفي مسكن. وإذا أضفنا لهم سكان المنطقة الوسطى في منواشي وشعيرية والطويشة وحفرة النحاس والذين يتراوح عدد مساكنهم ما بين الخمسمائة والألف، ثم سكان أم شنقة بشرق دارفور والذين يتجاوز عددهم هؤلاء المقيمين في كوبي، يكون بذلك عدد مساكن الجّلابة في دارفور ليس أقل من خمسة ألف مسكن. ويشكل الجّلابة وحدة متجانسة ووفد أغلبهم من دنقلا وديار المحس والذين ترجع أصولهم لمناطق البرابرة في النيل، كما تُوجد بينهم مجموعات من ذوي الأصول العربية مثل الجعليين (والتشارتة) كما يُوجد بينهم من ينتمون للأصول المصرية أولاد الريف» وكذلك الذين ينتمون لأصول مختلفة كالمجابرة والذين يُقال أنهم وفدوا من مراكش.

هنالك ثلاثون عائلة من الجّلابة من الوافدين من دنقلا وإليهم ينتمي الخبير زعيم الجّلابة، ويتلوهم الجعليون و يُطلق عليهم «أولا البحر» شأنهم شأن الوافدين من سنار. استقر الجّلابة في زرائب بحسب الانتماء العائلي ثم تطورت هذه الزرائب لأحياء. يترحل الجّلابة على نطاق البلاد - دون كلل - حيث يسافرون غربا حتى ودّاي ويصل بعضهم حتى بلاد برنو وباقرما وهوسا، وتعتمد تجارتهم على جلب البضائع من القاهرة إلى النيجر وودّاي مثل الملابس القطنية البسيطة وخرز العنبر الزجاجي، وعند أوبتهم - بنفس الطريق - يستبدلون بضاعتهم بريش النعام أو الجمال التي يأخذونها لبرنو حيث تحقق لهم عائداً أكثر من ودّاي، ثم يحولون ما حصلوا عليه من عائدات لنقود وعطرون ويتوجهون لبلاد هوسا حتى «نايف» و

«إلورين». وتستغرق رحلتهم لبلاد النيجر عدة سنوات وعند أوبتهم يجلبون من بلاد الهوسا «القورو» والمشغولات الجلدية والمنسوجات الجيدة التي تستورد عن طريق السفن الانجليزية والأمريكية لتستبدل بالريش والعبيد في ودّاي، ثم يتوجهون حتى حفرة النحاس وحتى ديار نيام نيام الوثنيين في جنوب ودّاي والجور. والدور، وكثيراً ما يتغيب هؤلاء المغامرون عن أوطانهم في النيل أو في دارفور لعشرة سنوات دون أدنى معلومات عن عوائلهم ومع ذلك فهم على صلة بأوطانهم وعوائلهم مهما باعدت بينهم السبل.

تُوجد قبائل زنجية لا تتساوى مع البقية في الحقوق كالمسبعات والمهاجرين من برنو وودّاي وباقرمة. والمسبعات بطن من الفور أجبروا منذ ثلاثمائة سنة تقريباً - إبان النزاع بين كورو وتنسام - للهجرة من منطقتهم الجبلية والتوجه شرقاً وقد استمدوا الاسم «مسباوي» من هذه الواقعة والتي تحرفت إلى مسبعاوي وجمعهم «مسبعات»، ورغم انتمائهم للفور النقيين إلا أنهم - بتعاقب القرون - نسوا لغتهم، وبسبب ما يكنونه من عداء لوطنهم الأم هاجر أغلبهم لكردفان واكتسبوا الصفات العربية من ناحيتي العادات والملمح، ولعل هذا مثال حي لما يعترض الباحث في أصل القبائل من الصعاب لتعدد الظروف التي تحض على الهجرة من أواسط أفريقيا وما يطرأ من تغيرات على القبيلة نفسها. يستوطن المسبعات - حالياً - كردفان لكن أعداد قليلة منهم بقوا في دارفور منتشرين في عدة مراكز بالمديرية الشرقية تحت أمرة سلطان من حملة الطبول.

من بين الأجانب الذين هاجروا لدارفور في عهد السلطان أحمد بكر - منذ قرن أو قرنين - أعداداً معتبرة من البرنو ويحتلون العديد من مناطق الوسط والجنوب. ثم أناس من ودّاي استوطنوا الجنوب في مديرية أبو أمة، فضلا عن المراريت والكبقا والأورو في دار فيا، كما استوطن الأسنقور حدود دار فيا بالاشتراك مع أقليات من اللاتنو والكاركاري والسربوت وأولاد دولا والجرجا والمرجا وأقاربهم من الشيل.

يستوطن التاما دار ميد على الحدود الغربية والشمالية الغربية في دار تكنياوي ولهم وجود في الشمال بمعية بقايا القمر([1]) والأسنقور في جبل مول ويرتبطون بعلائق عائلية وثيقة، وتجدر الإشارة إلى أن القمر الذين يقطنون مقاطعة تمتد من بلاد تاما([2]) حتى ديار الزغاوة وتتوسطها «نوكات» كانوا أقوى القبائل وما زالت هذه الخلفية التاريخية تنعكس على سلطانهم الذي يعد من أكثر السلاطين تقديراً واحتراماً في دارفور. وقبل وصولي بقليل قيل أن البساط السلطاني قد مد له على طول الطريق في حين جلس بقية أمراء الإقطاعيات الأخرى على الأرض أمام السلطان. لا يقتصر تواجد القمر في شمال غرب دارفور فقط، بل ينتشرون في المديرية الشمالية - أبو أمة - ويتحدثون لغة واحدة تشبه لغة التاما والأسنقور ويصعب تمييزهم عنهم. القمر قوم سود البشرة لا يحملون سمات مميزة.

1-تقع ديارهم شمال المساليت وشرق تاما ويدعون الأصل العربي، مكمايكل، ص84.

2-وهم غرب القمر على حدود ودّاي، مكايكا، ص 85

ومن القبائل الكبيرة في دارفور البرقد والبرتي والميما [1] والمساليت. ولمسنا للبرقد وجوداً شرقي البلاد وسط الكاجا. وتستوطن القبيلتان - بصفة رئيسة - الجزء الجنوبي الشرقي للمديرية الشرقية وشرق المديرية الجنوبية حيث يتداخلون مع البيقو، والقبيلتان محتقرتان يزدريهما الفور الأصليون. وأكبر تجمعات البرقد في مديرية «أبو أمة» إلا أن مقر سلطانهم في الدبة «دار دالي»، والملفت إنهم يطلقون عليه اسم «الملك» أي الملك مما يتطابق مع مسمى زعماء العرب في منطقة النيل.

أما الميما فأقل عدداً ويعيشون في المديرية الشرقية تحت إمرة سلطان منفصل يتبع لإدارة المديرية الجنوبية، والمساليت في الغرب، والحدود الجنوبية الغربية حيث يشكلون عدداً معتبراً من السكان، كما يستوطن القليل منهم في مديرية أبو أمة وليس لهم سلطان ويعيشون في عشائر صغيرة ويحكمهم فرشة» وهي درجة وسيطة بين السلطان والشيخ، ويعيش أقرب الأقربين لهم في شكل عشائر متعددة على طول الحدود الشرقية لودّاي ومنهم مساليت الحوش - أي حراس البيت - ومساليت البطحة أي الذين يعيشون على ضفاف البطحة.

بالرغم من اعتناق المساليت للإسلام وبينهم فقهاء وكتاب حتى في ودّاي، لكنهم متخلفون مدنياً وإن هناك عشائر منهم - مساليت أم بوس مثلا - ما زالوا موصومين في ودّاي ودارفور بأكل لحوم البشر مع إن الإسلام ينهي عن ذلك.

يتحدث مساليت ودّاي لهجة تشبه لغة المابا لكنني لم استمع للهجتهم في دارفور، ويدعى المساليت بأنهم من أصل عربي ومع ذلك يبقى أصلهم غامضاً.

أما البرتي فيعيشون شمال شرق دارفور وهم قبيلة صغيرة منعزلة تقطن بالقرب من وسط السلطنة ويوصفوا بالافتقار للثقافة والذكاء. كذلك هناك الميدوب [2] في الحدود الشمالية الشرقية للبلاد على طريق كوبي، ثم عبر الصحراء إلى أسيوط، وهم فرع من البرتي ويمثلون مرحلة انتقالية للبديات أو الزغاوة، والعُزلة التي فرضتها طبيعة بلادهم الجبلية في عمق الصحراء جعلت اعتناقهم للإسلام وثقافته أمراً اسمياً فقط. يحكم البرتي ثلاثة ملوك وتعود تسميتهم — وفقاً للأعراف القديمة — إلى ابن الأخت، ووفقاً لهذه الأعراف يتزوج الإبن أرامل والده — من غير أمه — ذلك التقليد الذي يربطهم بالبديات. لا زال البرتي يُنظر لهم كعبيد بيد أنهم نالوا الكثير من الأهمية مثل منسوبهم آدم طربوش والد أمين بخيت آخر وزراء دارفور.

تعيش على الحدود الجنوبية بجانب التعايشة والهبانية والرزيقات الرُّحَّل، قبائل الفورقي والفنقرو والجقيرة. ورغم أن الفورقي قبيلة مسلمة، مع ذلك تعامل معاملة الوثنيين، أما الفنقرو فأغلبهم لم يعتنقوا الإسلام بعد.

تقطن أقصى الجنوب الغربي قبائل من دافعي الضرائب، وهي قبائل المونشي والكارا والننبقا والشالا سكان الإقليم الجبلي، فضلاً عن فروع من الفُلا الذين يحتلون الإقليم بين

1-يرد أصلهم لبلدة ميما في تمبكتو (مالي).

2- اسم جبل يقع في الركن الشمالي الشرقي من دارفور على بعد 400 ميل من مدينة الخرطوم، وترجع أصولهم للنوبة شمال

دارفور وبونقو بيد أنهم يدفعون الضرائب لودّاي.

أما في الأقاليم النائية الواقعة جنوب حفرة النحاس، تعيش قبائل تدفع الضرائب لدارفور حتى عهد قريب وهي الكتواكا والدلكوانا – على الروافد الغربية للنيل – والوابيا إلى الغرب والبايا إلى الجنوب الغربي من حفرة النحاس على جبل «أبو رأسين» وهم مجموعة من القبائل الوثنية يُطلق عليهم – جميعاً – لفظ «الفرتيت» ولا يتميزون عن بعضهم البعض سواء في الملامح أو الحياة الاجتماعية.

توازي دارفور – من حيث المساحة – مملكة بروسيا[1] تقريباً،، وأكثر المناطق اكتظاظاً بالسكان هي الوسط والغرب والجنوب الغربي، أما الشمال والشمال الغربي فأقل كثافة وكذلك الشرق الذي يكاد أن يكون خالياً من السكان، وتتركز الكثافة السكانية تبعاً لخصوبة الأراضي ووفرة مياه الأنهار والمجاري المائية لجبل مرة. ورغم أن هذه المصادر لا تحتفظ بالمياه طول العام مع ذلك تُوجد كميات وافرة على أعماق قريبة في قيعانها الرملية. ترتبط ثروة البلاد بخصوبة أراضيها ففي الوسط والغرب والجنوب الغربي تُوجد قطعان كبيرة من الماشية والخراف والأغنام وتمتاز على تلك التي في ودّاي وبرنو. أما في الشمال فتوجد قطعان الإبل والنعام على ذلك السهل الواسع – غير الخصيب – الذي يقع شرقي الفاشر ويعلو الأبيض بمائه متر، ويرجع ذلك للمناخ الصحي الذي يغمر هذا السهل وذلك بفضل تربته الرملية والارتفاع فوق مستوى سطح البحر، بعكس الجنوب ذو التربية الطينية الذي يشكل طقسه الرطب خطراً داهماً طوال موسم الأمطار.

ولأحصل على تقدير لسكان دارفور، أحصيت القرى الواقعة في المراكز والمديريات المختلفة بقدر ما توفر لي من معلومات . فقدرت المديرية الشمالية بمراكزها الاثني عشر خمسة ألف وتسعمائة قرية صغيرة، فإذا كانت القرية الصغيرة تتكون من عشرة مساكن وإذا ما قدرّنا عدد الأشخاص في المسكن الواحد بخمسة، يكون جملة سكان المديرية ثلاثمائة ألف تقريباً.

يقدر تعداد المديرية الشرقية بمائتي ألف نسمة، أما المديرية الجنوبية - وهي من مناطق الكثافة السكانية- فيمكن أن يقدر عدد سكانها بحوالي خمسمائة ألف نسمة، ولما كانت المديرية الجنوبية الغربية من أكثر المناطق اكتظاظاً بالسكان يمكن تقدير عدد سكانها بستمائة ألف نسمة. كما يقدر عدد سكان الأقاليم الغربية الثلاثة بخمسمائة ألف نسمة. أما جبل مرة – الذي يقع تحت إشراف السلطان شخصياً – فيقدر عدد سكانه بمائة ألف نسمة. عليه إذا قبلنا هذا التقدير بحسب المراكز التي بينتها، تكون الجملة حوالي المليونين ونصف المليون، واضعين في الاعتبار عدم دقة هذا الإحصاء بسب أن كثير من القرى والمراكز هجرها السكان بنسب تتفاوت بين الربع والثلث، ولكن يمكن القول بأن عدد السكان – الذين يعيشون حياة الاستقرار – يبلغ حوالي الثلاثة مليون، فإذا أضفنا لهم الرُحل في الشرق والشمال الشرقي وجنوب البلاد من رعاة الإبل والماشية – الذين يُقدر عددهم بنصف مليون – يمكن أن نقدر

1 -إقليم بألمانيا

عدد سكان دارفور بحوالي الثلاثة ملايين ونصف المليون.

في دارفور تُحصل الضرائب عيناً من الغلال والمواشي فضلاً عن الجمارك وما يسمى بـ «الديوان»، كما تشمل ضرائب الغلال «الفطرة» التي تجمع بنهاية شهر رمضان ومقدرها «مُد» عن كل فرد . والمد وحدة كيل معروفة من زمن الرسول. أما الزكاة فيُطلق عليها – في بعض الأماكن – العشور وتُجبى من الغلال عيناً عن طريق جباة الضرائب – «أبوجباي» – . أما ضرائب الأقمشة فتحصل في شكل تكاكي وهي لفائف من الأقمشة القطنية العادية ويجمعها الفقهاء ويبلغ حاصلها – من المراكز المختلفة – حوالي المائة ألف تكية . أما ضرائب القطعان – «جبة»- فهي عُشر الأبقار أو الإبل. تحصل الضريبة عن الأراضي الزراعية «–توقاندي»– في حدود تكية واحدة عن كل حقل وعادة ما يكون الحقل – الخاضع للضريبة – بطول خمسمائة خطوة وبعرض مماثل تقريباً.

أما الجمارك فيطلق عليها «خدمة» وتختلف بحسب مصدر البضائع، فالوارد من كردفان أو ودّاي تُحصل عنه خمسة مقاطع تُرمبا عن كل حمولة جمل.

و«الديوان»، اسم لضريبة تجبى كل أربع سنوات وتحصل عيناً بحسب النشاط الاقتصادي للإقليم المعنى، فالرعاة يدفعونها في شكل خيول وإبل وتبلغ حتى المائة وثلاثين رأساً، أما القبائل الأخرى مثل سلا والبيقو والداجو فيدفعونها في شكل عبيد.

تُجبى الضرائب العينية في حدود حمولة حمار من القمح أو الذرة أو الدخن – أحياناً – ثم في شكل تكاكي وتبغ وعسل وملح من الذي يستخرج من بعض مناطق جبل مرة عن طريق تبخير الماء، كما تحصل في شكل جرار من السمن تبلغ سعة الجرة حوالي العشرين رطلاً بحيث تبلغ في جملتها آلاف الجرار والتي تُحصل من القبائل العربية مثل البني هلبة والمسيرية والترجم والتعايشة والهبانية والرزيقات، لكن جل هذه الكميات ترد من أصحاب الحواكير الذين يلتزم أغلبهم بدفع مائة إلى مائة وخمسين جرة.

ويلتزم أصحاب الحواكير بدفع نصف ما تغله الأرض للسلطان ما لم يُعفو عن ذلك، ثم يضاف لهذه الضرائب ضريبة الغلال التي تُجمع قبل الفطرة وتتكون من كمية كبيرة من التكاكي عن كل إقليم إداري، فعلى سبيل المثال تحصل ثمانية ألف قطعة عن دار الريح وخمسة ألف قطعة عن دار فيا وأربعة ألف قطعة عن دار ميد وستة ألف قطعة عن دار دما وثلاثة ألف قطعة عن دار أما.

الدخن هو المنتج الرئيسي البلاد وتزرع منه نوعيات تقليدية، بيد أن هناك نوعية أخرى ذات بذور حمراء تُزرع في الجبال وتنضج في شهرين فقط، وأخرى ذات بذور بيضاء تتناسب والتربة الغنية في جنوب غرب السلطنة. فضلاً عن وجود خمسة أنواع من الذرة مختلفة الحجم واللون، كما يُزرع القمح في الجبال على التربة الطينية الغنية التي تسود الجنوب والجنوب الغربي والتي تصلح لزراعة الذرة والذرة الشامية أيضاً.

يزرع الفول في شتى البقاع أما الذُرة السكرية فتقتصر زراعتها على أماكن بعينها. ينتشر الأرز البري في الغرب والشمال لكنه لا يُستخدم كطعام إلا في نطاق ضيق كما هو الحال في مختلف بلاد السودان الغربي.

تنتشر زراعة القطن في كل أرجاء دارفور حتى في الشمال والجنوب المعروفين بفقر تربتهما والتي لا تكفي لإنباته بالطريقة المثلى . كما إن إنتاجهم من النيلة يقل عما تنتجه برنو وبلاد هوسا حيث ينتشر فن الصبغ، أما في ودَّاي ودارفور فتقتصر هذه المهنة على المهاجرين من برنو وباقرمة.

يتوفر القصع «لحاء القرع» بكثرة حيث يستخدم كأواني منزلية، كما يتوفر التين والبطيخ وخصوصاً ذلك البري صغير الحجم الذي ينتشر في السهول الواقعة في المنطقة الشرقية حيث يجد فيه الأهالي تعويضاً عن شح المياه في هذا الإقليم.

وتُزرع الفاصوليا في شتى الأماكن، وكما يُستخدم الحنظل كغذاء بعد معالجة مرارته خصوصاً في المناطق الجافة المتاخمة للصحراء وتتولى جمعه قبائل الزغاوة والعرب الرُحل الذين يقطنون شمال البلاد، كما يُزرع السمسم الذي يستخرجون منه الزيت بالإضافة للعديد من أنواع الخضر التي تدخل في صناعة الإدام.

يُزرع نخيل التمر في الشمال وفي بعض المناطق الداخلية وإنتاجه أجود من إنتاج شمال ودَّاي وكانم، ينتج نخيل دارفور مرتين في العام الواحد. ينتشر شجر الدوم في الشمال وفي المناطق الداخلية أيضاً، ولا تتأتي أهميته بسبب أن ثماره تؤكل في المناطق الصحراوية الأكثر فقراً فحسب بل يستفاد من سعفه في صناعة الحصر والحبال وغيرها. يُزرع الليمون في الفاشر وكوبي وبعض المناطق ويتميز بصغر حجمه ويستخدم في الأكل . أما التبلدي فينمو في الشرق ويُستخدم جزعه كخزان للمياه وقد شاهدت ذلك في طريق عودتي بأم شنقة. تقل قيمة ثمار التمر هندي عما يُنتج في برنو وودَّاي ومع ذلك يدخل في تعاملهم التجاري. يُزرع الموز على الحدود الشمالية وأقصى الجنوب وعلى وديان جبل مرة ويُخصص جزء منه لاستهلاك السلطان.

تنبت أشجار السنط الشائك في المناطق الشمالية ويُستفاد من معظم أجزائه، أما السنط المسمى بـ «القرض» أو «سنط النيل» فيُستخدم في دبغ الجلود كما يستفاد من أخشابه الصلبة في عدة استخدامات. إضافة لذلك تُوجد أشجار السيال والطلح والهشاب الذي ينمو في كردفان أيضاً ويُجنى منه الصمغ وهو سلعة مطلوبة في الأسواق، كما تُستخدم ثمار هذه الأشجار كأعلاف للجمال والأغنام. تنتشر أشجار الزيزف والكرنو والنبق ونبق الفيل وتشكل ثمارها غذاءً للفقراء. ولا تقل شجرة الهجليج – «الصابون»- أهمية عن الأشجار المتقدم ذكرها حيث تؤكل ثمارها وتُستخدم أوراقها لصنع الإدام ويستفاد من جذورها كبديل للصابون كما تُستخدم أخشابها كأيدي للمعاول والمجارف.

هناك الكثير من الأشجار التي تشبه التين ومنها ما يشبه الجميز ويسمى الجميز الأبيض، ثم الجيجا ذات الجذور الهوائية التي تنتشر على نطاق البلاد كما يُوجد الهبيل والحميض وأم مديكو بثمارها الحامزة لذيذة الطعم التي تماثل ثمار الجغجغ والصهب. أما في المناطق الصحراوية فينتشر المرخ والسنمكة والعشر والذي تدخل فروعه في سقوفات المساكن الطينية كما تصنع من لحاه أفضل أنواع الحبال، كما تنمو أشجار الأبنوس والدليب والفربيون الشمعداني على وديان جبل مرة والجوغان الذي يسميه بارث «برقوق أفريقيا الوسطى» وتصنع من أخشابه السروج.

يتميز أقصى جنوب السلطنة بالكثير من الأشجار التي يمكن تفصيلها فيما بعد ومع ذلك يختص بانتشار شجرة السمن ونخيل الزيت والقُطن، كما يُوجد التوباكو الذي له أهمية خاصة فضلاً عن التوباكو البري الذي يتميز بقوة مفعوله وهو سلعة تجارية هامة تُصدر للشرق والغرب.

آخر الأيام في الفاشر
مايو – 1 يوليو 1874م

نسبة للظروف المحيطة بي، فضلت البقاء خصوصاً بعد حضور حاج أحمد لأن الدار أصبحت قبلة للجلابة وغيرهم من أصدقاء حاج أحمد ومضيفي حمد وليد طاهر. وانتهزت هذه السانحة لأعبر عن إعجابي بكرم الجّلابة الذي لا تحده حدود، فالدار لا تكاد تخلو من الزوار والضيوف الذين قد تطول إقامتهم لعدة أشهر. ولا يكتفي هؤلاء الضيوف باستعمال الأبسطة والحصائر والأسرَّة «العناقريب»، بل يأخذونها عند المغادرة، ولكرم صاحب الدار وحساسيته فإنه لا ينطق ببنت شفة حيال هذه التصرفات . ولا شك، فإن عبء الإنفاق على هؤلاء الضيوف من الثقل بمكانٍ، بيد أن لصاحب الدار الكثير من الموارد التي تعينه على تحمل هذا العبء. فهو يخرج يومياً في الصباح الباكر ممتطياً حصانه ويقضي نصف يومه خارج البيت ليحصل على ما ينفقه. وفي تقديري سيكون مصير هذا الرجل مثل حاج أحمد وما حل به في «تنيت». لم يفتني أن اتحدث إليه كثيراً محذراً مما سيحل به من إفلاس ودمار بيد أنه لم يأبه لقولي، وهنا يكمن الفرق بين الجّلابة وبقية الأهالي الذين يتعاملون بحذر تجنباً للضيوف وما يتبعهم من نفقات.

كان الحديث لا ينقطع – حتى ساعات متأخرة من الليل – عن الأحداث الجارية في جنوب البلاد حيث يضغط الزبير[1] وقواته من ديار الرزيقات من جهة، كما يتقدم جلابي آخر – كان من أتباع الزبير – من «الدبة» عبر ديار التعايشة من الجهة الأخرى طمعاً في احتلال دارفور. انتشر العنف وتدفقت شلالات الدم وظل الجّلابة ينتقلون بين الطرفين سراً ويستبدلون العبيد بالأسلحة والبارود.

وبالرغم من المشاعر العدائية نحوي، إلا أنني كنت استدعي بين الفينة والأخرى لمعاونة بعض المرضى مما مكنني من الاتصال بالأهالي، وكنت – بسبب ذلك – أجد الترحيب منهم. وكنت أقوم بهذه الزيارات راجلاً لأنني لم أكن أتقاضى أتعاباً. تُستخدم الحمير للتنقل داخل المدينة، فإذا كان الرجل من عليه القوم وكان يسير راجلاً – وهو أمر نادر – فعادة ما يحمل عصى خيزران، أو يتوكأ على خادمه . أما العامة فيحملون الهروات «كنجارة» أو العصي المعقوفة أو الفؤوس المعدنية المحلاة بالذهب والمستوردة من مصر ويقتصر استخدام الأخيرة على عليه القوم عند امتطائهم للخيل.

ضمن زيارتي للمرضى ترددت على قرية للبرنو تقع شمال مساكننا وكان ذلك بسبب معاودة شقيقة الملك أحمد التي تعاني من السل، ولاحظت أن صلتهم قد انقطعت بالوطن الأم لدرجة أنني لم أجد غير واحد منهم فقط بادلني الحديث بلغة الكانوري ذلك بسبب طول بُعدهم عن بلادهم لأن هجرتهم تعود لزمن السلطان أحمد بكر وكانوا سعداء لما احتفظ به من ذكريات عنها، بعض سكان هذه القرية يشغلون مناصباً رفيعة في الدولة.

---

1 – أي الزبير باشا رحمة.

لم تقتصر صلاتي على من ذكرت بل امتدت لتشمل العرب القادمين من ساحل شمال أفريقيا وأحياناً مع بعض الشخصيات من الفور الأمر الذي مكنني من الإلمام بطباعهم وأعرافهم وعاداتهم. ومن ملاحظتي هو إسراف شعوب دارفور في اقتناء الملابس – خلافا لشعوب ودّاي – وذلك لأن الملابس التي تستورد لودّاي من برنو وما وراءها باهظة الثمن وهي غير مرغوبة في دارفور ويستعاض عنها بالأقمشة الأوروبية التي تُحاك منها أجود الملبوسات القطنية والحريرية، كما يستخدم المخمل في صناعة الجلابيب والقمصان. وأكمام الألبسة هنا ليست واسعة كما في الغرب. وتوشي أطرافها بالحرير وبالذات حول العنق بما يعرف بـ «القيطان» وهو شريحة حريرية في عرض الأصبع. هناك أنواع مختلفة لفنون الحياكة، إذ يُطلق على القميص العادي «أضان كلب» نسبة لأكمامه المثلثة والمتدلية حتى المرفق، ثم «فم القربة» وهو قميص ذو كم ضيق يُغطي حتى الكوع وأخيراً «دريب الدود» ويتسم بالأكمام الواسعة التي تمس كفة اليد. يرتدي عظماء الرجال والعلماء – فوق ملابسهم العادية – القفطان المفتوح من الأمام ويلبسون الطواقي المكية الملونة جيدة الصنع كما ينتعلون الأحذية المصرية.

ترتدي نساء وفتيات الطبقات العليا السراويل الحريرية والمناطق الصغيرة التي تُسمى «الكنفوس» ويُصنع من الأقطان الأوربية التي يُطلق عليها اسم «نمر سبا» أو الحرير. ويرتديه الرجال أثناء الحرب – كما في برنو – خشية أن يجرد المحارب من ملابسه بعد قتله . وحتى وقت قريب كانت الفتاة تكتفي بارتداء الكنفوس داخل المنزل أما حاليا فيرتدين كامل ملابسهن حتى في البيت. هناك منسوجات محلية تسمى «الكلكف» وهي أكثر جودة من «التكية» تُصنع منها الثياب لأرفع الطبقات.

يحلق الرجال – في دارفور – رؤوسهم أما النساء فيجْدلنّ شعورهن في شكل ضفائر صغيرة تُسدل على الخدين وخلف الرأس ويجمَّل الشعر بالتراب الأحمر[1] والزبد والصندل والمحلب وما شابههم كما تفعل النساء في وادي.

يتميز الفور الأنقياء بملامح غير جذابة وبأنوف مستقيمة وشفاه ناتئة وعدم اعتدال في بروز الوجنات مع التمايز في السمات الشخصية، أما النساء فغير جميلات بيد أنهن يتميزن على نساء ودّاي وبرنو بالتواضع والنظافة. يتسرى الفور النساء وتعتمد كثرتهن من قلتهن على حسب الظروف الشخصية للفرد، بيد أن تسري النساء ليس من الأمور المحببة لديهم وذلك حفاظاً على نقائهم العرقي. لا يتعاطى سكان المراكز الحضرية الخمور إلا في حدود ضيقة. ويشتغل الناس بالزراعة ورعي الماشية، ويرفض الفور تزويج بناتهم لمن لا يرجون فيه ان يكون رب أسرة جيد حتى لو كان ثرياً.

تُعتبر دارفور أخصب من ودّاي لكنها دون خصوبة برنو. أما الصناعة فتعتبر غير مزدهرة مما أدى للتدهور المريع الذي أدى – بدوره – لتقويض السلطنة وهو التحليل المنطقي لما أكتنف البلاد من ظروف . وكان حاج أحمد يتفق معي في هذا النظر ويلقي باللائمة على السلطان

1-يسمى المقر

حسين والأياباسي زمزم شقيقته، وتتأتى مسئولية السلطان في سماحة للمقاديم باستنزاف الناس وابتزازهم كما اختص أسرته بالحواكير، علماً بأنهم كانوا يحصلون على دخولهم ومخصصاتهم من الدخل الشخصي للسلطان، كل هذا جاء خصماً على أصحاب تلك الأراضي. ومما يؤخذ عليه أيضاً إسرافه في إنفاق مال الدولة عند تزويجه لأبنائه وأقاربه وذلك بدفعه للمهور المبالغ فيها. أما الإياباسي فقد اتسمت تصرفاتها بالطيش والتهور دون مُعقّب.

ظلّ اقتصاد البلاد في تدهور مستمر ويُعزى ذلك لتذبذب سوق العاج الذي يُجلب من ديار الوثنيين في الجنوب والجنوب الغربي فقط، وهو المورد الذي استغله الودّاي والبحّارة لعشرات السنين. كما يُعزى التدهور لتقلص تجارة الرقيق مع مصر. عليه إذا استثنينا صناعة السلال فليس هناك أي نشاط صناعي في دارفور يُذكر. أما ثروتهم الحيوانية ففير معروفة في الخارج وهكذا ظلّ الاقتصاد يتدهور يوماً بعد يوم. يكابد سكان الفاشر من الفور صعاب جمة في سبيل توفير حاجياتهم المعيشية باهظة التكاليف كما هو الحال في أبشي، وعلى سبيل المثال، كمية الدخن التي تكفي أربعة أشخاص واثنين من الجياد لمدة يومين تكلف ربع دولار، علماً بأن مصدر دخلهم ينحصر في ريع أراضي الحواكير التي يستأجرونها. وتشتمل منتجاتهم على المواشي والفلال والتكاكي والمنسوجات القطنية ويُعتبر الدخن أهم غلاتهم لكنه لا يحقق عائداً مجزياً نظراً لبُعد مناطق إنتاجه – في الجبل – عن مناطق تسويقه. في بعض الأحايين يهديهم السلطان شيء من الرقيق أو القليل من الماشية ومنها ينفقون على أنفسهم وعندما ينضب معينهم يبيعون بعض مقتنياتهم من الأبسطة وكساوي الشرف وما شابهها للجلابة الذين ينقدونهم نصف أثمانها فقط استغلالاً لحاجتهم. وهكذا تدور بهم الأيام ما بين الستر والعوز والكفاية والمسغبة، ومع ذلك اشتهر الفور بالصبر وتحمل الجوع ولو لأيام دون تجزّع أو شكوى.

تتصف منازل الفور بالنظافة أكثر من جيرانهم في الغرب، ويهتمون بنظافة الكوخ والفناء ويتأنقون في الملبس أكثر من شعوب ودّاي وباقرمة وبرنو، ويخصص يوم الخميس من كل أسبوع لنظافة الدار، وبعد الفراغ من النظافة ترتدي النساء أفخر الثياب مع تصفيف شعورهن، وفي اليوم التالي – الجمعة – يتفرغن لاستقبال الصديقات والأقارب عقب عودة الرجال من صلاة الجمعة، تقّرع الطبول مساء الخميس[1] تبشيراً بقدوم يوم الجمعة المقدسة وتذكيراً للأهالي بالصلاة. لقد صاحب دخول الإسلام في دارفور الكثير من العقبات والصعاب وذلك بسبب الوثنية الضاربة الجذور وطقوسها التي مازالت تلقى بظلالها حتى اليوم، والتي بلغت حد التضحية بالإنسان في أعياد الطبول والكندا، وقتل الكامين عقب وفاة السلطان مباشرة. وقيل أن هذه العادات لم تُترك إلا في عهد عبد الرحمن الرشيد رغم أن بعضها مازال يطل برأسه في بعض المناطق النائية بجبل مرة. وللفور إله يُسمى «كالقي» يتجسد في بعض الأشجار والصخور المعروفة لهم، وتقدم له القرابين من الخراف البيضاء والرمادية اللون عند الأوبئة والجفاف

1 - هذا تقليد لدى الطرق الصوفية ويتمثل في ان تقرع طبول «النوبة» ليلة الجمعة والاثنين.

وفي حالة عدم الإنجاب، وتلطخ الشجرة أو الصخرة بدم الذبيحة ويظل مقدم القربان في حالة ركوع توسلاً للإله «كالقي». وتأكيداً لرسوخ هذه المعتقدات في نفوس الفور فإن القائد العسكري أو أحد أرباب الدولة عندما يمر مع مرافقيه على تلك الأماكن المقدسة، توقف الترنيمات العسكرية ويكف الأتباع عن قرع الطبول المصاحبة له إجلالاً للآلهة، ثم تنكس الرماح حتى يعبر الجميع الموقع صامتين كأن على رؤوسهم الطير بعد أن يقدموا القرابين. وروى لي حاج أحمد بان أحد المقاديم كان يقود حملة عسكرية، وعند مروره بأحد هذه المواقع المقدسة، توقف على الفور وذبح كبشاً أبيض اللون وظل يجره من صخرة لأخرى حتى انتهى من تلك الطقوس ثم تركه بين الصخور.

وتُقدم القرابين لشيطان معين أحياناً لكنني لم أتمكن من حفظ اسمه، وإذا كان التضرع بسبب البلاء مثلاً يُذبح كبش أصفر اللون مع ترديد عبارة «فيربل» التي ليس لها معنى معين في لغة الفور، لكن يجب ألا ينطق باسم الله أثناء التضرع والتوسل للشيطان حتى يكف أذاه.

كلف السلطان حسين صديقي أحمد تنقا تنقا مرة بأخذ مجموعة من المواشي من مركز «سرو» بمديرية أبادما لابنه عبد الرحمن مع تفويض بتحصيل بعض ضرائب الغلال والعسل والتكاكي، وأمره بأن يصطحب معه – عند العودة – مسئول المركز المدعو «الملك سنْجي» . قام حاج أحمد بتنفيذ المهمة التي انتدب لها ثم عرج على الملك وأخطره بوجوب مرافقته للفاشر. وعندما هم بالعودة طلب منه الملك أن يسدي له خدمة وذلك بأن يعرجا على قرية «ليكيلي» أثناء رحلة العودة لإنجاز بعض المهام، . والقرية تبعد مسيرة ثلاثة أيام. رغم حرص حاج أحمد على العودة فوراً إلا أنه استجاب لطلبه. كان للملك إبن يطمع في أن يحل محل أبيه، ولذلك أسر لحاج أحمد بأن أباه لم يطلب هذا الطلب إلا لرغبته في التوسُّل لأحد الأوثان قبل الذهاب للفاشر وذلك لأنه وثني – في حقيقة أمره – يتظاهر بالإسلام . غادر الجميع قرية الملك ووصلوا ليكيلي وحطوا رحالهم على سفح تل يعلوه منزل محاط بسياجين من الشوك وهناك تركهم الملك.

أخبر الابن حاج أحمد بأنه سوف لن يرى أباه قبل سبعة أيام لأنه سيكرس ستة أيام لأداء بعض الشعائر الدينية في الأكواخ الثلاثة الموجودة داخل السياج والمجاورة لكوخ كهنة المعبد وذكر له بأنه أباه سيقضي يومين في كل كوخ، وتُوجد في الكوخ الأول قطة مقدسة وهي محور هذه الطقوس، وأضاف بأن والده سيعود في اليوم السابع لإجراء طقوس الوداع وبهذا يضمن نجاح رحلته للفاشر. انتظر حاج أحمد حتى اليوم السابق للمغادرة وحينها قرر الابن أن يؤكد له الرواية وذلك بإطلاعه على بعض هذه الطقوس خفية. نجح الابن في إلهاء الحراس حتى تمكن حاج أحمد من التسلل إلى داخل الحرم المقدس، ومن هناك ورأى الملك جالساً على مسطبة طينية تتوسط المعبد والقطة المقدسة أمام على مسطبة أخرى وهو غارق في التعبد والتسبيح بمسبحة من الخرز حتى سكنت القطة في حجره دون أن ينتبه لذلك الفضولي الذي يتلصص

عليه. وفجأة ناداه حاج أحمد فخرج مرتبكاً من الكوخ، وبدأ يبرر موقفه بأنه أصبح رجلاً عجوزاً وقد أفنى زهرة شبابه في خدمة الحكومة وأنه لم يسبق له أن ذهب لمقابلة السلطان دون مباركة الرحلة ثم استحلف حاج أحمد بأن يُبقي الأمر سراً ووعده بأن يهديه فرساً عند العودة. ورغم تظاهر حاج أحمد بالموافقة إلا أنه أبلغ السلطان بالأمر. ترتب على ذلك إدانة الملك ووصمه بالوثنية وأجبر على الكشف عن أمواله التي صودرت، وعُين إبنه بدلاً عنه. ومات الملك العجوز من القهر والفاقة.

ومن العادات المستقرة في دارفور، الاحتفاظ بنارين مضرمتين بصفة دائمة إحداهما في منزل السلطان والأخرى بمنزل الأبو شيخ دالي وبالقطع فإن لهذه العادة جذور وثنية، ولا تطفأ هذه النيران مطلقاً إلا عند وفاة السلطان. ولتلك النار خُدامها الذين يحرصون على ألا تخبو أبداً. كما تُوقد نار أخرى في مسكن السلطان عند الاحتفال بالطبول وتظل مُضرمة حتى نهاية الاحتفالات. ومن عاداتهم الوثنية أيضاً أن ينام مسئول مركز «تورتي» ببحيرة «دليب» عند بداية كل عام جديد، حيث تنصب له مظلة هناك، وما يراه من أحلام في هذه الليلة يُعتبر قراءة للمستقبل يؤمنون بصدقها.

لا أستطيع أن أجزم بوجود أصنام بقرية «قوزو» بإقليم «كُلتي» لأنني لم أشاهدها بنفسي إلا أن المتواتر من معلومات يؤكد وجودها وباسم «كيتنقا كيني» أي الحجارة العذراء.

نحن الآن في شهر أبريل وأصبح وقتي موزعاً بين جلسات احتساء المريسة برفقة الأخوين عبد العزيز ومحمد ودراسة تاريخ البلاد مع باسي طاهر. كما ظللت محتفظاً بعلاقتي الاجتماعية مع مضيفي أيضاً.

الأخبار الواردة من الجنوب بالإضافة لأخبار القوات المصرية المتمركزة في كردفان أصبحت مزعجة للغاية مما يستدعي التعجيل بالرحيل. عجزت عن الحصول على الوثائق المتعلقة بالأسرة الحاكمة وتدرجها التاريخي ويُقال أن هذه المعلومات مدونة في قانون دالي.

تعرفت أخيراً على الشيخ دالي «عبد الرازق» عن طريق شخص يدعى حدربي[1] من أهالي مدينة سواكن بالبحر الأحمر، وأقام في دارفور لمدة طويلة كفقيه ويسكن الآن مع الشيخ. ووفقاً للأعراف المتبعة في البلاد كان علي أن أتناول شيئاً من الطعام والشراب قبل المقابلة وبعد أن فرغت ألحت في تمكيني من مقابلة الشيخ دالي. دخل حدربي لاستئذانه ثم عاد ليخطرني بأن سيده ليس مريضاً – كما نُقل لي من قبل – لكنه يريد التعرُّف عليّ. استجبت لرغبته وعندما هممت بالدخول وجدت عدداً كبيراً من الخدم يؤمون المدخل المؤدي لجناحه الخاص. قابل الخدم دخولي بامتعاض شديد وقام بعضهم بسبي بألفاظ نابية. قابلت الأمر بهدوء شديد وتظاهرت بعدم سماعي لسبابهم، وعندما تمادوا في غيهم ولم يتمكن حدربي من كبح جماحهم، طلبت من خادمي تجهيز الفرس، وبمجرد أن جهزه امتطيته عائداً لداري بعد أن تركت رسالة للشيخ بمعية حدربي مفادها أنني سوف لن آتي لداره مجدداً ما دام يؤم الأبواب

1 – تحريف لكلمة حضرمي نسبة لحضرموت في اليمن.

هؤلاء الخدم الصفيقون.

غضب سيدهم من مسلكهم وأمر بجلدهم ثم أرسل عدداً من الفرسان لتأمين دخولي لكنني كنت خارج مسكني وقتها وبالتالي لم يتمكنوا من مقابلتي. بيد أن الظروف سرعان ما هيأت لي مقابلته حيث خرج السلطان وكبار المسئولين لصلاة الجمعة وبعد الفراغ منها منح السلطان عمامة مقدوم المديرية الشرقية – وتسمى «شاش»- للأبو شيخ وكان قرار التعيين شكلياً لأن المديرية تحت إشرافه أصلاً وتستمد اسمها منه باعتبارها «دار دالي» ويديرها الأبو شيخ عن طريق مندوب سلطاني لأن مقره الدائم في العاصمة. اندفع الأبو شيخ بفرسه لتحية السلطان وفقاً للتقاليد المتبعة لكنه سقط من على ظهر الفرس وكسر ساعده الأيسر. قام حمد وليد [1] الطاهر – أحد الحاضرين – بأخذه لداره ثم استدعائي . انتظرنا لفترة طويلة في دار الرجل المصاب واتضح لي أخيراً إن الأطباء البلديين وضعوا الضمادات، وأحسب أن إبقائي بالخارج كان بسبب كراهيتهم للمسيحيين ورميهم بتهمة التجسس للأتراك. بعد دخولي فحصت الضمادات ووجدتها متينة وملفوفة حول الساعد بإتقان حول الأصبعين، والعصي المستخدمة -كجبيرة- مشدودة إلى بعضها البعض بطريقة دقيقة ومتقنة، وعليَّ أن أعترف بأنني – كطبيب – لم يكن في وسعي أن أفعل أفضل مما فعل هؤلاء الرجال، وبالتالي لم يكن في وسعي سوى أن أؤمن على أدائهم الممتاز.

كان الأبو شيخ رجلاً في أواسط العمر يتدفق وجهه حيوية وشباباً وهي سمة ملازمة لكل الخصيان ويُقال إنه رجل ممتاز ومقاتل شرس. لم يكن الوقت مناسباً للتحدث معه عن كتاب دالي ورأيت أن أطلبه من السلطان مباشرة، وكنت قد قابلته قبل بضعه أيام فقط رغم حرصي على الإقلال من زيارة القصر – خلافاً لرغبتي – تحاشياً لنظرات الكره والمقت التي يشيعني بها الأهالي. لاحظت إن السلطان كان صريحاً وفكهاً وبين يديه صندوق الألعاب الموسيقية الذي أهديته له مع المجهر الذي اعتذر السلطان علي عن قبوله. وزودني السلطان بالكثير من المعلومات منذ استيلاء أسلافه على السلطة وأوعدني بأن يبحث عن كتاب دالي ويعيرني أياه، وعندما أبلغته بعدم دقة المعلومات التي استقيها من عمه باسي طاهر أوعدني بأن يحثه على تزويدي بما احتاجه من معلومات دون تحفظ.

أتيحت لي فرصة التمعن في السلطان لأن اللثام انزاح عن وجهة قليلاً ، وهو مستلق في الظل. كان مرتدياً رداء ملوناً بالأحمر والأخضر مع خطوط باللون الأبيض . قسمات وجهه لا تحمل الملامح الزنجية المعتادة، الشفاه ليست غليظة الأنف مستقيم إلا أن لون بشرته فاحم، وشعر اللحية متفرق، ويبدو إنه سريع الاستيعاب بعكس ما تعبر قسمات الوجه.

عُين أمين بخيت وزيراً، ورغم بقاء سلطاته كما كانت عليه من قبل، إلا أن هذا التعيين ألقى عليه بالمزيد من الأعباء وظل منزله مفتوحاً للاستقبال وكنت قد تناولت وجبة في داره – قبل هذا التعيين– وكانت المائدة بسيطة، أما الآن فتزخر مائدته بما لذ وطاب من الأطعمة مثل

1- ابن.

الفجل والبلح ولحم الضان والأرانب والأرز والثريد.

أقيم الحفل بتعيين أمين بخيت كوزير في الثامن عشر من مايو بعد أن نصبته زوجة السلطان صباحاً بقصر تمباسي في جناحها الخاص الذي يسمى «بارجوس» وقلدته الثياب الرسمية، تلى ذلك عرض عام أقيم عصراً على الجانب الآخر من البحيرة جوار القصر السلطاني القديم قطع خلاله الوزير الجديد فرع الهجليج وهكذا يكون قد شغل المنصب رسمياً. تلى ذلك طابور عرض أمه الأصدقاء والمستخدمون ومسئولو البلاط في تمباسي، ثم سار الموكب – يتقدمه الوزير – حتى القصر، وكان مرتدياً ثوباً حريرياً مُوشى بالذهب.

تبوأ الخبير محمد مكانته في مقدمة الحاضرين لأن الوزير هو رئيس التجار الجلّابة وانبعثت أنغام الموسيقي والطبول والأبواق في كافة أرجاء المكان بالإضافة لأصوات القصع والعلب الحديدية المحشوة بالحصى، وكانت ملابس الفرسان الملونة وزينات الخيول تعكس أزهى المناظر وأبهجها . أما شجرة الهجليج التي اقتطع نائب الوزير فرعها فعلى مدخل فناء القصر وحولها الكريات من حملة البنادق والخيالة، بينما وقف الوزير في منتصف الحلقة. طاف الوزير حول الشجرة برفقة الحاشية لثلاثة أشواط ثم اختار أحد الأتباع فرعاً صغيراً قطعة نائب الوزير بالسيف وسط الصخب والضوضاء التي تبعثها الآلات الموسيقية وطلقات البنادق. بعدها انتظمت الخيول في الميدان وقدم الفرسان عرضاً شيقاً، ثم انتقل الاحتفال – بعد ذلك – إلى الجانب الآخر من الرهد[1] حيث ينتظر السلطان في الساحة الأمامية لقصر تمباسي.

ظهر السلطان مرتدياً الملابس البيضاء وهو ملثم – كالعادة – ويمتطي حصاناً أدهماً محجلاً دون أن تظلله المظلة التقليدية. وبمجرد وصول الموكب عزفت الفرقة الموسيقية نغماً معيناً تحية للسلطان[2] وكان الجميع يسعى لاحتلال الموقع الملائم . هب السلطان نحو الوزير وحياه هزاً بحسامه المسلول، ثم تجول متفقداً الموكب ومحيياً، رد الحاضرون على تحيته بالتلويح بالبنادق والسيوف ثم أنصرف السلطان. توجه الموكب بعد ذلك لدار الملكة الأم ثم إلى دار الإياباسي وأخيراً انفض الجمع بعد أن زُف الوزير حتى باب داره.

قدم تاجر من كردفان يدعى محمد النور بتكليف من الحاكم العام ليبحث عني وأتى لي برسائل ذلك حوالي منتصف الشهر، كان مكلفاً بالبحث عني أينما كنت حتى لو لم يجدني في دارفور. أبلغ هذا التاجر السلطان إبراهيم بنوايا الحكومة المصرية تجاهه.

وكما رأينا فإن السلطان – بعد اعتلائه للعرش – قام بهجوم متهور ضد البحارة في دار الرزيقات، ترتب على هذا الهجوم إنهاك قوات دارفور الأمر الذي أدى لدفع الأحداث إلى هذا المنحنى الضيق. ولما كان سلطان ودّاي نفسه مهدداً بهذه التحركات سواء من قبل البحارة أو الحكومة المصرية بالتالي لم يكن غافلاً أو متجاهلاً لما يدور حوله من أحداث منذ أن بدأت

1 - البحيرة

2 - يسمى المارش.

تحركات محمد البلالاوي وما تلاها من وقائع. سارع سلطان ودَّاي بتكوين حلفاً دفاعياً مع السلطان حسين تعاهدا بموجبه على التصدي للأتراك حتى الموت، لكن يبدو أن العلاقة الحميمة التي كانت تربط السلطانين لم تعد تُراعي كما يجب بعد رحيل السلطان حسين، ولعل أبرز الدلائل لفتور هذه العلاقة، هو أن شمس الدين مبعوث سلطان دارفور لودّاي لم يكن يصطحب – كهدية لسلطان ودَّاي- إلا فرساً واحداً وجاريه بينما كان رد سلطان ودَّاي على هذه الهدية المتواضعة بعدة مئات من الإبل وأربعة من الجواري وأربعة من الخيول. وبالرغم من أن ظاهر هذه التصرفات كان ودياً وعادياً إلا أنه ينطوي على رفض للحلف المبرم والذي كان البلدان في حاجة ملحة له، ويبدو أن السلطان إبراهيم لم يكن مقتنعاً به ولذا تجسد هذا الرفض فيما حمله شمس الدين من هدايا متواضعة للتاج المجاور.

مضيفي حمد الذي سبق وابتعث لودّاي عدة مرات، كان من المفترض أن يرأس البعثة التي رأسها شمس الدين، لكنه اعتذر عنها لتنبوئه بفشلها وكان سعيداً بقبول اعتذاره.

في بداية مايو توجه حاج أحمد لكوبي لتكملة عدد الجمال التي يرغب في تصديرها وللتخلص من بعض بضائعه، وبمجرد عودته اتفق مع بقية أفراد القافلة على تاريخ التحرُّك والذي تقرر له أن يكون بعد عدة أسابيع. أبلغ السلطان بدنو أجل الرحيل فأتانا أمين سره الفكي أحمد بالخطاب وأذن السفر[1] ونحن الآن في انتظار الهدايا السلطانية ثم ننطلق ميممين أوجهنا صوب الشرق.

تم فرز المائة رطل من ريش النعام الذي اشتريته ووضعته بحيازة حاج أحمد وأعيد تصنيفه. وعملية تصنيف الريش مملة وشاقة للغاية ويجيدها القليلون، لأن حوالي مائة من الريش الأبيض الجيد تزن رطلاً تقريباً وعند التسويق يُحزم هذا الريش المُنتقى (يسمى عوامة) في حزم بكل حزمة ثلاثين ريشة ويضاف إليه أحياناً الريش الأصفر حجماً لتكملة العدد ويتم وزنه بأربطته الأمر الذي يضيف للرطل حوالي الثلاثي أوقيات ويبلغ سعر العوامة من الريش حوالي مائة إلى مائة وخمسين مقطع تُرمبا، ويبلغ سعر المقطع في القاهرة نصف دولار ماري تريزا. الريش الأبيض العادي يبلغ سعر الرطل منه حوالي عشرة مقاطع ويبلغ سعر الريش الأسود ضعف سعر الرمادي. أما في القاهرة فالريش الرمادي مطلوب أكثر من الأبيض ولهذا يضاف لكل عشرة أرطال من الريش الأسود رطلاً من الأبيض.

في دارفور - إذا استثنينا قبائل حمر في شرق البلاد- فإن النعام لا يُدجن بل يتم صيده في الفلاة ويُنزع ريشه مباشرة ولذلك أصبحت أعداده في تناقص مستمر، علماً بأنني رأيت كيفية الاستفادة من تدجين هذه الطيور والاستفادة من ريشها في برنو لدى «لامينو»- أحد الشخصيات القيادية – الذي كان يحتفظ بحوالي عشرين نعامة حاضنة الأمر الذي لم أشهاده في دارفور.

تمهيداً لمغادرتنا أرسل لنا السلطان عدداً من الجمال، ولاحظت أن العبيد الذين يحضرونها

1- الملحق رقم (2).

لا يتورعون عن طلب الهبات وبإلحاح يفوق إلحاح خصيان ورسل أمير برنو. أما في ودَّاي، يكتفي العبيد بأقل العطايا لخشيتهم من أن يطرق الأمر مسامع السلطان الذي يتعامل بصرامة في مثل هذه المواقف. أما العبيد في دارفور فيتصرفون كما لو كانوا أصحاب حق ويحتاج إقناعهم للكثير من الوقت والمساومة.

في بداية شهر يونيو وعقب عودة حاج أحمد تواترت الأنباء من كوبي بأن القافلة على وشك أن تغادر، أرسل لي السلطان مُهراً أبيض اللون هزيل البنية مجهزاً تجهيزاً جيداً لاستخدمه في الرحلة ويبلغ ثمنه حوالي الخمسين دولاراً، إلا أن ما دفعته فيه من وهبه بلغ أثناء عشر دولاراً. ثم ألحقه بكساوي الشرف والملابس الحريرية وعباءة من الحرير الفاخر زائداً المشغولات الذهبية وشالاً كشميرياً ملوناً مصنوع من الصوف وعدد من الطواقي المكية وسكاكين الذراع بأغمادها. نال العبيد الذين أتوا بها عشرة دولارات أخرى كوهبة مني. الشال – الذي أهدي إليّ– أوروبي الصنع طوله حوالي أربعة أمتار وعرضه متران ويكلف حوالي الاثني عشر دولاراً في دارفور. وثمن هذا الشال إذا كان جديداً ومن النوع المصنوع في الهند، قد يصل حتى المائة وخمسين دولاراً، لكن إذا كان مستعملاً قد ينزل ثمنه إلى خمسة أو عشرة دولارات، وغالباً ما يتم الشراء من الأعيان أو كبار المسئولين الذين تجبرهم الظروف للتخلص منه طلباً للنقود.

والجلباب الحريري الذي يستخدم في دارفور يحتاج لمقطعين ليُحاك واسعاً كتلك الجلابيب التي تستخدم في برنو والتي تتميز بالطول الذي يعوق السير، ويكلف المقطعان ستة إلى ثمانية مقاطع تُرمبا أي يعادل تسعة أو عشرة دولارات أو عبداً سداسياً أي ما يعادل سعره الثلاثين دولاراً. ثوب الدبلان القطني الجيد والذي يبلغ طوله حوالي الثلاثين متراً يكلف أثنى عشر دولاراً. الذهب الذي يستجلب من دارفور لمصر يستخدم هنا في صناعة حلقات الأنف «الزمام»، وتكلف الأوقية منه حوالي عشرين دولاراً أما الملابس الموشاة بالذهب والتي يرتديها علية القوم وأثرياؤهم في الحفلات العامة - كحفلة تتويج السلطان مثلاً - يكلف الواحد منها ما بين الخمسين والستين دولاراً، أما خيول القادة الكبار فتكلفتها عالية حيث يبلغ سعر الحصان بمعداته حتى أربعمائة دولار، علماً بأن سعر الحصان لوحده لا يتجاوز المائة وخمسين دولاراً.

كما سبق وذكرت فإن أفضل موعد لارتياد طريق دارفور – كردفان– هو موسم الخريف وذلك لخلوه من الآبار، وظلَّ رفقاء الرحلة في كوبي يؤجلون السفر من وقت لآخر وبشتى السبل قاصدين حُلول هذا الفصل. بينما ظلَّ السلطان – من جانبه – يستعجل تحركنا أملاً في الاستفادة من علاقاتي لتسوية النزاع مع مصر. لم يكتف السلطان بما ذكرته من هدايا، لكنه – بجانب كساوي الشرف والملابس الحريرية المختلفة الأشكال والألوان – أرسل لي بالكثير من المشغولات المحلية الفاخرة التي تشتهر البلاد بإنتاجها كأغطية الأطباق مثلاً. كل الدلائل تشير إلى أن موعد مغادرتنا قد أزف لاكتمال كافة معينات السفر ولأن إرسال الهدايا السلطانية يعني أن موعد السفر قد تحدد سلفاً.

في اليوم الأخير لشهر يونيو تواترت أنباء عن هجوم قوات الزبير على السلطان «أبويا» بمركز كربابات على الحدود الجنوبية لدارفور – بلاد فورقي- وهزمته بعد قتال استمر ليومين. ظللنا متوجسين خيفة من أن يُغلق طريق الشرق. ثم في اليوم الأول من يوليو وصل ثلاثة رُسل وأفادوا بتقدم القوات المصرية نحو أم شنقة.

لم يرتب السلطان أفكاره لمجابهة هذا الموقف بل كان متردداً ما بين أن يخرج بنفسه لملاقاة البحارة أو أن يرسل غيره أو أن يدع خصومه في الجنوب دون التعرُّض لهم طالما التزموا حدودهم بعيداً عن دياره إلا أن أغلب مستشاريه مدفوعين بالعاطفة والغطرسة والاعتداد بالنفس رأوا ألا يدع بلادهم دارفور العظيمة الجميلة التي حباها الله بالخيرات لقمة سائغة لهؤلاء الأتراك لأن هذا لا يرضي الله. هناك فئة قليلة من ذوي البصيرة النافذة يدركون مدى قوة الأتراك وكان من رأيهم أن يتم الهجوم على البحارة وبالتحالف مع ودَّاي وبأسرع ما يمكن، بيد أن أصحاب الرأي المخالف من غُلاة الفور كانوا يعتبرون أنفسهم أسمى من شعوب ودَّاي باعتبار أن الأخيرين كانوا أتباعاً لهم وهكذا أجهضوا هذا التوجه وجروا السلطان -أخيراً – للانحياز لرأيهم المتشدد. قبل مغادرتي بقليل أخبرني السلطان بأنه لا يخشى البحارة وفي استطاعته تدميرهم لكنه يتحاشى الاحتكاك بالحكومة المصرية التي يعلم انضباط جيشها وقوة تسليحه.

أخيراً، وقبل أيام من مغادرتي لدارفور أبدى السلطان رغبة في معالجة الأمر سلمياً وقرر أن يبعث برسول لنائب الملك مصحوباً بما يملكه من أموال وسألني رأيي عن مردود هذا التصرف مع التركيز على الفرمانين الصادرين من عبد المجيد وعبد العزيز الذين ضمنا بموجبهما استقلال بلاده. وفي رأي إن السلطان إبراهيم قد ظلم من قبل الحكومة المصرية وممثلها في السودان الذي يُعد أحد المسئولين لدى الباب العالي. وبالرغم من أنني لم أخفِ عنه مدى خطورة الموقف وما آلت إليه الأمور إلا أنني أمنت على التوجه السلمي الذي سبق وأبداه ونصحته بأن يرسل مبعوثاً لإسماعيل باشا محملاً بالهدايا بأسرع ما يمكن على أن يتوجه المبعوث – بعد ذلك – للقسطنطينية لينقذ ما يمكن إنقاذه وذلك حفاظاً على سلطانه واستقلال بلاده.

لم ترق هذه الفكرة للسلطان وعلل ذلك بأن نائب الملك سوف لن يسمح للمبعوث بالتوجه للباب العالي. أوعدته بأنني لا أمانع في أن آخذ رسالة منه للوزير الأكبر ليرسلها للباب العالي مصحوبة بالفرمانين المشار إليهما، واضعاً في اعتباري ما لقيته منه من كرم وحسن معاملة وحماية، وأضفت بأنني سأخاطب الوزير الذي يكن لي تقديراً كبيراً ولعل أصدق تعبير عن هذا التقدير هو هذا الاهتمام الزائد الذي أبداه في سبيل البحث عني، واقترحت عليه أن ينتدب حاج حمزة – شقيق الخبير محمود – الذي سبق وأتى لي بالنقود من مصر في الربيع ليسافر عن طريق الصحراء حتى أسيوط محملاً بكل ما يستطيع جمعه من أموال وثروات، بينما الحق به في القاهرة – فيما بعد – عبر طريق كردفان- الخرطوم، وحينها سينجلي الموقف لحاج حمزة سلباً أو إيجاباً.

الرحلة من الفاشر إلى الأبيض
2 يوليو -10 أغسطس 1874م

في الثاني من يوليو ودعت السلطان بعد إقامة امتدت لأربعة أشهر. كانت المقابلة ودية لم نتطرق فيها لأي مسألة مهمة، ثم قمت بزيارة بعض الشخصيات ومن ثم وضعت الترتيبات النهائية للسفر. وكالعادة، دار جدل بين أفراد القافلة حول أفضل الأيام لبدء الرحلة، إذ يعتقد البعض إن أفضل يوم هو السابع من الشهر فيما يرى آخرون إن هذا التاريخ لا يدعو للتفاؤل. وعلى أية حال يصادف اليوم السابع عشر من الشهر العربي يوم خميس، والمسلمون لا يحبذون السفر يوم الجمعة وبالتالي تحدد يوم السبت الموافق السادس من يوليو لبدء الرحلة شرقاً.

زودنا السلطان بجرتين من العسل وثلاثة أجربة من القمح كما زودنا الوزير بعشرين مقطعاً من التكاكي. ملأنا قرب الماء وعند المساء خيمنا على السهل الرملي المتاخم لحي الجّلابة المسمى «سقلوما».[1]

تتكون قافلتنا من بعض كبار تجار من كوبي فيهم حاج كرار – شقيق شمس الدين الذي شاركنا الرحلة من ودّاي – ثم اثنين من أبناء الخبير محمد وكانا متوجهين لمصر لقضاء بعض الأعمال التجارية على أن يتوجهوا بعدها للحجاز لأداء فريضة الحج. وكلاهما كان مصحوباً بعدد من الزوجات، والمعروف أن بعض تجار كوبي برغم ثرائهم الشديد كانوا مشهورين بالخنوثة ولذا فإن نصف جمالهم تخصص لحمل إمداداتهم من الغذاء . كان بعض أفراد القافلة من كردفان وآخرون من الجعليين من (المتمة) وبعض الدناقلة ممن سبق لي مرافقتهم من ودّاي. تتكون القافلة من حوالي مائتي وخمسين إلى ثلاثمائة جمل وجل بضاعتهم من ريش النعام مع القليل من العاج والتمر الهندي والتبغ، وعدد هائل من الرقيق المستجلب للبيع والعبيد المخصصون للخدمة.

صبيحة السبت خرج الجّلابة ومن تخلف من القافلة من التجار الأجانب لوداعنا، وتشاركنا الأكل ثم افترق كل خل عن خليلة والجميع مشغول بالأحداث العسكرية المتصاعدة في الجوار. كان الوداع صادقاً وحاراً ومختصراً كالعادة، وكان التعبير عن التمنيات الطيبة بالفاتحة والمصافحة بالأيدي. عاد حاج أحمد لرؤية صديقه عبد الرحمن شقيق السلطان إبراهيم الأكبر كما لو كان لديه إحساس بأنه سوف لن يراه مجدداً.

بدأنا سيرنا في الصباح نحو الجنوب الشرقي حيث تمتد جبال «سرجنات» القريبة منا، وكنا نسير على أرض رملية ذات أشجار متفرقة من اللعوت والنبق وغيرها، وكان علينا أن نخترق تلك الجبال عبر فجوة تتوسطها والتي بلغناها بعد مسيرة ثلاثة ساعات ووجوهنا ميممة نحو الشرق. تمتد السلسلة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ، وبعد السلسلة الأولى لاحت لنا سلسلة أخرى من الجبال المنخفضة تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي وتسمى

1 -الصحيح سويلنقا ويبدو أنها تصغير لكمة سلونقا والتي تعني بلغة الفور العربي.

«سلك»، ثم لاحت سلسلة أخرى ممتدة على مدى البصر من الجنوب الشرقي للجنوب، وظلّ خط سيرنا يخترق هاتين السلستين، وإلى الجنوب والجنوب الغربي – من تلك السلسلة - أرض فسيحة منحدرة ثم إلى الشمال الأرض سهلية أيضاً إلا أنها مرتفعة، وتنمو – على طول الطريق – أشجار اللعوت والكتر والنبق والهجليج والمخيط، لكن الأشجار فقيرة جداً. أما الجبال فليست جرداء تماماً وهي مخروطية الشكل متصلة ببعضها البعض وتبدو في شكل سلسلة رمادية اللون مائلة للحمرة يتراوح ارتفاعها ما بين السبعين إلى المائة متر وعلى قمتها صخور منعزلة. تجاوزنا هذه السلاسل الجبلية قبل دخول الليل. تغيرت الأرض – مرة أخرى – إلى رملية الطريق آخذ في الانحدار التدريجي.

وفي اليوم التالي أصبحت الأرض أكثر ثباتاً وتعرجاً – كلما تقدم بنا السير – بيد أن الرمال ما زالت هي السائدة. تنتشر الحشائش المتفرقة وبالأخص في مجاري الوديان والتي يندر وجودها هنا، كما تُوجد أشجار المخيط والطُنب والحراز والعُشر. لاحت لنا سلسلة أخرى أدنى من سابقاتها وتتميز بمعابر متعددة وسرعان ما آلت لقمم متفرقة محدودة الارتفاع.

تعتبر شرق دارفور منطقة قاحلة ولذا تُعد أقل مناطق السلطنة كثافة ويكثر المسافرون من تجار النيل على الطريق لأنه آمن بحيث يمكن للفرد أو مجوعة صغيرة من التجار السفر فيه دون حاج للانضمام لقافلة. في اليوم التالي قابلنا بعض الجلّابة بحوزتهم أعداداً من جياد دنقلا الأصلية بجانب بضائعهم التقليدية قاصدين سوق الفاشر، وتلك الخيول – للأسف – مهددة بالانقراض.

تتخلل هذا الإقليم الرملي بعض البحيرات الضحلة التي ظلّت تعترضنا بين حين وآخر وهي الآن جافة لكنها تزخر بالمياه في موسم الأمطار، ولشح مياه الآبار تّعد المعين الأول على السفر في هذا الطريق، وتتميز قيعانها بالتربة الطينية السوداء وأغلبها مغطاة بالأشجار.

في اليوم التالي وبعد مسيرة ثمان ساعات نحو الجنوب الشرقي هبت عاصفة وانهمرت الأمطار التي استمرت من الثامنة مساء حتى الثالثة صباحاً.

في اليوم الثالث سرنا عدة ساعات حتى وصلنا قرية «أرقد» وهي – في الحقيقة – مجموعة قرى. وخيمنا في قرية الملك التي تتوسطها . الآن أدركت تماماً مغزى السفر في الخريف لأن هناك مشقة حقيقية في سبيل الحصول على الماء، ويحتاج المرء للكثير من الوقت والنقاش مع حراس تلك الآبار للحصول عليه. أمضينا يوماً كاملاً في سقي الدواب.

يقع معسكرنا على تل رملي به منخفض بأحد الجوانب تنتشر فيه الحشرات بوجه لم أره من قبل مما حضني على مراقبتها طول اليوم. سبق أن شاهدت في برنو – عند بداية الخريف – بعض العناكب المخملية ذات اللون القرمزي[1]، لكنني شاهدت هنا أعداداً من النمل الأبيض[2] والعناكب بصورة مذهلة وهي تتجارى هنا وهناك رافعة أذنابها مما يقتضي

1 - هي في الحقيقة نوع من الجعارين.

2 - هي حشرات الأرضة التي تنمو لها أجنحة عقب هطول الأمطار ويطلق عليها في كردفان اسم السّمين.

الحذر عند السير. يتخذ النمل الأبيض من الشقوق مساكن له وهناك آلاف مؤلفة منه مجنحة تطير – يسميه أهالي برنو «سوم»- ويظل في حركة دائبة لا تهدأ وسط هذا الكم الهائل من الحشرات. شاهدت أحد الشقوق الضيقة طوله حوالي خمسة سم بما يمكّن ستة من هذه المخلوقات من الدخول دفعة واحدة، وخلال خمس دقائق فقط خرجت من هذا الشق حوالي مائة منها بينما كانت فوهته محاطة بأعداد أكبر من النمل الداكن – «قراصة»- في حالة من التربص بالنمل الأبيض إذ ظل يلتهم كل نملة تبتعد عن الشق ولو لمسافة قصيرة، بيد أن النمل الأبيض اختبأ في شقوقه كما لو كانت له قوة استشعار من على البعد. وبجانب هذا العدو الشره، تُوجد أعداد هائلة من العقارب وهي أقوى الحشرات وأقدرها على اصطياد النمل المجنح والعناكب. كما يُوجد نوع من الجراد يبلغ طوله حوالي الأصبع يحط بشجيرات العُشر ويستمد اسمه منها ويصعب تمييز لونه عن أوراق هذه الشجيرات باهتة الخضرة، ويتميز بكبر حجمه ويتدرج لون أجنحته العريضة ما بين الزرقة والخضرة ثم إلى البنفسج والحمرة ويكون لونه رمادياً أو الرمادي المائل للسواد أحياناً وله قرني استشعار غامقين قويين، عيونه رمادية وظهره عريض منقط باللون الأحمر ولا يؤكل لمرارة مذاقه لأنه يتغذى على لبن شجيرات العشر. هاجمنا النمل الأبيض حتى ونحن على أعلى التل وسبب لنا إزعاجاً شديداً وكان علينا أن نرفع حاجياتنا وبصفة متكررة من على سطح الأرض اتقاءً لشره، ولحسن الحظ فإن هذه المخلوقات خرقاء تعجز عن الصعود لأعلى.

أصبحت العواصف الرعدية تهب يومياً تقريباً خصوصاً في فترة العصر وبالتالي لم يعد في مقدورنا أن نخيّم عندما ينتصف النهار على أمل استئناف السير عصراً إلا نادراً. عند مغادرتنا لأرقد سرنا لثمان ساعات متواصلة على أرض رملية ذات تلال متعرجة المسالك وتنحدر المجاري المائية من الشمال الغربي للجنوب الشرقي وتسودها الكثير من البرك الغائرة التي تتخلل تلك الكثبان الرملية. خيّمنا عصراً بجوار مجموعة جبلية متفرقة تسمى «درا» أي الهضبة المستديرة الصغيرة. نحن الآن في سباق مع الزمن لإعداد المعسكر لأن هناك عاصفة رعدية بدأت تهب بعنف لدرجة إن أفراد القافلة بدأوا في التجمع وترديد عبارة «يا لطيف» التي تتلى عند النوائب، وذلك بأن يُفرض على كل رجل عدد معين حتى يبلغ مجموعها – أي يا لطيف- الستة عشر ألف مرة ثم تُختم بعبارة «الله أكبر لا إله إلا الله والحمد الله» خمسمائة مرة.

في اليوم الخامس وبعد أن واصلنا سيرنا لمدة خمس ساعات تقريباً نحو الشرق، وصلنا «رهد أبو النور»، ما زالت الأماكن المأهولة قليلة وفقيرة ومع ذلك مررنا ببعض المجموعات العربية والتي تتكاثر على الحدود الشرقية لدارفور حيث يعيشون حياة الاستقرار، وتسود هذا المركز قبائل الزيادية. وفي اليوم التالي بلغنا قرى عرب الجليدات. تُوجد هنا بعض الغابات الكثيفة نسبياً وتتكون من أشجار الكتر والقرض والعرد والقفل والمخيط فضلاً عن أشجار التبلدي الذي تشتهر به منطقة شرق دارفور، وتتكاثر هذه الأشجار – بصفة خاصة – في قرية

«الأبيض» التي تسكنها قبيلة الجليدات والتي يبلغ عمق آبارها حوالي السبعة أمتار.

عبرنا سلسلة جبلية ذات شكل مزوي تتكون من تلال صغيرة كانت تترائي لنا بالأمس من قمة أبو النوار – وهي عبارة عن مسطحات غير منتظمة مختلفة الأشكال تتقارب من بعضها البعض لا يتجاوز ارتفاع أعلاها الستين متراً، صخورها جرداء، جيرية الطابع صفراء مائلة للبياض وتتكون طبقات أفقية تغطيها حجارة أغمق لوناً، وتأخذ هذه السلسلة الشكل الطولي الممتد من الشمال للجنوب، ثم امتدت مع خط سيرنا شرقاً آخذة الشكل الحوضي غير المنتظم، وحتى هذه الأحواض كانت جدباء جرداء كما كانت هناك بعض القمم والمجاري غير المنتظمة. أصبح طريقنا متعرجاً جداً إلا أن الاتجاه العام يميل نحو شرق الشمال الشرقي.

خيمنا بعد تسع ساعات من السير في مركز «أوبا» الذي يقطنه عرب الهبابين وأطلت من شمالنا الكثير من الجبال ذات الصخور الهشة المائلة للحمرة وأخرى أفقية بيضاء وصفراء، متمايزة الأشكال، متآكلة رطبة، تأخذ شكل المباني غير المنظمة، وتبدو أحياناً كما لو كانت أطلالاً لحصن حديث الطراز أو كبقايا مدرج عتيق، مما حض الناس على تداول الأساطير والمزاعم التي تقول بأنها شيدت بأيدي بشرية.

في اليوم السابع سرنا حوالي سبع ساعات نحو شرق الجنوب الشرقي ومررنا بقرية «القرفة» من أعمال مركز «بروش» وحططنا رحلنا وسط برك المياه بتلك القرية التي يبلغ عدد مساكنها حوالي الأربعمائة كوخ. تخلفنا بهذه القرية حتى صبيحة الغد لندرك سوقها للتزود بالمواد الغذائية، وأدوات الوفاء هنا هي مقاطع التُرمبا والأقمشة القطنية الزرقاء «والطرق» إضافة للبصل والكُمبا.

تقل أسعار المواشي – هنا – عن العاصمة ويعود السبب لقلة الكلأ وفقر الرعاة وبالتالي يستحيل عليهم الإنفاق على مواشيهم لفترات طويلة.

ما زال شكل الجبال متميزاً ومذهلاً لأنه كثيراً ما يتراءى للمرء كما لو كان يشاهد أطلالاً لأبنية قديمة ولا يكتشف المرء خطأ هذا التصور إلا عندما يقترب منها . ومن على البعد يبدو الوضع الأفقي للصخور كما لو كان منحوتاً عليها جدراناً رومانياً وما يقوي هذا الإحساس ذلك اللون الأصفر الذي يطغى عليها. ويمكن للمرء أن يميز – ضمن الأشكال المتعددة – أشكالاً مخروطية وهرمية وما يشبه الأعمدة زائداً القمم المدببة على أبدع الأنماط الهندسية وبلمسة فنية واضحة تقنع من يراها.

لا يزال اتجاهنا نحو شرق الجنوب الشرقي وما زالت الأشجار قليلة بيد أن أشجار السواك – ويسمونها «الشاو»- تضفي على المكان شيئاً من الخضرة كما ينتشر هنا نبات الحسكنيت الذي تلصق بذوره الشائكة بالجسم والملابس مما سبب لنا الكثير من الإزعاج.

نحن الآن في اليوم الثامن ومازلنا محافظين على اتجاهنا حتى وصلنا أحدى قرى «بروش» التي تقطنها قبائل الكاجا، وبعد مسيرة ست ساعات في ديار كاجا وصلنا قرية «بوطة» وكان

علينا ان نقضي بها بعض الوقت لأن لأفراد القافلة بعض حوائجهم التي يودون قضاءها في أم شنقة التي على الجوار مع إتاحة الفرصة للتجار الذين يودون اللحاق بقافلتنا . الأنباء المتواترة والتي تفيد بأن نائب ملك مصر قرر احتكار تجارة العاج ومنع تجارة الرقيق سببت إحباطاً شديداً للتجار.

نحن الآن على مفترق طريقين يؤدي أحدهما لكردفان حتى انحناءة النيل ثم إلى دنقلا أما الآخر فيسلكه الراغبون في التوجه لكردفان ثم عبر سنار والخرطوم حتى شندي.

سادت الحيرة والارتباك بين التجار لعدة أيام وهم لا يدرون كيف يتصرفون في الرقيق الذي بصحبتهم بيد أنهم آثروا التريث حتى يحصلوا على معلومات وثيقة في أم شنقة وفي أسوأ الفروض يمكنهم التخلص منه هناك أو إعادة تصديره.

صبيحة اليوم التالي وصل لمعسكرنا بعض الجلابة الوافدين من دنقلا ممن أقاموا مع عُربان الكبابيش لفترة طويلة في سبيل الحصول على أدق المعلومات. بيد أن خلاصة ما عرفوه هو ان تصدير العبيد بات مستحيلاً، أما عن احتكار العاج والريش فليس لديهم أية معلومة أكيدة.

كان بقاؤنا في بوطة محفوفاً بالمخاطر ولم يكن ذلك بسبب صعوبة الحصول على المؤن ولكن لأن أهالي المنطقة – وهم خليط من العرب والسكان المحليين – اشتهروا بالسرقة والنهب وما زاد من خطورتهم حيازتهم للأسلحة النارية التي انتشرت لدى الكثير من قبائل حدود دارفور كالحمر والهبانية والتعايشة، هذا فضلاً عن إن هناك عداء مستحكم بين بعض فروع قبائل حمر وقبائل الكاجا وكثيراً ما يقوم الحمر بغزوهم ونهب مواشيهم مستخدمين الأسلحة النارية الأمر الذي استدعى تأمين المعسكر مع اتخاذ الحيطة والحذر.

في يوم الجمعة الموافق التاسع عشر من يوليو استأنفنا السير قاصدين أم شنقة لتقصي المعلومات، كان اتجاهنا نحو جنوب الجنوب الشرقي حيث عبرنا عدة قرى تتبع لمركز بوطة وتقبع على أرض رملية متموجة تحفها التلال المتفرقة وتتخللها بعض البقاع الخضراء قليلة الأشجار . وبعد مسيرة جادة لست ساعات وصلنا مركز «أم شنقة»[1] وهو أهم المراكز التجارية لتجار النيل بدارفور. هناك منطقة غير مأهولة تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي تغطيها شجيرات العشر والكلكف كما تنمو على الوديان بعض أشجار القفل والسنط والكتر والعرد، وتنتشر أشجار الهشاب ذو الثمرة الصفراء الحامزة كما تُوجد بعض أشجار التبلدي الضخمة التي تُتخذ كخزانات للمياه. بعد مسيرة خمسة ساعات مررنا على جبل مخروطي الشكل، وقادنا الطريق المتعرج لواد واسع حوضي الشكل تنتشر فيه عدة قرى تكون مركز أم شنقة. الوادي مقفر خالٍ من الأشجار ومن الروافد التي يمكن أن تغذيه بالمياه، أرضه غير مستوية، قاعه رملي مغطى بالعشر، والأكواخ الصغيرة لا تكاد تعلو قامة الأشجار الفقيرة المحيطة بها. توجهنا صوب أقصى الجزء الشمالي لمجوعة القرى ونزلنا في منزل حاج مكي أحد معارف حاج أحمد. تتألف أم شنقة من حوالي عشرين قرية وتحوي كل قرية حوالي ثلاثين زريبة وبكل زريبة

1- محلهاه الآن بلدة الشريف كباشي.

حوالي الثلاثة أكواخ مما يعني أن مساكنها تقارب المائتين، وإلى جنوب مجموعة تلك القرى هناك أكثر مناطق الوادي انحداراً التي تذخر بآبار عميقة، غير مستخدمة الآن لتوفر مياه الخريف في البرك المنتشرة هنا وهنالك.

تلقينا هنا الأخبار القاطعة بشأن تجارة الرقيق والتي كانت تقض مضاجع أفراد القافلة حيث قررت الحكومة منعها و قام المدير بمصادرته في الأبيض – عاصمة كردفان – وشمل القرار القدامى منهم والجدد وذلك بناء على تعليمات الحاكم العام للسودان المصري الذي وصل إلى هناك من الخرطوم ثم عاد أدراجه. أما فيما يتعلق بالعاج فآثار القرار محدودة حيث تُركت حرية تجارته للوارد من الجنوب والجنوب الشرقي فضلاً عن الوارد من دارفور ودّاي بعد دفع الجمارك المقررة، أما ريش النعام فقد أخضع لضريبة وارد قدرها خمسة دولارات عن كل مائة وزن. تخلف الكثير من التجار بأم شنقة بسبب الحظر الذي فرض على تجارة الرقيق وبينهم عدد ممن تعرفت عليهم في ودّاي، بينما غامر البعض الآخر بمواصلة السير رغم توجسهم لما قد يلاقونه في الحدود.

بينما كُنا نزور بعض كبار رجالات المركز عصراً، داهمتني الحمى اللعينة ولم أفق من الغيبوبة إلا بعد منتصف الليل وعندها شعرت بهجوم البق المختبئ في حبال العنقريب مما اضطرني لافتراش الثرى، لكنني كنت كمن يستجير من الرمضاء بالنار لأن جيوش من نمل الرتيلاء بدأت تهاجمني هي الأخرى. تسبب قرصة هذا النوع من النمل حكة في الجلد ويزداد ألمها كلما ازداد الحك ولا تهدأ إلا بعد مضي يوم كامل.

في صبيحة اليوم التالي زارنا الخليفة ابن نائب المقدوم ويسمى أمين خير قريب وهو المسئول عن كل المركز إضافة لدار حمر، وحسب علمي فقد لعب هذا النائب بالتضامن مع الأمين بخيت دوراً فاعلاً في سبيل تنصيب السلطان إبراهيم.

وجدنا الخليفة – ملك الكروبات – غاضباً جداً لهزالة الاستعراض العسكري الذي أجري بالأمس وأفادني بأن السلطان إبراهيم كان ينوي إنشاء حامية في الحدود لحماية البلاد من غزو البحارة والمصريين كما كان ينوي إنشاء حاميات مماثلة في الجنوب والجنوب الغربي كأولوية قصوى لمواجهة تهديدات الزبير وقواته.

استنفر ملك الكروبات الأهالي إلا أن استجابة الحمر كان ضعيفة جداً ويبدو أنهم يتمسكون بامتيازاتهم القديمة التي تعطيهم الحق – عند اندلاع الحرب – في التزام ديارهم مع الاكتفاء بحماية الحدود فقط مثل الأرلنقا والأرنقا من الفور في الغرب، ولهذا يُطلق عليهم «الشرقانيين» أي حماة الحدود الشرقية.

لم يجاهر شيخ حمر بتمسكه بهذا الامتياز ولم يرفض الانضمام للجيش صراحة إلا أنه تذرع بضيق الوقت وزعم أن رجاله مشتتين في الأصقاع. ناشد ملك الكروبات السلطان إبراهيم ليصدر أمراً يقضي باستنفار المواطنين فوراً، وهدد برفع الأمر للفاشر إذا رفض شيخ حمر

الاستجابة للأمر . تدخل حاج أحمد – كأحد الثقاة – ليضرب عصفورين بحجر واحد، بحيث أوعد الملك بالتوسط لدى شيوخ حمر، وفي نفس الوقت قام ببيعه بعض كساوي الشرف وجارية بسعر عالي.

أخذنا الملك لمنصور[1] المسئول الحكومي عن قبيلة حمر الذي أكرم وفادتنا بعدة أطباق من الطعام ثم ودعناه وذهبنا إلى دار الشيخ أحمد الزعيم الحقيقي للقبيلة وهو رجل ذو بشرة داكنة اللون في حوالي الثلاثين، طوله دون المتوسط قوي البنيان ذو شوارب ولحية غير مشذبة أشعث الشعر، وهو شيخ عموم قبائل حمر المستقرين منهم والرحل على السواء. كان هناك نفر من أفراد القبيلة يؤمون الدار يرتدي أغلبهم القمصان المصنوعة من التكاكي إلا أن بعضهم كان يرتدي القمصان المصنوعة من التُرمبا الأوربية، وكان جلهم حاسري الرؤوس - مثل شيخهم – التي تتدلى منها شعورهم في ضفائر طويلة، عدا بعضهم الذين كانوا حليقي شعر الرأس. استمع الشيخ لحاج أحمد لما لهما من صداقة قديمة وكان متحفظاً وصامتاً مما يعد مؤشراً – لمن يعرف هؤلاء القوم – بأنه صرف النظر عن الانضمام للسلطان نهائياً رغم تظاهره بقبول حجج حاج أحمد. ولعل هذا الموقف هو التعبير الحقيقي عن نوايا حمر المستترة منذ أن انقسمت القبيلة لقسمين أحدهما في كردفان يتبع للحكومة المصرية والآخر في الحدود الشرقية لدارفور. ولما كان القسمان مرتبطان مع بعضهما ارتباطاً وثيقاً بحكم وشائج الدم، فلا زال حكام دارفور ينظرون لمن يوالونهم من تلك القبيلة بعين الشك خشية موالتهم لإخوتهم في كردفان ضد البلاد.

بقينا في أم شنقة لأن حاج أحمد يرغب في استبدال رقيقه بريش النعام، والفرصة الوحيدة للتخلص من هذا الرقيق متاحة هنا فقط . اغتنمت هذه السانحة لزيارة قرية «الزرنخ»- أحد مراكز حمر – وتقع على بعد مسيرة عدة ساعات نحو الجنوب وكان الهدف من الرحلة هو رؤية أشجار التبلدي وكيفية استخدامها كخزانات للمياه. ورغم قرب المنطقة إلا أنني أجبرت على اصطحاب ثلاثة من المرافقين اختار أحدهما خليفة الكروبات والثاني عينه منصور – المسؤول الحكومي الثاني عن حمر – أما الثالث فعينه شيخ العرب . تتميز المنطقة بالكثافة السكانية وحقولها مُخضرة بوجه جيد مقارنة بالمناطق الأخرى، تتناثر حولها القرى الصغيرة على طول الطريق ويقطنها المستقرون من الحمر وتحيط بتلك القرى الحشائش والأعشاب.

يستخدم الأهالي – لفلاحة الأرض – قطعة حديدية[2] حادة دائرية الشكل مثبتة على دائرة منفرجة بذراع طويل وتُغرز في الأرض ثم تُدفع للأمام بمهارة فائقة وذلك لاجتثاث الحشائش الطفيلية تمهيداً لزراعة الأرض.

كلما تقدم بنا السير تزيد المنطقة بهجة وجمالاً وسط أكمة من الأشجار اليانعة الخضرة

1- شغل ابنه منصب ناظر عموم حمر وينمي لفرع الطرادات ومازالوا بيت النظارة في حمر وشغل أحد أحفاده حقيبة المالية إبان عهود معاصرة في أخريات القرن الماضي.

2- هي نصل مسنن في شكل هلال مثبت على عصاة ويُدفع بهذا النصل لاجتثاث الحشائش وتسمى الحشاشة والجراية.

وفي مقدمتها أشجار التبلدي - ويسمونها «حُمَرة» - وسبق أن شاهدت على تخوم كيكوة أعداداً من هذه الأشجار المهيبة التي تتميز بفروعها الباسقة وأغصانها اليانعة وجزعها الضخم العالي وظلها الظليل.

يجري وادي الزرنخ من الشمال للجنوب، وهو واد شديد الاضمحلال يبلغ عرضه حوالي مسيرة عدة ساعات أما طوله فحوالي مسيرة يوم، أغلب أشجاره من التبلدي وكثير من القرى تقبع تحت ظلاله . تخلو المناطق الواقعة شرق أم شنقة من الآبار وبالتالي فإن المياه تُخزن في جوف هذه الأشجار العملاقة، وبالرغم من أنها أصغر حجماً من تلك التي تنمو في جنوب غرب برنو أو النيجر إلا أن جزعها يكفي لتخزين حمولة مائة من الجمال علماً بأن حمولة الجمل الواحد تقدر بمائة كيلوجرام مقسمة على قربتين كبيرتين كتلك التي تصنع من جلود الأبقار في دارفور.

يشتهر الحمر بإجادة صناعة القرب الكبيرة المصنوعة من جلود الأبقار، أما القرب الصغيرة المصنوعة من جلود الأغنام كتلك القرب باهظة الثمن التي تجلب من بلاد هوسا لودّاي فليس لها طلب في دارفور.

يشتهر الحمر بتربية الإبل ويؤجرونها للتجار مع قرب الماء. لا يتسع كل جزع لحمولة مائة جمل – بالطبع – لاختلاف الحجم بين كل شجرة وأخرى إلا أن المتوسط العام يتراوح ما بين حمولة الثلاثين إلى المائة. ولإعداد الشجرة يفتح على أعلى جزعها فوهة تتسع لنصف «رجل»[1]، ويقف الشخص على حافة هذه الفوهة وينتشل الماء كما لو كانت الشجرة بئراً.

يتم تجهيز الشجرة بدءاً بالفوهة وعندما يصبح الثقب كافياً ينفذ الخبير إلى داخل الجزع ويبدأ في نحته من الداخل، وتمتاز الشجرة بهشاشة اللب مما يسهل عملية النحت بحيث لا يستبقى من جزعها إلا الجدار الخارجي بما لا يتجاوز الثلاثين سنتمتراً سمكاً للحفاظ على حياة الشجرة، وبمجرد تنقية الجوف من مخلفات اللب تعتبر الشجرة جاهزة لحفظ الماء. تشتري القوافل الكبيرة الشجرة كاملة وتأخذ كفايتها من الماء، يبلغ سعر الجمل دولاراً أو دولارين في فصل الصيف بيد أن الثمن يقل في فصل الخريف.

عند تعبئة الشجرة – في موسم الأمطار – يتم تنظيف الأرض تحتها لمسافة ثلاثة إلى سبعة أمتار، ويتم تغوير هذه المساحة لتجميع المياه، وبمجرد سقوط الأمطار تُملأ الشجرة بالماء، وتُعتبر هذه الأشجار ملكيات خاصة وتورث وتتداول بالبيع ولمائها مذاق حلو.

لم أرَ الكثير من أهالي الزرنخ لاشتغالهم بالزراعة. وكما توقعت فقد هاجمتني الحمى مما اقتضى الرجوع لأم شنقة بعد أن تجولنا لمدة ساعة في الزرنخ. استغرقت الرحلة زهاء الثلاث ساعات. مرافقي الذي عينه شيخ حمر هو واحد من شباب القبيلة وكان ودوداً وداهية حدثني كثيراً عن معاركهم ضد قبيلة الكبابيش[2] التي تجاورهم من الشمال والتي تمتد مراعيها حتى

1- يستخدم طول الرجل العادي كوحدة للقياس كان يقال طول البئر ثلاثة رجال

2- كانت قبيلتا حمر والكبابيش متجاورتين حتى هاجر الكواهلة إلى كردفان وأنشاوا نظارتهم بين القبيلتين في مركز ام بادر، وكانت هناك

دنقلا وحدثني عن تلك الغارات الشرسة التي قادوها ضد هؤلاء الأعداء وما انتابهم فيها من رهق لعدم ملاءمة الفصل مما حملهم الكثير من المشقة في سبيل توفير الماء لهم ولخيولهم . عاش الحمر في سلام مع الرزيقات لكنهم يعادون جيرانهم المعاليا في الجنوب الغربي . لم يهاجم الزبير المعاليا لكنه هددهم بالنهب إذا ما هاجموا الحمر لأنه يأمل في استمالتهم – أي الحمر – عن طريق إخوتهم في كردفان لينضموا للمصريين أثناء غزوهم لدارفور. أصبح العرب مسلحين بالأسلحة النارية وكان بحوزة مرافقي الشاب غدارتين معلقتين على سرج جواده.

استمرت الحمى من العصر حتى المساء ومنعتني الأمطار من التمتع بالنوم في الهواء الطلق أمام الكوخ وكُنت ليلتها ضحية للبق أيضاً. انقضى اليوم الأول ولم يستقر الجماعة ـ بشأن السفر لمصر على رأي إذ كانت الآراء متباينة بحيث كان رأي أحد الفرقاء إلغاء الرحلة تماماً، بينما ارتأى البعض الآخر التريث وانتظار ما يستجد من أخبار. كانت هناك فئة ثالثة – من حملة الأمانات – كان من رأيها إعادة تلك الأمانات لكوبي والفاشر لتلقي تعيمات أصحابها. نجح حاج أحمد – بما له من حجة وقبول – في إقناع التجار برأي وسط يقضي بالتخلص من الرقيق في أم شنقة أو أن يعيدوا تصديره لدارفور على أن تتواصل الرحلة دون الاشتغال بضرائب العاج وريش النعام.

بدا الاستعداد للسير وعُين الخبير الذي سيتولى قيادة القافلة عبر السهول المتجهة شمالاً حتى دنقلا – لدى انحناءة النيل – وقبض أجره مقدماً.

أما التجار الذين قرروا بيع رقيقهم في أم شنقة سيتوجهون إلى هناك غداً. انتهزت هذه الفرصة لمشاهدة بعض التلال المجاورة والتي يزعم الأهالي بأنها من صنع الإنسان.رأيت حائطاً صخرياً شاهقاً على قمته فجوة في شكل القوس متكامل الأبعاد ولفت نظري – بصفة خاصة – الجدار الصخري الذي يبلغ ارتفاعه حوالي الستين متراً وهو شديد الانحدار لا يكاد عرضه يسع لموطئ قدم عند هذا المنحدر، وعندما بلغت الفجوة المقوسة وجدت أن طولها يبلغ حوالي العشرة أمتار أما عمقها فحوالي الستة أمتار وكذلك عرضها.

لاحظت ان هناك كُتل صخرية عملاقة سقطت من أعلى القمة كما تيقنت بأن القوس من فعل الطبيعة لا الإنسان. الحجارة هشة مفتتة تعلوها طبقة رمادية رطبة للغاية تقوى قليلاً على صخور العصر الطباشيري، وعلى جوانب التجويف الصخري رسومات غير متقنة لخيول بلا فرسان وجمال وزراف فضلاً عن عدة أسماء منحوتة على الصخور، لا يبدو على هذه النقوش والكتابات أية قيمة تاريخية . يُوجد نقش عربي واحد إلا أنه مطمس لدرجة لم تمكنني من فك طلاسمه، وفي نصف الجزء المنقوش تُوجد كتلة صخرية هائلة يعلوها سطح واسع محفور عليه آثار لحيوان ضخم من فصيلة السنانير وربما كان نمراً، يبلغ اتساع الأثر حوالي نصف البوصة ويبدو إن الحيوان لم يتمكن من صعود هذا السطح الشاهق إلا بعد جهد جهيد.

حرب مشهورة بين القبيلتين تسمى حرب العُقال.

لم نتحرك اليوم أيضاً لأننا كنا في انتظار يوم السوق – أي يوم غد – وذلك حرصاً منا على التزود بالمؤن لبقية الرحلة فضلاً عن إن حاج أحمد لم يكمل حاجته من الريش.

يكلف جلد النعام الكامل حوالي المائة دولار، وقد يبدو – لأول وهلة – أنه أمر مربح إلا أن هناك الكثير من أساليب الخداع التي يمارسها الباعة مثل أن ينزعوا الريش بأنفسهم ثم يحزموا كل ثلاثة أو أربعة منه بشرائح رطبة من جلود الأبقار وبذلك يثقلون الميزان بما يوازي وزن الريش نفسه.

بتاريخ السادس والعشرين من يوليو – الموافق يوم الجمعة – جرى حصر للرجال الذين يصلحون لحمل السلاح. وكانت الاستجابة لهذا الأمر تنذر عن رؤية مستقبلية كئيبة تعضد نظرة الشك والريب التي تكتنف نوايا سكان الحدود الشرقية. لأن ما تم حشده من رجال لا يزيد عن العشرة من الفرسان على صهوات جيادهم وحوالي العشرين ممن يركبون الجمال ثم ما يقارب المائة من المشاة. ويُعد هذا العدد ضئيلاً جداً إذا ما قورن بهذا الكم الهائل من القرى والتي يربو عدد الأكواخ – في الكثير منها – على المائة كوخ أو أكثر. ثلث هؤلاء الرجال كانوا يتسلحون بالأسلحة النارية من البنادق والقربين، أما البقية الباقية فمنهم من يحملون الرماح أو البنادق القصيرة ذات الفوهتين التي يستوردها الجّلابة والتي تباع – في دارفور – بخمسة مقاطع من التُرمبا، أما وسيلة الدفاع فهي الدرقة البيضاوية المصنوعة من جلد الكركدن أو الزراف، بواجهتها المسطحة والتي يتوسطها مقبض دائري الشكل.

ينتمي الأهالي - هنا - لقبائل كاجا وهم ذوو بشرة سوداء تميل للبني لا تبدو عليهم الملامح الزنجية ومع ذلك فإنهم لا يحملون السمات العربية الصرْفة. ويصففون شعورهم على نمط أفراد قبيلة حمر بحيث يحلقونه جزئياً ويدعون الباقي منتصباً في منتصف الرأس مع جدل الجزء الأسفل في شكل ضفائر تتدلى حتى الكتفين - كما يفعل الحمر - أو يلف الشعر حول الرأس في ضفيرة واحدة.

كان السوق منتعشاً بوجه غير عادي ويعود السبب لوجود قافلتنا، والسلع المعروضة هي الدخن واللبن الرائب والزبد والقليل من جديان الماعز ذي الشعر الكثيف والكثير من ثمار البطيخ المسلوق[1] لذيذ الطعم. هناك طلب شديد للكمبا والبصل والطِرَق كوسائط للتبادل السلعي.

يتحدث الكاجا اللغة العربية وينكرون وجود أي لهجة غيرها ويشمل هذا إخوتهم سكان جبال أبو سروج والذين يستوطنون كردفان. وإذا وضعنا في الاعتبار انعدام الملامح الزنجية في قسمات الكاجا وطريقة تصفيف الشعر ونمط الحياة - كرعاة للإبل - يمكن القول بأنهم فصيل لتلاقح عربي - زنجي من السكان المحليين المنتمين لأواسط السودان، والراجح أن يكونوا من البرقد الذين يُقال بأنهم عاشوا هنا في أزمان سالفة. وإضافة لمن تعينهم الحكومة من مسئولين فإن للكاجا شيخهم الخاص، وعبارة «شيخ» توضح صلتهم الوثيقة بالعرب.

1- يسمى السبلي.

هنا كتب علي أن أفارق أغلبية رفقاء السفر الذين صاحبتهم من أبشي وعليّ أن أتابع رحلتي إلى دنقلا مروراً بكردفان والخرطوم وقد تألمت كثيراً لفراقهم وخاصة حاج أحمد تنقا تنقا رغم أنني سأقابلهم بعد شهر تقريباً.

لقد رافقت حاج أحمد لفترة تزيد عن العام وكنا متلازمين على مدى هذه الأيام دون افتراق وكان صديقاً وفياً ولذا حق لي التألم لفراقه ولو لحين.

سيرافقني محمد النور للجزء المتبقي من الرحلة وهو الرجل الذي بعثت به الحكومة المحلية في كردفان للبحث عني، وقد أتى من الفاشر للتو والتحق بقافلتنا في السادس والعشرين من يوليو الجاري. وعند قدومه جاء بأنباء أزعجت الجلابة حيث أوضح بأن نصر الدبة على قوات الزبير الذي سارت به الركبان هو مجرد خبر مغلوط. وكان يرافقه - عند مقدمه - أحد المعارف من التجار الجلابة الذي سبق والتقيته في دارفور.

اشترى هذا الجلابي كل الرقيق الذي لم يتم بيعه بدافع من الثقة بالنفس وباعتباره خبيراً بخبايا الطريق ويعرف كيف يستفيد من فساد الموظفين المصريين مع قدرته على إخفاء الرقيق في قرى وأمكنة مجهولة حتى تخف حدة القيود التي فرضتها الحكومة.

رجعت مع محمد نور إلى أم شنقة لأقابل القليلين من رفقاء الرحلة الذين سبق وقابلتهم في «رهد الأبيض» التي تقع على بعد ساعات شرق أم شنقة، وللحصول على إذن المغادرة من المسئول الحكومي وفقاً للمكتوب السلطاني الذي بحوزتي.

وصلنا أم شنقة بعد مسيرة خمس ساعات بالخيل وذهبت برفقة مضيفي حاج مكي إلى منزل خليفة الكروبات والكرسي منصور للحصول على إذن السفر، وعلمنا إن كليهما قد غادرا إلى الطويشة - على بعد مسيرة ثلاثة أيام جنوب غرب أم شنقة - وذلك بغرض مراقبة الحدود وحمايتها من تهديد الزبير إذا اقتضى الأمر ذلك.

لم ترافقهم في هذه الرحلة أي قوات من حمر - كما توقعت تماماً - وليس هناك مجرد أمل في أن يفعلوا ذلك في المستقبل. اطلع المسئول الثاني للخليفة والكرسي على خطاب السلطان وامتعضا لأسلوبه الحاد، ثم وقعا إذنا موجهاً لملك الحدود ليسهل أمر مغادرتنا وهكذا قفلنا راجعين نحو رهد الأبيض عصراً.

اتجهنا شرق الجنوب الشرقي وعند الغروب صعدنا تلة معتبرة ذات صخور بركانية تمتد من الشمال للجنوب، وأثناء سيرنا داهمتنا عاصفة رعدية، ومع شيء من المعاناة في - حلكة الليل - اهتدينا للبحيرة وبعدها بربع ساعة وصلنا قرية صغيرة لبدو من الأعراب حيث يخيم أفراد القافلة، وسرعان ما قدم إلينا مسافرون آخرون كانوا قد سلكوا الطريق مباشرة من بوطة إلى رهد الأبيض لكنهم ضلوا الطريق أيضاً.

توقفت العاصفة الرعدية ليلاً وعند شروق الشمس كان لدينا الكثير من الأعباء ومن ضمنها تجفيف متاعنا الذي تسربت إليه المياه ولم نتمكن من المغادرة إلا عصراً.

توجهنا صوب الشرق وعبرنا أرض مقفرة واسعة ذات تربة سوداء يتخللها- أحياناً - القليل من الرمال ويطلق عليها «دق الطورية»، وتنمو عليها بعض أشجار القفل والحميض واللوقن والسعدة والكتر، كما تنتشر بعض أشجار السنط الأخرى كالصباغ الذي تتميز ثماره بنكهة العسل، وعند العصر وقرب المغيب صارت الأرض أكثر جدباً حتى بلغنا «الدم جمد» وهي عبارة عن سبع قرى يسكنها العرب حيث خيمنا في القرية الثالثة قبل المغيب بقليل وهي تحمل نفس الاسم وتقطنها قبائل العريقات.

في اليوم الثالث الموافق الأول من أغسطس سرنا لمسيرة خمس ساعات شرقاً حتى قرية «رياش» - أحدى قرى الجعليين - التي تحفها نفس الأشجار السابق ذكرها، بيد أن ما أدهشني هو نمو أشجار اللبان على تلك التربة الرملية بالإضافة للأشجار الشوكية التي تكسوها النباتات المتسلقة من النوع الذي يسميه الكانوري «دنكو» وتماثل ثمارها الخيار[1].

وفي الصباح مررنا على بعض البرك المائية المجاورة لمركز الصرفان الذي يتكون من ثلاث قرى تقطن أحداهما قبائل القرعان وبني بدر والميامين أما القريتين الأخرتين فتسكنهما قبيلة حمر.

أمضينا النهار في منزل أحد الأعراب وهو صديق لمحمد نور ثم استأنفنا السير واضعين في الاعتبار بأننا سنعسكر غداً على بعد مسيرة خمس ساعات تقريباً.

نحن الآن نسير على أرض رملية صرفة، رمالها متموجة مغطاة بنبات الحلفا، قاع واديها عميق جداً تغطيه الأشجار الكثيفة وتتخلل تربته بعض البقاع ذات التربة المتماسكة ويطلق عليها «النقعة».

وفي صبيحة الثاني من أغسطس بلغنا الحدود الرسمية لسلطنة دارفور «أم شر» حيث سلمنا أحمد عمال دارفور خلو الطرف النهائي. أنحرف الطريق نحو الشمال وبعد مسيرة يوم من السير الجاد لاحت على شمالنا جبال أبو سروج والتي تمتد سلسلتها من جنوب الجنوب الغربي إلى شمال الشمال الشرقي وتقطنها قبائل الكاجا.

ثم بعد مسيرة نصف يوم على العتمور الذي يفصل كردفان عن دارفور أصبحنا على مشارف منطقة مأهولة وكانت أولى طلائعها قرية «عنبر» الصغيرة. التي عبرناها نحو مجموعة قرى الوحيلات التي تسكنها قبائل حمر.

تعدل خط سيرنا - مجددا - نحو الشرق ونحن الآن بمركز «كتر» وربما تعود التسمية لانتشار أشجار الكتر وغيرها من الأشجار الكثيفة، كما مررنا على الكثير من البرك الصغيرة التي يُطلق عليها اسم «فولة» والتي تنتشر وسط غابات الأبنوس اليانعة الجميلة.

يعد القفر الواقع بين كردفان ودارفور منطقة وعرة يحتاج اجتيازها لعدة أيام من السير الشاق، وباستثناء بركة «فوركيت» - التي تفصلنا عنها عدة ساعات - لا تُوجد مياه كافية لسد حاجة المسافرين حتى أثناء موسم الأمطار.

جددنا في السير طلباً لفوركيت ولكن الأمطار أعاقت تقدمنا رغم إن السماء لم تكن تنذر

1-يسمى المفت وتصبح ثماره بعد نضجها حمراء اللون ولذيذة الطعم.

بشيء منها. بدأت الأمطار بزخات خفيفة أخذت تزداد تدريجياً حتى اكتسى الجو بالسواد وتلبد بالغيوم وانهمر المطر مدراراً الأمر الذي أرغمنا على إقامة المعسكر حفاظاً على أمتعتنا من التلف. استمرت الأمطار في الهطول وبغزارة شديدة لدرجة إن الخيام عجزت من أن توفر لنا الحماية الكافية.

طلع علينا صباح اليوم الرابع من أغسطس ونحن في حالة يرثى لها لابتلال متاعنا وتلف بعضه وأصبحنا في حاجة لبعض الوقت لتجفيفه قبل استئناف السير. تجوب براري العتمور أعداد مهولة من السباع ولقلة الصيد والمواشي صارت تهدد الآدميين وبالأخص حول برك «توركي» وصارت تهاجم الأهالي ومواشيهم مما يدفعهم للتحوط والحذر، أما المسافرون فيؤثرون الابتعاد عن مناهل المياه مع الإبقاء على النار مضرمة طوال الليل. سرنا لتسع ساعات نحو الشرق مع الميل نحو الجنوب الشرقي – أحياناً – لاحت سلسلة جبال أبو مرخ على شمالنا التي تمتد من الشرق إلى الغرب وهي على مسيرة عدة ساعات منا، عبرنا منخفضات تسمى «الشق» و «المطامير» تتوسطها منطقة غير مأهولة تغطيها الأشجار والأعشاب وهي مراتع جيدة لمواشي الأعراب في موسم الخريف وما يليه من شهور.

التزمنا اتجاهنا بالسير ونحن في السادس من أغسطس، وبعد سير متواصل لعشرة أو أحدى عشر ساعة وصلنا قرى حمر في كردفان، ثم بلغنا في الصباح مجموعة من تلال يبلغ ارتفاعها حوالي الخمسين متراً تسمى «مسيل» ويعلو قمتها حوض صخري من صنع الطبيعة يزخر بمياه الأمطار، أمضينا نهارنا على تلك التلال رغم شح الماء بالحوض الذي يبدو إن القافلة الكبيرة التي قابلناها قبل وصولنا قد استهلكت المياه المخزونة فيه.فارقنا بعض رفقاء الرحلة قبل دخول مركز «شيلوتا» على حدود كردفان إذ توجهوا نحو الأبيض مباشرة دون المرور بالقرى التي على الطريق خوفاً من أن يصادر مسئولو تلك القرى الرقيق الذي بصحبتهم كان اتجاهنا شرقاً بينما توجهوا هم شمالاً نحو جبل «مقيسم» ويمتد طريقهم حتى المجموعة الجبلية المسماة «قريود منعم» والتي يمكن رؤية جبال أبو سنون من على قمتها.

واصلنا السير لثمان ساعات أخرى نفذت بنا إلى إحدى القرى التي تقطنها عوائل من الحمر وتتميز تلك القرى بجمال حقولها ويطلق عليها «الكول» وهناك استقبلنا استقبالاً رائعاً، المنطقة خالية من الآبار ويستعاض عنها بأشجار التبلدي كما هو الحال في شيلوتا ومناطق حمر الأخرى، ويطلق على الواحدة اسم «تبلدية». أدركنا هنا أحد التجار المتخلفين عن الرحلة ولم نكن نتوقع وصوله لأننا كنا نعتقد أنه على مسافة كبيرة خلفنا. هناك أحد الفقراء المرافقين للقافلة يعاني من الدسنتاريا المزمنة ومع ذلك أجبر على السير مما أدى لوفاته في نفس الليلة، وهذا هو مصير كل من يمرض أثناء السفر لأن القافلة لا تتعطل انتظاراً لأحد، وسيء الحظ من يتعرض لظرف مماثل لأن عليه – طوعاً أوكرهاً – أن يواصل السير حتى يشفى أو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وبسبب عملية الدفن لم نتمكن من السير – في هذا اليوم – لأكثر من خمس

ساعات وصلنا بعدها قرية «عرشيوة» التي تقع نحو الشمال الشرقي عبر مركز «الحلفايا[1]». يتكوّن المركز من اثنين وعشرين قرية صغيرة أغلبها بائنة للعيان، استقبلنا استقبالاً حاراً وذلك لأنني التقيت رجلاً من الخرطوم سبق وعالجته في ودّاي من طلق ناري اخترق كاحله. أكرم الرجل وفادتنا عرفاناً بالجميل وإكراماً لمحمد نور المعروف هنا والذي هو الآن على مقربة من موطنه الأم.

تقع جبال أبو سنون شرقنا وهي هدفنا لليوم التالي الموافق التاسع من أغسطس، وأملنا أن نقابل جماعة محمد النور الذين انطلقوا أمامه عبر المنطقة غير المأهولة خوفاً على رقيقه

كل الدلائل هنا تشير إلى وجود حكومة منظمة من حيث الإدارة والموظفين كالذين يجبون الضرائب، والذين يراقبون تهريب الأسلحة والذخائر لدارفور زائداً القوات النظامية وما شابهها .

عبرنا قرية ذات حقول مزدهرة تقع على سهل منخفض تحفه الكثبان الرملية المتموجة وبعد مسيرة سبع ساعات وصلنا مركز أبو سنون، ويستمد المركز اسمه من شكل جباله التي تشبه الأسنان وأغلب أشجاره الهبيل الذي يفرز صمغاً مطاطياً داكن اللون، بالإضافة للهجليج والمخيط والهشاب الذي ينتشر في كردفان والذي يشتهر بجودة إنتاجه للصمغ. كما تُوجد بعض أشجار السمر الذي يسميه العرب « سليك» ويتميز بلحاه الأبيض. عسكرنا عند العصر في قرية « الملك» أي الملك بمركز أبو سنون، وتتميز تلك السلسلة الجبلية بقمتين مخروطيتين يتراوح ارتفاعهما ما بين المائة وثلاثين إلى المائة وستين متراً من على سطح الأرض . التربة مغطاة بالحجارة المائلة للحمرة، ويرجع أصل سكان القرى لودّاي وقيل أنهم هاجروا إلى هنا في عهد عبد الكريم أول سلاطين ودّاي بيد أنهم نسوا لغتهم الأصلية شأنهم شأن الكثير من أبناء جلدتهم الذين ينتشرون في كردفان.

نحن اليوم في آخر أيام الرحلة متوجهين صوب ديار محمد النور التي تقع إلى الجنوب الشرقي عبر قرى « مرخة وقربين وأم دكيكة» الواقعة على شمال جبل صغير يسمى « أبو خريس» الذي يتوسط أرضاً سهلية مغطاة بنبات العشر.

لم تنل المنطقة حظها من الأمطار على عكس القرى التي مررنا بها في الطريق ويتضح هذا من منظر الحقول الذابلة.

استقبلتنا عائلة محمد النور بالترحاب وكانوا قد استقروا في هذه المنطقة مؤقتاً لفلاحة الأرض ويبدو أنهم أثرياء إذ لهم من العبيد ما ينيف على المائة.

كان هدي في أن استجم هناك لعدة أيام لمعاناتي من آلام تضخم الطوحال إلا أن عمدة المدينة «أو شيخ البلد» الياس باشا[2] علم من مضيفي بمقدمي ولذا خف لمقابلتي فجر اليوم التالي

1- الحلفايا الأصلية مدينة على النيل ولعبت دوراً تاريخياً كعاصمة للعبدلاب واتفاق الاسم هنا مجرد مصادفة.

2- هو الياس الباشا أم برير جعلى نفيعابى، ويعد من أكثر تجار الأبيض ثراءً في العهد التركى المصرى . ومكافأة لخدمته الجليلة للحكومة التركية تم تعيينه مديراً على شكا بعد إحتلال دارفور عام 1874م وفي 1879 عين مديراً لمديرية كردفان إلا أنه واجه معارضة شرسة من منافسه أحمد بك دفع الله وبعض الزعماء المحليين. ونتيجة لهذه المعارضة أعفي من منصبه وعين محمد سعيد باشا خلفاً له. ويبدو إن الحادث دفعه للانضمام للمهدية والتآمر ضد اصدقاء الأمس وأعداء اليوم . ويعد انضمامه للمهدية ويُعد واحداً من الأسباب التي عجلت

مبعوثاً من قبل إسماعيل باشا أيوب الحاكم العام والموجود هنا استعداداً لحملة دارفور، ثم أعقبه الدكتور جورج الإغريقي - مفتش الصحة - الذي يرافق الحملة أيضاً.

لم يسبق لي التعرف على الياس بيد أنه كان يسمع عنى منذ زمن طويل عن طريق الحكومة وهو الذي كلف محمد نور بالبحث عنى في الغرب. قابلني الياس بترحاب شديد وسعدت بالتعرف عليه وتبادلت معه الحديث باللغة العربية أما الطبيب الإغريقي فقد أذهلني بقدرته الفائقة في التخاطب بالفرنسية والايطالية ثم العربية التي كانت وسيلة تخاطبي في الآونة الأخيرة، وكنت أتساءل دائماً إن كان في إمكاني التخاطب بغيرها في المستقبل.

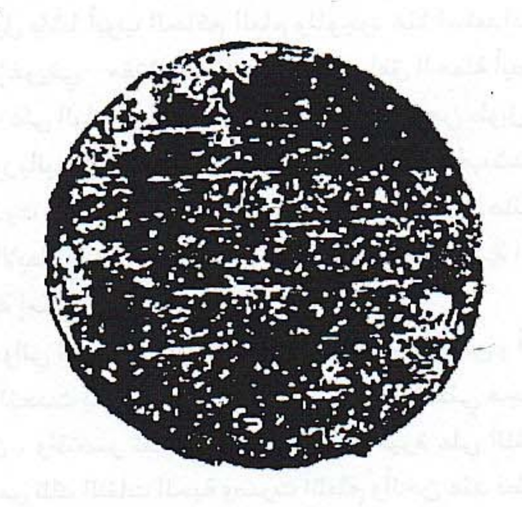
بالرغم من سوء أحوالي الصحية كان لزاماً على أن أغادر الأبيض و أواصل رحلتي بأسرع ما يمكن. كنت أجيد التحدث بالألمانية والفرنسية والايطالية ولكنني هجرت تلك اللغات إبان اعتزالي للعالم المتمدن. واقتصر تعاملي في السنوات الأخيرة على اللغة العربية واللهجات المحلية وهكذا كدت أنسى تلك اللغات الحية وصرت أتلعثم وألحن عند نطق مفرداتها.

استطعت الإلمام بالكثير من المستجدات في أوربا من مرافقي أثناء الطريق خصوصاً ما يجري في ألمانيا نتيجة لحربها مع فرنسا ووفاة نابليون.....الخ، وأكثر ما حز في نفسي هو تلقى إسماعيل أيوب للأوامر بغزو دارفور، وكان على وشك التحرك عبر الطريق الرئيسي مروراً بأم شنقة. وقد تحدد يوم الثلاثاء القادم لمغادرته علماً بأننا وصلنا يوم الأحد.

بمجرد وصولنا للأبيض استقبلني الباشا بالترحاب مترجلاً على باب الديوان مقر الحكومة وكان مبنىً مهيباً. بادرت الباشا متحدثاً بفرنسية سلسلة كما لو كنت لم أغادر أوروبا البتة، ثم تناولت معه الإفطار بمعية كبار المسئولين والضباط. وعليَّ أن أقر بأن أكثر ما سرني بعد هذا الحرمان الطويل زجاجة « اللافيت» الممتاز التي أسرت النشوى في بدني .استضافني الياس أفندي باشا في منزله لكنني أمضيت معظم النهار في مقر الحكومة أمام خيمة الباشا أشاركه الاستمتاع بالأنغام المنبعثة من آلات الفرقة العسكرية التي أدت على شرفي بعض المارشات الأوربية والرقصات. وفي المساء استمتعنا بسهرة رائعة مسرحها دار والد دكتور جورج وهو صيدلاني اعتزل المهنة ويعمل الآن في تجارة الريش. توسط الساحة فنار متعدد الألوان وقناديل مشعة وأبسطة ممدودة مما أضفى على المنزل لمسة ساحرة كليالى ألف ليلة وليلة، ومُدت أمامنا طاولة رائعة الترتيب التفننا حولها ووقف على خدمتنا نفر من ذوى السترات المذيلة وربطات العنق البيضاء.

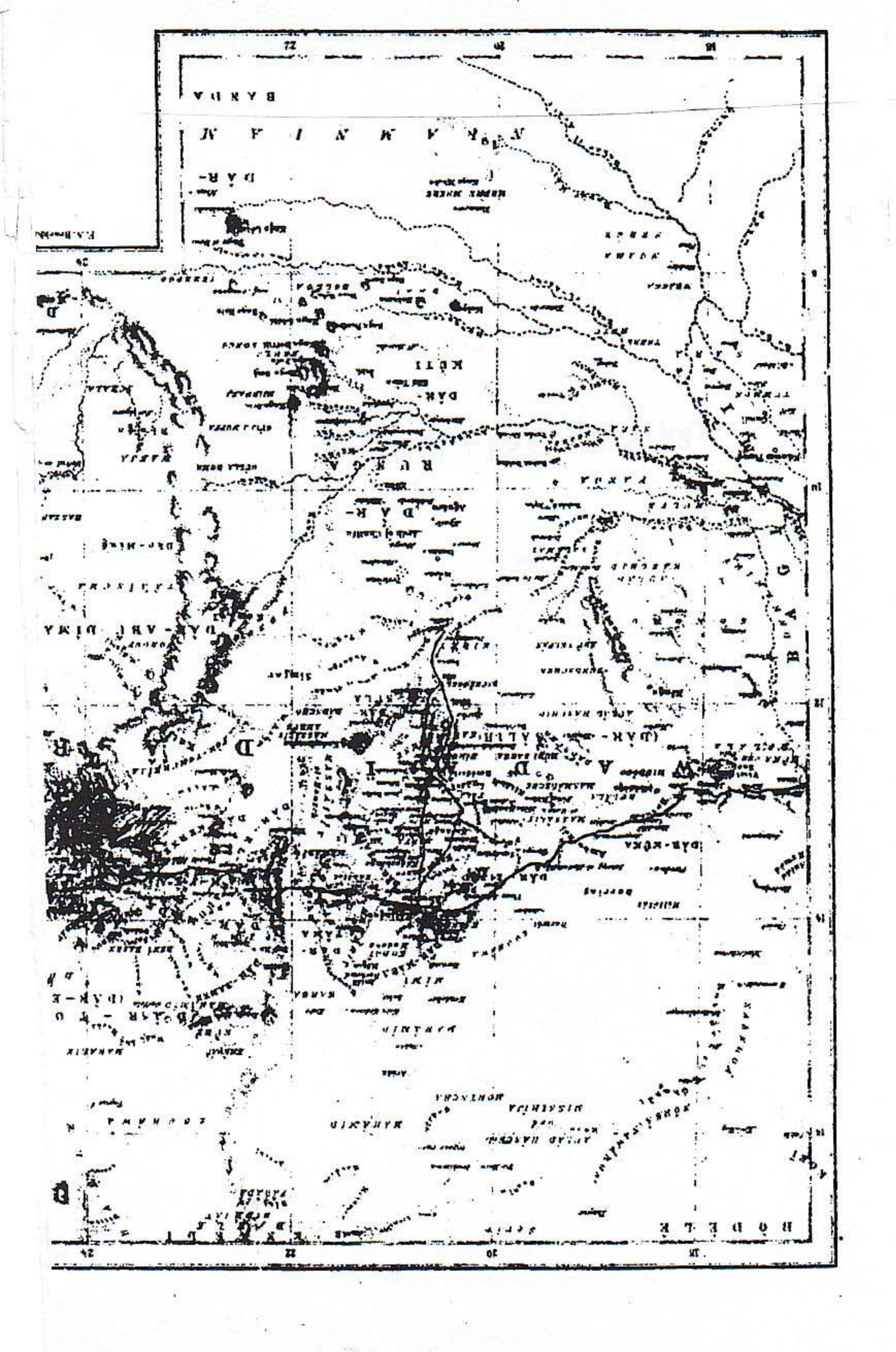
إن السحر الذي أحاط بالحفل فضلاً عن أغطية الطاولات الجميلة والملاعق والشوك والسكاكين -التي داخلني إحساسي بأنني لم أعد استطيع استخدامها- لم يكن منظراً ساحراً فحسب بل كان جوازاً لولوج أبواب العالم المتمدن.

بسقوط الأبيض في ايدى الانصار. وفي عهد الخليفة عبد الله التعايشى اتهم بالتآمر ضد حكومة المهدية فسجن وصودرت أمواله عام 1897م وظل حبيسا بسجن الساير إلى أن وافته المنية في عام 1898م. انظر أحمد إبراهيم أبو شوك - 1997م - ص 76



من أمير المؤمنين سيدنا ومولانا السلطان ابراهيم المعتصم بالله تعالى امين
الى حضرة الكرام شعور وكرديات واهل الطريق كافة المسلمين اجمع
وكافة على الطريق كردفال اما بعد فالذي نعرفكم به ونأكد عليكم
غاية التأكيد من قبل الخواجة ادرسي ابن رجل مسلم بحر قدره
عندنا في جهة الزرب ومعه شاه قادم كردفال احد منكم لا يتعرضه
في الطريق ان كان بالمشقة او بالجانة اجازة بيده الى طريقنا
عجب يسافر به ولا يتعرضه احد ولا يتعدى على المرمى والذي يتعرضه
منكم فقد عرض نفسه للعقوبة لانه رجل غريب احذروا منه
وتمكنه بيده يسافر ويه جميع نسبه هذا ما عرفناكم به والسلام

1 Permit issued by the Government of Sultan Ibrahim of Darfur



رقم الايداع : 153 / 2011 م

رقم الايداع : 153 / 2011 م